

A Y M A N A L O T O O M

أَيْمَنُ الْعَتُومِ

رواية

مَسْجِدِي



قبل أن تقرأ هذا المخطوط، أريدُ أن أقولَ شيئاً، أنا اسمي عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، تتلمذتُ لأساتيد كبار، وارتحلْتُ في بلادٍ كثيرة، وجُبتُ أفاقاً واسعة، وعاشتُ أحداثاً جساماً، هذا المخطوط الذي لم يُنسخْ لأنني لم أدفعه إلى أيِّ دارٍ من دار الوراقين، وبقي معي إلى آخر تطوافي الطويل ورجوعي إلى بغداد، سأعهد به إلى من بقي من أقاربي، أبي وأمي - عليهما شأبيب الرحمة - ماتا منذ زمنٍ طويل، ما أريدُ قوله أن من سيطَّل على هذا المخطوط بعد رحيلي عن هذه الفانية سيتوقف كثيراً عند بعض صفحاته، وسيعتريه الدهول ممَّا يقرأ، بعضُ المشاهد لا تُصدَّق، بعضها لا يقع حتَّى في الخيال، ولكنْ حسبي أنني نقلتُ بأمانةٍ كلَّ ما رأيته أو سمعته من ثقاتٍ، وستأتي كُتُبٌ تهتمُّ بالتاريخ تُصدِّق ما أقول وتُثني على ما ذكرت. كلَّ ما يهمني ألا تموتَ المخطوطة معي، وأن يأتي زمنٌ يقرأ فيه النَّاس ما عايشته بلادنا من أهوالٍ وفظائع، لم تكنْ لتتمَّ لولا أن الله أرادَ لها أن تتمَّ.

وبعد؛ فأنا اليوم محموم، مُعتلَّ الجسم، ضعيفُ القوَّة، خائر العزم، قد وهن العظمُ منِّي واشتعل الرأسُ شيباً، أصابني ما رأيتُ من محنٍ بما أُلْتُ إليه من علَّةٍ دائمة، تلازمني في صحوي ومنامي، وفي حلي وارتحالي؛ فلا أنا حيٌّ ولا أنا ميتٌ!

وأنتَ يا مَنْ سيقع هذا المخطوط بين يديه، ربَّما سأكونُ قد صرْتُ تحتَ الثرى وأنتَ تقرأ هذه الكلمات، كلَّ ما أرجوه ألا تنساني من دعوةٍ صالحة إذا مررتَ بهذه السطور.

عبد اللطيف بن يوسف البغدادي

على مشارفِ بغداد

عام ٦٢٩ من الهجرة. “

” القسم الأول

بغداد ... النشأة والحلم

فَدَى لِكَ يَا بَغْدَادُ كُلُّ قَبِيلَةٍ

مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى حُطَّتِي وَدِيَارِيَا

فَقَدْ طَفَنْتُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا

وَسَيَّرْتُ رَحْلِي بَيْنَهَا وَرَكَابِيَا

فَلَمْ أَرَ فِيهَا مِثْلَ بَغْدَادَ مَنْزِلًا

وَلَمْ أَرَ فِيهَا مِثْلَ دِجْلَةَ وَادِيَا

وَلَا مِثْلَ أَهْلِهَا أَرْقَ شَمَائِلًا

وَأَعَذَبَ الْفَاطِنًا وَأَحْلَى مَعَانِيَا

وَكَمْ قَائِلٍ لَوْ كَانَ وَدُنْكَ صَادِقًا

لِبَغْدَادَ، لَمْ تَرْحَلْ. فَكَانَ جَوَابِيَا:

يُقِيمُ الرِّجَالُ الْأَغْنِيَاءَ بِأَرْضِهِمْ

وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمُقْتَرِينَ الْمَرَامِيَا

” (١)

ما رأيت الدنيا

ضرب شعاع الشمس المُتسلّل من النَّافذة وجهي، رجلي باردة، طرف السرير بارد، والليّلة الرّبيعيّة الفائتة باردة، أشعر أنّ يدًا خشنّة تقرص أذني، أخرى تُمسكُ بعودٍ رفيع، وتضعه في أنفي... أفقتُ مدهوشًا، بحثتُ عن الدّفء. تمطّيتُ كقطّة، بأنّ وسطي التحيل، نظرتُ إلى الحائط، كان الضّحي قد حلّ. لطمتُ جبّهتي بكّفي، وصحت: «يا ولد... لقد تأخّرت... سيلعنك الشّيخ». نهضتُ كالمُدوغ، جريتُ إلى الحَمّام، غسلتُ وجهي، ورجلتُ شعري، ثمّ خرجتُ، فلبستُ الصّداريّة، والجبّة، أبي يُصرّ على ذلك مع أنّها أطول منّي، ووضعْتُ العِمّامة الصّغيرة على رأسي، وأصلحتُ هِنْدامي، ولبستُ نعلي المخصوفة، وركضتُ في درب الفالودج وأنا أجزّر النّعل الواسع: «يجب أن ألحق بالشّيخ قبل أن يُغادر المسجد». وصلتُ وأنا ألهت: «يا سيّدي...» وانحنيتُ وهممتُ أن أعتذر عندما رفع الشّيخ كَفّه: «لا تبدأ... لقد تأخّرت... اغرُب عن وجهي... لا أريد أن أراك بعد اليوم». كانتُ صفعه، صفعه حارّة. سُبّخبر أبي بلا شكّ، جثوتُ على رُكبتي، وتوسّلتُ، صرخ غاضبًا: «قلّت لك لا تبدأ... لا وقت لديّ للمُهملين...». ظلّلتُ جامدًا على رُكبتي كأنني صخرة، خافضًا رأسي، ومُسدلاً ذراعَي الرّفيعتين على جانبيّ، وصامتًا صمت القبور. مرّت لحظاتٌ بطيئة، رفع الشّيخ الثّمانيّ رأسه من جديد، وهتفت: «ما زلت هنا؟ ألم أقلّ لك...». وخضعتُ من جديد: «سيّدي...». وقاطعني: «أتيتُ من الرّيّ وتعلّمتُ في بغداد، وحجّبتُ عشرين مرّة، وطفنتُ البلاد وصنّفتُ الكتب، وأنا الآن قد جاوزتُ الثّمانيين، وبينني والقبر مسافةٌ درس أو صلاة، فما الذي يدفعني أن أحتمل صبيًا مثلك...؟». وبقيتُ صامتًا، وإنّ راحتُ رُكبتاي تهتزّان قليلاً، وجسدي يرتعشُ كذبابه. وتابع الشّيخ (أبو زرعة) مُهتاجًا: «لقد حضر مجلسي ابن الجوزي، وأحمد بن صالح الجيليّ، وأبو محمّد بن قدامة وكبار المُحدّثين، فما تأخّروا عن الدّرس لحظة، وما تغيّبوا عنه يومًا، أيّها الصّبي الأرعن... وأنت تأتيني بعد أن ترتفع الشّمس، أه... لولا أنّ أباك...». ورفعتُ رأسي قليلاً، ونظرتُ إليه من زاوية عيني: «نعم يا سيّدي بخُرمة أبي عندك...». وخبّط بباطن كَفّيه ظاهر فخدّيه، وتأوّه: «أه لولا أنّ أباك أوصاني بك، وهو خيرُ صديقٍ وخير تلميذ، وله عليّ أيادٍ، لعلّوتك بنعلي أيّها الولد...». «نعم ياسيّدي، هذا عنقي، اعله بالنعل... اصفغني بعصاك، الطمّني على وجهي، جُرّني بسلسلة المسجد في الشّارع... افعل أيّ شيءٍ إلّا أن تطردني... إنّي أعول على درسيك كثيرًا». أخذ الشّيخ (أبو زرعة) نَفْسًا طويلًا، وأطلق زفرةً حارّة، قبل أن تهدأ ثائرته قليلاً، ويسأل: «فلماذا تأخّرت يا بُني؟». «إنّه الشّيطان». «وماذا فعل بك الشّيطان؟». «لقد بال في أذنيّ». ضحك الشّيخ ضحكةً خفيفةً، ومدّ يده فقرصَ أذني: «بدأنا يا عبد اللّطيف...». «احذر يا سيّدي، إنّ بؤل الشّيطان ما زال في أذني... أخافت على يدك أن تتنجّس... وبسط الشّيخ هذه المرّة ضحكته، وأفلت أذني التي احمرّت، وقال: «لن أقبلك في درسي إنّ عدت لمثل هذا». ووقفتُ مُبتهجةً على قدّمي، تفتّر شفقتي عن أسنانٍ صفراءٍ صغيرةٍ مُدبّبة، وهتفتُ: «لن أتأخّر لحظة... أعدك يا شيخي».

إنّها بغداد، النّشأة والحلم، المدينة التي ظلّت ساحرةً رغم ما أصابها من نكباتٍ، والعروس التي ظلّت تفتح ذراعيها للعثاق رغم أنّهم لم يعودوا موجودين، والفكرة التي كانت تبحثُ عن الحقيقة، فكرةٌ نبتت في رأس مجنونٍ، يبحثُ عن مجدٍ هاربٍ، ذات انتصارٍ دمويّ، فأوقعها خطوطاً على الرّقوق، وقال لها كوني فكانتُ.

أه يا بغداد، كم عليّ أن ركض في حواريك وأزقتك القديمة من أجل أن أجدي، أبحثُ عنّي في الدّروب الضّائعات، في دجلة، في الرّصافة، في الجسر، في عيون المَها، في درب الورّاقين، في الليالي المُقمرة، وفي... مُتشابهان نحن، نبحتُ

عن أنفسنا فينا، عن تلك النجوم التي تساقطت يوم ولادتنا من أجل أن تبعث هذا الجوّ الأسطوريّ الذي يُحيط بنا معًا، أنا سليل هذه الفاتنة القبيحة، اللعوب الرشيّدة، المغناج التقيّة، والقديمة الجديدة، أنا نتاج أحرفها التي حطّت مجدًا سيظلّ خالدًا، يخبو؟ نعم. يُصيبه النسيان؟ نعم. يضرّف كأنّ لم يوجد؟ نعم، ولكنّه لا يموت، أنا لا أموت يا بغداد. أنا لا أموت، وإنّ نكر الناس فضلي، وإنّ ثقب الحسد والحقد أفدّتهم فحاضوا فيّ مع الخائضين، وطمسوا ما فعلت، لكنني أكتب لهما، لعينيك اللتين خبا نورهما لكنّه ما انطفأ، وأعيش من أجلهما، من أجل هذا المجد؛ هذه الكأس، التي يدعونها كأس الخلود!!

أمس رأيت الحايي، يُخرج الأفعى من الصندوق بالتغم، إته ماهرٌ لكنّه مُخادع. إته فتان ولكنّه كاذب. إته يُعجب الناس ولكنّه لا يُعجبني. إتهم حواة هذا الزمان يا بغداد، لا يُريدون لأيّ نجم أن يسطع، ولا لأيّ حقيقة أن تظهر، يتهمونني بكلّ شنيع، وما أزرث بهم إلا همّتي، وما كانوا إلا فارة مأرب، لما أراحوا الحجر عن قلوبهم انداح طوفان البغضاء ليهلكني، ولكنّه لم يهلك سواهم!

وإنّها بغداد، حاضرة الدّنيا فيما غيّر، وإنّني أحبّها على علاّتها، ولا أصبر على فراقها مع أنّ أهلها قالون لي، ولقد قال الشّافعيّ ليونس بن عبد الأعلى: «يا يونس، دخلت بغداد؟». فقال: «لا». فقال: «ما رأيت الدّنيا». ولقد صدق، ولكنّ هذا كان فيما مضى، أمّا اليوم فعانت فيها الفئران، وجاست خلالها الجرذان، وقلّ ماؤها، وما ماؤها إلا علماءها، وذاب في فجاج الأرض أحيانها، وعدت عليها أشرارها، وغاب في البؤس سعدّها، وغار في الحزن فرحها، وقبلت بشدّاذ الأرض بعد أن كانت مُتمنّعة، وباللصوص بعد أن كانت مُحصّنة، وبالزّناة الخطّاة بعد أن كانت عفيفة، وإنّها كما قال السائل الأوّل: «جميلة لا تردّ يد لأمس».

وإنّ بغداد كانت وقفًا فصارت حنقًا، وإنّني كنت لا أرى فيها رأي الفضيل بن عياض، وكنت أتطير به بقوله؛ فإنّ بغداد حبيبة، والحبيبة تملك على المحبّ العقل والقول، ولكنني مع مرور الأيام وتمادي البين وانقطاع الوصل وانبتات العشق رأيت الفضيل مُجعًا حين حتّ على الخروج منها، وكره الإقامة بها، وأبطل الصلاة فيها، وجعل مؤدّنها أخبث أهلها، لأنّها أرض غصّب! ولقد قال سفيان الثوري من قبل: «المُتعبّد في بغداد كالمُتعبّد في الكنيف». ولكنّها رغم ما قالوه أو سيقولونه، ستظلّ حبيبة، وإنّني وإياها كما قال الشّافعيّ: «ما دخلت بلدًا قطّ إلا عدّته سقرًا، إلا بغداد فإنّني حين دخلتها عددتها وطناً». وكما قال صاحبُ بُنيّة:

وما زادها الواشون إلا كرامةً

عليّ، وما زالت محبّتها عندي

وإنّها مع محبّتي لها، ليصدق فيها قول القائل: «إنّها أسرغ انقلابًا بأهلها من الوتد الحديد في الأرض الرّخوة». ولقد رأيت في منامي وأنا صبيّ أتعثّر في الطّرقات ملكين، هبطا من السماء حتّى صارا فوق بغداد، فقال الأوّل للثاني: «أقلّبها فقد حقّ القول عليها». فسمعتُ الثاني يقول: «كيف أقلّبها وفيها خُتمت الليلة خمسة آلاف خُتمة؟».

ثم إنّه ما نال منّي هُراء المُتعالِمين إلا كما نال نُباح الكلب من المُرتجل، وما ضَرّني أن تُكرني النَّاس في زمني هذا، فإنّ لي أزماناً أتية يذكرونني ولا يُنكرونني، ويعرفون فضلي ولا يجحدونه، ولقد قلت: «إنّ العلوم تُغور ثم تغور، تغور في زمانٍ وتغور في زمان، بمنزلة الثّبات أو عيون المِياه، ينتقل من قومٍ إلى قومٍ، ومن موضعٍ إلى موضعٍ». «

” (٢)

دربُ الفالودج

«كم معك من القرآن يا ولد؟». سألني الشيخ أبو زرعة وقد سقط حاجباه الأبيضان على عينيّ، وراح ينظر إليّ من تحتها، رافعاً ذقنه إلى الأعلى، يكاد لا يرى. «القرآن كلّهُ» أجبتُه. شهق الشيخ. وهتف: «صلّى الله على مُحَمَّد... يا مُحَمَّاد!». ومطّ الكلمة الأخيرة غير مُصدّق، وأعاد بنبرةٍ ترتعش بالدهشة: «القرآن كلّهُ!!». «نعم، يا سيّدي، حفظتُ نصفه على يد جدّي، وابتدأتُ ذلك وأنا في السادسة، فلما توفاه الله، حفظتُ النّصف الثّاني على يد أبي». هزّ الشيخ رأسه من جديدٍ، وهتف: «وكم مضى من عُمرِكَ؟». «ثمانٍ». «وهل معك غيرُ القرآن؟». «أحبُّ الحلوى»، أجبتُه. ضيقَ عينيّ، وبدا أنّه لا يرى مع كثافة حاجبيّهِ: «وما شأنُ الحلوى؟». «إنّها كانتُ مكافأةً أبي على إتقاني الخَطِّ». «وهل تفعل؟». «بالطّبع يا سيّدي». وضع رُقعةً خاليةً على المسند الخشبيّ الذي يضع عليه كُتب الحديث، ويتكى عليه أحياناً، ويأخذ فوقه غفوةً قصيرةً أحياناً أخرى، وله فيه مآربٌ أخرى، وغمسَ الرّيشة التي عن جنبه بالدّواة، ومدّ الرّقعة مع المسند الخشبيّ إليّ، وأشار بإصبعه: «اكتب... اكتب...». «ماذا أكتب؟». «ما شئتُ ممّا تحفظ». «من القرآن أم من غيره؟». «وتحفظ غير القرآن؟». «أحفظُ مقامات الهمداني عن ظهر قلب، ومُختصراً في النّحو، ومُختصراً في الفقه، وأحفظُ الكُرّاس الأوّل من ديوان المُنتبّي». شهق الشيخ من جديدٍ، اهتزّ طرفاً هذه المرّة، مال جنباه يمنةً ويسرةً من ذلك، وكادت دواة الحبر تسقط في اهتزازهِ وتنسكب مُلوثةً الأرض لولا أنّه تدارك الموقف، وقال: «الخيار لك». كتبتُ له بخطّ الثّلاث، قولَ المُنتبّي:

أريدُ من زمني ذا أن يُبلّغني

ما ليسَ يبلغُه من نفسه الزّمنُ

ومددتُ الرّقعة له، قرأ البيت، وصاح من الإعجاب: «بديع، ولكن هل هذا البيت في الكُرّاس الأوّل من ديوان المُنتبّي؟». «لا، ولكنني أحفظه». «وما الذي أعجبك فيه حتّى تحفظه قبل غيره؟». «إنّه أنا». ضيقَ الشيخ من جديدٍ عينيّ، ورفع رأسه قليلاً، فبانّت لحيته من زاوية النّظر هذه كاملةً، وراح يعبثُ بها بأطراف أصابعه: «اممم... غفرتُ لك». سألتُه: «وهل أخطأتُ يا سيّدي؟». «أنسيت؟». أجبتُه حائثاً إيّاه على أن يُذكرني: «ولقد عهدنا إلى آدمٍ من قبل فنسي». ضحك، وقال: «تأخّرِكَ عن الدّرس المرّة الفائتة». «وأنت يا شيخ أما نسيت؟». ضحك. وقال: «نبدأ اليوم؟». «نعم». «لن نبدأ بعلم الحديث، بل بالحديث». «أنت أستاذي وسيّدي». «العلوم تأتي بعدَ الحفظ». «أنا طوع يدَيْك».

ولدت في هذه الدار عام ٥٥٧ للهجرة، دارٌ مُنيفةٌ، دار جدّي، في درب الفالودج في بغداد، دربٌ أشبه بالدنيا، والدنيا ليست لوئاً واجداً، إنها من أصنافِ شتّى، وفيه درجتُ، وركضتُ، وصحّتُ، وناديتُ على أمي أن تنتظرني وهي تسبقني إلى دكاكين الخياطين والبرّازين والصّفارين.

بيئنا بيت علم. لن أقول: إنني تعلّمتُ كلّ هذا وحدي، ولن أقول إن أبي كان سقّاءً وكنتُ أنا فقيراً، ولن أقول إنني يتيم وإن أمي كانت تملأ البيت صياحاً في الصّباح والمساء وهي تتشاجر مع جدتي، ولن أقول إنني كنتُ أصيدُ السمك من نهر دجلة من أجل أن أطعم أمي وأقيها شطّفت العيش، ولن أقول إنني كنتُ أبيتُ في دار الوّراقين من أجل أن أقرأ كلّ ما كتبه الكُتّاب، وما خطّه النّساخون في العلوم كلّها لأنني لم أكن أملكُ ثمنَ كتابٍ واحد... لن أقول شيئاً من هذا، بل سأقول إن جدّي كان عالماً بالتاريخ، وإن أبي كان عالماً بالحديث، وإن أمي كانت حنونةً تُحبّ العلم، وإنني سرقتُ منهم قلوبهم، فخصّوني بالعناية والتّعليم، وجئتُ لهم على قدر!

وبغداد؟ حاضرةُ الدّنيا، فيها كلّ شيء، وفيها من كلّ شيء شيءٌ، ليس يفوقها في الحواضر شيء، وحكاياتها لا تنفد، وقصصها لا تنتهي، وأيامها لا تُعدّ، وحواريها لا تُنسى، وأسواقها تتفرّد، وباعتها أظرفُ الباعة، ولصوصها كُثر، وشطّارها غلبوا الخليفة على أمره، وماؤها أهدبُ ماء، فهو من كوثر دجلة، ودجلة من الجنّة، والجنّة جنّات، وأنا؟ عاشقٌ مُتيم.

كان درسي مع الشّيخ (أبي زرعة) في الحديث ثلاثة أيام في الأسبوع، بدأ بالبُخاري، فكان يشرح لي الباب، وأنا أحفظُ ما شرح، المتن والسند، وكانت أيام الأسبوع الثلاثة الأخرى لإتمام هذه المهمّة، وكان الشّيخ يُدرّس في المدرسة النّظاميّة، وهي يومئذٍ تعجّ بالعلماء والأساتيد وأهل الرّأي، وفيهم الجهابذة الذين طلب علمهم أهل الحواضر الأخرى في القاهرة أو حلب أو دمشق أو تونس. وكان يُحرّكهم كما يُحرّك كلّ إنسان المال، المال الذي يرتق جيوبهم المثقوبة، ويكفل لهم حياة طيبة، ولم يُزر ذلك بالدين ولا بالتقوى، فإنّ العلماء بشر، ولهم معدّ تجوع، وأبدانٌ تمرض، وهم محتاجون لدرئهما إلى المال.

كان بيئنا في درب الفالودج بعيداً عن المدرسة النّظاميّة، وكان عليّ أن أعبر المسافة الطويلة في الفجر لكي ألحق بالدرّس، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة، إذ ينتشر اللصوص في هذا الوقت، وأنا صبيٌّ صغير، فكنتُ لأتغلب على ذلك أصلي الفجر في المسجد الذي بجوار بيتنا، وأقرأ على شبخه نصيب اليوم ممّا أحفظ، وعليّ إذا انبجح الفجر أن ألحق بالشّيخ في المدرسة، فأركض، ولا أصلُ إليه إلاّ لاهئاً، فقال لأبي: «إنّه يأتيني وأنفاسه تتقطع، فهلاًّ قرّبت مزارك من مزارنا؟». ولم يكن أبي ليترك دار جدّي، ولم أكن أنا لأترك درب الفالودج الذي عاش فيّ، فافترخ أبي عليه أن يأتيه في مسجد التّوابين الذي يقع في منتصف المسافة بيننا وبينه، على أن يُجري له زيادةً في المال على احتمال المشقة في ركوب الذّابة من بيت الشّيخ إلى هذا المسجد، وسير أبي معه كذلك حمّاراً يأتي به من بيته ويُعيده إليه، ولولا الفضل الذي بينهما والودّ لما قبل، ولكنّه قال لأبي: «إنّ ابنتك هذا نابغة، وإنّ تعليمه واجبٌ، وأنا أقبلُ لصحبتك لك». وظلّ الشّيخ معي عامّاً وشهرين يُقرئني البُخاري حتّى حفظته، ولمّا بدأنا بعلوم الحديث كان قد مات، فبكيناه أنا وأبي، وصلى عليه خلقٌ كثير، ودُفِن في المقبرة الوردية.

ظلتُ ذكرى الشّيخ في ذهن الطّفل الذي كنته مرتبطةً بباب الفتن الذي قرأته عليه في البُخاري، وكان أكثر حديثين يطرقان بالي، هما: قوله عليه الصّلاة والسّلام: «ستكونُ فتنٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي، من تشرف لها تشترّفه، فمن وجد فيها ملجأ، أو معاداً، فليعدّ به». وقوله: «لا تقوم الساعة حتّى يمرّ الرّجلُ بقبر الرّجل فيقول: يا ليتني مكانه». بل إنني كنتُ أرددهما في اليوم أكثر من مرّة وأنا أقرأ أو

أحفظ أو أتابع الدروس، أو أمشي في الطرقات، وكانا يبرزان لي من زاوية كل كتاب، وزاوية كل درب. في الجمعة التي تلت موته، كنتُ عند شيخٍ آخر أتلقى علوم الحديث.

مات أبو زرعة، ولقد كان علماً من أعلام بغداد، جاورها - ولم يقبل على جوارها غيرها - مدة أربعة وثمانين عاماً حتى رحل، وكنْتُ أنا أصغر تلامذته، وكان هو أكبر شيوخِي، وما حفظته عنه ظلَّ معي إلى أن رحلتُ أنا كذلك. “

” (٣)

وجهاً بغداد

أخذتني أمي معها إلى سوق الصقارين، محلات كثيرة، تتدلى من أمام واجهاتها أواني النحاس الصقراء، كانت تلمع على ضوء أشعة الشمس، بريقتها ربما كان يجذب النساء من جهتين: يُشبه الذهب؛ والذهب يُقيم في قلوب النساء. ثم فيه كل ما تحتاجه المرأة من أوانٍ نحاسية لمطبخها، ولقد رأيتُ القيم في المدرسة النظامية فيما بعدُ يبعثُ من يأتي بأكواز الماء ليشتريها من هناك.

خرجنا من درب الفالودج حيثُ نسكن، ودرُبنا واسع قليلاً، ويمتد في العمق، وعلى جانبيه البيوت التي تختفي خلف كثيرٍ من الدكاكين، كان هناك دُكان يبيع الجرار والفُلل، وأقدم جرّة في بيتنا اشتراها جدي منه، لو نزلتُ في مائها لغرقت، وكانت الجرار والفُلل تجعل الماء في الصيف بارداً. وكان هناك دُكان العتابية وهو دُكان ثياب، تُباع فيه الثياب العتابية؛ وهي مصنوعة من حرير وفُطن، وذات ألوانٍ متعدّدة زاهية، وكان أكثر زبائنه من النساء، ومنه كانت تُجهز العروس. وكان هناك غيرُ دُكان للحبوب، ومثلها للأعشاب، والتوابل وكانَتْ رخيصة الرطل بدينار، وكانَتْ تأتي من الهند، وكان كلُّ دُكانٍ له سقيفة من الأعلى تُشبه الشرفة لكن من دون أن يكون فيها مكان للجلوس، وكانَتْ السقيفة أو المظلة هذه ترتكز على سقالات من الخشب، بارزة للناظر إليها، وكانَتْ تتدلى من تلك السقالات مشابكٌ يعرض فيها صاحب الدُكان بعض بضاعته لتكون مرئية للشارين. وكان هناك أيضاً باعة العزبات المجرورة، يبيعون على عرباتهم الرُمان أو البطيخ أو الأشنان. أما أشهر تلك الدكاكين وعليه سُمي درُبنا، فكان دُكان أبي سليمان الحلواني الذي كان يبيع فيه حلوى الفالودج، واشتهر بها، وكان الناس يأتونه من أماكن شتى، وكان عنده صبيةٌ يُساعدونه لكثرة مُرتاديه، وكثيراً ما أكلتُ حلواه، وكان أبو سليمان كلماً اشتريته من عنده واحدة يقول: «حلواي تُظهر الكرش، وتزيد السمّن، إلا معك، كلماً أكلت منها زادُ تحولك، وتقصفتُ ساقاك كأنهما ساقا سعدان». ويضحك مع أن دُعابته لم تكن تُعجبني.

والفالودج، كما وصفها سفيان الثوري: «ألبابُ البرِّ بلُغابِ النُحلِ بِخالِصِ السَمْنِ». وكنْتُ أجلسُ عند الحلواني، أكلها أمام دُكانه، فيُحدّثني أحاديثها، فيقول: جلس الغاضري يأكل الفالودج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأموي فجعل الغاضري يأكل ويُسرع، فقال يزيد: ارفق بنفسك فإن الإكثار منه يقتل. فقال الغاضري: منزلي على طريق المقابر». ويُطلق أبو سليمان ضحكة لها دوي، وأضحك معه، ورَبِدُ الحلواء يسيل من زوايا فمي، فلقد كنتُ ألتهم لُقماً كبيرةً منها في فم ذي بابٍ صغير وأسنانٍ مُدببة. ثم يقص عليّ خبراً آخر، فيقول: «دخل أعرابيُّ على عبد الملك بن مروان وهو يأكل الفالودج. فقال عبد الملك: يا بن عم ادنُ فكلُ من هذا الفالودج فإنه يزيد في الدماغ. قال: إن كان كما يقول أمير المؤمنين فينبغي أن يكون رأسه مثل رأس البغل». وقد زعم ابنُ السّمّاك أنها سيّدة الحلواء، وزعم آخرون أنها حلوى الأغنياء، وكُنّا نأكلها ولم نكن منهم.

اشترتُ أمِّي من سوق الصَّفارين طسناً وأكواباً وملاعق، وكانت تُجادل الباعة وهي تُغطِّي رأسها ووجهها بخمار، وكنْتُ أستمع بمجادلتها، وُعُدا، فناشدْتُها الله والرَّجْم أنْ تشتري لي حلوى الفالودج من دُكَّان أبي سليمان، فنهَرْتُني: «لن تأكلها كلَّ يومٍ». فأشْرْتُ إلى جسدي التَّحِيل الَّذي لو هبَّتْ رِيحٌ خفيفةٌ لأطارتُه من فوق الأرض، وقلْتُ: «أريدُ أنْ أسمنَ قليلاً». فتزفر: «مُخادع». وأكلت الحلوى، واستمعتُ

إلى قصَّة جديدةٍ من أبي سليمان عنها وأنا أكلها، وكنْتُ أستمع بذلك، ولم أعدْ بعد حينٍ من الدَّهر أدري بِمِ أستمع؛ بها أم بالطرائف التي تدور حولها!؟

ولمَّا صرنا على عتبة البيت سبقْتُني أمِّي إلى الدَّاخل، وكنْتُ تبدو مُغضَّبة، ونادتُني إلى المطبخ، كانْتُ تضع الأواني التي اشترتها في صُنْدوق، وقالتُ وهي تَسْتعبر: «تتفعلك إذا انتقلت إلى دارٍ أخرى». واستغربتُ من قولها هذا، وهتفتُ في سِرِّي دون أنْ أسأَلها: «أي دارٍ أخرى هذه التي سأنتقل إليها!!».

ولبغداد وجهان، كلُّما غدوتُ إلى الدَّرس أو عبرتُ الطرقات رأيتُهما، وجهان كما لو استعارا من الشَّرق والغرب، وأخذوا من ضِقتي النَّهر، إنَّ بغداد سوقٌ ومسجد، وماءٌ وملح، وداءٌ ودواء، ومِحنةٌ ومِنحة، قتلَتْ عُلماءَ ورفعَتْ آخرين، وفتحتُ صدرها للزَّهاد والنُّسَّاك تماماً كما فتحتُه للصَّوص والعيَّارين، ولعلَّ كلَّ محلَّةٍ كُبرى في بلاد الله كذلك، ولكنَّها غلبتُ بالحديث كلَّ أرضٍ، وبالفتنة كلَّ صِقع.

مسغبة _ أيمن العتوم:

ووجهها وجهها المليحة، مستورا ومكشوقا، فهي جميلةٌ في الحالين، فإذا أسدلتُه رأيتُه، وإذا رفعته رأيتُه، والجَمال طريقان، أحدهما إلى الله والثَّاني إلى الشَّيطان، تلك هي بغداد، إنَّها تتأبى على الوصف، كيف يُمكن لي وأنا ابن الحادية عشرة أنْ أُعبر لكم عن حُبِّي لها، إنَّ هذا الشَّيء ممَّا يعتمل في الوجدان دون أنْ يُقال أو يُفسَّر، هل أحسَّ أحدكم أنَّ غمامةً حملته في أنداها وهو نائمٌ وسافرتُ به فوق بِقاع الأرض فرأى كلَّ شيء؛ تلك هي بغداد، وذلك هو عِشقها!

ولقد دعاني (ابن البغوي) الَّذي كان يدرسُ معي درس الفقه إلى دارهم، فدخلتها، فإذا هي أقربُ للقصر، بناها لهم جدُّه الَّذي كان في الجيش، رأيتُ منها عجباً، كانت الدار عالية الأبهاء، فسيحة الأفنية، تقوم سقوفها على أقواسٍ عظيمة، ترتكز على أعمدةٍ رُخامية، بتيجانٍ مُذهَّبة، نوافذها عالية، تضربُ الشَّمْسُ ستائرَها الديباجية، وتُلقي بالظلال على الأرائك والنَّمارق، يجلسُ إلى بعضها القيان، فتحسبُ أنَّها الجَنَّة.

وكان صديقي قد دعاني إلى الغداء معه، فمَدَّت المائدة، وحمل الطَّعام إليها خدْمٌ كثيرون، كلُّهم يلبسون سراويل بيضاءً واسعةً، ويتمنطقون بمنطقة زرقاء على أوساطهم، وكانوا شباباً سوِّداً، ليس فيهم أبيض أو أصفر، يحمل كلُّ واحدٍ منهم الطَّعام بكتا يديه، صحَّفاتٍ صحَّفات، وكانت الصَّحون تحوي كلَّ ما لذَّ وطاب، كانت هناك اللحوم المشوية، البَطِّ والإوزَّ والدجاج والشياه، وكانت المُحمَّر والمُقمَّر والمُدور والمُفلطح والمستطيل والمستدير، وما لا يُحصَى... فشهِقْتُ، وسألته: «هل ستدعون أهل بغداد إلى هذه الوليمة؟». فردَّ: «بل هو لنا». فسألته: «فمن يأكل هذه الأطنان من الطَّعام؟!». وما عتم سؤالي أنْ أجابني عنه الوفودُ الأخرى من الخدم الَّذين بسطوا مائدةً أخرى وعليها البَطِّخ والعنب والرُّمان والأشربة من كلِّ لون... فسألته عن الفالودج، فقال: «نأتيك بأشهاه، فاصبر صبراً جميلاً». فقلت: «ما لي عنه صبر»، فردَّ ضاحكاً: «اعتبره يوسف في الحُسن وأنت يعقوبه». فرددتُ: «أنا لا أريدُ أنْ أفقد بصري خُزناً عليه». وأكلتُ حتَّى لم يعد في المعدة موضع، واستنقَلْتُ، فقال لي: «ما أكلتُ شيئاً!». فرأيتُ الطَّيور تحوم في فضاء الأبهاء العالية، تحطُّ من علِّ

وتقترب من الطعام تنقر من العنب، أو تشرب نغبةً من هنا أو هناك، ورأيتُ قِططاً تدخل، فتموء، وتنهش من الطعام المشوي. ثم دخلت الكلاب، فتعجبتُ، ثم رأيتُ الكلاب تقفز على المائدة وتأكل وما أحدٌ يمنعها، ثم رأيتُ كلاباً أخرى أضخم من الأولى سوداء مُرعبة، تُزمرج، وقد هجمت على أهل القصر، وبدأت بالخدم القريبين مني، فنفضت رأسي وأنا مذهول، واقترب مني (ابن البغوي)، وقدم لي صحن الفالودج: «كُلْ». فقلت: «لقد أكلت». فقال: «أنت طلبت المزيد». فتعجبتُ، ودارت بي الأرضُ دورةً خفيفةً، فرأيتُ الناس مقلوبين، والمائدة قد مادت وتناثر ما عليها من طعامٍ وشراب، فتمايلت وكدتُ أسقط على رأسي لولا أنني استندتُ إلى أحد الأعمدة، وبان لي وجه صديقي ممغوطاً ممغوطاً ليس فيه شعرة، فضربتُ رأسي في العمود، فعاد إليّ بعضُ الرشد، وسألته: «ماذا وضعت في الطعام يا مجنون؟». فضحك، وقال كلاماً لم أسمع منه إلا كما يسمع الغريق من هدير البحر، وفتحتُ عيوني لكي أعرف طريقَ الخروج، فلما استبان لي سلكته هارباً لا أوي على شيء، واستعدتُ بالله من الشيطان الرجيم.

وقصدتُ المسجد من جهة باب الظفرية، حيث سيكون درسي بعد العصر، وفي الطريق عرّض لي أناسٌ يتجمعون في ساحة إلى سورٍ قديم، وقد صنعوا مثل الحلقة، فمددتُ عنقي في الفراغات بين جذوع الواقفين لأعرف ما يحدث، فرأيتُ ناساً يرقصون القردة والسعادين، وقد لبسوا الخرق الملوّنة، ويحاكون الببغاءات، ويُعلمون البلايل الألعان، ويُهملجون الخيل، ويحصلون من هذا الهراء على نقودٍ، فعرفتُ أنهم أهل اللهو، فسالتُ عنقي، ورجعتُ إلى الوراء ومضيت.

فلما وصلتُ إلى مسجد الظفرية ودخلتُ ساحته وأنا لا أكادُ أصدق ما حدث معي، رأيتُ في فناء المسجد أكثر من مئة طالبٍ، قد انتظم كلٌ خمسةٍ أو ستةٍ في حلقةٍ، وهم يتذاكرون، فهذه تتذاكر أشعار المتنبي، وتلك فقه أبي حنيفة، وتلك القرآن، والزابعة أحاديث البخاري، فاستراحت إليهم النفس، وكانوا يَفَعَة، وأكثرهم في سني، قد لبسوا ثياباً خفيفة، يحركها التسيب إذا هفا لنحول أجسامهم، وراحتُ جذوعهم تهتّز على إبقاع محفوظاتهم طروبةً، فعرفتُ أنني أنتمي إلى هؤلاء، وقد رأيتُ على رأس كل حلقةٍ شيخاً، يُمسك بين يديه كُرّاساً، يُتابع فيه استظهار التلاميذ لما يحفظون، وكان بعضُ الأساتذة قد طوى الكُرّاس، ووضعه تحت إبطه، وراح يختبر مع طلبته محفوظه هو الآخر، فدسستُ نفسي في حلقتي، وكنتُ قد بدأتُ أحفظ الكُرّاس الثاني من ديوان المتنبي، ولكنني لم أجد من يُقرئني الديوان مثل (ابن جني)، فرحتُ أدعو الله أن

يرزقني بمن يعرفُ أسرار المتنبي كما كان يعرفها. “

” (٤)

الوجيه الواسطي

فلما مرّ عامٌ، على وفاة (أبي زرعة)، كنتُ قد أتممتُ علم الحديث، فانتقلتُ إلى أبي البركات الأنباري، وما كان يقبل أحداً في سني ولو كان ابن الخليفة، ولكن أبي أطل الله في عمره، كانت صحبته بالعلماء تشفع لي، ثم إنَّ يده كانت ميسوطة، يُجري عليهم المال دون أن يطلبوا، وكان أبو البركات هذا ربيب أبي عندما كانا طالبين في المدرسة النظامية قبل بضعة عقود، وصرتُ في حلقة هذا العالم النحوي، فلما ابتدأ مجلسه ابتدأ بمسائل الخلاف بين النحويين والبصريين، فهدي بكلام لم أفهم منه شيئاً، وهدر بقول لم أتبين منه حرفاً، وهدر بجمل دخل أولها في آخرها، وعرض مسائل لم أفقه منها واحدة، وكان تلامذته يُصغون إليه كأنَّ على رؤوسهم الطير، ويتعجبون من فقه في فقه، وأنا غارق في الغموض مثل الرّاقص على الماء، فلما رأى إنكاري ما يقوله، سألني: «أعد لي مسألة الخلاف بين البصريين والكوفيين في الاسم». فقلت: «وما أدراني؟». فغضب، وهتف: «فما حملك على أن تحضر مجلسي؟». فأجبتُه: «أبي». فردّ: «أنا أكبر من تعليم الصبيان». وزفر وهو مُحقّق، ثم أردف: «أتريدون مني أن أكون مثل مؤدّب الصبيان في رسائل الجاحظ؟!». فسألته: «وماذا كان يفعل؟». فهم بصفي، ونظر لعل أحداً يفعل ذلك عنه، أو يحملني خارج الحلقة، ولم أكن أدري أن ذلك يُسخره، فهمستُ: «اغفر لي يا سيدي. أنا أعرف ما قال الجاحظ، إنَّ رسالته تلك، هي أول ما استهواني من الكتب».

وسكت، قبل أن أكمل: «أعانك الله على سؤرة الغضب، وعصمك من سرّ الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حُبّ الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة». فاحمرّ وجهه، وصرخ: «أتقصدي بهذا الكلام؟». فرددت: «كلا يا سيدي، إنّما أستظهر لك الرسالة كلّها، وهذا أوّل ما جاء فيها، وأنا أعرف - كما قال - أنّ المعلمين أشقى بالصبيان من رعاة الضأن ورؤوس المهارة. فإنّ شئت عدلت إلى قوله: مِمّا أعان الله تعالى به الصبيان، أنّ قرّب طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين... وأنا يا سيدي صبيّ كما ترى». وتطلّع الشيخ حوله، وقد شعر أنّ ورطته مع هذا الصبيّ لا خلاصَ منها، وانتظر أن يُنقذه أحد تلامذته الكبار، ولكنهم ظلّوا جامدين كالجلاد، فقال وهو ينثر يده في وجهي: «لن ينفك أنّ تكون معنا، دونك أحد تلامذتي الوجيه الواسطيّ، فليكنّ شيخك، فإذا وصلت إلى مراتبنا في النحو ضممنّاك إلى حلقتنا». وقمت من وسطهم مطرودًا، لا أدري إن كنتُ أستحقّ، لكنني اعتذرت له: «بحقّ الله، ثمّ بحقّ أبي، لم أكن أقصد أنّ أغضبك».

لم يعاتبني أبي على ما فعلت، إنّهُ يفهم ما يعتمل في داخلي، لكنّه أخذني من فجر اليوم التّالي إلى الوجيه الواسطيّ، وقال: «إنّه يحتمل كلّ الصّغار، ولن تجدَ عنده إلاّ كلّ خير». «إنّني أحبّ العلم يا أبي مثلما أحبّ الفالودج وأكثر». ضحك. دخلنا إلى باحة دارٍ يبدو عليها الثّراء، لكنّها موحّشة، كان في الباحة أربعة صبيان أو خمسة، وكان بعضهم يرمي في التّبوك، وبعضهم ينفخ في السّبانة، ولم يكن إلى الشيخ إلاّ صبيّ واحدٌ يقرأ بين يديه، فهألني هذا اللّهُو بين يدي الأستاذ، وسمع الشيخ الوجيه وفتح أقدامنا، فقال وهو يمدّ عنقه: «من؟». نظر إليّ أبي، ثمّ مال وهمس في أذني: «إنّه أعمى». هتفتُ: «معلم صبيان، وأعمى، والأولاد بين يديه يلعبون؟». فردّ: «اصمت، إنّهُ خيرٌ من أخذ اللّحو عن أبي البركات، ولو شهد الخليل بن أحمد أو سيبويه لشهدا له». صمت. فيما سأل الشيخ الوجيه هذه المرّة بصوتٍ أعلى: «من هُناك؟». فردّ أبي، ونحن نفترّب منه: «أنا يوسف وهذا ابني». «يوسف من؟». «يوسف بن محمّد بن عليّ». فرأيتُ الشيخ وقف فجأةً على قدميه، وفتح ذراعيه، وهشّ وبشّ، وهتفتُ: «أهلاً بشيخنا، ما حمّلك على أنّ تُتعب نفسك؟ لو دعوتنا لأتيناك». وأخذ أبي بالأحضان، فيما كان هناك سهّمٌ صغيرٌ من الخشب يستقرّ في الحائط الطّينيّ فوقهما. ولما أَرّ السّهْم مروفاً من فوق رأس الشيخ، خفضه، وهتفتُ: «يا أولاد... كفى... اذهبوا إلى أهلکم... يكفي اليوم ما أخذناه...». ردّ أحدهم: «لم نأخذ شيئاً يا شيخ». فردّ كأنّما يستميلهم: «عودوا غداً، وستجدون السّبانة والتّبوك، والدّبوق أيضاً بانتظاركم»، تقاطر بعضهم خارجاً من فناء الدّار، فيما راح بعضهم الآخر ينظر إلينا مُستطلعاً. وجلسَ أبي إلى جوار الشيخ على مصطبةٍ حجريةٍ، مفروشةٍ بوبر النّعام، ترتفع أقلّ من ذراعٍ عن الأرض يجلسُ عليها الشيخ إذا ابتدأ التّدريس، وجلستُ إلى جانبهما، وقال أبي: «هذا ولدي عبد اللّطيف، إنّهُ لطيف، وهو يُحبّ العلم وأهلّه، وقد بعث به...». قاطعه الوجيه قائلاً: «بعث به شيخنا أبو البركات الأنباري، أليس كذلك؟». «بلى، ولكن كيف عرفت؟». «إنّه دأب على ذلك حين يعجز مع أحدهم».

وسأل أبي مُتَشكِّكاً: «فهل ستقبله؟». «بالطّبع، ما دمت أنتَ معه، فهل أستطيع أن أرفض؟». «إذا كان ثقيلاً عليك ذلك، عدلنا عن طيّتنا». «لا يا شيخ، لكنّ كثرة الصّبيان الذين يلعبون هنا تمنعهم عن العلم، أو تُبطيّ ذلك، فإذا كان مثلهم سيلهو، فلن يتعلّم كثيراً، وإذا سمع منّي، تعلّم ما أرادَ وزيادة، الأمر منوطٌ به». ونظرَ أبي إليّ، فقلت: «أنا أريدُ أن أتعلّم».

كان الشيخ عزباً، أو ماتت امرأته، لا أدري، ولكنّه لم يكن أحدٌ في البيت معه، وكان البيت مُظلمًا إذا دخلته، لأنّه لا نوافذ له، ولا تدخل الشمس إلاّ من بابهِ وقت الشّروق، فإذا تحطّت الشمسُ وسط القُبّة من السّماء حلّ الظلام في البيت مُبكرًا، مع أنّه ما زال بينها وبين الغروب مسافةً، وقال لي أبي: «البيت الذي لا امرأة فيه موحّش، مُظلم؛ ألا ترى إلى بيت الشيخ الوجيه؟».

وكنتُ أصليّ الفجر في مسجدنا كلّ يومٍ فإذا بزغ قرصُ الشمس، عدوتُ إلى بيت الشيخ الواسطيّ، وكنتُ أصلُ في كلّ مرّةٍ لاهتًا، فلا أجدُ أحدًا من الصّبيان الآخرين، وكانوا يأتون قبيل الظّهر، فكان حظّي في التّعلّم من طلوع الشمس إلى الظّهر عظيمًا، ودأبتُ على أن أنقف الحصى بين يديه قبل أن أدخل الباب لأعلمه بمجيئي، فكان يقول من خلف الباب: «يا

عبد اللطيف ادخل ولا تنتفح الحصى» فأدخل وبدي مزيد من الحصى فأنفقت به الباب، فإذا برز منه، طارت حصاة فأصابت وجهه، فأطرق خجلاً لا أدري ما أفعل، فيهدف: «لا عليك». وكنت أرى أنه غير لائق بالتدريس، ولا بأن أخذ عنه، ونفقت على طرد أبي البركات لي، وتغيبت في البدايات أكثر من مرة، وكنت أخلتق الأعذار لذلك، فأقول مرة إنني مريض، ومرة إن سلطان النوم قد غلبني فلم أستيقظ، وأقول ثالثة إنني تعثرت في الطريق، فوقعْتُ فجرحت ساقي، وأقول رابعة إن أمي أخذتني إلى سوق البزازين، وغيرها من الأعذار، وكان يحتمل ذلك وهو غير مُكره، ولا أدري لماذا احتمل صبيًا مثلي، وقال لي ذات مرة: «ألم يأن لعبد اللطيف أن يكون لطيفًا كما قال أبوه؟». فسألته: «كيف؟». «يأتي درسنا من دون أن يعتذر». فلن ذلك قلبي، ثم إنه عرف من أبي أنني أحب الفالودج، فكان يأتيني به، فأحبيته، وأحبيتُ درسه، وأقبلتُ على العلم، فأخذ هو كذلك بكننا يديه، وجعل يُعلمني من أول النهار إلى آخره بوجهٍ كثيرةٍ من التلطف، وكانت له حلقة بمسجد الظرفية فانتقلت إليه هناك، ثم إنه كان يقرأ درسه ويشرحه للتلاميذ، فإذا فرغ خصني من دونهم بشرح أريد، ثم إذا خرج من المسجد إلى داره، فدته أنا إليها، فكان يُذكر معي الدروس في الطريق، فإذا بلغنا داره، أخرج الكتب التي يشتغل بها، ودفع بها إلي فأحفظها ويحفظها، ولم يكن ذلك لأي تلميذٍ سواي، ثم صرتُ أرافقه بعد بضعة شهورٍ إلى درس الشيخ أبي البركات الأنباري، فلم يكن يملك إذ يراني معه أن يطردني، فكنتُ أسمع تجادلها، وتجاوزهما، ونفاشاتهما، فأحفظ وأعي، فإذا انقلب من درس الشيخ كنتُ أنا رفيقه، وقائده في الطريق إلى بيته، وكان الشيخ أعجوبة في اللغات، يُحسن الفارسية والتركية والحشبية والرومية والأرمنية والرنجية، ولا أدري كيف تسنى لأعمى أن يُتقن هذه اللغات كلها، واستملت قلبه فعلمنيها، ولم يجد في ذلك كثيرَ غناء، وكنتُ تلميذه الأثير، وكان إلى ذلك كله شاعرًا، وكثيرًا ما أنشدنا من شعره، مُترنمًا:

ما مرَّ يومٌ ولا شهرٌ ولا عيدٌ

فاخضرَ فيه لنا من وصلكم عُودٌ

عُودُوا تَعُدُّ بِكُمْ الأَيَّامَ مُشْرِقَةً

وإن أبيتُم، ففي الأسقام لي عُودُوا

وكان صبورًا صبرَ الجبال، لم يُحرِّكه لغضبٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ، وقد حدث معه حادثَةٌ شبيهةٌ بتلك التي حدثت لمعن بن زائدة في اختبار جلمه، فقد جاءه نجارٌ أعرفه وأعرفه أنه لا يفقه شيئًا، وكنتُ شاهدًا على ذلك، فدخل النجار وسلم عليه، ثم سأله عن مسألةٍ نحويةٍ، فأجابه الشيخُ أحسن جواب، فقال له النجار: أخطأت، فأعاد الشيخ الجواب بالطف من سابقه، وسهل طريقته، وبيّن حقيقته. فعاد النجار إلى قوله الأول وزاد فيه، فقال له: أخطأت أيها الشيخ، والعجب ممّن يزعم أنك تعرف النحو ويهتدي بك في العلوم، فهل هذا مبلغ معرفتك؟ فلاطفه شيخنا ونحن بين يديه في عجب، وقال له: يا بُني لعلك لم تفهم الجواب، فإن أحببتُ أعدته لك مرةً ثالثةً بأسهل وأبين من المرّتين الفائتتين، فقال له النجار: كذبت، لقد فهمتُ ما قلت، ولكن لجهلك تحسب أنني لم أفهم. فقال له الشيخ وهو يضحك: قد عرفتُ مرادك، ووقفْتُ على مقصودك، وما أراك إلا غلبت، فأد ما بايعت عليه مع رفقائك، فلست بالذي تُغصيني أبدًا.

وبعدُ يا بُنَيَّ فقد قيل: إِنَّ بَقَّةً جَلَسَتْ عَلَى ظَهْرِ فَيْلٍ فَلَمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَطِيرَ قَالَتْ لَهُ: اسْتَمْسِكْ أَيُّهَا الْفَيْلُ فَإِنِّي أُرِيدُ الطَّيْرَانَ، فَقَالَ لَهَا الْفَيْلُ: وَاللَّهِ يَا هَذِهِ مَا أَحْسَسْتُ بِكَ لَمَّا جَلَسْتُ، فَكَيْفَ اسْتَمْسِكُ إِذَا طَرْتُ؟ وَاللَّهِ يَا وَلَدِي مَا تُحْسِنُ أَنْ تَسْأَلَ، وَلَا أَنْ تَفْهَمَ الْجَوَابَ. فَاْمُضْ إِلَى سَبِيلِكَ وَسَلِّمْ عَلَى رُفَقَائِكَ.

ولقد كان الشَّيْخُ إِذَا بَدَأَ مَسْأَلَةً نَحْوِيَّةً، عَطَفَ عَلَيْهَا أُخْرَى فِقْهِيَّةً، فَإِذَا الْفَقِيهِيَّةُ تُخْرِجُهُ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَإِذَا الْآيَةُ تُدْخِلُهُ فِي الْبَلَاغَةِ، فَإِذَا الْبَلَاغَةُ تَسْتَدْعِي بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ، فَإِذَا الْبَيْتُ يَحْضُرُ مَعَهُ قَائِلُهُ، فَإِذَا الْقَائِلُ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ، وَنَعْرِفُ نَسْبَهُ وَدَرَجَتَهُ وَطَبَقَتَهُ فِي الْفُحُولِ... وَلَعَلَّ هَذَا الْاسْتِطْرَادَ، وَالذَّخُولَ مِنْ بَابِ وَالْخُرُوجَ مِنْ آخَرٍ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْجَاظُ هُوَ الَّذِي قَلَّ عَدَدُ تَلَامِذَةِ الشَّيْخِ الْوَاسِطِيِّ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَمْتَعًا بِالنَّسْبَةِ لِي، وَلَقَدْ طَوَّفَ بِي فِي أَفَانِينِ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ وَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَاللُّغَاتِ وَالْفِقْهِ وَحَتَّى الْفَلَكَ حَتَّى شَمَمْتُ مِنْ أَزَاهِيرِهِ كُلَّ عَابِقِ شَذِيٍّ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ اتَّخَذَنِي ابْنًا، وَعَجِبَ لِسُرْعَةِ فَهْمِي وَحِفْظِي، وَاعْتَنَى بِي كَمَا لَوْ كُنْتُ كَنْزَهُ الَّذِي أَفْنَى عَمْرَهُ بِاحْتِنَاءٍ عِنْدَهُ، إِلَى أَنْ حَدَّثَ مَا قَلَبَ الْمُعَادِلَةَ، إِذْ ظَهَرَ تَلْمِيذٌ آخَرَ فَازَ بِقَلْبِ الشَّيْخِ الْأَعْمَى مِثْلِي أَوْ أَكْثَرَ، وَبَدَأَتْ أَغَارُ مِنْهُ لِكثْرَةِ عِنَابَتِهِ بِهِ، وَاحْتِمَالِهِ عَلَى قَلَّةِ إِدْرَاكِهِ، وَدَخَلَ الْقَلْبَ مَا دَخَلَ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ ابْنُ خَمْسَةِ عَشَرَ رَبِيعًا، وَلَا أُدْرِي مَا الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى احْتِمَالِهِ، كُلَّ مَا يُمَيِّزُهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَلْعَبُ النَّتَبُوكَ فِي فَنَاءِ الْبَيْتِ كَمَا يَفْعَلُ بَقِيَّةُ الصَّبِيَّانِ، ثُمَّ تَنَافَسْتُ وَإِيَّاهُ فِي الْحِفْظِ، وَتَسَابَقْنَا فِي ذَلِكَ عِنْدَ شَيْخِنَا الْأَعْمَى، فَاسْتَمَعَ لَنَا، وَأَعْجَبَ بِنَا مَعًا، وَلَكِنَّهُ حَكَّمَ لِي، كَانَ ذَلِكَ التَّلْمِيذُ هُوَ (يَاقُوتُ الْحَمُويُّ)، وَنَشَأَتْ بَيْنَنَا بَعْدَ ذَلِكَ صِدَاقَةٌ وَطَيِّدَةٌ، لَمْ يَقْطَعِهَا غَيْرُ الرَّحِيلِ عَنِ بَغْدَادَ، وَبَغْدَادَ إِذَا قُطِعَ وَدُّهَا، قُطِعَ وَدُّ أَهْلِهَا؛ وَهَلْ تَصْفُو عَلَى كَدْرِ نَفُوسٍ؟! “

” (٥)

سنوات الصِّفَاءِ

وبغداد تُحِبُّ الْحَيَاةَ مِثْلُنَا، وَتَهْرَأُهَا طُرُوبَانُ بَكَّاءَانَ، وَلَوْ أَصْخَتْ إِلَى حَمَامِهَا لِشَجَاكَ مَا شَجَا أَبَا فِرَاسٍ وَهُوَ فِي أَسْرِهِ حِينَ شَدَا: «أَقُولُ وَقَدْ نَاحْتُ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ». وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى نِسَائِهَا لَفَتَنَّكَ مِنْهَا مَا فَتَنَّ (مَسْكِينِ الدَّارِمِيِّ)، حِينَ قَالَ: «قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَسْوَدِ». وَلَوْ أَبْصَرْتَ الشَّمْسَ وَهِيَ تَتَخَلَّلُ خَلْفَ عَذُوقِ النَّخْلِ، لَطَنَّتْهَا حَسَنَاءُ تَخْتَفِي خَلْفَ الْجَذُوعِ إِذْ عَايَنَتْهَا أَحَبُّ الْعَيُونِ وَأَشْوَفُهَا. وَكَثِيرًا مَا غَنَيْتُ فِي الْمَسَاءَاتِ وَأَنَا عَائِدٌ مِنْ أَحَدِ الدَّرُوسِ: «رُبَّ وَرْقَاءٍ هَتُوفٍ فِي الضُّحَى...».

كُنْتُ فِي الْعَاشِرَةِ لَمَّا رَأَيْتُ بَغْدَادَ تَأْخُذُ زِينَتَهَا عِنْدَ كُلِّ مَحَلَّةٍ، وَتَنْزِيًّا عِنْدَ كُلِّ دَرَبٍ، فَسَأَلْتُ أَبِي عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ خُطْبَةَ الْعَاضِدِ آخِرَ خُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ قَدْ قُطِعَتْ، وَإِنَّهُ صَارَ يُخْطَبُ لِلْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَسْتَضِيءِ بِأَمْرِ اللَّهِ». فَسَأَلْتُهُ: «وَهَلْ تَنْزِيْنُ بَغْدَادَ كُلَّمَا غَيَّرْتَ خَلِيفَةً؟». فَضَحَكَ. وَقَالَ: «إِنَّهُ صِرَاعٌ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ يَا بُنَيَّ». «وَهَلِ الصَّرَاعُ يَنْتَهِي إِذَا تَغَيَّرَ الدُّعَاءُ فِي الْخُطْبَةِ يَا أَبِي؟». فَضَحَكَ مِنْ جَدِيدٍ، وَقَالَ: «عِنْدَمَا تَكْبُرُ سَتَعْرِفُ». وَسَأَلْتُهُ: «إِنْ كَانَتْ الْأُمُورُ تَتَعَقَّدُ عَلَى الْخُطْبَةِ فَمَا الَّذِي غَيَّرَ رَأْيَ الْخَطِيبِ فِي أَنْ يَخْطُبَ لِفُلَانٍ دُونَ فُلَانٍ؟». فَلَمْ يَجِبْ أَبِي، وَسَأَلْتُهُ مِنْ جَدِيدٍ: «فَإِنْ تَغَيَّرَ الدُّعَاءُ فِي الْخُطْبَةِ فَهَلْ يَتَغَيَّرُ الْخَطِيبُ؟ أَمْ أَنَّ الْخَطِيبَ يَخْطُبُ لِفُلَانٍ أَوْ لِعَلَّانَ كَمَا يُؤْمَرُ؟». فَردَّ بِطَوِيلٍ صَبِرٍ يَكَادُ يَنْفَدُ: «كَمَا يُؤْمَرُ يَا بُنَيَّ...»

كما يُؤمر». فسألته: «وما سبب تغييره يا أبي؟» فقال: «إنها قصة طويلة». فقلت: «وإن الطريق إلى المسجد طويلة فقصها علي».

قال أبي: «إنه منام، رأى الخليفة العاضد في منامه أن عقرب خرجت من مسجد الشافعية بمصر، وقطعت الطريق من المسجد إلى القصر، وتسَلَّلت في الردهات حتى وصلت إلى فراشه ولدغته، فدُعر، ودعا المُعبرين لِيُفسروا منامه، فإن ملوك مصر يا بُني منذ أن كانوا، يحكمون بما يحلمون، ويقضون بما يُفصّل لهم في المنام، فقال له المُعبرون: يخرج من ذلك المسجد مَنْ يقضي عليه، ويُنهي خلافته، فأصاب الهلع الخليفة الشاب، وقال لرئيس شُرطته انتني بمن يقيم في ذلك المسجد، فأتوه بشيخ مسكين متصوّف زاهد ليس له من الدنيا إلا كراريسه يُدعى (نجم الدين الخبوشاني)، فسأله الخليفة عن مقدمه، ومن أين جاء، وعن مولده، وعن سبب إقامته بالمسجد، فقال له إنه من (خبوشان) من فُرى (نيسابور) وبها مولده، وإنه مُقيم في تربة الشافعي يدرّس الفقه، وسأله عن أمور أخرى لعلها تكشف التّقاب عن حقيقته، فأجابه (الخبوشاني) عن كلّ سؤال، فراه صادقاً مسكيناً، وأضعف من أن يناله بشرّ، فأعطاه مالاً، وصرّفه، وقال له: «ادع لنا يا شيخ». فلما خرج، سكب الدّراهم على باب القصر، ورَكَلها بِنَعَاله. لم تمرّ على تلك الرّؤيا إلا أشهر حتى استفتى صلاح الدين الأيوبي الشّيخ (الخبوشاني) ضمن مجموعة من الفقهاء في أمر عزل الخليفة العاضد وإقامة الخطبة للخليفة العباسي، فأفتى بذلك، وبالغ في الفُتيا وصرّح بتعدد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان. وهكذا تحققت رؤيا العاضد، وأزيح عن الخلافة ومات بعدها مريضاً». قلت لأبي: «قصة تُروى». ظلّ أثر القصة يعمل في عقلي وتفكيري، حتى هذيت بها، وهكذا كلّمنا تأثرت بشيءٍ دار في خُلدي حتى برز لي في كلّ شيء، في الليلة نفسها حلمتُ حلمًا شبيهاً بالذي حلمه العاضد، رأيت في المنام أفعى تخرج من أكبر مقبرة في القاهرة، وتطوف شوارعها وأحياءها تلدغ كلّ مَنْ تمرّ به، حتى لم يبق بيت في القاهرة إلا دخلته، ورأيت رجلاً قيل لي إنه صلاح الدين، تلدغه أربع مرّات، ولكّنه لا يموت من حينه، ويموت فيما بعد مريضاً. وصحوت من التّوم مُفرّغاً، فهُرَع إليّ أبواي يسقياني حتى يذهب عني الرّوع، فلما أخبرتهما الرّؤيا رأيت الفرع في عين أمي، ولكنّ أبي قال لها: «إنني قصصت عليه رؤيا العاضد فهو مُتأثر بها».

أقمت بمدرسة الظّرفية زمنًا، كان زمنُ إقامتي فيها ثلاثة أعوام، فيهنّ أخذتُ من كتب الوجيه الواسطي كلّ ما كتبه أبو البركات الأنباري فحفظته، حفظتُ (اللّمع) لابن جتي في ثمانية أشهر، أسمع كلّ يومِ المتن والشّرح، ثمّ أنقلبُ إلى بيتي فأطالع شرح (الثمانيني الضّري) له، وشرح الشّريف (عمر بن حمزة)، وشرح أبي الفتح (ابن بُرهان)، فلما حفظتُ ذلك كلّهُ، صرّحتُ أشرحها لمن طلب العلم أو سأله. وكانوا يقولون: يحفظ ثلاثين كُراساً لشروح (اللّمع) وهو في هذه السنّ؟. فاستعظّموا ذلك مِنّي، فزهدوا بما عندي، وكان عندي كثير لو تدبّروا. حتى أخذني أبي إلى المدرسة النظامية، المدرسة الكبرى، وكنّ في السادسة عشرة، وكانّت بعيدة في كلّ شيء، في الطريق، والشّأ، والأساتذة.

وحفظتُ آننذ (أدب الكاتب) لابن قُتيبة حفظاً مُتقناً؛ أمّا النّصف الأوّل ففي شهر، وأمّا تقويم اللسان ففي أربعة عشر يوماً؛ لأنّه كان أربعة عشر كُراساً، ثمّ حفظتُ له (مُشكّل القرآن)، و(غريب القرآن)، وكلّ ذلك في مُدّة يسيرة.

وكبرتُ، كبرتُ في حبّ بغداد، وإنّها لُتُحَبّ، ومن عرفها معرفتي تعلق بها، وإنّ لها جبالاً تشدك إليها بوثاق لا ينفصم، وبغداد ملء العين، فأينما وجهك ترها، وأينما سارت بك الخطا قادتك إليها، وحيثما حلّ الهوى تحلّ، وحيثما يرتحل الجمال ترتحل، إنّها بغداد يا أبي، وهل أتاك نبؤها؟!

وكنّتُ أقطع المسافة إلى المدرسة النظامية على بغلة لنا، وكانّت بغلة بلقاء جميلة، اعتنى بها خدمنا وزركشوها، فكانتُ محطّ أنظار اللصوص، وتلك قصة أسية، لولا أنّ الأطيف لطف بعبد اللطيف للحقّ بشيخي أبي زرة.

ولصوص بغداد ظريفون مثلها إذا أرادوا، لم يكن لأحد أن يُصبح في بغداد لصًا، فبغداد لا تقبل السقط من الناس فتجعلهم لصوصًا، كان لصوص بغداد يتمتعون بقوة في الجسم اكتسبوها من تدريب طويل، وبمروءة يعزّ نظيرها عند أهل المروءة، وكان فيهم فقهاء، وأهل علم ورأي، ولقد زادهم الله كما زاد (طالوت) بسطة في العلم والجسم. فإذا وقعوا في يد الشرطه استهانوا بالجلد، وتباروا في استعذاب السياط، ولهم قدرة عجيبة على تحمّل الألم، حتى قالوا في ذلك: «لو أن أحدهم ادّعى النبوة وجعل معجزته الصبر على الضرب بالسياط لفنّن الناس». وما زالت إلى اليوم تُروى قصة أحمد بن حنبل مع (أبي هيثم الطرار) اللصّ، حينما سُجن أيام فتنة خلق القرآن، إذ لما مدّ ابن حنبل ليجلد بالسياط، إذا برجل يجذب ثوبه من خلفه ويقول: يا ابن حنبل، أما تعرفني؟ فقال ابن حنبل: لا، فقال: أنا اللصّ الطرار أبو الهيثم، ضربت ثمانية عشر ألف سوطٍ تحمّلتها من أجل الدنيا ومن أجل الشيطان، أفلا تصبر أنت لطاعة الرحمن؟».

وأما فقهم فعميق؛ فقد استوقف لصّ أحد أصحاب البساتين وأراد أن يسرقه ويأخذ ملبسه، فقال له صاحب البستان: أمهلني حتى أصل إلى بيتي ثم أرسل لك ملبسي، وأقسم على أنه صادق، ولن يحنث بقسمه. فقال له اللصّ: إننا رويننا عن الإمام مالك أنه قال: لا تلزم الأيمان التي يحلف بها للصوص. فقال له صاحب البستان: فأحلف ألا أحتال في يميني هذه؛ فقال: هذه يمين مركبة على أيمان اللصوص، ثم إنني راجعت أمر اللصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى وقتنا هذا فلم أجد لصًا أخذ بدين نسيئة، وأنا أكره أن أبتدع في الإسلام بدعة يكون علي وزرها ووزر من عمل بها بعدي إلى يوم القيامة، اخلع ثيابك. فقام صاحب البستان فخلعها ودفعها إلى اللصّ الفقيه، فأخذها وانصرف!!

ولقد كان اللصوص يكتبون، وبعض من يزعمون العلم لا يكتبون مثلهم، وكان بعضهم يعظ أصحابه، ويضع لهم شريعة يتبعونها، ويتوعّد كل زانغ عنها، فلقد سمعت أن أحدهم جمع اللصوص، فقال: «اضمنوا لي ثلاثاً أضمن لكم السلامة: لا تسرقوا الجيران، وانتقوا الحُرْم، ولا تكونوا أكثر من شريك مُناصف، وإن كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم إخراج الزكاة وجُحودهم الودائع».

فأما قصتي مع اللصوص، فقد كنت ذاهباً فجر أحد الأيام إلى المدرسة النظامية لدرس الشيخ أبي البركات، فبرز لي ثلاثة عند منعرج بعد أن خرجت من درب الفالودج، وجاوزت باب الطفرية، وكانت بقية من عتمة تسترهم، فهلعت أول ما سمعت أحدهم يصيح بي أن أتوقف، فجدبت عنان البغلة فجمدت مكانها وجمدت فوقها، ثم تضاحكوا بينهم: «صبي، ويركب بغلة بلقاء، إنك لعني». وتذاكروا بينهم أن يختطفوني ويطلبوا أهلي بفيدي، وبينما هم كذلك، أمروني أن أترجل، ففعلت، ثم أمروني أن أعطيهم ما معي من مال، وكان معي صرة لم أحمل مثلها إلا هذا اليوم المشووم، فدفعتها إليهم، ثم أمروني أن أخلع ثيابي، فترددت، فلما أشهر أحدهم السيف في وجهي، سارعت إلى ذلك، وبينما أنا أخلع قميصي، إذ عن يبالي أن أداري خوفي بما أحفظ، فرحنت أقرأ بعض الآيات، فانتبه إلي أحدهم، وقال لي: «فما معك من القرآن؟». قلت: «كله». فقال: «عني، ويحفظ القرآن؟!». قلت: «نعم». قال: «فاقرأ». فقرأت حتى قال لي: «حسبك». فتوقفت. فأمرني أن أبقى على ثيابي، ثم قال لي: ما معك من شعر اللصوص؟ فقلت له: «معي من شعر السليك وعروة ويسير من شعر الأحمير السعدي». فقال: «وما تحفظ للأحيمر؟». قلت: «قوله»:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطيّر»

فرد إليّ مالي، وقال: «خُذْهُ فَإِنَّكَ تَسْتَحِقُّهُ» فهدأت نفسي، وطمعتُ في أن يُعيدوا إليّ بغلتي، فكأنه رأى ذلك في وجهي، فضحك، وقال: «أما البغلة فلنا، ولو كنت هَرَمًا لتركناها لك تُبَلِّغُكَ مقصدك، ولكنا فَنَى يافع، وتُحَسِّنُ أن تمشي». فأخذوا البغلة وذابوا على دُبالة اللَّيْلِ المُنطَفِئ!

فلما عدتُ ذلك اليوم إلى البيت، وقصصتُ القصةَ على أبي عَزَمَ أن يكثرَ لي دارًا قريبةً من المدرسة النظامية حتى لا يقع ما وقع مرّة ثانية، وكانت الدُّور القريبة من المدرسة غالبيةً لكثرة مَنْ يطلبون القُرب من المدرسة، ولو بحثتُ عن الدُّور في بغداد في أيّ موضع غير ذلك الموضع لما عيّبت، فقد كان سهلاً في بغداد أن تنتقل من ضيقة إلى ضيقة، ومن دارٍ إلى دار، ومن سِكةٍ إلى سِكةٍ، ومن شارعٍ إلى شارعٍ، ومن رُقاقٍ إلى رُقاقٍ، كان أهل بغداد أهل حياة، وكانوا أهل حَرَكة، وأما بجوار المدرسة النظامية فكننتُ تدفع في الدَّار ما تدفعه في عشر دورٍ غيرها. ولكنّ أبي - رحم الله أبي - لم يتوانَ في الإسراع لإيجاد دارٍ لي هناك، وكان يُمازحني: «وَمَنْ يَخْطُبُ الحسَناءَ لم يَغْلُه المَهْرُ».

واكثرَ لي أبي دارًا مفتوحةً على السَّماء، فناؤها واسع، وخيرني بين أن أعيشَ فيها وحدي، أو أضَمَّ إليها مَنْ طابَتْ صُحبته من طلاب المدرسة النظامية، فاخترتُ أن أكونَ وحيدًا، وكانت الدَّار مملوءةً بالكتب، المنسوخ منها بخطّ يدي، أو المُشترى من دار الكتب في رباط المأمونية فيما يُعينني على أن أتمَّ ما أنا فيه.

وكانتُ خلوتي في البيت خيرَ رفيقٍ لي، ومكثتُ في الدَّار أربع سنين، كانت سنّي الصِّفَاء، والجلوة، والحفظ والمُذاكرة، ففي هذه الدَّار الأنيسة حفظتُ الإيضاح لأبي عليّ الفارسيّ في بضعة شهور، ولازمْتُ مُطالعة شروحه وتتبُّعهُ التتبع النَّامَ حتى تبَحَّرتُ فيه، وجمعتُ ما قاله الشُّراح، ومكتبتي يومئذٍ تروبو، وأما التَّكملة فحفظتها في أيامٍ يسيرةٍ، كلَّ يومٍ كُراسًا.

ولقد كان هناك في الشَّارع الذي يُوَدِّي إلى المدرسة مطاعم كثيرة، وكان فيها أكلٌ كثير، وأصنافٌ شتّى، وكان الطَّعام الذي يُطبخُ في تلك المطاعم يتنوّع بتنوّع الطُّلبة، فكان فيه الطَّعام البُخاريّ والهنديّ والعربيّ والشَّاميّ والمصريّ والمغربيّ، وكان يُؤكل في المطعم نفسه في أوقات الفُسحة ما بين الدُّروس التي تكون عادةً بعد صلاة الطُّهر، وأما أنا فقد كان يُحمَل الطَّعام إلى بيتي، واكثرَ لي لذلك خادمًا يأتيني به، وساعدني أن البيت قريبٌ من المدرسة.

وفي المساء بعد أن نُصَلِّي العصر في المدرسة، كان أكثرنا يعود إلى بيته، فبيوت الكثيرين في أحياء بغداد البعيدة، وبعضها في الأكوار، أو في الأصعدة. وكان هناك نفرٌ قليلٌ يبقى حتى يُصَلِّي العشاء الأولى قبل أن يغادر أبهاء المدرسة، وهؤلاء كانوا يقطنون في البيوت القريبة، وإذا لم يُبقني درسٌ أخذ فيه عن شيخٍ في المدرسة، فإنني كنتُ أعودُ إلى الدَّار، فأجلس في مكتبتي، وأحيانًا أخرج إلى الفناء قبل أن تغرب الشَّمس، فأقرأ في الكتاب الذي أنا فيه، فإنني آليث على نفسي مُدَّباتٌ ألا أخرج من كتابٍ حتى أستظهره، فإن كنتُ مُكبًّا على دراسة كتابٍ وتفهمه فإنني لا أنشغل بأخر معه، ولا أصرف الزَّمان وإن اتَّسع إلا معه، ولم أكن لأشتغل بعلمين في آنٍ واحدٍ، فإذا فرغتُ من أحدهما، صرفتُ همَّتي للأخر.

ثمَّ كانت تلك المساءات الجميلة، تذهبُ في مطالعة الكتب المبسّطة والمختصرات، وواظبتُ على دراسة كتاب (المفتّض) للمبرّد، وكتاب (ابن درستويه)، وكنْتُ أثناء ذلك لا أغفل عن سماع الحديث - إذا أسعفني الرّمان - والتّفقه على شيخنا (ابن فضلان) بدار الذهب وهي مدرسة مُعلّقة، بناها (فخر الدّين بن المُطَلّب).

وكان بعضُ شيوخ هذه المدرسة يروون هذا الحديث: «نهرُ التّيل نهرُ العسل في الجنّة، ونهرُ دجلة نهرُ اللّين في الجنّة، ونهرُ الفرات نهرُ الخمر في الجنّة، ونهرُ سيحان نهرُ الماء في الجنّة. فأطفأ الله نورهنّ ليُصيرهنّ إلى الجنّة». ولم أكنُ أجد له

” إسنادًا يُصحّحه، فأكرّثه على راويه، فنّهرنِي، وابتدرني بفُحش القول، فلزمتُ الصّمت، فهيج عليّ النّاس، فأخذوا بتلابيبي حتّى كدتُ أختنق، وكنْتُ رقيق العود، فلما رأني شيخهم، صاح بهم: «دعوه، فإنّني أعرفه وأعرفُ أباه، وإنّه تلميذ أبي زرعة»، فاستنقذني من بين يرائئهم، فخلّوا سبيلي، ولما استوضح الأمر، قال: «يا بُنيّ، إنّما المراد من كُورن هذه الأنهار من الجنّة أنّ أصلها منها، كما أنّ أصل الإنسان من الجنّة، فلا يُنافي الحديث الحقيقة المعلومة المُشاهدة من أنّ هذه الأنهار تنبُع من منابعها المعروفة في الأرض، فإذا لم يسلم لك ذلك، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، والتسليم بخبرها». فلم أفتنح!

” (٦)

الأذى يذهب والعلم يبقى

إنّ (بُع) صنم و(داد) أعطاني، بلغة أهل فارس، فلما أراد أن يقول: أعطاني الصنم هذا، قال: (بُع داد)، فصارت (بغداد)، فعلى أيّ شيء تُحبّها؟ خلاك دمّ؛ أحبّها لأنّها هي؛ لأنّها بغداد، المدينة التي صنعت الحلم، والمدينة التي طارت بي بعيدًا. ولكن كيف تُحبّها، وتنوي أن تُسافر بعيدًا عنها؟ أسافر من أجل أن أملأ العقل والفؤاد بأثقال العلم وأعود لها عذوقًا في نخلها، وماء في نهرها، وديمة في سمانها، سيقولون هذا عبد اللطيف البغداديّ، وأكرم بها من نسبة!

كفى ببغداد أنّ الله باركها... وأنّ فيها من الجنّات أنهارًا... حوريّة من أعالي الخلد نازلة... لتفتنّ النّاس رهبانًا وأخبارًا... كأنّها حين تُبدي لي محاسنها... (راعيل) تُبدي إليّ (الصديق) أوطارًا... وهل يُقال لمن عزّت نظائره... إلاّ (تبغدّد)، أو للمُنتمي دار؟!!

وسقاة بغداد ظرفاء حُكماء كلصوصها، ولقد كانوا يبيعون الماء، ويُشيعون الأمثال، ويسقون ذا الحاجة، ويُنشِدون الشّعْر، ويقصّون الحكايا، ويغنون الألحان، وكانوا يحملون الماء في عدلين، مربوطين بحبلٍ إلى طرفي عصا، والسّاق يوضع العصا على عاتقه، ويمشي وهو واضع ذراعيه على طرفيها يُنادي في الأحياء وفي الأزقة على من يشتري الماء، وكان الماء في بغداد كثيرًا، ولكنّ أكثر السقاة كانوا يسقون تفكّها، وكانوا يأتون به من جيلة، وماء دجلة إن سلّم من لوثة البشر فهو صافٍ رراق، إذا انسكب في الأفواه وجدت فيه عذوبة كأنّه الكوثر الذي إذا شربت منه شربة واحدة لا تظمأ بعدها أبدًا، وإذا نفذ فيه شعاع الشّمس رَق، فعاد في البلور بلورًا. وكانت مياه الشّرب تجري في مجارٍ مُبلّطة من أسفلها بالصّاروج الأحمر ومعقودة من أعلاها بالأجر، وتدخل المدينة في شوارع الأرباض جارية صيفًا وشتاءً، في هندسة لا ينقطع هواؤها. ويُبني قناطرٌ عدّة بالأجر والجصّ وتكاثرت أحواض مياه السبيل. أمّا النّاس فكانوا يحفرون الآبار في بيوتهم، أو ينقلون الماء من دجلة على دوابهم. وكان أهل الله منهم يسقونه في الجوامع ابتغاء وجهه.

ولقد قال ذو النون المصري: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ المَرُوءَةَ وَالظَّرْفَ فَعَلِيهِ بِسُقَاةِ المَاءِ فِي بَغدَادِ. قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: لَمَّا حُمِلْتُ إِلَى بَغدَادِ رُمِيَ بِي عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ مُقَيَّدًا، فَمَرَّ بِي رَجُلٌ مُتَزَرٌّ بِمَنْدِيلٍ مِصْرِيٍّ، مُعْتَمِّمٌ بِمَنْدِيلٍ دَبِيقِيٍّ، بِيَدِهِ كَيْزَانٌ حَزَفٍ رِقَاقٌ وَرُجَاجٌ مَخْرُوطٌ. فَسَأَلْتُ: هَذَا سَاقِي السُّلْطَانِ؟ فَقِيلَ لِي: لَا، هَذَا سَاقِي العَامَّةِ! فَأَوْمَأْتُ إِلَيْهِ: اسْقِنِي. فَتَقَدَّمَ وَسَقَانِي، فَشَمَمْتُ مِنَ الكُوزِ رَائِحَةَ مَسْكَ، فَقُلْتُ لِمَنْ مَعِي: ادْفَعْ لَهُ دِينَارًا. فَأَعَاطَاهُ الدِّينَارَ. فَأَبَى، وَقَالَ: لَيْسَ أَخَذُ شَيْئًا. فَقُلْتُ لَهُ: وَلِمَ؟ فَقَالَ: أَنْتَ أَسِيرٌ، وَلَيْسَ مِنَ المَرُوءَةِ أَنْ أَخَذَ مِنْكَ شَيْئًا».

ثُمَّ قَالَ لِي أَبُو البركات: إِذَا أَنهَيْتَ حِفْظَ أسرارِ العَرَبِيَّةِ، فَيُسْتَحْسَنُ أَنْ تَحْفَظَ دِيوانَ المَتَنبِيِّ. فَقُلْتُ لَهُ: «إِنِّي أَحْفَظُ الكُرَّاسَ الأوَّلَ». فَقَالَ: «وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تُكْمِلَهُ؟». فَقُلْتُ: «لَا شَيْءَ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ شَيْخًا لَهُ». فَقَالَ: «إِنَّ أَبَاكَ يَعْرِفُ أبا البَقَاءِ العُكْبَرِيَّ الضَّرِيرَ وَأَنَا أَعْرِفُهُ». فَقُلْتُ: «إِنَّ أَبِي لَا يَعْرِفُ إِلَّا الأَصْرَاءَ!». فَلَمْ يَجِدْهَا دُعَابَةً، وَقَالَ لِي: «إِنَّ عَقْلَهُمْ أَصْفَى مِنْ عَقُولِنَا». فَسَأَلْتُهُ: «لِمَ؟». فَقَالَ: «لَأَنَّنا نُسْكِنُ الخرابَ فِي عَقُولِنَا بِمَا نَرَى وَهَمَّ لَا يَفْعَلُونَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ اسْتَعَاضُوا عَنِ البَصْرِ بِالبَصِيرَةِ، فَفَوَيْتُ». فَقُلْتُ: «وَمَا عِنْدَهُ؟». قَالَ: «هُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِشَعْرِ المَتَنبِيِّ اليَوْمِ، فَاجْعَلْ أَبَاكَ يَسْوَفُكَ كَمَا يَسْوَقُ الدَّابَّةَ إِلَيْهِ». فَلَمْ يُعْجِبْنِي قَوْلُهُ الأَخِيرَ، وَلَكِنَّهُ شَيْخِي، وَإِنْ أَذَاهُ يُعْتَفَرُ إِلَى جَانِبِ عِلْمِهِ الرَّاخِرِ، وَالأَذَى يَذْهَبُ وَالْعِلْمُ يَبْقَى.

فَحَدَّثْتُ أَبِي، فَقَالَ: «نَعَمْ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْكَ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ، وَلَكِنِّي لَا أُرِيدُكَ أَنْ تَحْضُرَ مَجْلِسَهُ فِي المَسْجِدِ، فَإِنَّ التَّلَامِيذَ كَثِيرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَنْ يَصْرِفَ قَلْبَهُ إِلَيْكَ وَأَنْتَ بَيْنَ العَشْرَاتِ، فَإِنْ ذَهَبْتُ بِكَ إِلَى بَيْتِهِ مُفْرَدًا فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى أَنْ تَعْرِفَ مِنَ الشَّيْخِ المَتَنبِيِّ وَغَيْرِهِ». فَقُلْتُ: «وَهَلْ سَتُسِيرُ لَهُ لِقَاءَ ذَلِكَ مَالًا؟». فَقَالَ: «الغَايَةُ إِلَى مَعْرِفَةِ المَتَنبِيِّ تُهَوِّنُ كُلَّ سَبِيلٍ».

وَلَزِمْتُهُ عَامًا أَوْ أَقَلَّ، هُوَ رُبْدَةٌ أَعوامِي فِي النِّظَامِيَّةِ، فَمَا وَجَدْتُ بَحْرًا أَوْسَعَ مِنْهُ، وَلَا جِبَالًا أَشَمَّ مِنْهُ، وَلَا قَلْبًا أَرْقَّ مِنْهُ، وَكَانَ سَرِيعَ العَبْرَةِ، بَكِيٌّ وَهُوَ يَشْرَحُ أَبْيَاتَ المَتَنبِيِّ لِي فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، بَكِيٌّ لَمَّا شَرَحَ:

• وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلًا مِنْ صَنَائِعِهَا

إِلَّا بِكَيْثٍ، وَلَا وُدُّ بِلَا سَبَبٍ

وَبَكِيٌّ حِينَ مَرَّ بِقَوْلِهِ:

حُشاشَةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا

فلم أدر أيّ الظّاعنين أشتعُ؟

ولو عدّدتُ مواضع بُكائه لَمَا أَحطتُ.

وكانتُ دارُهُ في بغداد قُربَ (بابِ حَرب)، وسَيّر لي أبي حَمَارًا يُرسلني معه من المدرسة النّظاميّة - بعد فراغ دروسها - إليه، وكان بيئُهُ متواضعًا، ولم أدخلْ عليه الدّار إلّا ووجدتُ زوجته إلى جانبه ترعاه لِعَمَاه، وكانتُ تقرأ له أو تكتب، وصنّف شيخُنَا أبو البقاء عشرات الكُتُب، لم يقرأ إلّا من سَماعه لزوجته، ولم يكتب إلّا وهي تكتبُ عنه، وكان يطلبُ منها أن تأتيه بعشرة كتبٍ، تقرأ بين يديه، وهو يسمع، ثمّ يقول لها: انّتي بالكتاب الفلانيّ، فتقرأ منه، ثمّ يقول لها: قد أشفيتُ، فيطلب منها أن تذهب إلى الكتاب الثّالث والرّابع، وهي صابرةٌ تقرأ له بدأب، فإذا جمع ما سمع من زوجه فوعاه، طلب الدّواة والمحبرة والرّقوق، وسألها أن تكتب، فتكتب ما في صفحة عقله على ذلك الرّق، فلو كان من فضلٍ فإنّ أكثره يذهب إلى هذه الرّوجة الوفيّة الصّابرة، ولئن أخمل النّاس ذكرها ورفعوا ذكر أبي البقاء، إنّها عند الله أعلى وأجلّ، فكلّ من أخذ عن علم الشّيخ فإنّها كانت سببًا فيه، فلها منه النّصيب الأوفى.

وكنتُ إذا فرغتُ من القصيدَة شرحًا، حفظتها عنده قبل أن أعاذر بيته، وكان يهشّ لحفظي، فإذا أنهينا الكُراس بعد أسبوعين أو ثلاثة، طلبتُ منه يومًا أو اثنين أراجع فيه الحفظ وأعودُ إليه به، فكنتُ في هذين اليوميّن، أكثرَي زورقًا من زوارق دجلة بعد العصر، وأطلبُ من صاحبه أن يطوف بي في النّهر بين القناطر حتّى تغرب الشّمس، فكنتُ في هذا الوقتُ أراجع ما حفظتُ، وكان امتداد الأفق، وزرقة الماء، وتوق النّفس إلى المعالي، وأشجار النّخيل تلوح في البساتين البعيدة، وهي تسمح إذ تُحرّكها الرّياح لخيوط الشّمس أن تعبر من خلالها فتسقط على وجهي، أو على الماء، فيتلألأ كأنه الجمان، كلّ ذلك كان يساعدي على إتمام حفظي.

ولقد كان هناك صاحبُ زورقٍ فيه ظُرفٌ ومعه من الأدب شيءٌ، واعتدتُ أن أصعدَ زورقه إذا أردتُ الحفظ، فكان ينتظرني، فإذا صرنا في عُرض الماء طلبَ مِنّي أن أقرأ له المتنبيّ بصوتٍ عالٍ، ويقول: «لَمْ يقل المتنبي في بغداد ما قاله في حلب، أكل المُن سوا؟!» ويأسف على ذلك، فأقول له: كفاه قوله:

أرى العِراقَ طويلَ اللّيلِ مُدُّ نُعيثِ

فكيف ليلُ فتى الفتيان في حَلْبِ!؟

وكانتُ زوجُ العُكبريّ تُعدّ لنا العشاء إذا ما فرغنا من الدّرس، وكانتُ أصعّر منه بكثيرٍ على تقدير مِنّي، ثمّ إذا ما أنهينا الطّعام، ورفعنا المائدة، صاح الحَمَار في الباب، فخرجتُ فعادَ بي إلى المدرسة، فأنسلُ إلى فراشي وأنا في سعادةٍ غامرة.

ثُمَّ شَهِدْتُ مَعَ زَوْجِهِ أَحْسَنَ مَا شَهِدْتُ فِيهَا مَضَى فِي بَيْتِهِ، فَلَقَد عَزَمَ الْعُكْبَرِيُّ عَلَى شَرْحِ الدِّيَّانِ، وَكَنْتُ قَدْ أَتَمَمْتُ حِفْظَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ كَثْرَةَ شُرَّاحِ أَبِي الطَّيِّبِ، وَاخْتِلَافَ أَحْكَامِهِمْ فِيهِ، نَوَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ هَذَا الْكِتَابَ». فَسَأَلْتُهُ: «وَهَلْ سَتَقْفُ إِلَى جَانِبِ الْمُتَنَبِّيِّ؟» فَقَالَ: «سَأَقْفُ إِلَى جَانِبِ شِعْرِهِ، وَأَوْقِفُ بَيْنَ الْآرَاءِ فِيهِ». فَقُلْتُ: «تَقْصِدُ الْوَسَاطَةَ كَمَا فَعَلَ الْجِرْجَانِيُّ؟» فَقَالَ: «لَا، وَلَكِنِّي سَأَعُولُ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَلَى ابْنِ جَنِّي وَالتَّبْرِيْزِيِّ وَأَبِي الْعَلَاءِ الْمُعَرِّيِّ». فَقُلْتُ: «فَأَيُّ شَيْءٍ تَفْعَلُ؟» فَقَالَ: «أَبْدَأُ بِغَرِيبِ إِعْرَابِهِ فَإِنَّهُ مُشْكِلٌ، ثُمَّ غَرِيبِ لُغَتِهِ فَإِنَّهُ أَشْكَلٌ، ثُمَّ أَخْرَجُ مِنْهُمَا إِلَى مَعَانِيهِ». فَمَكَثْتُ عَلَى ذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا.

وَلَقَدْ مَرَّتْ أُمَاسِيٌّ كَثِيرَةٌ عَلَيَّ وَأَنَا أَحْفَظُ فِي زَوَارِقِ بَغْدَادَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّيِّ، وَكَلَفْتُ بِهِ كَلْفًا شَدِيدًا فَصَارَ يَدُورُ مِنْهُ عَلَى لِسَانِي أَكْثَرَ مِمَّا يَدُورُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَشَعَرْتُ أَنَّ لِسَانِي مِغْزَلٌ بِهِ أَغْزَلُ أَبْيَاتِهِ، وَبَلَغَ بِي الْوَجْدُ أَنْ صَرْتُ أَصْحُو مِنَ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ وَأَنَا أَرْدُدُ أَبْيَاتِهِ، وَبَلَغَ الْأَمْرُ غَايَتَهُ، حِينَ رَأَيْتُ الْمُتَنَبِّيَّ فِي الْمَنَامِ، فَاسْتَعْظَمْتُ لِمَا لَهُ فِي قَلْبِي مِنْ مَكَانَةٍ، فَرَأَيْتُنِي أَقْفُ عَلَى قَدَمِي، فَقَالَ لِي: «لَا عَلَيْكَ. انْهَضْ نَسِرْ أَنَا وَأَنْتَ فِي بَغْدَادَ». فَقُلْتُ: «أَفِي هَذَا اللَّيْلِ؟». قَالَ: «فَإِنِّي رَحَلْتُ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَا شَبِعْتُ مِنْهَا؟ وَإِنَّ حُسَادَهَا أَحْوَجُونِي إِلَى تَرْكِهَا، وَإِنِّي أَرَى أَنَّكَ سَتَفْعَلُ مَا فَعَلْتَ». فَعَجِبْتُ مِنْ قَوْلِهِ، وَسَأَلْتُهُ: «لَقَدْ رَحَلْتُ فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ يَا أَبَا الطَّيِّبِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْلَكَ قَدْ أَبَانَ عَنْ ذَلِكَ:

وَلَقَدْ أَفْنَتِ الْمَفَاوِزُ خَيْلِي

قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِيَ وَزَادِي وَمَائِي

فَضْحَكَ، وَسَرَّهُ الْقَوْلُ، وَهَتَفَ: «إِنَّكَ سَتَرْتَحِلُ فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِي، فَإِذَا فَعَلْتَ فَارْتَبِ مَا تَمَرَّ بِهِ، فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عُمُرٌ آخَرَ يُضَافُ إِلَى أَعْمَارِنَا»، فَابْتَلَعْتُ مَا عَلِقَ فِي حَلْقِي مِنْ صَدَقٍ مَا أَجِدُ، وَقُلْتُ: «سَأَفْعَلُ». فَنَصَحَنِي: «اتْرُكْ بَغْدَادَ، فَإِنَّ إِقَامَةَ الْمَاءِ فِي الْمَوْضِعِ تُحْبِثُهُ». فَسَأَلْتُ: «وَأَنْتَ؟». فَرَدَّ: «مَا أَنَا؟» فَقُلْتُ: «أَلَمْ تَكْتُبْ سِيرَتَكَ فِي أَسْفَارِكَ؟». فَهَزَّ رَأْسَهُ، وَقَالَ: «قَدْ كَتَبْتُهَا، وَلَكِنِّي بَعَثْتُ بِهَا مَعَ أَحَدِ الْأَوْلِيَاءِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَإِنِّي لَأَنْتَظِرُ مَنْ يَأْتِي لِيَنْفِضَ عَنْهَا الْعُبَارَ». وَصَحُوتُ فَإِذَا صَوْتُ الطَّلَبَةِ يَتَنَاهَى إِلَيَّ فِي الصَّبَاحِ مِنْ بَعِيدٍ وَهُمْ يَتَقَاطِرُونَ إِلَى النَّظَامِيَّةِ. “

” (٧)

الأَنْبَارِيُّ وَدَلَالُ الْكُتُبِ

كان أبو البركات غزير العلم، ولكنه كان شديداً، وكانت حلقاته في النحو يحضرها المئات، بل إن الطلاب كانوا يفوضون عن المسجد في المدرسة إلى الساحة، فيتسامعون درسه، ولربما اضطرّ تلامذته في بعض الأيام إلى مُبلّغين، يردّدون ما قال الشيخ بعد كلّ فقرة. وكان التّزاحم عند قدميه شديداً، وكنتُ أحرصُ على أن أجلس في الحلقة الأولى القريبة منه، إذ ليس بيني وبينه أيّ صفّ من التّلاميذ، وكان الطلبة الذين ينوون ذلك عليهم أن يأتوا مُبكرين، وإذا كان درسه بعد الظّهر فعليهم من الضّحى أن يُرابطوا في الحلقة، وإذا كان بعد العصر فعليهم أن يُصلّوا الظّهر ولا يلتفتوا حتّى يأتي هو إلى صلاة العصر، وكنتُ من هؤلاء، ولربّما انتظرناه طويلاً حتّى يهَلّ هلاله، وكان من في الصفّ الثّاني يحسد من في الصفّ الأوّل، ومن في الصفّ الثّالث يحسد من في الصفّ الثّاني والأوّل، وهكذا... ولربّما تباهى التّلاميذ بعد أن تنتهي حلقتهم بقولهم: «لقد أخذتُ عن الشيخ وجاهة»، لأنّ بعضنا كان طوال العام لا يراه، بل يسمعه من خلف الصّفوف، ومن وراء الحُجُب، وهؤلاء كانوا إمّا غير عابئين بقيمة ما يأخذون، أو كانوا يسكنون في أماكن بعيدة، ولم يكونوا يملكون دوابّ يركبونها حتّى يصلوا على الوقت، وإننا نحن الذين كُنّا نسكن في جوار النّظاميّة لم نكن لنرى الشيخ لولا انتظارنا الطّويل هذا، فهل كان يستحقّ كلّ هذا؟ الحقيقة أنّه كان يستحقّه وزيادة، لأنّ الشيخ كان ممّن صان العلم فصانه، فصدق فيه قول الجرجاني:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ

وَلَوْ عَظُمُوهُ فِي الثُّفُوسِ لِعُظِمَا

وللشيخ أبي البركات الأنباري مئة وثلاثون تصنيفاً، أكثرها في النحو، وبعضها في الفقه والأصول وفي التّصوّف والرّهدة، وأتيت على أكثر تصانيفه سماعاً منه، أو قراءة مع الطلبة، أو جفطاً في البيت، وكان قد شرع في تصنيفين كبيرين أحدهما في اللّغة والأخر في الفقه، ولم يتفق له إتمامهما. ثمّ حفظتُ أثناء دراستي بين يديه كراريس من كتاب سيبويه، وأكبيتُ على المُقتَضِب للمُبرّد، وكان النَّاس في زمانه قد اختلفوا فيه، فبعضهم اتّهمه بأنّه يضع في اللّغة ما ليس فيها، وقال آخرون إنّه لكثرة جفطه للغة وغريبها لم يكونوا يصدّقون ذلك، فنسبوا إليه الوضع والانتحال، ولكنّ كُتبه كانت لي شفاءً.

والمدرسة النّظاميّة بناء ضخم مهول، ودارٌ منيفةٌ عاليةٌ واسعة، متعدّدة الطّوابق، فإذا أتيت جهتها التي منها يدخل التّلاميذ في بوابتها الأولى، هالك الشّموخ، وواجهتُك الأقواس، والرّخارف، فلقد كان المدخل يرتفع أكثر من ثلاثين ذراعاً، وكان المدخل قوساً كبيرةً على طريقة العباسيين في بنائهم، وترتكز القوس المُدبّبة من الأعلى على عمودين أسطوانيين يرتكزان بدورهما على قاعدة ضخمة تكاد يصل ارتفاعها إلى طول الرّجل الرّبعة، ليس إلى طولي، فأنا كنتُ قصيراً، ولا ملاحه في وجهي، وبعضُ ندوب الجُدريّ من الصّغر ما زالت ظاهرة في صفحة خديّ، وربّما لأجل هذا كان يتأبى منّ يراني أن يأخذ عني!!

وكانت واجهة المدخل واسعة، تمتدّ عن اليمين والشّمال أكثر من منتي ذراع، وفي كلّ جهة طابقان، يُمكنك أن تميّز كلّ طابقٍ من الأقواس الصّغيرة قياساً إلى القوس الكبيرة التي على المدخل، وكلّ قوس أو قوسين يعني غرفةً من غرف التّعليم، وكانت الأقواس في الواجهة الأماميّة وحدها تربو على عشرين قوساً. فإذا عبرت المدخل العظيم، وواجهتُك السّاحة الفسيحة، التي كان يتلقّى فيها بعضُ الطلبة العلوم الخفيفة، أو كان بعضهم يُراجع لرفيقه محفوظه من القرآن أو من الحديث أو من النحو أو من غيرها، وكانت المدرسة على حروفٍ أربعة، كلّ حرفٍ منها يُشبه حرف الواجهة الأماميّة، والمدخل الكبير تواجهه بؤابة تماثله على الجهة المقابلة، وعلى الجهتين الأخريين من الدّاخل مثلهما أيضاً، وفي السّاحة أربع نخلاتٍ

في زمني لا أدري إن زدن عن ذلك أو نقصن بعد أن تركت هذه المدرسة ولم أعد إليها، وكانت واحدة منهن نخلتني، أعني النخلة التي أركن ظهري إلى جذعها إن لم يكن سبقني أحد إلى ذلك الفضل، فأراجع تحتها محفوظي، أما محفوظ المتنبي فكنث أراجعه بالزورق في نهر دجلة.

وكانت الساحة تعج بالطلّاب في ثلاثة أوقات، الأول حين يبدأ توافدهم من أنحاء بغداد وضواحيها قبل أن يدخلوا إلى غرفهم، والثاني في الاستراحة بعد صلاة الظهر من أجل تناول الطّعام، والثالثة وهم يخرجون كأسراب النمل قبيل العشاء الآخرة عاندين إلى بيوتهم، أو مرتحلين إلى قراهم ومُدنهم على الدواب، وكان هناك خانٌ للدواب التي يركبها طلبة العلم، وخانٌ آخر خاصٌ لدواب الأساتذة، وعلى الخائنين يقوم خدمٌ يرعون تلك الدواب ويُقدّمون لها الشّعير والماء والعناية، مقابل أكرة، وتستريح الدواب في

تلك الأثناء، وتتناول طعامها مثلنا حتى تكون قادرة على حملنا إلى مناطق دانية أو نائية.

وكانت فسحة الطّعام فرصةً للالتقاء بالطلّاب من أصقاع الأرض كلّها، والتّعرف إليهم، وسَماع أخبارهم، وأخبار بلادهم، بعيدًا عن أمور العلم والتّحصيل، ولقد سمعتُ أخبارًا عجيبةً تأتي من بلاد الرّوم، وأخرى أعجبتُ منها تأتي من بلاد ما وراء النهرين، وكنثُ أعدّها تهويلًا أو تزويقًا، وأقول: لا بأس من سَماعها من أجل التّرويح عن النّفس، مع أنني لم أكن لأصدّقها، فما معنى أن يقول لك أحدهم إن في بلاده أناسًا يعيشون برأس إنسان وجسم دابة، أو يقول لك آخر إن التماسيح في بلادهم أكبر من عشرة فيلة، وأنها إذا أرادت أن تدخل من باب المدرسة النظامية ما استطاعت لضخامتها، أو يقول ثالث: إنهم في بلادهم يأكلون الخفافيش والأفاعي والديدان والصراصير، لكن الأدهى من ذلك كلّه أنه كان عندنا في المدرسة من يعتقد أن الأرض موضوعة على قرني ثور كلما حرّك قرنيه حدثت الزلازل، فإذا سكن هدايت الأرض، أو من يقول بأن الأرض على ظهر حوت، والحوت يسبح في الفضاء!!

كانت أمي تزورني كلّ شهر مرّة، تأتي من درب الفالودج، وهي محمّلة بالأطعمة والأشربة، ولم تكن تنسى أن تأتيني بالحلواء التي أحبّها، وكانت تُعابني في هيتي، وهي تهتفُ بإشفاق: «إتكَ ازددت نحولاً يا بُني، ألا تجد ما تأكل؟». وكانت تمكثُ عندي في الدار ثلاثة أيام أو أربعة، تصنع لي فيها طعامي، وتغسل ثيابي، وتُجهز لي كراريسي، وكنثُ في الليل حين تفرغ مما شغلتُ به نفسها أستظهر لها ما حفظتُ في ذلك اليوم، ولقد درستُ على يد أبي، وكنثُ تصغره بعشرين عامًا، ولكنّها تعلّمتُ منه علمًا وافيرًا. وقالت لي: «ألا تذهبُ معي إلى سوق الصّقارين أشترى لك أكوارًا جديدة، وأنية نظيفة، فإنني رأيتُ ما عندك قد صدئ ورث؟». فأقول لها: «لقد صدئ لقلّة ما أستخدمة يا أمي». فتضرب بكفّها على صدرها، وتقول: «فكيف تأكل يا بُني؟ ألا تطبخُ هنا؟». فأجيب: «لا يا أمي، إنّما يأتيني به الخادم، ولقد وجدتُ وقت القيام بالطبخ إذا جُمع في العام فإنّه يساوي معرفة علم جديد». فتسألني: «وهل تريدُ بعد القرآن والحديث واللغة من علم؟». فأقول: «نعم يا أمي، أتوقُّ إلى الفلسفة والمنطق والطب».

ثمّ عزمْتُ على أن أوفي كلّ ما أنتجتُه المدرسة النظامية وشيوخها في علوم اللغة، وفرغتُ لذلك عامًا حتى إذا ما أنهيت ذلك، انتقلتُ إلى بغيتي في الطب. وكان لي ما أردتُ، إذ تجرّدتُ لما تبقى من كتاب سيبويه وشرح السّيرافي له، ثمّ قرأتُ على أبي عبّيدة الكرخي كتبًا كثيرةً منها كتاب (الأصول) لابن السّراج، وقد أخذتها من رباط المأمونية، إذ لم يكن في مكتبة النظامية منها نسخة، وكنثُ وفقًا لابن الخشاب، وقد اتّخذتُ منه أستاذًا فتعلّمتُ على يديه الفرائض والعروض للخطيب التبريزي، وفي الحقيقة فهمتُ منه دوائر الخليل بن أحمد، وكنثُ قد أشكلتُ عليّ في السابق، ولئن كان عميق الغور إلا أن له من الأخبار ما هو أشدّ غورًا في التّعجب من جلده، فمن ذلك أنّه حصلتُ له نسخة من كتاب (التّهذيب في

اللغة) للأزهري الذي يُقيم في المعرّة يومئذٍ، فجعل الكتاب في مِخْلَافٍ وحمَلَهَا على كَتِفِهِ من (تبريز) في بلاد فارس إلى (المعرّة) في بلاد الشّام، ولم يكنْ له ما يستأجر به مركوبًا فنَفَذَ العَرَقَ من ظهره إليها فأثّر فيها البَلَلُ!!

ورأيْتُ اختيارات (التّبريزي) لشواهد الأبيات في عَرُوضِهِ طريفةً تدلّ على ظرفٍ وسعة، ولا يكون ذلك إلا لمن أحسّ بموسيقى الشّعر تجري في جوارحه، ولا عجب فقد كان (التّبريزي) شاعرًا، وإنّ أجمل ما حفظتْ له قوله:

فَمَنْ يَسَامُ من الأسفار يومًا

فإنّي قد سَمِئْتُ من المُقامِ

أقمنا بالعراق إلى رجالٍ

لِنَامٍ ينتمون إلى لِنَامِ

ولقد كان صادقًا في البيت الأوّل، وهو في بيته الثّاني أصدق، فهل يكون ذلك داعيةً للرّحيل؟!!

ونهدتْ من جديدٍ لابن الخشّاب، وهو حديثٌ عهدٌ بموت، إذ لم يمرّ على موته عقْدٌ من الرّمان، لكنّ تصانيفه حيّة، وهل بعد الموتِ حياةٌ في دُنْيَا المرء إلا تلك التي تنهضُ بها كُتُبُهُ، ولقد كان.

ثمّ تركتْ هذا العامَ خلفي، وأقبلتْ على علومٍ جديدةٍ، فقرأتْ مقدّمة (ابن بابشاذ) في النّحو لتكون سبيلي إليه، لأعرف منه علوم الكيمياء والطّليّسمات، ومنه قرأتُ كتب (جابر بن حيّان) بأسرها، وأتيتُ على كتب (ابن وحشيّة) في العِلْمِ نفسه، ومنها كتابي السّحر الكبير والصّغير، وكتاب (طرد الشّياطين).

وكنْتُ مع كلّ هذه الأوقات المملوءة بالدّراسة والتّحصيل والبُعد عن اللّهُو، أجدُ ملالةً في نفسي، فأجلوها بركوب الزّوارق مع صاحبنا، نتذاكر أشعار المتنبي، أو أزور رباط المأمونية، فأطلع على كنوزه، أو آتي سوق الكُتُب، ودور الورّاقين، فأجدُ الدّلائل وهم يتفنّنون في عرض ما عندهم، وكانت الكتب تخطفُ قلبي بأشدّ ممّا كان الذهبُ يخطفُ قلوب النّساء،

ولقد كنتُ أنظر إلى الكتاب في يدي، مثل العقد في جيبِ الحسنة، وأتذكرُ بيت أبي الطَّيِّب: «وفي عُقِّ الحسنة يُستَحْسَنُ العِقْدُ»، فأهمسُ لنفسِي: «وفي يد أهل العلم تُستَحْسَنُ الكُتُبُ».

كان دلالُ الكُتُبِ الأشهر (أبو المعالي الخزرجيّ) قد رحَلَ هو الآخر، قبل تسع سنواتٍ، ولكنّه على شاكلة دلالِي الكُتُبِ اليوم لم يكنْ فقط يبيع الكُتُبَ، فقد كانتْ عشرته الطَّويلة لتلك الكُتُبِ الدَّاخلَة إلى متجره، والخارجَة منها قد صنعتْ منه أديبًا أو دُؤَاقًا، فقد أَلَفَ الخزرجيّ، وهو لم يجلسْ يومًا واحدًا في مجلسٍ علمٍ، كتاب (لُحْمُ المُلْحِ)، وكتاب (الإعجاز في الأحاجي والألغاز) وقد صدره بمقدِّمة في فنون الألغاز وأقسامها، وجاء بالألغاز مُرتَّبة على الأبجدية حسب حروف الرويِّ، وهو يذكر بعد كلِّ لغز تفسيره وما ألغز به. و(صفوة المعارف) وهي قصيدة في تاريخ الطَّبَّيعة، وكتاب (زينة الدَّهر وعصرة أهل العصر) وذكر فيه أُلطاف شِعْر العصر، وفيه أخبار شعراء عصره، ومَنْ تقدَّمهم. وأنتَ ترى أنْ أكثرَ كُتُبِهِ في مختاراته ممَّا وجد في بطون الكُتُبِ التي تستقرُّ في بطن دُكَّانه، وكنتُ أقضي مع هؤلاء الدَّالِّين وقتًا خفيًّا، أسألهم عمَّا لديهم من الكُتُبِ، وأناقشهم في بعض المسائل، وأشتري ما كان نادرًا وثمينيًا.

وكانتْ في بغداد سوقٌ كبيرةٌ للكُتُبِ، مثل أيِّ سوقٍ من أسواقها الأخرى، من الخيَّاطين والبرَّازين والتَّجارين والصَّفَّارين، ... وغيرهم، وما كانتْ سوقٌ لِتُجور على سوقٍ، وكان كلُّ واحدٍ يأخذ حَظَّهُ ممَّا يشاء.

وإنني بدأتُ أضيِّقُ بأهل بغداد، أو يضيِّقون بي. أو أنني لم أجدُ جديدًا في كتاب من كُتُبِ أسانذتها، أو أنني أتوقُّ إلى بلادٍ أخرى، فإنَّ أرضَ الله واسعة، ولقد شعرتُ أنّه لم يعدْ في وُسعي أنْ أخذَ من علوم اللُّغة والتَّحو والفقهِ والكيمياء ما يُضيفُ إلى ما عندي، وأنّه لا مزيد إلا بعلمٍ طريفٍ كلِّ الطَّرَافَة، فمالتُ نفسي إلى ثلاثة؛ المنطق، والفلسفة، والطَّبِّ، وإنني لسأع إليها بأشدِّ من سعيها إليّ.

وتغيَّب أبو البركات عن حلقاته في المدرسة النِّظاميَّة، وكان قدرُه على بابِ بيته، فلم يُخطِّئه، بيدَ أنني كنتُ قد وعيتُ كلَّ ما لديه، فلمَّا كان ذلك انفرطَ عقده، ودُفِنَ وسطَ بُكَّاء تلامذته في (باب أبرز) بترية الشَّيخ (أبي إسحق الشَّيرازي) عام ٥٧٧ للهجرة، وكنتُ في العشرين من عمري، وكان الموتُ كان يُمهِّلُ الشُّيوخَ حتَّى أتلقَى على أيديهم غاية ما أوَمَّل، ثمَّ يشربون من كأسه، وينبِتُ الحبل، وإلى الله تصير الأمور! “

” (٨)

أنا سَجِينُ خَيالاتي!

انهَدَّت الواجبةُ الأماميَّة في المدرسة النِّظاميَّة، سقطتْ كأنَّها ضُربتْ بمنجنيقٍ فيه قذيفةٌ تزُنُ عشرين قنطارًا، هوت الحجارة وتناثرت على الأرضِ مُخَلِّفةً دمارًا كبيرًا، دُفِنَ تحت الرَّدَمِ العشرات من أولئك الذين كانوا يمرُّون تحتها لحظننذٍ، وخفتتْ صرَّخاتهم رويدًا قبل أن تنتهي تمامًا وهم يستغيثون طلبًا للنَّجاة من الموت الذي لم يتركْ حيًّا منهم، هل قامت الحرب؟ مَنْ يُعلِنُ الحربَ على بغداد؟ مَنْ يُعلِنُ الحربَ على مدينة السَّلام؟ كيف لمجنونٍ حتَّى ولو كان ملكَ الزَّمان، وسيِّد

الدَّهر أن يضرب منارة العِلم؟ مَنْ تُسَوِّل له نفسِي أن يعتدي على حرمة المُقسَم به في الكتاب؟ هل ما يحدثُ حقيقي؟ أهنالك عاقلٌ يقوم بهذا؟ كانت الأسئلة تنهمر على عقلي وأنا لا أزال تحت تأثير المشهد المُفزع، لكن ذلك المشهد لم يكن سوى البداية، لقد كان القَتلة يُعدّون المنجنيق لقتل كثير من طُلُت تقصف المدرسة وبغداد وأنهارها وقناطرها وبيوتها من الصَّباح حتَّى المساء. إنَّها الحرب إذًا؟ لكنَّ مَنْ سيّد هذه الحرب الطاغية؟ لماذا لم يكن لهذا الهول من مقدمات؟ لماذا أفقنا عليه من دَعَة؟ وصحونا على ناره من تَرَف، وجاء على سَهو؟ هل الحرب المُعلنة حربٌ رابحة؟ كلا؛ على الحرب أن تكون مُباغِة تمامًا مثل الموت! كانت النَّيران تشتعل في كلِّ مكان، هل هي النَّيران التي تأتي من المشرق وتُضيء أعناق الإبل في بصرى؟ هل قامت القيامة؟ ما الذي يجري في دار السَّلام؟ هل صرنا على أبواب جهنم؟ أين هي الآخرة؟ هل هناك مهرب؟ صوتٌ قال لي: «لا مقام لك فيها، لقد خربت، كما خربت المدائن من قبلها، إن لم يكن اليوم فغدًا، إن لم يكن هذه السَّنة فبعد سنوات، إنَّها ليست ديارك، لا تكن واهمًا؟ إنَّها حنُفك، بغداد حنُفك، ليس فيها من السَّلام شيء، إنَّها تلالٌ من الجماجم المتفحمة، والعظام البالية، والأجساد المحروقة، لم يعد لك فيها موضعٌ فارحلُ أيَّها العاشق!! من فوق أسطح داري، رأيتُ نهر دجلة يشتعل هو الآخر، كانت السَّفن والزوارق فيه تحترق، وبساتين النَّخيل القريبة منه تحترق، والماء يفور بالنَّار!!

كان حُلْمًا كأنَّه حقيقة، لا بُدَّ أنَّه حُلْم، صحيحٌ أنَّني أسمع أصوات القذائف في هذه السَّاعة المتأخِّرة من اللَّيل، صحيحٌ أنَّني أرى من نافذة داري من هنا الحرائق تشتعل في تلك البُقعة التي من المُرجَّح أنَّها المدرسة النَّظامية، كلُّ شيء في هذا اللَّيل، وفي هذه الأحلام، وفي هذه الدَّار يبدو حقيقيًا.

نزلتُ إلى الأسفل، ركضتُ حافيًّا في الفناء وأنا عاري الرَّأس خفيف الثَّياب، وصلتُ إلى الباب، فتحته، فرأيتُ أناسًا بملابس بيضاء يركضون في الرِّقاق، كانوا يركضون فزعين ينظرون خلفهم كأنَّهم يهربون من شيءٍ ما، وكان أكثرهم نساء، ما هذا؟ إلى هذا الحدِّ تتجسَّد الأحلام؟! لا يُمكن أن يكون هذا حقيقةً، لكنني أشاهده، وأنا ما أزال أفنح الباب، مُسبِّغًا إحدى ظرْفَيْه بيدي، هزرتُ رأسي، ازداد عددهم، كانوا يصبحون بكلماتٍ لم أفهمهما؟ حاولتُ أن أصغي إلى الصَّرخات، هل هم يتكلمون العربيَّة؟ أمسكتُ أحدَهم ممَّن أستطيع الإمساك به لقلَّة حجمه مثلي؟ سألتُه: «ما بك؟ ممَّ تهرب؟ إلى أين؟». لكنَّه شدَّ ذراعه من يده، ونظرَ إليَّ نظراتٍ مرعوبةٍ وركضَ وراء الجموع!!

استولَى عليَّ الفزع، ركضتُ إلى الماء، غسلتُ وجهي، تذكَّرتُ المكتبة، هُرعتُ إليها، لا تزال بخير، عُدتُ إلى السَّاحة، الكرسيُّ الذي أجلسُ فوقه في الأماسي لمراجعة ما أحفظ كان لا يزال على هيئته كما تركته في اللَّيلة السَّابقة، إنَّه بخير هو الآخر. صعدتُ ثانيةً إلى سطح الدَّار، رأيتُ ذوي الملابس البيضاء يذبَّحون، الرِّجال والشَّباب والفتيان، كانوا يلقون بعدد الذَّبْح في النَّار، أو في الحُفر العميقة، ويهال فوقهم الرِّدم؟ هل أنا أرى ما أرى؟ لماذا هذه الأحلام في هذه اللَّيالي؟! أهو تأثير قراءتي لكتب الكيمياء والسِّحر؟!

عُدتُ للهبوط، ذرعتُ فناء البيت بحركةٍ مُضطربة، من هنا لا زلتُ أشاهد النَّيران تصعدُ إلى الأعلى، لا بُدَّ أن حُلْمًا كهذا لا يعيش إلا في عقلي، هممتُ أن أجلسَ على الكرسيِّ القريب وأرتاح، عدلتُ عن ذلك، هُرعتُ إلى الحَمَّام، توضأتُ، كان الماء باردًا ممَّا ساعدني على أن أستعيدَ بعضَ الوعي والصَّحو، صليتُ ركعتين، وأطلتُ السَّجود في الثَّانية، وهنفتُ: «يا الله عَجَلٌ بخلصنا!».

تركتُ الصلّاة، وصعدتُ إلى الغرفة التي أنامُ فيها، اضطجعتُ وأنا أتلمسُ جوانبي، لم تتركني المشاهد، ظلّت تعتمل في عقلي، لم أنم، لكنني صحوّت على صياح السّاقى في الفناء وهو يطلبُ أجرته بعد أن ملأ الجرار والقلل. لعنةُ الله عليك أيّها السّاقى. أعني، لم يكنْ ذلك كلّ حقيقة؟!!

إنّهم يفعلون ذلك في (البيمارستان)، شيوخ الطّب يقومون بتشريح الأجساد الميّتة، أو المُتفحّمة، إنهم يفحصونها بأدواتٍ من حديد، وملاقط معدنيّة، ورؤوس مُدبّبة، ويُدبّمون النّظر في أطرافها، هل يفعلون ذلك من ليلة أمس؟ لماذا يقفون منشرحي الصّدر وهم يُعدّدون أعضاء الجسد للطلّاب الذين يقفون مثل البُلهاء؟ ألهذا الحدّ مهنة التّشريح مُمتعة؟!!

صارث نظرات الرّيبة تأكل قلبي، عيناى لم تعودا لي، أعني صرث أبصر بهما ما أفكر به وما أتخيّله، أتخيّل أشياء كثيرة جميلة، وأخرى غايةً في الفُبح، أنا رهينُ ما أفكر به، أنا سجينُ خيالاتي. جسدُ الإنسان المعجزة. ذوو الملاءات البيضاء هم ضحايا الإنسانيّة، وهم مُنقذوها، كيف يُمكن تفسير اللّون الأبيض في حالة الحرب أو الموت أو الرّحيل؟!!

حدائق الزّهور التي تملأ السّاحة أمام (البيمارستان) خادعة، تُخفي غير ما تُبدي، مُواربة، إنّها مثل الحقيقة الخياليّة التي رأيّتها قبل أيّامٍ في منامي، إنّها تريدُ أن تُريك النّور فيما العتمة تُسيطر على كلّ شيءٍ، تريدُ أن تهيك أمل الحياة فيما جَزَع الموت يُخيم على كلّ روح، ويُطلّ برأسه من كلّ زاوية!

الفلسفة قد تكون مخرجًا. العقل الذي لا يكفّ عن التّفكير تُريحه الفلسفة، لا بُدّ من الغزاليّ إداً. عزّله صنعته منه فيلسوفًا. العزلة التي تضجّ بالإنسان، بالعقل، بكلّ كلمةٍ هي من الله. العزلة التي تهبّ خلّقًا آخر. ما كان لعقلٍ مثل عقل الغزاليّ أن يكتب (إحياء علوم الدّين) لو لم يعيش هذه العزلة. أن تكون وحيدًا في مواجهة أفكارك. تتخلّص من أنك، من أجل الأنا العالوية، أنا الفلسفة، حينَ يكون ذلك التّجرّد صديقًا يتمثّل لك الوحي. لا وحي دون عزلة. ولا كتابة دون وحي.

كان كتابه (الإحياء) هو الأسير، لكنّه لم يكنْ لامرئٍ أن يعرف ما هو الغزاليّ إن لم يقرأ كتبه الأخرى، كان صوفيًّا فيلسوفًا زاهدًا، لعلّ ما قاله النّبىّ لأبي ذرّ، هو الذي ساق الأخير إلى أن يجيء إلى هذه البقعة الطّاهرة في بيت المقدس؛ «يا أبا ذرّ: أتري كثرة المال هو الغنى؟ قلتُ: نعم يا رسول الله. قال: إنّما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب». كلّ هؤلاء فقراء القلوب أيّها الإمام، لولا هذا الفقر لمكثّ هذا العِلم في هذه الأرض!

لم يعد لي من النّوم بعدَ اليوم إلاّ اليسير، إنّها سنواتٌ، وهذا الجسد يختم رحلته، أريدُ أن أرى الله في كلّ مكانٍ، أريدُ أن عرف حِكْمته في كلّ سبيل، لقد جئنا لنراه فيما صنع، فهل نظرنا إلى ما صنع بعيون القلوب؟ ها أنذا أعودُ إلى ملاذي وحيدًا، خاليًا من كلّ شيءٍ إلاّ منك، فلماذا أملاً أدنّي بطنين البشر الذين يحجبون عني حِكْمتك؟!!

أكببتُ بعدَ تلك اللّيلة على قراءة ما استطعتُ الوصول إليه من كتب الغزاليّ، قرأتُ (مقاصد الفلاسفة)، و(ميزان العمل)، ثمّ (معيان العلم)، و(محكّ النّظر) وكلاهما في المنطق. وعرفتُ أنّ رحلة الغزاليّ مع الشكّ قد زادنتني شكًا، كتب الفلسفة تُبعثر لكي تجمع، وتبتعدُ مسافةً كافيةً عن الدّات لكي ترى.

صار البيت موجشًا، باردًا، يمرّ فيه الزّمن ببطء. ما أبطأ الزّمن! مللتُ من كلّ شيءٍ فيه، جدرانها، شجرته التي في الفناء، وكرسيّ الأماسيّ الرائعة، وغرفة القراءة، والكتب التي تتراكم فوق الرّفوف، والصّناديق، والرّقوق، والمحابر، والأقلام، والكراريس... إتنى أتوقُّ إلى أنس، أفكون أبحثُ عن زوجةٍ؟ كلاً، فأنا ما زال أمامي دروبٌ عليّ أن أسلكها قبل أن أقع في هذا الفخّ، لكنّ ما الذي يُونس غيرُ الكتاب؟ هل كتب الفلسفة هي ممّا يبعث على هذا الوحشّات المُتتابعات؟ ألم تكن لك شفاءً أوّل ما غمست روحك في جبرها؟ ما الذي يحدث لروحي حتّى تبحث عن سبيلٍ أخرى، وحياةٍ جديدة؟

تسلّلت عبر الدّرجات المُفضّيات إلى الطّابق الثّاني حيث أنام، تنساب انسياب الماء في المنحدر، وهي تزحفُ بجسمها اللولبيّ اللّين إليّ، إنّها أفعى سوداء، تلك الأفعى التي رأيتها تخرج من مقابر القاهرة، إتنى أراها كما لو كنتُ مُستيقظًا، إنّها تقترب من سريري، دُعرث، أعرث أنّها ستلدغني، ما الذي عليّ فعله؟ حاولتُ الهروب، لكنني لم أستطع، إنّها تواصل زحفها المُमित إليّ، شددتُ الغطاء على رأسي كي لا أراها، لكنني بقيتُ أراها، ها هي تقترب، رجلاي مكشوفتان، قدماي عاريتان، وهي تتسلّل إليهما، إنّها تُخرج لسانها ذا الشّعبتين، ها أنذا أراه يهتزّ في الهواء مُلوّحًا بالسّم الذي ستصّبه أنيابها في جسدي، إتنى لا أستطيع الحراك... لقد... لقد لدغنتي الملعونة، لدغنتي وانسلتُ عائدة، ماذا؟ هل سأموت؟ ماذا يحدث لجسد المرء إذا سرى فيه السّم؟ هل هذا سؤال؟ بالطبع سيموت! لكنني لا أريدُ أن أموت، ما زالت أمامي بلادٌ كثيرةٌ أحلم بالسّفور إليها، ومسافات بعيدة عليّ أن أسير فيها... وصرختُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة: أنا لا أريدُ أن أموت... لا أريدُ أن أموت... وصحوتُ

في (البيمارستان)!

” (٩)

البيمارستان

على النّهر، قريبًا من محلّة باب البصرة، في مهيع ممتدّ من الأرض من أجل أن يطيب الهواء، بعيدًا عن السّوق حتّى لا تكون أصواتُ الباعة والدّوابّ مسموعة، وفي أرضٍ مفتوحةٍ يقع (البيمارستان). بناؤه فخم، يتوزّع على أبنيةٍ متعدّدة كلّها فسيحة الأبهاء، مكوّنة من طابقٍ واحدٍ، الأبنية من الجهات الأربع، الجهة التي تقع على النّهر كانت أجملهنّ وأجملهنّ. كلّ بناء يتخصّص على الأغلب في مجالٍ من مجالات الطّب، كان هناك قسمٌ للأمراض الداخلية، وقسمٌ للعيون، وثالثٌ للجراحة والتّشريح، ورابعٌ للكسور والتّجبير، وحتّى قسم الأمراض الدّاخلية كان يتوزّع على أقسامٍ أخرى متفرّعة عنه، وفيما بعدُ استُحدث قسمٌ للأمراض العقليّة، وجُعِل جهة النّهر.

كان يتوسّط الأبنية الكثيرة ساحةٌ واسعةٌ خضراء، دائمة الطّلّ والنّدى، تسقيها نوافير من الماء فتبقيها رَيّانة، وكانت مغروسةً بالأشجار المّشمومة والمأكولة، وكان الماء يُسحب من دجلة إليها كلّ يوم، ويجري في أوصالها جريان الدّم في العروق.

صحوث على السرير فرأيت رجلاً يتسم وهو يكتب على ورق كان معه، سألتني: «أتيت البارحة؟». لم أجبه، تلفتت بتناقل حولي، وسألت: «أين أنا؟». ردّ: «أنت في البيمارستان، لقد مرّت». قلت مُستغرباً: «ما الذي مرّ يا حكيم؟». مبتسماً من جديد: «السّم لم ينتشر في جسدك كثيراً، بجراحة بسيطة استطعنا أن نسيطر عليه». «هل...» وترددت، وأكمل عني كمن يتوقّع أنني أعرف أو أنني متأكد: «نعم، لقد لدغتك أفعى، أفعى سامّة جدّاً، لو لدغتك...» وقبل أن يكمل نهضت من سريري كمن لدغته أفعى بالفعل، وكدت أقفز على الأرض لولا أنّ الطبيب تداركني، فيما رحّض أنظر في وجهه وفي ما حولي، وأهمس: «غريب، هل الذي رأيته...»، وتوقفت لبرهة قبل أن أكمل: «كان حقيقة؟! يعني لم يكن حُلماً؟!». وبدت علامات الاستفهام على وجه الطبيب، لكنّه قال: «عليك أن ترتاح حتى يستعيد بدنك عافيته».

بتّ ليلتين، في اليوم الثالث، حيث كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً في الأفق، ودخل ضياؤها القلوب قبل الجدران، نزلت من السرير، ورحت أطوف على الأقسام، وأدور بين الغرف، كان كلّ شيء هنا يُشعر بالراحة، قلت لنفسي: «لو كانت هنا مكتبة لأقمت في هذا المكان عامّاً لأقرأ كلّ ما فيها...». قبل أن يخطر ببالي خاطر آخر: «ولم لا آتي بكتبي إلى هنا، واقرأ». ثمّ راح خاطر ثالث يدور في خلدي: «ولماذا تريد أن تأتي بكتبك إلى هنا لتقرأ؟ إنّما هذا المكان للاستشفاء...» ووجدتني أغلظ نفسي: «وما الذي يمنع، فالقراءة أيضاً استشفاء». «ولكنّ (البيمارستان) ليس دار قراءة ودروس، إنّما أنت مريض عابر، وعليه أن يستقبل مزيداً من المرضى الذين يُريحون أجسادهم أو أرواحهم هنا قبل أن يواصلوا مسيرهم أو مصيرهم خارجين من هنا إلى غايات شتى». وعنّ ببالي وأنا أطوف حول الحديقة الغناء أن أسأل أحد الأطباء فيما إذا كانت هناك مكتبة!

كان المرضى يُحملون من محلاتهم أو مدنهم أو قراهم على عربات نظيفة، تجرّها خيول قويّة، أو على دواب إن استطاعوا، أو راجلين، ويكون في استقبالهم عددٌ من المُمرّضين، وكانت ساعة الضحى تعجّ بالمرضى أو ذويهم أو الزائرين أو الأطباء، كان هذا (البيمارستان) يستقبل المرضى من أهل بغداد والعراق كلّها، ولكنّه لا يُغلق أبوابه في وجه أيّ غريب كذلك، ولا يدفع فيه المريض شيئاً لقاء تشافيه، إذ لن تجمع عليك السلطة فقر المال إلى فقر الصّحة، ولو كنت لا تملك مالاً، فإنّها تعطيك ما يُبلّغك حاجتك أو أن تخرج مُشافئ. هكذا قيل لي من مساء أمس حين سامرت أحد المُمرّضين الطّرفاء، عنّ ببالي أنّه يُمكن أن يكون الشّخص المُناسب أن أسأله عن المكتبة!

مرّ نهارٌ كاملٌ وأنا أطوف فيه، الأطباء ينفقون المرضى، يومي الاثنين والخميس، كلّ طبيب حسب اختصاصه، يُطالعون أحوال المرضى، ويُرتّبون في الأوراق التي بين أيديهم أخذ ما يحتاجون إليه، ويتبع للأطباء عددٌ من الكيميائيين الذين يمثلون لهم في طبخ الأدوية والأغذية، ويُحدّدون معهم المقدار لكلّ مريض، وكانت توضع لكلّ مريض دوارق صغيرة أو محاقن تحتوي الأدوية التي عليه أن يتناولها، وعلى كلّ دورق تجد اسم المريض، وعدد المرّات والمقادير التي عليه أن يبدأ بها.

وعدت إلى الغرفة التي خرجت منها، فوجدت على بابها الممرّض الطّريف عاتباً عليّ: «لقد خرجت دون أن تُعلمني، عليك أن تتناول هذه المقادير»، وسألته إن كان وصفها الطبيب، أم هو، فردّ: «أنا». فقلت: «وأنّ تُحسّن ذلك؟». فقال: «نحن مُساعدو الأطباء، بيننا وبينهم درجة في التّحصيل، فإنّ حصلنا صرنا مثلهم». فأعجبني ذلك، وسألته: «وهل في المستشفى مكتبة؟». فردّ: «أكبر من مكتبة المدرسة النظاميّة».

اتّسعت حدقتا عيني، وفتحت فمي مُندهِشاً: «هل أنت واثق ممّا تقول؟ أنا أدرس في المدرسة النظاميّة، ولم أر أكبر منها في بغداد، ولا حتى في سوق الكتب، ولا في بيوت الشيوخ والأساتيد». فردّ مُناكفاً: «ذلك لأنك لا تعرف ما بغداد، بغداد

التي في عقلك غير بغداد التي في الحقيقة». فأمسكتُ به من ذراعه، وقلت: «دُلني الآن عليها». «سأفعل، لكن لا تُحجني إلى أن يُسألني الطبيب عن غيابك». «ألا يأتي الأطباء لمُعينة مرضاهم صباح يومَي الاثنين والخميس؟». «بلى». «إِذَا أَكُون حَاضِرًا هُنَا فِيهِمَا، وَأَكُون حَاضِرًا هُنَاكَ فِيمَا سِوَاهُمَا». «هَذَا يَنْفَعُ مَدَّةَ إِقَامَتِكَ هُنَا». «وَكَمْ قَالَ لَكَ الطَّبِيبُ إِنِّي سَأَقِيمُ؟». «أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ فَحَسَبَ». « إِذَا أَمَامِي يَوْمٌ وَاحِدٌ، هَيَّا لَا تُضَيِّعِ الْوَقْتَ ».

وانفتحتُ أمامي كنوزٌ، كان يومًا واحدًا في العَدِّ، ولكنّه استمرَّ عامًا كاملًا. إنَّها بالفعل مكتبةٌ ضخمة، صحيح أنها ليست أكبر من مكتبة المدرسة النظامية، ولكن كتب الطب فيها أكثر بكثيرٍ من كتب الطب في مدرستنا، بل أكثر من أيِّ كتبٍ في أيِّ مكتبةٍ أخرى. ومن هنا بدأت رحلتي مع الطب!!

كان (البيمارستان) مدرسةً في الطب، ولم يكن مشفىً فحسب، كان يدرسُ فيه طلبةُ الطب كما يدرسُ في النظامية طلبةُ العلم، وكان طلبةُ هذه المدرسة الجديدة أشدَّ ورعًا في النظر إلى العلم من أهل تلك المدرسة لو أردتُ المقارنة، وأدقَّ نظرًا، وأصبرَ على الدرس، وأخوفَ على الفهم!

ولقد رأيتُ الطبيب الأستاذ الشيخ، يمرُّ على المرضى في الصِّباح، ومعه مُساعدوه من صِغار الأطباء الذين لم يُتَمِّمُوا درجاتِ تحصيلهم، فَيُعَلِّمهم، ويجعل جسدَ المريض كُرَّاسته، فيشرخُ عليه أمامهم، فيتبعونه بأبصارهم يدونون ما يقول في رقوقهم أو كُتُبهم، ثُمَّ يصفُ العلاج، أو مقادير الأشياء التي تُنتجُ العلاج، وهم يراقبون ويتعلَّمون ويكتبون من ورائه، ثمَّ ينتقل الشيخ الرئيس معهم من تلك العُرْف بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله المُتعلِّمون، فيفتح الكتب الطبية التي يدرسونها وقتننذ، ويقرأ عليهم، ويشرح أعراض الأمراض، وأسبابها، واحتمالات الإصابة بها، ويجب بعدها عن أسئلتهم.

وانخرطتُ أنا في هذه السبيل، ووجدتُ في تعلُّمه لدَّة، وكان عليَّ أن أبيت في (البيمارستان) عامًا كاملًا كي أحصل العلم، وبدأتُ بقراءة كتب الشيخ الرئيس (ابن سينا) صغيرها وكبيرها، كانت كُتبه كلها موجودةً في صناديق (البيمارستان)، فحفظتُ كتابه (النَّجاة)، ثُمَّ عرَّجتُ على كتابه (الشفاء)، ثُمَّ (القانون)، ومضيتُ في الوسائل المُتَّبعة عنده، ولأنني أخذتُ النَّد عن أبي البركات، وتعلَّمتُ منه ألا أقبلَ كُلَّ ما يُعرَض عليَّ فقد خالفته في بعض وسائله، وفي بعض وصفات أدويته، وزعمتُ أنَّ دهره وقد مضى عليه قرنان من الزَّمن قد كان يصلح لأهل زمانه، وأنَّ لزماننا ما يصلح له غير ما قاله (ابن سينا)، ووجدتُ عنده بعضَ التَّهويمات في المنطق، وبعضَ التَّخاريف في الفلسفة، وأمَّا ما أخذته عنه في الطب فكان وإفْرًا.

ثُمَّ كان عليَّ أن أعيش في هذا (البيمارستان) عامًا آخر أتبعُ ذبول الأطباء الأساتيد إلى قاعاتهم، وإلى عُرْف التَّشريح، ومطابخ الأدوية، وكان ذلك من أجل أن يسمحوا لي أنا والطلبة الآخرون بأن نصبح أطباء، ونفردَ بالمُعالجة، إذ إنَّه لم يكن من قبل يُسمح لنا أن نعالجَ أيَّ مريضٍ في هذا (البيمارستان) من دون وجود طبيبٍ شيخٍ يراقبنا. وكان من أجل ذلك يُعقد امتحانًا مرتين في العام، وقبل الامتحان كان علينا أن نتقدَّم برسالةٍ في الفنِّ الذي نُريدُ أن نفردَ بممارسته، فاخترتُ التَّشريح، ووظائف الأعضاء، وعرضتُ الرِّسالة على مجموعةٍ من الأطباء الشيوخ فناقشوني فيها، ثُمَّ أجازوها، ولم يعد بيبي وبين لقب الحكيم إلا الامتحان.

ليلة الامتحان أراد الطبيب الشيخ أن يبيت فينا الحذر، ولكنه في الحقيقة بثّ في قلوبنا الرعب، قال لنا كأنه يقرأ من كتاب: «وقد اتفق في عام ٣١٩ هـ أيام الخليفة المقتدر أن بعض الأطباء أخطأ في علاج رجلٍ فمات...» فضجّت القاعة بالهمهمات، ولكنه نظر في عيوننا متحدّياً، ماطاً الكلمات حتى يكون تأثيرها أقوى: «فأمر الخليفة أن يُمتحن أطباء بغداد جميعهم من جديد، فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد وقتنّذ، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانمئة طبيب ونيّفًا وستين طبيبًا، هذا عدا عن أولئك الذين لم يُمتحنوا من مشاهير الأطباء، وعدا عن أطباء الخليفة والوزراء والأمراء...» ثمّ سكت قبل أن يُتِمّ: «وليس أمامكم إلا أن تجتازوا هذا الامتحان، فإن أخفقتُم طردتم، وإن مات بين أيديكم مريضٌ مُتَمّ.»

” (١٠)

الخروج من بغداد

وكان أعجب ما في (البيمارستان) المرضى الذين فقدوا عُقولهم، وكنتُ أطوفُ بينهم، أجلسُ إليهم وأحاديثهم، وأستمع إلى أقاصيصهم، فلو أردتُ أن أؤلّف في ذلك كتابًا لعلتُ، ولكنني شغلتُ بالاستماع إلى طرائفهم عن الكتابة فيها. وكانوا - على جنونٍ فيهم - أظرف الناس وأملحهم حديثًا.

وكان عددٌ من هؤلاء ممّن وردوا من التّعور بعد الحروب، ومن الحثّاشين الذين تبعوا (الحسن بن الصّبّاح)، ومن الذين لا وارث لهم، ومن أولئك الذين غلب عليهم السكر حتى أخذوا من المزابل وجيء بهم إلى هنا كي يبرؤوا. وكانت الأشجار والأزهار التي في رواقهم أجمل ما في (البيمارستان) كلّها، وكان رئيس الأطباء يصرف لهم طعامًا أوفر ممّا يصرفه لسواهم.

ورأيْتُ فيهم مَنْ كان يمشي في شوارع بغداد في الليالي لا يجد ما يسدّ به رَمَقَه، فيتبع القنر، فيتسخلص منه ما وجدته صالحًا للأكل، فيمسحه بيده ويأكله، فإذا أكل خرج إلى برّ دجلة، فنام في ظلّ نخلة حتى يُصبح، فإذا أصبح عاد إلى المشي يستصلح الأقدار، ويتبع المزابل، فلما أوى إلى هنا أنشدني:

يا دارُ غيركِ البلى ومَحَاكِ

يا ليت شعري ما الذي أبلاكِ؟!

فعلمتُ أنّه كان صاحبَ عزّ فذلّ. فرق له قلبي.

في السنة الثانية في (البيمارستان)، وقد إلى هنا رحالة قادم من المغرب، كان رجلاً في الأربعين من عمره، وجيهاً في قومه، حسن الهيئة، رقيق الحاشية، فطاف معه عدد من الأطباء يروونه (البيمارستان)، ويصفون له أنحاءه، وهو يستمع استماع الأديب الأريب، وكان قد قدم من الأندلس من غرناطة، وقد طاف بلاد أفريقيا وركب البحر والبر وعبر بلاد الشام، حتى وصلت ركابته إلى بغداد، وجلسنا معه مرة أو اثنتين بعد ذلك، فحدثنا أحاديث عجيبة عن أسفاره، وكان أكثرها هولاً ما رواه ممّا رآه في ركوبه البحر، ومخاطره، وأتهم فيه كانوا يموتون في الأمواج العاتية والرياح العاصفة في اليوم عشر مرّات، وقد وصف لنا الصوّاري والسفن بأدق وصف، ورتب الكلام حتى خيل إلينا أننا نراها بأعيننا، فأثر ذلك فيّ، وعزمت في نفسي أن أتبع منهجه في هذا الوصف، ثمّ حدثنا عن الناصر (صلاح الدين)، فقال عنه: «إنّه لا يأوي إلى راحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرّجه مجلسه». فذكرتني عبارته الأخيرة قول المتنبي:

مَفْرَشِي صَهْوَةُ الْجِصَانِ وَلَكِنَّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدٍ

وحبّب إليّ وصفه لصلاح الدين صلاح الدين، فتفتت إلى أن أراه، فعقدت على ذلك العزم أيضاً. كان هذا الرّحالة الأندلسي هو (ابن جبير).

ثمّ حدثت بيننا حوارات، وكان في زماننا شيخنا (ابن الجوزي)، وهو فقيه وأديب وخطيب، وكان لطيف الصوت، خلو الشمائل، رديم النعمة، موزون الحركات، لذيق المفاكحة، يحضر مجلسه مئة ألف أو يزيدون، ويتوافدون إلى السّاحات حين يُعرف موعد ذلك. لا يُضَيّع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربع كراريس، ويرتفع له في كلّ سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى سبّتين. وله في كلّ علم مشاركة. وكان يُراعي حفظ صحّته، وتلطيف مزاجه. لباسه الأبيض الناعم المطيب. ولكته إلى ذلك كله كان كثير الوقية في الناس، لا سيّما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له. فقال لي ابن جبير: «إنني أريد أن أحضر له مجلساً قبل أن أترك هذه البلاد». فقلت له: «حُبّاً وكرامةً، أتريد مجلس العامّة أم مجلس الخاصّة؟». فقال: «وما شأن كلّ واحدٍ منهما؟». فقلت: «إنّ مجلسه الذي يجلس فيه العامّة يكون يوم السبت في دار الشيخ بإزاء شطّ دجلة، وأمّا مجلس الخاصّة فيكون يوم الخميس بباب (بدر) في ساحة فُصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه». ففكر قليلاً ثمّ قال: «بل مجلس العامّة». فأخذته إليه، وكانت دار ابن الجوزي في باب (البصليّة) من آخر أبواب الجانب الشرقي، فاجتمع الناس له، فصعد المنبر، وكان أمامه العامّة، وأمامه القراء، فابتدؤوا بالقراءة وعددهم قد نيف على عشرين قارئاً، فيأخذ الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونّها، على نسقٍ شفيف، بتشويق، وتجويد، وتطريب، فإذا فرغوا، تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون على قراءة الآيات حتى ينتهي عددهم، وقد أتوا بآياتٍ مُتشابهات من سورٍ مُختلفات، فقام الإمام ابن الجوزي فابتدأ خطبته ودرسه، فأتى برقائيق من المواعظ طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، فبدأ الناس بالبكاء حتى ضجّوا به، وسخت الدموع مدراراً، وولّهت لقوله النفوس جراراً، فكان أخذ الناس بخطام قلوبهم. والتفتت إليّ ابن جبير وقال: «لو لم نركب نبيج البحر، ونعتسف مفازات الفقر، إلاّ لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرّجل، لكانت الصّفقة الرّابحة، والوجهة المُفلحة النّاجحة».

ولقد جررت في بغداد بعد ذلك ذيولي، وملاّت من علومها قلبي فوعى، ولم يكن لي بعد أن فعلت ما فعلت إلاّ أن أمشي، أمشي في طرقٍ لا تنتهي، بغداد لا تبلغها وحدها، طرق قصية، ودروب بعيدة، وماذا على المشاء إلاّ أن يظلّ ماشياً حتى يجد ما يؤمل، ويعقد ذلك الأمل على ما يحصل؟!!

كان النَّاس يقولون: «إنَّه هو، ولقد صارَ طبيبياً» فتهاوت إليَّ القلوب تهاولي الفراش على النَّار، فلم يجدوا عندي إلاَّ بردًا وسلامًا، ولقد أقسمتُ بعدَ أن رأيتُ ما رأيتُ في (البيمارستان) أن أكون نصيرَ الفقراء، وأن أقفَ إلى جانب المحرومين، وأن أقتطع من مالي وجسدي من أجل المكومين، ولقد وجدتُ في نيَّتي هذه عزاءً لمن لا عزاءَ له!

وها أنا أرى مَنْ مشى قبلي، (أبقراط)، و(جالينوس)، و(ابن سينا)، كلُّهم خرجوا من هنا، من هذه الفكرة العظيمة، يومَ تكون أعظم من كلِّ نازلة، وأكبر من كلِّ طامة، تلك يد الله، تعيد ما يبس أخضر، وما احترق أنضر، وما جفَّ أندى، إنَّ هؤلاء البشر ليس لهم في الأرض ولا في السَّماء إلاَّ طبيب، ففي السَّماء كان الله، وفي الأرض خلَّق الله، ولولا تلك الرَّحمة لهلك النَّاس!

لقد تمَّ لي في بغداد سنة ٥٨٥ للهجرة ما أردتُ، ولم يبقَ فيها مَنْ يأخذُ بقلبي ويملأ عيني، ويحلِّ ما يُشكِّل عليّ، وإنَّني مثلما فعلوا أفعال، كلُّ عظيم ارتحل خلفَ ذلك النَّداء السَّماويِّ الَّذي يسمعه في قلبه مُشوّشًا إلى بلادٍ بعيدةٍ من أجل أن يسمعه هناك صافيًا، وإنَّه لن يشعر بأنَّه عاشَ إلاَّ إذا سمع ذلك النَّداء بذلك الصَّفاء مهما امتدَّ به العمر ولو عاشَ ألفَ سنة!

ليسَ عليَّ أن أقول أكثر من هذا: أنا من بغداد، سائحٌ يبحثُ عن الحكمة، والحكمة إشراق. كلُّ ما في يديّ من مال لم يُغن عَمَّا أريدُ شيئًا، كان المال بلُغة أتبلِّغ بها غايتي في السَّفر، وإلاَّ فيكفيني من الدُّنيا ثوبٌ أبيضُ ألبسه، وعمامةٌ أعتمرها، ودابَّةٌ أركبها، وبلادٌ واسعةٌ أطوفُ فيها بحثًا عن الحكمة، ولقد بحثتُ عنها كثيرًا، في تراتيل الآيات فُيبل الغروب في رمضان، وفي أناشيد الفقراء، وفي كتابات المعزولين، وفي أغاني العُشَّاق، وفي تأملات الفلاسفة، وفي سُويعات الأصيل في ماء دجلة حين يكون خاليًا من كلِّ إنسيٍّ إلاَّي، وفيّ، في روعي التي عندما رأت نور الله اضطربت، فظلتُ في اضطرابها وضلتُ، فما وقعتُ على ما أريدُ منها، كانت تَبْدَى مثلَ غيش الظَّلام في الفجر ثمَّ تختفي في الصَّبَّاح، ولقد كانتُ أعزَّ مفقود، وأجلَّ مطلوب، ولقد بحثتُ عنها قبلي كثيرون، (ماني) و(ديوجين) و(زرادشت) و(لقمان)، وغيرهم... فما وجدوها، ولئن أعيتُ هؤلاء فما تفعل بي؟ ولكنَّها النَّار المُقدَّسة تضيءُ لي من بعيدٍ في اللَّيل فأتبعها، حتَّى ولو ظلتُ تبتعد كلِّما اقتربتُ، فإنَّني لن أتوقَّف عن السَّعي إليها!

قال لي أبي: «النَّاس يسعون وراءَ أمورٍ كثيرة، ولكنَّهم لا يعرفون أنَّ ما يسعون إليه سيموتون عنه، فلا تسعَ إلى ثروة فمن سعَى إليها مات عنها، ولا يكون المال إلاَّ لمن خَلَّفَكَ. ولا تسعَ إلى الشهوة، فإنَّ زمن انقضاءها قصير، ولا إلى شهرة فإنَّ حين انقضائها قريب، ولكن اسعَ إلى العلم، فإنَّ مُتَّ عنه، كان لك نورًا في القبر يُضيءُ ظلِّماته ويؤنس وحشته، وكان لمن خَلَّفَكَ نورًا في دروبهم يجعل للحياة معنى، وللوجود قيمة.»

كان طاهرًا ولكنَّه ليس نبيًّا، وكان عاشقًا ولكنَّه ليس مجنونًا، وكان واضحًا ولكنَّه ليس الضُّحى، وكان غامضًا ولكنَّه ليس الدُّجى، وكان سهلاً ولكنَّه ليس البحر، وكان صعبًا ولكنَّه ليس الصَّخر، وكان هو!

في عام ٥٨٥ غادر بغداد إلى الأبد... غادرها ليعود إليها، ولكنه لم يعد، أو لم تبسط له الدرب ليعود، كأنها تقول: مَنْ تركني تركته ولا أبالي... ولربما حزن حتى الموت على أنها لم تفتح له قلبها، ولا بابها، ولا حتى عينيها. ولقد حال بينهما موج البعاد فكان من المعرّقين!!“

” القسم الثاني

مصرُ الغاية

تغرّب لا مُستعظماً غيرَ نفسه

ولا قابلاً إلا لخالقه حُكما

ولا سالِكًا إلا فؤادَ عَجاَجِةٍ

ولا واجداً إلا لمكرمةٍ طَعَمًا

يقولون لي: ما أنت؟ في كلّ بلدةٍ

وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلًّا أن يُسمَى

“ (المتنبّي) ”

لو قلتُ كلَّ ما أريد، لما وجدتُ في الأرضِ كراريسَ تملأُ ذلك، لكنهم كانوا يقولون: «حسبُكَ من السَّوار ما أحاطُ بالمعصم». قالتُ أمِّي: «تتركُنَّا؟!». أجبتُها: «أبي عندك، وفيه عني غنى»، كنتُ أناكفُها، لكنَّها استدركتُ: «بعضُ الأزهار للشمِّ، وبعضُها للريح». «إِنِّي مُرتجِل، ولعلَّ غاييتي أكبرُ من وقتي، ومثي. دُعَاؤك قد يُقرَّب الغايةَ يا أمِّي». «إِنِّي أخافُ عليك». سألتُها ورأسُها إلى صدري: «مم؟». «الغربة موت يا بُني، أخشى أن تذهب في دربٍ لا تُؤوبُ منه إلينا». «غاييتي مصر يا أمِّي، والتَّاصر صلاح الدين، وأهل العلم، أريدُ أن أتفرَّغ للتدريس والكتابة، وإذا أسعفني الحظُّ، أهديتُه ما صنفتُ أو بعضه». «لقد حلمتُ أمس يا عبد اللطيف أنك ستكون مُنقذَ مصر». ضحكْتُ ساخرًا: «كبرت يا أمِّي، فبدأت... ثم... أنا لا أؤمن بالأحلام». نهرتُني: «لا تقل ذلك، إنها تتحوَّل إلى واقع، وأنت تعرفُ ذلك أكثر مِنِّي». تذكرتُ الأفعى و(البيمارستان) قبل أربع سنواتٍ، فرجفتُ، بلعتُ ريقِي، وهتفتُ: «لستُ أنا الذي أقول ذلك، الله قال: «أضغاثُ أحلام». كادتُ تُلطمني على وجهي: «يا أحمق». فاجأتني الشَّتيمَة، نظرتُ في عينيها، تابعتُ: «لقد قاله الله على لسان الكهنة؛ لأنهم لم يستطيعوا تعبيرِ الحلم، أمَّا يوسفُ فكان تعبيره للرؤيا حقيقة، أم أنك تتغابي على أمك؟ وتقول مسكينة لقد خرفتُ؟!». «يكفي يا أمِّي، أنا مُرتجِل». «والحلم؟». «ما شأنه؟». «أفصه عليك؟». «لن يتغيَّر شيءٌ يا أمِّي». «آه منك... أنا أعرفُ أنك تهرب، ألم تُعجبك بغداد؟». «ومن قال ذلك؟ إِنِّي أقمتُ بها إلى اليوم، أليس هذا دليلًا على أنني لم أخترُ من البلادِ سواها». «وها أنت ترحل عنها». «لأعود لها». «لن تعود... أنا أعرفُ ذلك... لن تعود...». اضطربتُ قليلًا: «الحلم قال لك ذلك؟». «نعم، لن تعود إلا في تابوت». أردتُ أن أضحك وسط الانقباض الذي ملأ المكان فأكملتُ: «تحمله الملائكة». قطعْتُ ضحكتي من مُنتصفها، حين شدتُ على أسنانها: «هيا... هيا أيها العنيد، الرَّاحلة تنتظرك، لقد جهزتُ لك بعضَ الطَّعام لتستعين به في سفرك». كان أبي يسمع ويهزُّ رأسه، شدتُ على يدي: «لو قدر الله لنا ألا نراك مرَّة ثانية... أقول لو قدر الله... فأريد منك أن تُعطي العلم الذي أعطاه الله لك حقَّه... عانقتُه، وأردف: «وادمُ صُحبة المساكين، فإنهم يعرّفونك الله، ويعرّفونك كيف تشكره».

كانت مصر غاية، ومن لم تكن مصرُ غايته قصرتُ به السبيل فبعثرته في المنافي، وكلَّ غايةٍ لا تمرُّ بها تظلَّ مبتورة. ولما خرجتُ في ضحى ذلك اليوم، لوى عنانها ما لوى عنان راحلة ابن الوليد، فطوّفتُ في بلادٍ كثيرة، قبل أن تحطَّ ركبها في مصر.

وصلتُ إلى الموصِل، كانت باردة، وكان الوقتُ الذي تراءتُ لي دورها فيه من بعيدٍ ليلاً، فزاد ذلك من رجفة القلب، وكنتُ أعرفُ أنني لا أريدها هي، ولكنني أريدُ أخواتها، وبعضُ الوصل إلى المحبوب يكون عبر مَنْ لا تُحب، وقد لا تكفي الإشارة، فيكون في العبارة رسول، ولا يحمل العبارة إلى المحبوب إلا رسول، كانت الموصِل رسول مَنْ ضربتُ أكباد الإبل لأجلها.

لم أجدُ في الموصِل بغيتي! لكنني وجدتُ (كمال الدين بن يونس) جيّدًا في الرِّياضيّات والفقهِ مع شيءٍ من الطَّبِّ، فوعيتُ ما عنده، ثمَّ عرّضتُ عليَّ صاحبُ الموصِل أن أدرس في بعض المدارس، فاخترتُ مدرسة (ابن مهاجر) المُعلِّفة، ودار الحديث التي تحتها، وأقمتُ هناك سنةً أدّرسُ الفقهِ واللُّغة، ثمَّ طلبتُ من ابن يونس شيئًا من تصانيف (شهاب الدين السَّهروردي)، وكان النَّاس قد فُتِنوا بما يكتب، فلما أطلعتُ على (التلويحات) و(اللمحة) و(المعارج) وجدتُ جهل النَّاس فيما يعتقدون فيه فاشيًّا، والنَّاس تتبَع المصوِّت لا الصَّامت، وتُميل الأَعناق إلى المُشتهر لا إلى المُستتر. ورأيته يُثبِت في كُتبه حروفًا مُقطَّعة يوهِّمُ بها أمثاله أنها أسرارٌ إلهية، وما أدري كيف يُعطي الله أسرارَه لمثل هؤلاء؟!.

وتركتُ الموصلَ إلى دمشق، فوجدتُ بعضَ أساتذتنا الذين أخذنا عنهم العِلْمَ قد جاؤوها يعلمون أهلها، ممّن جمّعهم صلاحُ الدّين لذلك، واجتمعنَّ بالكنديّ البغداديّ النّحوي، وجرتُ بيننا مُباحثات، وكان من أهلِ صِلَةِ السُلطان، وقد رأيتُ فيه إعجاباً برأيه، وإيذاءً لجليسه، فعرفتُ أنّ الكبر أصلُ القواصم، فمن فُصِمَ في عِلْمٍ أو في ظهر، فلا بُدَّ أن يكون وراءه الكبر، وأظهرني الله عليه في مسائل كثيرة.

وكانت أعوام دمشق أعوامَ استقرار طيّب، وعملتُ فيها تصانيف كثيرة، منها غريب الحديث الكبير جمعته فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن قتيبة، وغريب الخطّابي، وكنتُ قد بدأتُ في الموصل، وعملتُ له مُختصراً سمّيته (المُجرد)، وأنهيتُ كتاب (الواضحة في إعراب الفاتحة).

وتركتُ دمشقَ إلى القدس، فبالقدس تطيب النَّفس، بذل لها الفاتحون دماءهم، والعلماء مدادهم، والمُجاهدون جلادهم، والعشاق ودادهم، وتركوا من أجلها بلادهم، وفيها البقعة التي درجتُ عليها أقدام النَّبيّ، والساحة التي صلى خلفه فيها النّبيون، وسجدتُ عليها جباههم الطاهرة، فأَيُّ قلبٍ ليس فيه حُبُّ القدس فهو قلبٌ بلقع.

أخذني من القدس بعضُ المعارف إلى عكا، واجتمعنَّ فيها بيهاء الدّين بن شدّاد، قاضي العسكر يومئذٍ ومؤرّخ صلاح الدّين، وهو من أهل الموصل ابتداءً، وكان العام الذي قضيتُ في الموصل أعلم أهلها قد أوصلَ سُمعتي إليه، فاستقبلني أحسن استقبال، وأقبل عليّ، ورحب، وبسط الرّداء، وقال: «نجمع اليوم بعماد الدّين الكاتب»، فقلتُ: «إنّه سبقنا إلى العِلْم في المدرسة النّظاميّة ببغداد، وقد كنتُ أنا وأصحابي نتذاكر بعض رسائله، وتثني عليه». فقال: «وإنّه سمع بك، وفي شوقٍ للقائك». ومضينا إلى خيمته، وكانتُ قريبةً من خيمة ابن شدّاد، فلما دخلنا عليه، وجدناه يكتبُ كتاباً إلى الديوان بقلم الثُّلث من غير مُسوّدة، وكنتُ من أهل الخطّ أيام بغداد، فرأيتُ خطّه بديعاً، وراجعتُ معي بعض مسائل علم الكلام، وقال: «قوموا بنا إلى القاضي الفاضل». فقلتُ: «أهو هنا؟». فقالوا: «نعم، وإنّ لك عنده ورقة». فقلتُ: «أجتمع بثلاثة أفاضٍ في ليلةٍ واحدة، إنّ هذا لمن طالع السعد». فضجكا، ودرجنا إلى القاضي الفاضل، فدخلنا عليه، فرأيتُ شيخاً ضئيلاً كلّهُ رأس وقلب، وهو يكتب ويُملي على اثنين يجلسان بجواره، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأته يكتبُ بجملة أعضائه. فلما فرغ من إملائه، سألتني عن جواب (إذا) في قوله تعالى: «حتّى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها...» فأجبته، ثمّ سألتني عن جواب (لو) في قوله تعالى: «ولو أنّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطعتُ به الأرض أو كلّم به الموتى...». فأجبته. وسألني عن أشياء أخرى، فقال لي: «تذهبُ إلى دمشق وتُجري عليك الجرايات بأمرٍ من الناصر صلاح الدّين نفسه». فقلتُ: «قد كنتُ في دمشق، وإنّي أريدُ مصر». فقال: «إنّ السلطان مشغولٌ بقتال الفرنجة في عكا هو وأخوه العادل، وإنّها حصينةٌ عليه، ولا أدري إنّ كان سيفرغ من ذلك في وقتٍ قريب أم سيطول الأمر، ونتركها دون أن نفتحها». فقلتُ له: «لا بُدَّ من مصرٍ وإن طال السّفَر». فضحك، وقال: «لو سمعك ابنُ حنبلٍ لما أجازك، فهو أول من قال: لا بُدَّ من صنعاء وإن طال السّفَر».

وكتب القاضي الفاضل إلى وكيله في مصر ورقةً صغيرةً لكي يعتني بي وبمقامي فيها، فأتيته مصر، فدفعتها إلى الديوان، فإذا وكيله هو (ابن سناء المُلْك) وهو شاعرٌ مُفلق، وشيخٌ جليل القدر، نافذ الأمر، فأنزلتني داراً مُريحة، وجاءني بمالي وطعام، ثمّ مضى إلى أرباب الدّولة، فقال لهم: «إنّ عبد اللّطيف هذا ضيفُ القاضي الفاضل». فاجتمعنَّ إليّ الصلّات، ودارت عليّ الهدايا من كلّ جانب، فارتحتُ إلى ذلك، وكان القاضي الفاضل يبعثُ إلى ديوان مصر كلّ عشرة أيّام تذكره فيها مهمّات الدّولة، وفيها فصلٌ يؤكّد الوصيّة في حقّي، وكان هذا كرمًا بالِعًا منه، ثمّ عهدَ إليّ التّدريس في مسجد الحاجب، فأقمتُ فيه على ذلك مُدّة يسيرة.

ثمَّ عرفتُ أَنَّ الطَّيِّبَ (موسى بن ميمون) في القاهرة، وهو يهوديٌّ، كان طبيباً لصلاح الدِّين، وقد قرأتُ بعضَ كراريسه، وكانوا يُسمّونه الرّئيس موسى، على غرار الرّئيس ابن سينا، وقد تُقْتُ إلى لِقائه وجواره والأخذ عنه، وقد عرفتُ أَنَّهُ كان يسكنُ في الفُسطاط، وأنَّهُ كان يُقابلُ السُّلطانَ صبيحة كلِّ يومٍ في القاهرة، ويعودُ إلى بيته في النّصف الثّاني من النّهار فيجد أروقة البيت مُمتلئةً بالنّاس من اليهود، ومن المصريّين، وفيهم ذُو الشّانِ والبُسطاء، والقُضاة ورجال الشّرطة، والأحبّة والكارهون، وخليطٌ عجيبٌ، فإذا ترجّل عن دابّته، غسل يديه، وخرج إليهم يستأذّنهم بعضَ الوقت ليأكل فهو جائع، ثمَّ يعودُ إليهم، ويُعالِجهم واحداً واحداً، ويكتنُبُ لهم ما يحتاجونه من وصفاتٍ دوائيّة. أمّا في (البيمارستان) فكان يقضي معظم النّهار يطوفُ حول الأسرّة والمرضى دون أن يرتاح ساعةً واحدة... إنّ رجلاً كرّسَ نفسه طبيباً لخدمة النّاس بهذه الصّورة ليستحقّ أن يُسعى إليه.

فلَمّا التقيته وجدته فاضلاً، لكنّه غلبَ عليه حبّ الرّياسة وخدمة أرباب الدُّنيا، وما شأنِي بهذا، إنّما أريدُ كُتّبه، ولقد فعل، فأخذتُ عنه كتاباً في الطّب جمعه من ستّة عشر كتاباً لجالينوس. وبهذا تمّ لي ما أردت! «

” (٢)

كيف تعرفُ النّاس؟!



ومصر الّتي تُعلّمك ما يملأ العقل، هي ذاتها الّتي تُعلّمك ما يملأ البطن. وكان هذا؛ امرأةً من أحياء الفُسطاط كانت تأتيني لِقاء أكرةٍ بالطعام في كلّ مساء، فسألتهَا: «وهل تُعلّميني الطبخ، فأطبخ أنا». فازورتُ، ولم ترضَ ذلك، وسألته: «ولمّ تريدُ تعلّم الطبخ؟». أجبتها مُستغرِبةً: «وهل تعلم الطبخ حرام؟ أم أنّه مقصور على النّساء دون الرّجال؟». فزمتُ شفّتها غير مستظرفةٍ دُعابتي، وقالت: «لا، ليس حراماً، ولكنّه قُطِعَ لرزقي، فهل يُرضيك هذا؟ قطع الأرزاق ولا قطع الأعناق!». شهقتُ: «وكيف فيه قطع لرزقك؟». «لن أعودُ أطبخ لك، فما كان يسوقه الله من رزقٍ من خلالك ينقطع». ضحكتُ، وقلت: «ولكنني قد أجوع في غير الوقت الّذي تأتي فيه بالطعام، ثمّ إنك تطبخين لي وليسواي، ولن أكون أنا وحدي الّذي أجري عليك جرايتك وعيالك كلها، إنّما أنا واحدٌ». فأمنتُ: «صحيح، ولكنّ يدك مبسوطة». فطربتُ: «هل هذا مديح؟». «المديح له ثمن يا سيّدي». ضحكتُ هذه المرّة من قلبي: «اسمعي يا دُرّيّة... أليس هذا اسمك؟». «بلى، يا سيّدي الشّيخ، دُرّيّة...». «اسمعي يا دُرّيّة، أنا سأعطيك على كلّ طبخةٍ أتعلّمها منك عشرة أضعاف ثمنها؛ هل هذا جيّد؟». رقصَ قلبها من الفرح، كادت تُزغرد، أو فعلتُ، صوتٌ ما يُشبه الزّغرودة أطلقته من فمها قبل أن تبتريها في آخرها، لتقول: «فإذا تعلّمتُ الطبخ مني، هل ستجدُ لي خدمةً أقدمها لك مقابل بعض الدّراهم؟». سألتها: «أين تُقيمين يا دُرّيّة؟». «في الجبّانة في...» حوّلتهُ قبل أن تُتمّ، وقاطعتها: «هل تُقيمين في المقبرة؟». «نحن لسنا مثلك يا سيّدي، أنا وأبواي وأجدادي كلّهم أقاموا في هذه التّربة، ثمّ إنّهُ ليس مكاناً سيّئاً، يقولون إنّها التّربة الّتي دُفِنَ فيها الشّافعيّ، فنحن نعيش في بركته». سألتها: «وكيف تأتيين من هناك إلى هنا؟». «أمشي على رجليّ، كيف ساتي؟ هل نظنّ أنّني أملك عربيّةً أو حتّى جماراً لأطوف بالطعام الّذي أطبخه لبعض الشيوخ لِقاء بعض الدّراهم». «لا بأس، أعني أنّك تمرّين بكلّ هذه الأسواق والمساجد والتّكايا والشّوارع والأزقة وأنت تطوفين؟». «إي يا سيّدي، أنا أطوف القاهرة والفُسطاط على رجليّ شبراً شبراً كلّ يوم». «إذاً عظيم». «ما هو العظيم يا سيّدي؟». «ستكونين دليلتي لبعض الأماكن يا دُرّيّة، وربّما أطلب منك أن تأتيني ببعض الأخبار أيضاً». سألتُ بتشكّك: «وتُعطيني مقابل ذلك بعض الدّراهم؟». «بالطبع يا دُرّيّة، بالطبع». هذه المرّة زغردتُ على الحقيقة، وصاحتُ: «سأعلّمك إذاً كلّ الطبخات المصريّة يا سيّدي...» توقّفتُ قبل أن تحكّ ذقنها، وتقول: «هو اسمك إيه يا سيّدي؟». «أنا عبد اللّطيف يا دُرّيّة، أنا عبد اللّطيف...».

كان البيت الذي أجراه عليّ ابنُ سناء المُلْك بيئًا واسعًا، ومُجهَّزًا بكلِّ أدوات الرّاحة، ومع أنّه لم يكن يلزمني غير غرفةٍ للنّوم، وغرفةٍ أخرى فسيحة تكون للقراءة والكتابة، فإنّ البيت الذي أسكنه يحمل كثيرًا من التفاصيل الأخرى غير المُتوقّعة؛ يُمكنك أن ترى قوسَ المدخل الحجريّ الأصفر من هنا، من الخارج عاليًا مُزخرفًا بنقوشٍ عربيّة من آياتِ قرآنيّة، فإذا ولجت البوّابة الخشبيّة الحمراء الضّخمة، والتي تُدفع بمقبضٍ نحاسيّ أصفر، وتُغلق بمزلاجٍ حديديّ من الدّاخل بشكلٍ أفقيّ، راعك اليهو، السّاحة الواسعة الّتي أمام البيت، ساحةٌ تمتدّ بطول خمسةٍ وعشرين ذراعًا، وبالعرض ذاته، مُشجّرة، بحوالي عشرة أصنافٍ من الشّجر الفوّاح، الّذي تنشط رائحته في اللّيل أكثر منها في النّهار، فتبعثُ أشداؤه الهناءة للنّائم في العُرف. على حروف الأطراف الأربعة يقفُ شامخًا اثنا عشر عمودًا أسطوانيًا، ثلاثة أعمدةٍ في كل ضلع، تفصل بين كلّ عمودٍ وآخر خمسة أذرعٍ تقريبًا، ويقفُ فوق هذه الأعمدة بناءً آخر، مكوّن من غرف الطّابق الثّاني، من الأعمدة إلى الجدار هناك ستّة أذرعٍ هي سقوفٌ للذي ينظر من هنا؛ من هذا الطّابق السّفليّ، وهي أرضيّة الطّابق العلويّ والممرّات الّتي أمامه، فإذا نظرت إلى الزّاوية البعيدة عن يسار التّوّابة في الطّابق الأرضيّ، رأيت إسطنبولًا للخيل الّتي أهديتها مع البيت، كانت خيلًا بقاء، مُحجّلة، يعلو وجهها نمشٌ أسود، وأهدابها طويلةٌ تُزيّن عيونًا سوداء واسعة شديدة الجمال، ولقد ألفتني الخيلُ من أوّل مجيئي إلى هنا.

إذا تجاوزت الإسطنبول بغرفةٍ للعلف المُخزّن أو اثنتين جهةً القبلة، وجدت غرفةً المطبخ، حيث كانت تُعدّ هنا أصناف الأَطعمة المتنوّعة.

كان الممرّ الذي هو بعرض ذراعين أو أقلّ قليلًا في الطّابق الثّاني والذي يكون أمام العُرف، في الجهات الأربع مُحاطًا بطبّ عن يساره، مثل درابزين، وكانت فيه نقوشٌ وكوئٌ يُمكن للنّاظر إليها من ساحة الطّابق الأوّل أن يُعاين جمالها، وتنسيقها.

في الطّابق الأرضيّ، خصّصتُ الغرفة الّتي عن يميني للمكتبة، وقد أمر لي القاضي الفاضل بعددٍ وافرٍ من الكُتب حتّى إنّها ضاقت بالرفوف بعد أربعة أشهر فحسب، وكنتُ أجلسُ في الغرفة الثّانية للقراءة والكتابة، وصارت الكتب الّتي تفيض عن سعة الغرفة الأولى، توزّع على بقية الغرف في هذا الطّابق، فإن امتلأت فإنّ هناك غرفًا في الطّابق الثّاني تكفي لذلك.

الطّابق الثّاني كان مُخصّصًا لغرفة النّوم، تلك العُرف الأوسع، والّتي في كلّ واحدةٍ منها شباكٌ وسيعٌ يُطلّ جهة الشّرق على شارعٍ خالي من الدّور، بعكس العُرف الّتي كانت جهة الغرب تُطلّ على أحياءٍ سكنيّة تضجّ بالنّاس، وكانت نوافذ هذه العُرف من الخشب المحفور الحافل بالزّخارف، وكانت عليه نقوشٌ لحيواناتٍ مُزخرفة، محفورةٍ بشكلٍ دقيقٍ ومُتقنٍ، وكان الخشب بُنيًا لامعًا، مُعتنى به، لا تلوّ زخارفه ونقوشه ولا فتحاته الصّغيرة أيّ ذرّة غبار. وكانت النّافذة مُقسّمة إلى أربعة أو ستّة أقسام، على مرحلتين أو ثلاث، كل مرحلة تلو الّتي تحتها وفي كلّ مرحلة ظرفتان، يُمكنك أن تختار أيّ واحدةٍ لتفتّحها حسب رغبتك دون سواها، إذا كان ذلك من أجل الشّمس أو التّور، ويُمكنك أن تفتّحها كلّها لتُمكن الشّارع الأنيق الّذي تحتها من أن يبتلع غرفتك!

كان الشّارع الّذي تُطلّ عليه الغرفة الّتي أنام فيها هو شارع العرّيات، أكثرها عربات الأمراء أو الوزراء أو النّجار أو الأثرياء، أو الفُضاة، إذا ما أرادوا اختصار المسافة إلى غاياتهم، وإن كان يلدّ لكثيرٍ منهم أن يستخدم شارع السّوق ليرى النّاس، ولربّما ليستمتع بمنظر البُسطاء أو الفقراء؛ فيما رسوا شيئًا من الرّفق والكرم الّذي يغزو قلوبهم فجأة، بعد أن يكونوا قد نسوا أنّ هناك شعبًا كاملاً يرزح تحت الفقر! أمّا في الجهة الأخرى فكان الحيّ الّذي يتكوّم فيه النّاس في الشّارع الّذي أقيم عليه مسجد (الصّالحيّ) الكبير، المسجد الّذي عهد إليّ ديوان مصر بالتّدريس فيه.

كان المسجد قريباً من البيت، وكنت أذهب إليه وأعود منه مشياً، فإذا طلبني ابنُ سناء الملك أو ذهبْتُ لغايةٍ في ديوان مصر، اعتلوتُ سهوةً حصاني الذي سمَّيته (الأبلق)، وخرجتُ من البوابة، ومضيئتُ أطارُدُ فوقه في شوارع القاهرة، إلى أن أصل إلى ما أريد، وكان المسجد لا تُقام به خُطبة الجمعة، وقد بناه من قبل الصَّالح طلائع بن رُزَيْك، ولهذا سمِّي الصَّالحي، وكان الصَّالح وزير (الفانز) و(العاضد) من الفاطميين، وكان ينوي نقل رأس الحسين بن علي من عسقلان إليه لأنَّه خاف من هجوم الصليبيين عليه، فلمَّا فرغ منه لم يُمكنه الخليفة (الفانز) من ذلك، وبنى له مسجد الحسين بجوار قصره، ونقل رأس الحسين إليه في عام ٥٤٩ للهجرة قبل أن أجيء إلى هذا الكون. فلمَّا أتيتُ مصر وقد دالت دولتهم، وذهب صلاح الدين بكلِّ أمالهم درَّستُ في (الصَّالحي) على أمل أن تعود الخُطبة إليه.

كان المسجد بناءً مُتقناً فخمًا على نمط ما ابتنى الفاطميون لأنفسهم من القصور، وفيه من الأبهة ما فيه، وله ساقيةٌ تنقل الماء إليه من النيل على القرب من باب الخلق. وقد اعتنى به ديوان مصر، ودرَّستُ فيه أول ما ابتدأتُ اللُّغة والنحو، ثمَّ عكفتُ على تدريس الطبِّ والحساب، وكان لدرس الطبِّ مجلسان يومي الاثنين والخميس بعد صلاة العصر. وقد حضر هذا المجلس من كان في طريقه إلى أن يُصبح طبيبًا منفردًا، وبعضُ الأطباء من البيمارستان الصَّالحي الذي أُقيم على ما تبقى من أحد قصور الفاطميين.

ومصر تفيضُ بالناس يومئذٍ، والناس فيها أطيابُ أحبَّاب، يَهشون لكلِّ حادثة، ويَبشون حتَّى في النَّوازل، ولا تجد منهم جازعًا واحدًا على كثرة فقرٍ فيهم، وكنتُ أخطُّ إلى أن أفتطح جزءًا من وقتي أطوفُ به أسواقَ مصر، وأبوابها وحواريها حتَّى أرى الناس، فإنَّك إن لم تخالطهم وتبغ معهم وتشتتر منهم لن تعرفهم، وأكثر أهل مصر إذا عُرِفوا أُحبوا؛ لأنَّهم يجدون في كلِّ شيءٍ فُسحةً للبهجة والنسيان، وهم كما قال الشاعر:

إذا جاء باغي الخير فُلنَّ بِشائنةً

لَهُ بوجوه كالدنانير: مَرَحَبًا

وأهلاً، ولا ممنوعَ خَبِرٍ تُريدُهُ

ولا أنتَ تخشى عِنْدنا أن تُؤتبا

كان المطبخ في بيتي مُجهَّزًا بموقدٍ كبير يحتلُّ وسط الواجهة التي عن يسار الدَّاخل، وكان الموقد مبنياً من الطين، وفوقه بسطةٌ من الحجر، ويرتفع من الموقد إلى الأسطح منفذٌ يُصرِّف الدُّخان إذا ما أوقدتُ فيه النَّار من أجل إنضاج الطَّعام، وحتَّى لا تملأ البيت روائح الطَّبَّخ، وكان الدَّاخون هذا يصرف الرائحة في الشَّارع المُكتظَّ بالنَّاس، وكان الحطب وفيرًا في

غُرف المُون والغِلال التي تجاور الإسْطبل، وفي الجهة التي تقع بجانب الموقد في المطبخ هناك أرفف خشبيّة تستقرّ فوقها أواني الطبخ من الصّحون والملاعق والأنية الفخّارية، وبعضُ الدّوارق الرّجائيّة التي كان يُنقع فيها الشّراب، كما أنّ أدوات الموقد

كانت تتدلىّ بدلالٍ على الحائط بجانبه، فكان هناك المشبّك الذي يُشوى فوقه اللّحم، وكان هناك المنفاخ الذي يُنفخ فيه على اللّحم حتّى ينضج بشكلٍ أسرع، وكان هناك الدّراع المعدنيّة التي تقلّب اللّحم، ناهيك بعددٍ آخر من السّكاكين والصّحفات.

وفي وسط غرفة المطبخ تستقرّ الطّاولَة الخشبيّة الثّقيلة، لم أكنُ أنا قادرًا بجسدي النّحيل والضّئيل على زحزحتها من مكانها، ويُمْكنُ أن يجلسَ إليها أربعة أشخاصٍ أو ستّة على مقعدين خشبيين مُستطيلين، مُتقابلين تحت سطحها.

لا يُوجد عددٌ من القطط أكثر من تلك التي في مصر، وكانت تتمسّح بكلِّ أحدٍ، وتهوي إلى كلّ رائحة، وفي بيتي هذا عاشت عشرات القطط على ما يُلقَى إليها كلّما أوقدت النّار في المطبخ وفاحت الرّائحة! “

” (٣)

امراةٌ مصريّة



«كيف تكون امراةٌ مصريّة؟». «امراةٌ مصريّة؛ النّساء يتشابهنّ، بعدَ الثّلاثين يتشابهنّ أكثر، نمطٌ لا يُمكنُ أن تُخطئه، ما الذي سيميّزها؟! ماذا في النّساء غير اللّسان الذي لا يكفّ عن الدّوران كأنّه مغزل؟! هذه التي قلت لي ما اسمها... دريّة هه... ما المختلف فيها؟». «أشياء كثيرة، لن تراها في حلب، ولا في بغداد، ولا في القدس، ولا في أيّ مكان». «مثل ماذا؟ هل أنت متزوّج؟». «ستعرف من خلال قصّتي مع دريّة». والشّق الثّاني من السّؤال؟». «دَعكُ منه؛ فالإجابة عنه لن تقدّم ولن تؤخّر شيئًا».

(البامية)؛ تعرفها؟ هي بقدر إبهام اليد، شديدة الخُصرة، عليها وَبَرٌ يمكنُ الإحساس به إذا مررت بإصبعك فوقه هكذا، عليك أن تكون رقيقًا؛ هكذا يا سيّدي، المرور الرّقيق يُشعرك بوجود هذا الوبر النّاعم، لو دَعكته بقوّة أو بسرعة فكأثما مررت على بُستانٍ جميلٍ وأنت أعمى، هل تفهمني يا سيّدي؟ أعرف أنّني كثيرُ الكلام، وأنا أمام شيخٍ مُعَمّمٍ، يفقه في الطّب كما يفقه في اللّغة، ولكنّ ماذا في الشّيوخ المُعَمّمين؟ يكفي أنّ قلوبهم تظللّ خضراء مهما كبروا في السّن... هل تعشقون مُتأخّرين أيّها الشّيوخ؟! مهما يكن، أعرفُ زلّات لِساني، سأحاول أن أكبح جماحه، فقط أردتُ أن أجاريك، وهذا كلّ ما في الأمر. لنعدّ إلى طبختنا؛ إذا شققّت البامية، وجدتَ فيها صفاً من الحبوب المُستديرة بيضاء كأنّها لوبياء هَشّة، وتضرب إلى الحلاوة.. هلاً تدوّقت يا سيّدي بنفسك حتّى تتأكّد من صحّة كلامي... نعم، سنجدّ كلامي صحيحًا؛ فأنا لا أكذب. حين تُطبّخ البامية مع اللّحم تُصبح أشهى، نحن في الثّربة لا نأكل اللّحم كثيرًا... هل تشتري اللحم كثيرًا يا سيّدي؟ لو كان لك أن تشتريه غدًا مثلاً، ساتي وأطبخها باللّحم أمامك، لكنّها تُطبّخ كذلك مع المَرَق، والمَرَق كثير، يُمكنُ أن يكون لكلّ نباتٍ مَرَق، البامية لا تتأثّر بالمَرَق كثيرًا من ناحية اللّعابيّة، ستجدها تمطّ في فمك، وهذا سرٌّ شهيتّها، لو لم تمطّ، وتكون لُرْجة، تنزلق في الفم بسهولة، فإنّها لن تكون بامية جيّدة. هل هذا يكفي لهذا اليوم يا سيّدي... تريدُ أن نجرب من دون لحم، أو يُمكنك أن تخرج إلى السّوق وتأتي باللّحم، اللحم رخيصٌ في السّوق الدّاخِل من باب زويلة، وهو ليس بعيدًا عن هنا، هل أذهبُ لآتيك برطلٍ منه، هل لديك المال؟ تذهبُ أنت أم أذهبُ أنا؟ الوقتُ يمرُّ يا سيّدي، وعليك أن تقرّر، وأنا

عليّ أن أعود إلى أولادي في التربة قبل أن تهبط الشمس، واليوم لأنني أريدُ تعليمك لم أطفُ إلا على ثلاث دور كنتُ قد طبختُ لهم، هل تفعل؟!

ركبتُ الحصان، وخرجتُ من البوابة مثل الريح، سوق اللحم قريبٌ كما قالتُ، إنها فرصةٌ لأعرف القاهرة، منذ مجيئي إلى هنا لم أعرف أكثر من الشارع الذي يصل بين البيت والمسجد، هذا الشارع لا يُعرفك شيئاً، ولا وجهاً واحداً من وجوه القاهرة الألف، ولا لوناً واحداً من ألوان حياتها الألف كذلك، خرجتُ، صهّلَ حصاني وأنا أمدّ جسدي الخفيف فوق عنقهِ ونحن نعبّر البوابة التي فتحناها درّيةً، قالتُ وأنا أعطيتها ظهري على الحصان الجامح: «ولا تنسَ البصل والثوم والعدس والقثاء... أما الماء، فهذه البئر التي في ساحة بيتك تكفي لأنّ نطبخ لمصر كلها...». وضحكتُ وهي ترمي جملتها الأخيرة.

كانت السوق تفيضُ بالنّاس فيضاً، إنه العصر أو قريباً منه، ومع أنّ الحرّ شديد، إلا أنّ النّاس كانتُ تملأ الشارع الممتدّ من أمام باب زويلة إلى آخره، عبرتُ بحصاني القوس العالي الذي يصل بين البُرّجين المهلّين، بعد مسافةٍ قليلةٍ ترجلتُ عن الحصان، وفدّته بلجامه خلفي في السوق، لم يكن الشارع يتسع للخيل وللناس معاً لكثرة الرّحام، مررتُ على البقال، كان يفرّد في صناديق مائلة أمام دُكانه أنواعاً مُلوّنة من البقول، رأيتُ البُرّ، والشعير، والذرة، والأرز، والجَمص، والعدس، والبقالاء، والبسلا، والجلبان، واللوبياء، والسّمسم، والقرطم، والخشخاش، والخروع، والسّلجم، وبزر الكتّان، وأنواعاً لا حصر لها، كان كلّ نوع مع لونه يُشكّل لوحة مائلة كبيرةً بديعةً أمام الدُكان، وضعتُ يدي في العدس، أخذتُ قبضة اليد منه، فركته، إنه ناشفٌ وجيدٌ، وغير مبلول، علقتُ لجام الأبلق حول خصري، ورحتُ بابهام يدي اليمنى أبحثُ في حبات العدس المفرودة فوق كفي اليسرى، كان العدس نظيفاً، سألتُهُ بكم الرّطل من العدس، تفرّس البقال فيّ قبل أن يُجيب، كان ذا أنف حمراء كبيرة، ويعتمر عمامة بيضاء ملفوفة بكسلٍ فوق رأسه، وصدّاريتّه المفتوحة من أعلاها تكشف عن صدرٍ شديد الأسر، هتف: «أنتَ جديدٌ على السوق؟». «نعم. بكم الرّطل من هذا العدس؟». «ضعيف؟». «لا... أعني كنتُ ضعيفاً. بكم الرّطل؟». «من أين أنتَ قادمٌ إذا؟». «هل تريدُ أن تعرفَ أصلي وفصلي أم تريدُ أن تبيني؟».

«بالطبع أريدُ أن أبيعك، وأصلك وفصلك على الله، ولكنني أريدُ أن أعرفَ زبائني أيضاً». أجبتُهُ متأملاً: «أنا عبد اللطيف... قدمتُ من بغداد، أعني أنا بغداديّ، وأدرّس الآن في مسجد الصّالحي...». هسّ وجهه، وازداد أنفه احمراراً، ودار من خلف صناديقه وفتح ذراعيه، وهتف: «أهلاً بمولانا. ابني يدرسُ في حلقَتِكَ». زممتُ شفّتي، لم يكن لديّ وقتٌ كافٍ لكي أقضيه في الحوار معه، ودرّية تنتظرني، لكنّه كان قد اعتنقتني، وأخذني بالأحضان، وهتف: «ابني سعد يدرسُ في حلقَتِكَ». هزرتُ رأسي: «بكم الرّطل؟». «تجاهل سؤالِي، قبل أن يُتمّ: «هو...» ووضع إصبعه البيضاء على طرف أنفه الحمراء، وحكّها قليلاً، قبل أن يقول: «هو في حلقة النّحو على ما أعتقد... بالمناسبة، ابني هذا مجتهدٌ جدّاً، وهو ذو قلبٍ رقيق، وأريدك أن تحنو عليه، وتعدّه ابنك...». تلقتُ حولي: «ابني؟ أنا يا...» ساعدني هو: «محسوبك إسماعيل البقال». «أنا يا إسماعيل البقال أهتمّ بكلّ طلبتي، لا تقلق... والان كم ثمن الرّطل من العدس، أنا في عجلةٍ من أمري». ردّ وهو يحرك يديه في الهواء: «عيب يا مولانا، نحن لا نأخذ من مُعلّمينا». كان صبري قد نفذ، أعدتُ العدس إلى الصّندوق، وجذبتُ لجام الأبلق، وتركتُهُ ومضيتُ، لحق بي: «لا تزعل يا مولانا... أنا فقط أردتُ أن أكرمك». «أكرمني بوزن رطل منه، ودعني أدفع الثمن وأمضي». هزّ رأسه، وانحنى وهتف: «حاضر يا مولانا. سأبيعك الرّطل بدينار، وهو في السوق بدينارين أو ثلاثة». أخذتُ الرّطل ووضعتُهُ في رَحْلِ الأبلق، ومضيتُ، سمعتُ صوته في ظهري: «لا تنسَ أن تهتمّ بابني سعد يا مولانا». نفضتُ اللّجام رافعاً يدي خلف رأسي، وأنا أهمس: «أعتقنا يا رجل».

مضيتُ في الطّريق أبحثُ عن دُكانٍ للحم، كان التّزاحم قد زاد من الحرارة، وكان العابرون يلبسون ثياباً خفيفة، والنّاس يبدو عليها الرّاحة والبهجة، وكان المكان لعلو أبنيتِهِ، واتّساع المسافة بين دكاكينه يبدو مُشرقاً، القاهرة ذهبية الفسّات، عاشقةٌ مغناج، غناء الطّرقات، كلّ شيءٍ فيها يتحرّك، كلّ شبرٍ فيها ينبض بالحياة والتّاريخ، تذكّرتُ ما غير من أمور الفاطميين، شارع المُعزّ هذا كان أكثرَ بهجةً وكان أرحبَ وأجمل، وهو اليوم مع كلّ ما أصابه لا يزال يختزن الجمال في كلّ تفاصيله.

على طرفٍ من دُكَّانٍ كان هناك شابٌّ يجلسُ على دَكَّةٍ حجريَّةٍ تحت مظلةٍ يُمسكُ بألَّةِ نفخٍ مُوسيقِيَّةٍ ويُغني موشحًا لأهل زماننا:

تالله قد سمعتُ في الأسحار

جاريةٌ تدقُّ بالأوتار

والناس تتلحَّق حوله، وخاصة النساء الشابات يسمعن له، ثمَّ يُطلقن بعضَ صيحات الإعجاب، أو يرمين بعضَ الدَراهم على سِجادةٍ وضعها أمامه، ويتمايلن على إيقاع صوتِه الشجيِّ، ولولا أنَّ درِيَّةً تنتظرنني في البيت لوقفنَّ معهنَّ أستمع إلى هذا الصوتِ السَّاحر، ولكنَّ أمرًا إذا ملأ رأسك كان مهمازًا شغلك كلما صرفته عن ذهنك، ومضيتُ أنظر في الوجوه البائسة، والنياب المهففة، وأردتُ أن أسأل أحدَ العابرين عن دُكَّان اللحم، فحفتُ أن أتحوَّل بالسؤال إلى أضحوكةٍ فعدلتُ عنه إلى البحثِ بنفسِي، وقلتُ أستمع بمنظر الناس والدَّكاكين، وأبحثُ بنفسِي.

ثمَّ رأيتُ دُكَّان الفاكهانيِّ، فقلتُ أشتري بعضَ الفاكهة أكلها بعدَ الغداء، فلا بُدَّ أن في كلِّ هذه النِّعم ما يُغري، كان دُكَّان الفاكهة أكبر من دُكَّان البقول، وكانت الفاكهة تتدلَّى من أسقفه، وجوانبه، ومن مظلاتٍ مركوزةٍ أمامه لهذه الغاية، فضلاً عن الصناديق التي تعرضُ أشهاها في المُقدِّمة، وتكون في متناول اليد لمن أراد أن يُعاينها، كانت تلك الصناديق تحوي الرُّطب، والعنب، والتين، والخوخ، والمشمش، وما كان موسمه من البطيخ، والقراصيا، والبرقوق، واللوز، والتبُّق، والإجاص المُجفَّف، وعدداً لا يُمكن إحصاؤه من الأنواع، وخفتُ أن أسأل الفاكهانيِّ عن سعر الرُّطل من التين، فأعلق معه في دوامة الأَسئلة، فمألتُ يديَّ من حَيَّاته، وهممتُ بإعطائها له كي يزنها، فإذا هو يخرج من دُكَّانه، ويتفرَّس في وجهي، وقبل أن يقول كلمة واحدة، دفعتُ حبات التين في صدره لكي يزنها، تناولها وهو يقول: «أنتَ غريب؟». «لستُ غريباً أيها الفاكهانيِّ». «بل أنتَ غريب، هل أنتَ معلِّم الطَّبِّ في مسجد الصالحِيِّ؟». زفرتُ وأنا أُجيبه بسرعة: «أنا هو يا...». فأسفني مثلما أسفني الأوَّل: «محسوبك حسن الفاكهانيِّ، وابني يدرسُ في حلقة الطَّبِّ في المسجد يومِي الاثنين والخميس، واسمه سالم، وهو...»، قاطعته: «لا تخفْ على ابنك سالم يا حسن سأتولَّى أمره حتَّى يُصبح في الطَّبِّ أحسن من ابن سينا... ماذا يكون ابن سينا أمام عقول أهل مصر الأفذاذ...؟!». ومططتُ الكلمة الأخيرة، وأنا أشير بيديَّ من أجل أن يقوم بوزن ما أعطيته. «بكم الرُّطل؟». «بدينارٍ ونصف الدينار». وضعتُ التين في الرُّحل، ومضيتُ مُسرِّعاً. همستُ: «سوف أتأخَّر لو بقيتُ أشتري من كلِّ دُكَّان».

أمسكتُ بكتفِ أحدِ العابرين، نظر في وجهي قبل أن تبدو عليه علائم الدهشة: «أنتَ الطَّبِّيب عبد اللطيف...». رفعتُ إصبعي أمامه، وأنا أهزها في وجهه: «لا تقل لي إنَّ ابنك يدرس في إحدى حلقاتي». ضحك ضحكةً مُجلجلة، قبل أن يقول: «لا يا مولانا، ابني... انظر إليَّ أنا في العشرين، ولم أتزوِّج بعد، كيف يكون لي ابنٌ يدرس في حلقاتك؟!». وضحك من جديد: «هل أبو كبيراً إلى هذا الحدِّ؟!». أطلقتُ نفساً طويلاً، وقلتُ: «كلَّ الذين التقيتهم قالوا لي إنَّ ابني يدرس في حلقتك...». «هذا طبيعِيَّ يا مولانا، أنتَ تمرُّ بسوق باب زويلة القريب من المسجد الذي تُدرِّس فيه، فمن المتوقع أن يكون طلبتُك من الذين يسكنون قريباً من هنا، وأباؤهم من الذين يبيعون في هذه السوق... على كلِّ ماذا تريد؟». «أريدُ أن أعرف أين دُكَّان اللحام». «تريدُ أن تشتري لحمًا؟». «لا، سأشتري شيئاً من عنده... أو أطلب منه أن يُغني لي موشحاً... يعني ماذا سأشتري؟ بالطبع سأشتري لحمًا». «في الحقيقة، أعرفُ ذلك، ولكنني أردتُ أن أدلِّك على

بائع لحمٍ جيّد، كلّ باعة اللحم هنا لا يُطمأنّ لهم». تساءلتُ بانزعاج: «لا يُطمأنّ لهم؟ ماذا يبيعون يعني؟ إنهم يبيعون اللحم، وهذا...». قاطعني، وهو يقتربُ مِنِّي، ويهمس: «يبيعون اللحم صحيح، ولكنك لا تعرفُ أيّ لحمٍ هذا الذي يبيعونه». شهقتُ: «ماذا تعني؟». «لا أعني شيئاً. اطمئنّ، المعدة تهرسُ كلّ شيءٍ، باعة اللحم في التلّث الأخير من هذا الشارع، عليك أن تتجاوز باعة الأطعمة، وباعة النحاسيات، قبل أن تصل إليهم». شكرته ومضيتُ، وقبل أن أعذّ الخطأ، سألتُه: «كيف عرفْتني؟». أجابني، وهو يضحك: «أنا شريف، خادم القاضي الفاضل، وقد رأيتك في مُنشأته أكثر من مرّة». «

” (٤)

دُرِّيَّة

اللحم يتدلّى على خُطافات كبيرة مركوزة في سقف الدُكّان، تُشبه إنساناً مذبحاً ومسلوحاً ومُعلّقاً من رجليه، صدمني المشهد، تفرّزتُ، وشعرتُ بأنني أمام مذبحه لا ملحمة، ترددتُ في أن أتقدّم من البائع وأسأله عن رطل اللحم، ليس لأتّه قد يعرفني، بل لأنني فقدتُ الرّغبة في أكل اللحم بعد هذا المنظر فضلاً عن شرائه. رأى اللحم ترددي، فنظر في وجهي، وعرف أن عليه أن يصطادني سريعاً قبل أن أنفر أو أفرّ من هنا. تقدّم نحوي، وسكّينه الكبيرة التي كان يشحذها للتوّ تلمع في يده، فزاد ذلك من إجمالي، كان رجلاً ثاقب النظرات، طوّالاً، يلبسُ سراويلَ فضفاضةً، وعيناه كبيرتَيْن، وشارباه طويلين يتهدلان فوق شفّتيه فيغطّيانهما ولا يبدو منهما شيءٌ إلا إذا تكلم، وكان يتكلم لغّةً مبعوجة، تُشبه تلك اللّغة التي يتكلم بها الحانوتيّ، أو أصحاب المدافن. اقترب أكثر، فشعرتُ بالخوف، مدّ السكّين في وجهي، فتراجعتُ إلى الورا، ابتسم فبانّت أسنانه الصّفراء، ازدادتُ ابتسامته، كان يريدُ طمأنّتي، أما السكّين فكانتُ حركتها في وجهي انسيباً مع الكلمات التي قالها: «عندي أفضل أنواع اللحم في مصر كلها... أنا في تجارة اللحم منذُ كنتُ صبيّاً». اقترب أكثر، بعد أن بقيتُ صامتاً، رفقَ عبارته هذه المرّة، وقالها بصوتٍ رخيم: «لا تخفّ يا مولانا، نحنُ في خدمتك، وعبد اللّطيف البغدادي يستحقُّ أن يأكل لحمًا ممتازاً». نُطقه باسمي أخافني أكثر، همستُ في داخلي: «كيف عرفني هذا السّفاح؟». تذكرتُ ما قاله (شريف) من أن أهل المهن في هذا الشارع لا يُدّ أن يكون أبناؤهم في حلقات الأساتذة الذين يُدرّسون في المساجد القريبة من هنا، حاولتُ أن أضع يدي على قلبي ليسكن قليلاً، تابع وهو يغمز بإحدى عينيهِ السّوداوين: «ابني مثل بقية أبناء أهل هذه السّوق، يذكرك أمامي دائماً... أنا أعرفُ لو أنّني قلتُ لك اسمه فلن تتذكّره، ولكنني متأكد أنك لن تنساه مع الزّمن، اسمه...» وتوقّف قليلاً، قبل أن يقول الاسم بصوتٍ قويٍّ وجديٍّ ومُفعمٍ بالفخر: «خليل... خليل في حلقة الطّب، لن أقول لك ما قاله الآباء الآخرون، ولكنّه يطمح إلى أن يُصبح ناظر البيمارستان الصّلاحيّ هنا، وقد وجد في حلقتك غايته». «لا تقلق يا...» أكمل هو: «أنا صدقي، صدقي اللّحام، لن أعشّك في اللحم كما يفعل اللّحامون الآخرون، إنهم غشاشون، لا تُصدّقهم ولو ذبحوا الشاة أو العجل أمامك... والآن ماذا تريد؟». «أريدُ رطلاً من لحم الضأن». «عندي جديّ صغير، لحمه كانه الفُسْتُق، لم يرضع أكثر من ثلاثة أشهر، سوف أزنه لك كاملاً، واعتبر وزنه رطلاً مهما كان». رفعتُ يديّ في وجهه: «لا... لا يا صديقي... أنا لن أكل جديّاً وحدي، ليس في البيتِ سِواي». «لا غبار... يُمكنك أن تأكل ما تستطيع، وتقدّد الجزء المتبقّي». «ليس لديّ وقتٌ لأقدد اللحم، ثمّ إنني لسْتُ من الذين يشتهون اللحم كثيراً، ولولا أن دريّة قالتُ إنّها ستطبخ لي البامية باللحم ما اشتريت». «عندك دريّة وتقول إنك وحدك الذي عنده دريّة لا يكون وحده». وضحك مع الجملة الثّانية وغمز بعينيهِ، كنتُ قد تسرّعتُ بذكر اسمها أمامه، خفتُ أن يكون يعرفها، ويعتبر ذلك مثلبةً في خُلق الذي يُدرّس ابنه، وهممتُ أن أوضّح له الأمر، غير أنّه أحياناً يكون السكوت عن أمرٍ ما أسلم من الحديث عنه؛ فالناس لا تفهم إلا ما تريد. ولهذا أثرث الصمت.

راحتُ سيكّينه تغوصُ في اللحم الطّريّ بمهارة، فصّل الرأس، ونزع ما كان على الأضلاع، وقطع الأطراف، وقسم اللحم، وسأل الدّم من بين القطع كلّما غاصت السكّين في خُطوطٍ صغيرة، وكوم القطع بعد انتهاء الأمر، ومدّ الرّطل إليّ: «جاهز يا مولانا. لن أوصيك...» أكملتُ عنه: «بخليل... سيكون أبقراط، لأنّ ابن سينا جزّته لابن الفاكهانيّ». ضيق

عَيْنِيهِ، وفنل شاربيهِ، وبدا أَنَّهُ لم يفهم شيئاً. وضعتُ اللَّحْمَ في الرَّحْلِ، وركبتُ الأَبْلَقَ، وقلتُ في نفسي: «لن أتوقَّف أبداً أمام أيِّ دُكَّان، عليَّ أن أسابق الرِّيحَ لأعودَ إلى دُرِّيَّة، لا بُدَّ أَنَّهَا الآن تفور من الغيظ على تأخري».

كانَ الهواءُ العابر أنفي وأنا فوق الأَبْلَقِ أنقى من ذلك الذي بين أجساد العابرين في السَّوقِ، من هناك شممتُ أشهى رائحةٍ يُمكن أن تعبر الأنوفَ، إنَّها رائحةُ الخُبزِ، قلتُ لنفسي: إنَّ تناول بعض الأرغفة لن يعوقني كثيراً عن دُرِّيَّة، وهمستُ مُوكِّداً: «بالطَّبع، لا بُدَّ أن أشتري خُبْراً؛ هل سأكل اللَّحْمَ بيدي؟».

كانت الرِّائحةُ تفوح من مخبزٍ صغير، تتبع فيه الخبزَ امرأةٌ في الثَّلاثينيات من العُمر، كان المخبز عبارةً عن كُوَّة في الجدار إلى الدَّاخل، توقد فيها النَّار، وتُلْقَى فيها رقائق العجين حتَّى تنتضج، ثمَّ تخرج مع رائحتها الشَّهيَّة، وكانت الخبازة تعرض الخبز النَّاضج على صندوقٍ خشبيِّ عالٍ يغطِّي بعرضه مدخل المخبز، وكانت الأبخرة تتصاعد من الأرغفة، وهي

تواصل سَفَرها في الهواء، وكانت الرِّائحة الشَّهيَّة تزيدُ من جوعي، ولو أكلتُ بعضَ الأرغفة لشبعتُ عَوْضَ أن أنتظر هذا الوقت كلَّه حتَّى تُجهزَ دُرِّيَّة الطبخة... ترجَّلتُ عن الأَبْلَقِ سريعاً، نفَضَ رأسه نفصتين أو ثلاثاً، وأخرج صوتاً من براطيمه ففهمتُ أَنَّهُ هو الآخر تعب ومَلَّ، وأتَّه يشعر بالعطش، وأنَّ الجوّ الحارَّ قد أسال العرقَ الفُضِّيَّ على ظهره. طمأننتُه بنظرةٍ من عيني: «أعدك؛ سيكون هذا المخبز آخر محطةٍ لنا، قبل أن نُطلق أنا وأنتَ سيقاننا للرِّيح». كان بعضُ المشتريين اثنين أو ثلاثة، يملؤون بعضَ الأكياس من الخبز، وينقدون البائعة دراهمهم، رأيتُ أحدهم يمدُّ يده، ويتناول من الكيس رغيفاً، ويقطعه، ويبدأ بأكله وهو يهزُّ رأسه من المتعة، كانت هناك صبيَّةٌ صغيرةٌ تلبسُ ثوباً زهرياً، تُمسكُ بيديها الصَّغيرتين وعاءً من الخبز مملوءاً باللُّبن، وتضع فوقَ رأسها كيساً فيه بعضُ الأرغفة، وصاحبة المخبز تقول لها: «أذهبي بها إلى حسن الفاكهاني، وحُذي منه دينارين مقابل ذلك». والصَّبيَّةُ تمضي كما قالتُ لها أمها. حان دوري، تناولتُ ثلاثة أرغفة، خُفتُ أن تنفُرسَ الخبازة في وجهي كما فعل السَّابقون، لكنَّها كانت تُعطيني ظهرها، لكي تُخرجَ بعضَ الأرغفة الأخرى النَّاضجة للنَّو، وهي تقول لي: «ستة دراهم». أعطيتها الدَّراهم، تناولتها دون أن تنظر في وجهي، أضفتُها إلى الرَّحْلِ، ووقزتُ فوقَ الأَبْلَقِ، سهل سهيلاً طويلاً، قال فيه وهو يركض: «لن أتوقَّف حتَّى لو أمرتني بذلك إلا في إسطنبولي العزيز... سامخني هذه المرَّة يا مولاي، أم تريدُ أن أقولَ لك إنَّ ابني المُهر الصَّغير يدرس في حلقة علم الأدوية عندك؟!». وضجكتُ من خاطر الطَّريف، ومضينا!

عندما عدتُ، كانتُ دُرِّيَّة في انتظاري عند البوابة العالية، توقَّعت أن تُعاتبني أو أن تقول إنَّها لن تعودَ لِمثَل هذا العمل مرَّةً أخرى، لكنَّها كانتُ تتفحَّصني بنظراتها كأنَّها تراني لأول مرَّة، كانتُ تلك النَّظرات تمس كلَّ موضع في جسدي، هل تفعل النساءُ هذا دائماً؟ يُفمن بهذا المَسح الكامل للجسد؟ لهنَّ عيونٌ سابرةٌ ليست كعيون الرِّجال عابرة؟ لم تفعلُ دُرِّيَّة شيئاً بعد تلك النَّظرات، أخذتُ لِجام الحِصان في اللَّحظة التي ترجَّلتُ أنا عنه، وراحتُ تقوده وهي تضحك، سألتُها: «فيم تضحكين يا دُرِّيَّة؟». ردَّت: «لا شيء». «قولي». «أخاف أن تجدني وقحة». «قولي يا دُرِّيَّة». «يا سيدي، أنتَ رجلٌ ربعةٌ تميلُ إلى القصر، كبير الهامة، ناتي اللحية، تبدو أصغر من عمرك...». قاطعتها: «وهل تعرفين عمري؟». «نعم، أعرفه». «كيف؟». «دعني أكمل، وسأقول لك». سمحتُ لها بيدي أن تُكمل، وكُنَّا لا نزال واقفين أمام الإسطبل، ولجام الحِصان في يدها: «جاحظ العينين، أسمر البشرة، بارز الصُّدغين، كثير البُقَع في الوجنتين، ضامر البطن، تبدو لم تأكل منذ سنة... ولكنك مع ذلك كلُّه فارسٌ». ضحكْتُ حتَّى كدتُ أقع على الأرض، وسألتُها: «عرفت صفاتي هذه من لقاء واحدٍ، إنَّك لعجيبة». أكملت: «وعقلك يزنُ نصفَ القاهرة». سألتُها وأنا أنفجر بالضحك من جديد، وأضربُ كفاً بكف: «فمن سرقَ نصفه الثاني؟». أجابتُ بحزم: «الحشاشون». دحرجتُ ما تبقى من ضحكتي على الأرض، وتصنعتُ الجديَّة مثلاً، وتلقَّتُ حولي أمثلاً دور الخائف، وهمستُ وأنا أقربُ منها: «لم تقولي لي كم عمري؟». «عُمرُك أربعون، وتبدو في العشرين». «وكيف عرفت؟». «أنا عرَّافة» قالت الجملة الأخيرة وهي تنظر في عيني، لم تكن المرَّة الأولى التي تقول فيها ذلك، شعرتُ أن نظراتها نفذت من عينيها إلى قلبي فوخزته، وضعتُ يدي اليمنى جهته، وضيقْتُ عيوني لشعوري بالوخزة فعلاً، وبدأ خيطٌ من الخوفِ الحقيقي يتسلَّل إليّ، قلتُ بلهجة السيِّد الأمر: «أنا جائع، يجب أن تعلميني هذه الطبخة بشكلٍ سريع. الآن أنزلي ما أحضرته من الرَّحْلِ، وأدخلي الحِصان إلى الإسطبل، ولا تُضيِّعي وقتي».

وأردفت وهي تُعطيني مع الحصان ظهرَيهما فتبدو امرأةً أخرى: «وستنقذ مصر». رجفت لعبارتها الأخيرة، لقد قالت لي أمي العبارة ذاتها قبل سنواتٍ، سألتها بصوتٍ راجف، وهي ما تزال تتهاذى في مشيتها: «كيف عرفتِ؟». ردت بلا مُبالاة: «لقد قلتُ لكِ إنني عرّافة!».

” (٥)

المُلُوخِيَّة

درّية امرأةٌ فاتنة على الحقيقة، وطعامها فاتنٌ هو الآخر، وتقول بعض الكلمات غير المفهومة، وتحدّثني عن أشياء لا أتخيل أنّها موجودة في القاهرة، مهلاً؛ قلت: أشياء غير موجودة في القاهرة؟ ولكنّ ماذا أظنّ نفسي؟ ماذا رأيتُ من القاهرة كي أحكم؟! القاهرة أمّ الدنيا، عاصمة الدهشة، وربيبَةُ النعم، وصديقةُ الوجوه التي لا تعرفك ولكنها دائمة الابتسام.

درّية امرأةٌ شابة، تفيض بالحيوية والحركة، وتضحك كثيراً، وتعبس أحياناً، لها وجهٌ أقرب إلى الطول، حنطيّ، بشرةٌ صافية مع سُمرةٍ لذيذة، كانت عيناها لوزيتين، واسعتين جهةً المُوق، ضيّقتين في زاويتيها البعيدتين عن الأنف، ولم أستطع تحديده لونهما إلى اليوم، كانتا أقرب إلى عينيّين رماديتين تُشبهان عينيّ الدّنب، لكنّ الشّمس إذا ضربتهما صارتا عسلّيتين غامقتين تُشبهان عينيّ الصّقر، لا أدري كيف يحدث هذا، ولكنه كان يحدث. وكانت جبهتها الحنطية فوق عينيها واسعة وعريضة، ومفتوحة للقراءة، وكانت تلبس فوق رأسها شالاً أخضر من أطرافه، وأصفر مشوب بتدرج لألوان شتّى في وسطه، وكانت تعقده خلف عنقها، فيبدو شيءٌ من خُصلات شعرها الأمامية، ولم تكن نساء القاهرة تفعل ذلك، كان أكثرهن يغطّي شعره بالكامل، هذا إذا لم يغطّين وجوهن، وكان يتدلّى من تحت أذنيها فُرطان ذهبيّان على شكل لوزة كبيرة، يتأرجحان كلّما مشت ويهتران على إيقاع حركة رأسها إذا تكلمت، وكانت شفّتها مُمتلئتين، ورديّتين تُشكّلان لوحةً عجيباً مع الوجه الحنطيّ، وتبدو عليهما ابتساماً هاربةً أكثر الوقت، إذ كانت حين تبتسم أو تتكلم يظهر من خلف تلك الابتسامة صقّان من الأسنان البيضاء اللامعة، وفي الشّفة السفلى كان هناك حَظ في المنتصف، يقسم الشّفة نصفين، فإذا ابتسمت انشَد ذلك الخيط فبدا واضحاً جميلاً يفصل صفت الأسنان السفليّ إلى نصفين. وكانت عنقها التي تبدو من أمام غطاء رأسها المعقود إلى الخلف غليظةً شيئاً قليلاً لا يتناسب مع وجهها الجميل، ولكنها مع ذلك ملساء يزلّ اللّبن عن منّيها. أمّا جسدها فكان ربعةً، قوامها مُمتلئ، وتميل إلى السمنة قليلاً، ومع ذلك فإنّ حركتها كانت سريعة، ونظرة عينيها أسرع، ومشيها عابرةً من المطبخ إلى الرّواق إلى الإسطبل أسرع منهما. وكانت تلبس عباءةً سوداء، تُظهر شيئاً من جسدها المُمتلئ، وإذا تحدّثت إليها فلن تستطيع أن تعرف كم تعرف من الحياة والناس والعلم، مع أنّها لا تعرف القراءة، ولا الكتابة، ولم تدخل في أيّ حلقةٍ دراسيةٍ في حياتها، وقضت كلّ عمرها بين المقابر!

مرّ أسبوعان على طبخة البامية التي تعلّمثها من درّية، لقد تعلّمث منها الكثير، كانت كثيرة الكلام، لكنني كنتُ أجد في كلامها بعض السّلوى، هل يحتاج الوحيد إلى أدنّ تستمع إلى هوموم؟ مَنْ كان مِنّا بلا همّ فليرمني بحجر، الكلمات التي تُقال للفراغ تبقى ساجحةً في الفضاء لا تجد مأوى، وحدها الكلمات التي تجد أدنّاً تُتقن الإصغاء قد تجد طريقها إلى القلب، لو كان للقلب أن يُؤوي بعض الكلام فإنّه سيدج طريقه للترعرع، وسيخضّر كما لو كان قد غرس في أرضٍ مُخصّلة.

قالت لي هذه المرّة: «سأعلمك كيف تُطبخ الملوخية، ماذا تعرف عنها؟». «أعرف من النّبات ما كان صالحًا للاستشفاء، إنّه مهنتي، يُمكنني أن أصف لك كثيرًا من الأدوية التي تعتمد على ذلك». «ليس هذا وقته. نريد أن نأكل ملوخية اليوم. الغداء حقيقة. الدّواء خُدعة». «وما المطلوب؟». «اننّا بقدر طبخةٍ منها في السّوق، وبالخبز بالطّبع، وبالسّمّن». «توجّهتُ إلى حصاني بسرعة، قالتُ وهي ترمّ شفّتيها، وتُصعدُ في النّظر: «لا تتلّكأ في السّوق وأنّت تنظرُ كالأطفال في الوجوه». ضحكّت: «إنّها تعرفُ أنّي أنظرُ في الوجوه، لن يسرق النّظر في الوجوه الكثير من الوقت».

«أوقيتان من السّمّن» طلبتُ من السّمّن. كان سمياً، وقصيراً، وأحول؛ يستقرّ بؤبؤ عينه اليمنى جهة الشّمال فيزدادُ النّياضُ فيها، وكان أجشّ الصّوت، كأنّه ابتلع مطحنة، وكان لسمنه ثقيل الحركة لا يكاد ثوبه الفضفاض أن يُخفي الكتلة اللّحميّة الضّخمة التي تتكرّش أمامه! وكان دُكانه دُكان الألوان هو الآخر، رأيتُ فيه الألبان والأجبان والعسل، العسل الذي يبدو أنّه أشهى من أيّ عسلٍ في أيّ بلدٍ آخر، والسكّر، قصبُ السكّر المُكرّر الذي يساوي عندهم تاريخ مصر. هتف: «أيّها المُعلّم الكبير، أوقيتان على حسابك والثالثة على حسابي». قلتُ بشيءٍ من الضّيق: «مَنْ أدّرس من أبنائك في حلقات الصّالحي؟». ابتسم وقال مُعاتباً: «أمن اللازم أن يكون لي ابنٌ يدرّس في حلقتك حتّى نُكرّم مُعلّماً؟!». خجلتُ، وأطرقّت إلى الأرض، وأكمل: «لا يوجد لديّ ابنٌ، أنا متزوّج منذ عشرة أعوام ولم أرزق إلى الآن بطفل. حاولتُ.

الأوقيّة الثالثة إكرامية يا مولانا». «كيف تعرفني؟». «ومَنْ لا يعرفُ الحكيم عبد اللّطيف البغدادي؟». وأنغض رأسه قبل أن يقترب منّي، ويُمسك بذراعي، ويضغط عليها قليلاً، ويهمس: «محسوبك ناجي السّمّن... نحن نحترمك يا حكيم، ولكن لماذا تسمح لدريّة أن تبيت عندك؟». اضطربتُ، نفضتُ يده، وقلتُ بصوتٍ حادّ: «مَنْ قال لك إنّها تبيتُ عندي؟». «لا شيء في هذه السّوق يبقى خبيئاً يا حكيم». «إنّها تطبخ لي، كما تطبخ للعشرات الآخرين». «لكنّ النّاس شاهدوها تدخل ساعاتٍ طويلةً إلى بيتك، ولا تخرج إلا في المساء، النّاس يأخذون منها ما تطبخه وهي واقفةٌ على أبوابهم، وأنّت تُدخلها إلى مخدعك». أجبته بغضب: «كُفّ عليك لسانك». واستعجلته: «أعطني السّمّن، وخذ نقودك ودعنا من ثرّهاتك». تجاهل عبارتي، وبنى على عبارته السّابقة: «أتعرف لماذا لا يُدخلونها إلى بيوتهم، ويأخذون الطّعام وهي واقفةٌ بالباب؛ لأنهم يخافون منها». استمهلته: «لماذا يخافون منها؟». اقترب منّي أكثر، وضغط على ذراعي مثل المرّة السّابقة: «إنّها عرّافة... وساحرة... ولا أريد أن تُلحق الأذى بمولانا». «إذا كانت كما تقول فلماذا يُقبل النّاس أن تطبخ لهم». «الذين يقبلون بذلك مجانين مثلها، أو سحرّتهم، أكلها لا يُمكن مقاومتها». «ليس لديّ وقتٌ لخرافاتك، بكم الأواقي الثّلاث؟». «بثلاثة دنانير».

الملوخية أشدّ مانيّة من البامية يا سيّدي، ولكنّ أهل مصر يُحبونها أكثر، إنّها لذيذة، وتُطبخ مع أصناف اللّحم كلّها، وأحسن ما تُطبخ به مع الأرانب، إنّها أكلة أهل الوجه البحريّ المُفضّلة، وتُؤكل ساخنةً وباردة، ولكنّها ساخنةً أشهى، وهي لعابيّة قليلاً، ولكنها أخفّ وأجري في الحلقوم، ولونها يجب أن يكون مع اللّحم داكن الخُضرة، فإذا رأيت ملوخية بيضاء أو فاتحة أو تميل إلى الصّفرة فاعلم أنّها فاسدة، وأنّ صاحب الدكان قد غشك. ويُضجّ بها اللّحم لتأخذ شيئاً من دهنه مع المرق، وشيئاً من طعمه، وإذا بدأت بأكلها فسَم الله ثلاث مرّات، لأنّ فيها بعض الأذى لمن لا يعرف أصلها... استوقفته: «ماذا تعنين؟». «يا سيّدي إنّ لها تاريخاً طويلاً». «وتعرفينه أكثر منّي؟». «بالتأكيد يا سيّدي، فأنت طبيب وأنا عرّافة، وإنّما تستخدمُ أنت منها ما نفع الجسد في داء، وأنا من اسمي أعرفُ عنها أكثر ممّا تعرف هي عن نفسها... أوّلاً لأهمّيّتها سمّى المصريون درباً باسمها، فهناك دربٌ اسمه درب الملوخية قريب من منطقة السيّدة عائشة، وهو دربٌ مزدحمٌ أكثر من شارع المعزّ ومن سوق زويلة، وثانيًا كانت تُسمّى (الملوكيّة) لأنّها كانت طعام الملوك، وكانت الملوك لأنّها لذيذةٌ جدّاً تُحرّمها على العامّة، فلما طال شوق العامّة إلى أكلها، سمّوها الملوخية تغييراً لحرفٍ في اسمها، وكلُّ مَنْ كان يُلقَى عليه القبض وهو يأكل أكلة الملوك من العامّة يتخلّص من الحبس بقوله: «معاذ الله أن أقرب ما أباح الله للملوك وحرّم على السّوقة، إنّما هذه العُشبة الصّارة الخضراء تُسمّى الملوخية، وهي تلغ في المعدة، وتدعو إلى القيء، فشتان بين ما نأكل وما يأكلون... وبهذا ينجو من الحبس»، وشاعت في أهل مصر وفشت، حتّى جاء الفاطميّون فحرّموها من جديد، لأنّها كانت الطّبخة المحبّبة لمعاوية بن أبي سفيان، وحرّمت على أهل البلاد كلّهم، وعاش النّاس من ذلك في ضنك، فلما ذهب بهم الحمار ولم يرجعوا، عادت الملوخية إلينا، وها أنت يا سيّدي، تنتعم بأكلها دون أن تكلف نفسك بيعتٍ صحنٍ معي لأكل كما تأكل!

أبدى اهتمامي، وأجبت: «بل أنا الذي سأخذُ صحناً وإحدًا لي، وسأبعثُ معك البقية». «وهل أنت جاد؟». «وهل رأيتني أمزح؟». «كلا، ولكن هذا كثير». «ليس كثيرًا على مَنْ عَلِمَني». زوتُ رأسها، وقعت الكلمة منها موقعا، رفعت رأسها ثانيةً نحوي، وقالت: «أنت رجلٌ طيب، يا سيدي، وبسيط، ولا تعرفُ من الدُّنيا شيئاً». إنَّها تقولُ كلامًا يبعثُ في اللحظة على التناقض في الشُّعور، ولذا سألتُها: «كيف ترييني بكلمةٍ واحدة؟». واستعربتُ من نفسي أن أضطرَّ إلى سؤالها سؤالاً كهذا، وودتُ أنني لم أنطقه، كيف لعالمٍ مثلي أن يسأل امرأةً رأيتها فيه، ولكنها قطعتُ عليَّ سرَّحاني، وقالت: «بيدو أنك ندمتَ على السؤال. لكنا لم نُخطِئ. وإذا أردتُ أن أصفك بكلمةٍ واحدةٍ كما طلبتَ، فأنت: أحمق». وصعقتني وقاحتها وجرأتها، ولكنني بلعتُ ربيقي وصيرتُ نفسي، وهممتُ أن أسألها لماذا تراني أحمق، غير أنها أكملت: «أنت أحمق إن لم تعرفَ ما تُخبره الأقدار لك». وخففتُ الجملة الأخيرة من الصدمة التي سقطتُ في جوفها قبل قليل. وسألتُها: «لماذا قلت ذلك؟». وأمرتني أن أبسطُ كفي: «هات يدك أقرأ لك طالعك». «أليس هذا حرامًا في ديننا؟». «إنه حرامٌ عند مَنْ لم يعرفَ من الدين إلا فُشوره». وغضبتُ قليلاً، وهتفتُ: «تأدبي يا امرأة».

وردت: «إنني أريدُ لك الخير، لا تكنُ أعمى مثل الباقين!». «.

” (٦)

في القاهرة ما لا ترى!

ودخلتُ السوقَ بعدَ أيَّامٍ، فوجدتهُ ملان، ورأيتها تُفصلُ الفاكهانيّ، وهو يتندّر معها، وهي تهتمُّ بضربه على وجهه، فلما رأيتني ابتسمتُ، وهتفتُ: «أنسيتنا، فلا ينسى إلا ذو قلبٍ خالٍ». واقتربتُ منهما، ودفعتُ لحسن الفاكهانيّ ما أخذتُ من الأغراض، ولم تتمتعُ أو تُمانع، ورمقني الفاكهانيّ بنظرةٍ خبيثة، وسمعتهُ أو خُيلَ إليّ أنه قال ذلك: «لقد صادتُك أيُّها المسكين». وقلتُ لها: «أنا في البيت، هل يُمكن أن نتعلّم اليومَ طبخةً جديدةً؟». ورفعتُ رأسها إلى السماء فبانَتْ عُقُها الملساء، وعادتُ برأسها، وهتفتُ: «الشَّمسُ سريعةٌ هذه الأيام، وسوفَ ترحلُ عن قريب، إذا أردتَ ذلك، فأخافُ أن أتأخّر عن التربة». «علميني شيئاً يكون سهلاً وسريعاً». ضحكْتُ، ولمعتُ عينا الصَّقرِ فيها، وأردفتُ: «سأسبقك إلى بيتك يا سيدي». وحملتُ أغراضها بين يديها، وولتُ جهة التَّوابة. وضربَ الفاكهانيّ كفاً بكفِّ، وكان صدى صوتِ ابنه في حلقة الطَّبِّ يردّدُ عبارة أبيه: «لقد صادتُك أيُّها المسكين».

وكان في الجهة الغربيّة من السوق عن يسار الدّاخل من القنطرة الكبيرة بيّاع وُرد، كان دُكانه يُعطي كثيراً من البهجة للمكان، ومصر التي تحبُّ الألوان، لم تخالف هذا في أكثر الدّكاكين التي رأيتها، كان يبيعُ فيه شابُّ ذو بشرّة بيضاء لُدنة، وقوامٍ رخصٍ أشبه بقوام الفتيّات، وكان كلامه يقطرُ عسلاً لحلاوته، مع رخاوةٍ فيه، فرأيتُه عرضَ في كلّ جانبٍ من الدكان أصنافاً شتى، وقامَ يدورُ بينهنّ بالساقية يرشّ الماء على الورد حتّى يظلّ ناضراً. كان هناك الأس، والبنفسج، والترجس، والياسمين، والنسرين، والبان، والليثوفر، والريحان، والمنثور... واشتريتُ من عنده أضمومةً كبيرةً من البان، كانت زهوراً بيضاء في ورقٍ أخضر، فوّاحة، تصبر على العطش، لو لم تسقها فإنّها لا تتوقّف عن الشدّي، الحَبُّ هو أن تُعطي وإن حُرمت، هكذا يُمكن تلخيص هذه الحالة العجيبة مع البان، ودخلتُ البيت، فقَدمتُ الأضمومة إلى درّيّة، فابتسمتُ، وقيل أن تتسع ابتسامتها وتبالغ في خفض رأسها حَجلاً، هتفتُ: «يُمكن أن تزرعها في وسط هذه السّاحة، من حقّ المُتعب أن يشمّ هذه الرّائحة العطرة إذا ما أوى إلى فراشه». انقبضتُ ابتسامتها، ودفعتُ الأضمومة إليّ، وقالت بصوتٍ غاضب: «أنا هنا لأعلمك الطبخ، لا لأحوّل إلى فلاحة. يُمكنك أن تزرعها بنفسك». فعلتُ. زرعتها في الوسط، نمتُ بشكلٍ سريع، إن لها ساقاً طويلة، بعد أسابيع، صارتُ درّيّة إذا دخلت البيت، قامتُ بسقايتها، وتعهّدها بالرعاية، بدتُ ذات صباحٍ وهي تأتيني بالحليب من السوق لكي تُعلمني صناعة الحلوى، وتقف إلى جانبها لوحةً دريّة الجمال، وتذكّر قول الشّريف الرضّي:

ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

علمتني درية كثيرا من طبخات أهل مصر وحلوائهم، لا يمكن أن أقول لكم كم هي ماهرة، ولكنها على عاداتها تقول كلماتٍ مخيفةٍ أحيانا، ويتبدل لون عينيها على ضوء الشمس النافذ من كوى المطبخ أو بابه كلما أردت أن أفق على حقيقتها. لكنها دافئة، ولا أدري ماذا تعني هذه الكلمة بالنسبة لحقيقتها، ولكنها دافئة في كل شيء. وكانت تقول لي: «لو سمعتني بقلبك فستعلم أسرع. لكن قلبك مشغول بالوصف. دعك مما يجري اليوم، وفكر بما سوف يجري غدا»، وكلما سألتها متوجسا: «ماذا سيجري غدا؟». تشد على شفتيها الملينتين، وتهتف: «وهل سأقول لك كل ما سوف يحدث دفعة واحدة؟ أعطني يدك. وإلا، ستري بعينيك أحسن مما أقول...» وتوقفت قليلا مترددة قبل أن تتابع: «هذا إذا كان لك عينان لتري!!».

وعلمتها كثيرا من الأدوية، «اللبخ الذي ورقته كورق الجوز، وله رائحة عطرية يكون جيدا للمعدة، وإذا جفف وسحق وعجن بالماء حتى صار كالمرهم، ومسيخ على الجرح قطع الدم، وإذا طحن وأكل قطع الإسهال. وأما الجميز فشجرته عاتية وكبيرة، وإذا فصدته خرج منه لبن أبيض إذا طلي على ثوب أو غيره صبغه بالأحمر، وخشبه ثعمر به المساكن...» وقاطعتني: «ليس في الجبانة إلا بيوت الطين يا سيدي». وأكملت: «ويمكن أن يصنع من ثمرته خل حادق، ولبنه يلين الجراح ويخفف ألمها، ويفش الأورام، وإذا لطخ على مواضع لسع الهوام أزال الألم، وشرابه يلين تصلب الطحال، ويخفف أوجاع المعدة، ونشافة السعال. والفلقاس مفيد لإيقاف السعال، والبلسان يشفي من سموم المعدة، وسموم الأفاعي إذا صنع منه دهن».

طلبة مجلس الطب نابهن بالفعل، أما أولئك الذين قصروا عن اللحاق بالركب فقد اختصروا المسافة على أنفسهم؛ خرجوا من الحلقة إلى دكاكين آبائهم، بعضهم من تلقاء أنفسهم، وبعضهم لنصيحة أبيه: «إن الدرهم الذي تحصله من التجارة يركض أسرع بكثير من الدرهم الذي تحصله من الطب، وما في الجيب أضمن مما في الغيب».

كنا نجلس في مسجد الصالح يومي الاثنين والخميس، نتذاكر كتب الأطباء، وبدأت معهم بكتاب المعرفة والفصول لأبقراط: «يتداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تفرع إلى عاداتها، فقيل لأبقراط: لم أتور ما يكون البدن إذا شرب الإنسان الدواء؟ فقال: لأن أشد ما يكون البيث غبارا إذا كئس».

فلَمَّا أتمَّوا معي عامًا أو أقلَّ قليلاً، أخذتهم إلى البيمارستان، وكان البيمارستان في منطقة القشاشين قريبًا من الجامع الأزهر، وكنتُ أركبُ إليه الخيل، ويلحقُ بي الطلبة في العرَبات، أو يوافونني إليه مشيًا على أرجلهم، وكان البيمارستان فيما مضى قصرًا للعزیز بن المعزِّ لدين الله الفاطمي، فلَمَّا صار الأمر إلى صلاح الدین استولى على القصر، وجعله بيمارستانًا، وسبب صنيع صلاح الدین هذا أنه كان في القصر طليسمًا لا يدخله النمل، فوَقِر في ذهنه أن موضعا لا يدخله النمل هو موضعُ صحَّة، فجعله البيمارستان، ولَمَّا سألتُ فيما بعد دريَّة عن سبب ذلك، قالتُ: «إنَّ في المكان بقايا من تعاويذ الفراعنة»، ولَمَّا رأيتُ الإنكار في عينيَّ قالتُ: «إنَّ الأغرار كالأغيار، لا يؤمنون إلا بما رأوا».

وكان المدخل إلى البيمارستان هو بوابة القصر الذي كان، وهي بوابة مُنيقة، تكادُ تطاول باب زويلة في الارتفاع، ولكنها تُفضي إلى بهوٍ فسيح، وقاعةٍ واسعة، هُيئتُ عُرف القصر التي كانتُ على جوانبها إلى عُرفٍ للاستشفاء، وكان خلف هذا القصر حديقةٌ هابطةٌ من الجنان، جعلها ناظر المستشفى موضع التقاهة لمن أكمل مراحل العلاج.

وكان في البيمارستان غرفةٌ كبيرةٌ للتدريب على التشريح، وأخرى للمعاينة، وثالثةٌ للتعلُّم، وكان فيها – كما كان في كلِّ بيمارستان – مكتبة ضخمَةٌ فخمة، فمن قال لك إنَّ الكتب فيها تزيد عن خمسمئة ألف كتاب فصَدِّقه.

والبيمارستان هذا غير الذي بناه ابن طولون في القطائع سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يُنفق عليه ستين ألف دينارٍ في اليوم، وحبسَ عليه عدَّة دورٍ وأسواقٍ للدولة يقومُ ريعها بنفقته، واشترطَ ألا يُعالج فيه جنديٌّ ولا مملوك، وكان يُشارفه بنفسه، ويركبُ إليه يومًا في كلِّ أسبوع. وهو إلى ذلك غير البيمارستان الذي بناه كافور الإخشيدي سنة ٣٤٦ للهجرة. وكان كلُّ أميرٍ أو حاكمٍ لمصر إذا جاء بنى بيمارستانًا يتفوق على ما بناه سابقه، وما كان هذا التفاخر ليكون مُحببًا لولا أن هذه البيمارستانات كانتُ تفتح أبوابها للفقراء قبل الأغنياء، ولأهل الفاقة قبل أهل اليسار، وكان يُعالج فيها الغريب قبل صاحب الدار، والمسافر قبل المُقيم.

وكان لي غرفةٌ فيها أسيرةٌ مُجهزة بالأجساد البشرية للتشريح، وبالحيوانات المُحنَّطة، والحشرات وغيرها، وكان فيها من المحاليل المحفوظة ما يُعين على فهم المُحاضرات، وكان الطلبة يقفون حولي، ويُدونون ملاحظاتهم، وأكثرهم من مساعدي الأطباء الذين بينهم وبين كونهم أطباء عامِّ من التطبيق في هذا البيمارستان أو عامان، ومنهم من كان يحمل الدوارق والمحاليل وأدوات التجربة بين يديه، ينتظر مني إشارةً ليعطيني ما أريدُ منها عند الحاجة لتبيان معلومةٍ أو طريقة.

وكان فيه آبارٌ للماء، محفورةٌ عميقًا، وبعضهم قال – وأنا لا أصدِّق ذلك – أنَّ قنواتٍ من الماء كانت تُمدُّ من البيمارستان تحت الأرض إلى النَّيل، وتندفع من هناك إليه، ولولا أن المسافة بين الأزهر والنَّيل كبيرةٌ لصدَّقتُ ذلك. ولكنَّ دريَّة قالتُ: «عليك أن تُصدِّق؛ في القاهرة ما لا ترى أكثرَ ممَّا ترى».

إنّ الفراغنة جعلوها أمانةً غيرَ مُطمئنّة. فلدّيههم سحرٌ يُصيبها بالموت، ولديهم تعويذة تُنهضها من هذا الموت كلّما أحيطَ بهم. إنّها مصر. تختصر الكلمة الكثير، وتقول كذلك الكثير!

كان الصّوت العذب ينتشر في الهواء على شكل دوائر، تُسافر في الفراغ، فإذا وجدتُ بناءً تكسّرت، فإذا سلمت من حاجزٍ يكسرها، اتسعت تلك الدوائر من مركزها حتّى طرقتُ نافذتي الخشبيّة في اللّيل، حيثُ يبدو الصّوت صافياً، لا يُعكّر صفوه لا أصوات الباعة، ولا المُتصايحين في الأسواق، ولا الدّالّين على بضائعهم، ولا حتّى حركة العابرين لهذا الشّارع أو ذاك... إنّ اللّيل العميق، حيثُ أوى كلّ حيٍّ إلى مسكنه، ونامَ كلّ ذي قلبٍ خليٍّ، ولم يبقَ ساهراً إلى هذه اللّحظة غير العباد والعشاق، وكلاهما يُناجي حبيبه، فلمّا جاء هذا الصّوت العذب، وهذه الموسيقى الرّخيمة، صار سُلماً لتلك المناجاة الصّاعدة إلى المحبوب.

كان ذلك الصّوت صوت (عجيبية) تُغني إحدى موشّحات ابن سناء المُلِك، في داره، أو في دار أحد الوزراء، بمصاحبة آلة (الجنك)، وكان معها عددٌ من المُغنّيات يضررنَ بالدّف، وكانت (عجيبية) عجيبيةً في غنائها، وجمّالها، وعضوية صوتها، وكانت بيضاء غير مُفاضّة، أصابعها خُلقت للعزف، وشفتاها للنغم، كانت تجلس إلى كرسيّ خشبيّ ذي قوائم أربع ليس له مسند، ومُعطى بالجلد اللّين، وتمدّ أصابعها إلى أوتار آلة (الجنك)، وقدميها إلى الدّواسات في أسفلها، وكانت أصابعها رقيقة ناعمة، تتحرّك على الأوتار بانسيابيةٍ سَمكةٍ صغيرةٍ في الماء، كأنّ الأوتار شَعْرُ غانيةٍ أخرى تعبتُ فيه بأصابعها. وكانت عيناها سوداوين صافيتين في بشرّة بيضاء أشدّ صفاءً، وكانت تبدو وادعةً، فإذا بدأت الغناء والعزف، اهتزّ قلبُ كلّ من حضر مجلسها للإيقاع السّاحر، وكانت لا تغني إلّا في مجالس الكُبراء، ولقد رأيتُ بعضهم يبكي، وبعضهم يتمايل، وبعضهم يشكو، وبعضهم يشدو، وينوح من وجدٍ ولهفةٍ حتّى لتكاد الجدران ينفطر قلبها لذلك، وغنّت موشّح ابن سناء الملك الشّهير يومئذٍ، فجاءتُ بأجمل لحنٍ يُسمع:

كَلّي

يا سَحْبُ تيجانَ الرُّبا بالخلي

واجعلي

سوارها منعطف الجدول

وكان الجمع يتمايل في موضعه، فلما غنّت:

لا أليّم في شربِ صهباءٍ وفي عشقِ ريمٍ

فالتعيمُ عيشٌ جديدٌ، ومُدامٌ قديمٌ

لا أهيمُ إلاّ بهذينِ فقمٌ يا نديمٌ

واجلٌ لي

من أكوسٍ صيرتُ من فوقِ

الذلي

من نكهةِ العنبرِ والمندلِ

تواجدوا حتى شقّ بعضُ الأمراءِ ثيابهم.

فلما حضر (الكامل) مجلسها ذات مرة في بيت أحد الوزراء، استأثر بها لنفسه، فكانت تُعني له كل ليلةٍ بجنكها، وتظللّ عنده الليل كله، فإذا ضوّأ الصبح، وصار للناس وللشّارع عيونٌ، تنزل من قصره وهي تتمايلُ سكرى على أيدي الجوّاري. ولقد علّمت عجيبةً كثيرًا من المُغنيات، فكُنّ يغنين في الأسواق، ويضربن بالأعواد، ولقد مررتُ بأكثر من عشرين سوقًا في القاهرة وحدها، وما خلا سوقٌ من مُغنية، ورأيتُ حولها الشّباب مثل القراش حول النار.

وكان في القاهرة أسواقٌ قائمةٌ للفُطن وحده، تُباع فيه ثيابٌ، ومراكب، وكَلَوَات، وفُرُشٌ، وبُسُط، كلُّها منسوجةٌ من الفُطن، وكان النَّاسُ في الشَّام يأتون إلى مصر ليشتروا ما تُنتجُه أسواقُها من الفُطن، ولم يكن أحدٌ يُتقنُ صناعةَ الفُطن غير المصريين، وكان أقباطُ مصر هم سادته، والقبَّيين عليه، ولهم فنونٌ فيه يعجز الوصفُ عن الإحاطة بها!

وكان الأمراء إذا أرادوا أن يخلعوا على شريفٍ أريديَّةً وألبسةً فنصيبُ القطن يكون فيها وافيًا، فإذا ما غَضِبَ عليه الأمير خلع عنه ما أعطاه، بما في ذلك النياشين، ثمَّ عَرَضَها في الأسواق على العامَّة - مبالغَةً في إذلاله - فيشترونها بأثمانٍ زهيدة، وكان النَّاس ينتظرون غَضَبَ الأمراء على خاصنتهم لكي تسنح لهم الفرصة لشراء الأريديَّة الفُطنيَّة الفاخرة على قَدْر ما في جيوبهم المهترئة من مال.

وكان الأمراء والخلفاء يحتكرون في مصر ما يريدون من تجارة، وكان لهم مصانع خاصة لأثوابهم ومناماتهم وسلاحهم ودروعهم وأثاث قصورهم، لا يقرَّبها أحدٌ من العامَّة، وكان لهم مزارع خاصةٌ مثلها تنتج لهم مطاعمهم دون سواهم، وكان يعمل في هذه المزارع والمصانع عددٌ كبيرٌ من أهل الفاقة.

ولم يكن لعمامة أهل مصر رأيٌ في تنصيب الأمراء والسلاطين أو خلعهم، ولربما كان يتبدل في الشَّهر ملكٌ أو اثنان، وعشرةُ أمراء أو عشرون، لا يعرفُ مَنْ يمشي في الأسواق أسماءهم ولا ألقابهم ولا متى أمروا ولا متى نُزِعَتْ منهم الإمارة، وكانت غايةً ما يروونه من الأمراء مواكبهم عندما يخرجون على النَّاس في زينتهم، ويستمتعون بمنظرها وجلالها وهيبتها.

جاءتني دريَّة في صباح الأحد، كنتُ لا أزال نائمًا، لم ترتفع الشَّمس كثيرًا، كان نورها قد بدأ يتخلَّل شقوق النوافذ من غرفتي ويسقط على عيني، حين سمعتُ صوتها المألوف، الذي فيه بحةٌ مثل رَجْع صوتٍ في بئر فارغةٍ مُغلقة، ولم أكن لأخطئ ذلك الصوت، دخلت الحَمَّام، وغسلت وجهي على عَجَلٍ، وكانت لا تزال تُنادي بين فينةٍ وأخرى: «أين أنت يا حكيم... ألم تستيقظ بعد؟ إنَّ الشَّمس جففت الندى على أوراق أشجارك؟ وبلي من النَّهارات التي تمرُّ على الغافلين... استيقظ أيها الكسول». ولم أدر ما الذي يُصيب هذه المرأة وما الذي يُجرئها حتى تنادي بهذه الطريفة الفظة؟ إنها تُناديني كما تُنادي جارتها!

فتحت الباب، بدت من خلفه وقد عقدت ذراعها على وسطها، ورَقَصَتْ جذعها قيل أن تقول: «اللَّوم موت». «حكيمه». «العارفون أدرى بفنون ما يقولون». «ماذا تريدون والديكة ما تزال تصيح؟». «لقد طلبت منك أن تبسط كَفَك أمامي لأقرأ لك، ولكتلك لم تفعل». «هل قطعت هذه المسافة كلها من تربة الشافعي إلى زويلة من أجل أن تقرئي لي الكفت؟ هل جُننت يا امرأة؟!». «لا، ولكنني رأيت مناماتٍ في الليل، أيقظتني، وأعرف أنها ستكون، ولا بد أن أقرأ لك الكفت لأحدرك مما هو قادم». «هل يمكن أن نُوجَل ذلك إلى غدٍ، أو على الأقل إلى المساء؟ أنا ما زلتُ تعبًا من سَهر أمس». وتشاءتُ، ورُحْتُ أغلق البوابة، حين وضعتُ ذراعها لتوقفها، وراحتُ تفتحها من جديد، وشعرتُ برغبةٍ في عدم مقاومة ما تفعل، خاصة حينما راحتُ عيناها تغوصان في، وتنتهكان ساحات دفاعي. تركتها تُكمل فتح البوابة، لأختلق لها عبارة: «ما الطبخة التي سأتعلمها منك اليوم؟». شدتُ على كلماتها البطيئة: «لن تتعلم مني طبخةً، اليوم سنتعلم مني ما سيحدث حين ينكشف الغطاء». أردتُ أن أقول لها: «كُفِّي يا امرأة، ليس من المنطق أن أصحو وعياني ما زالتا نصف مُغمضتين، وأنا مرهقٌ جدًّا، لكي أبسط كُفِّي أمام امرأةٍ ساقها إليَّ نداء الجوع قدرًا ذات مرَّة، ثمَّ التزقت بي، وصارتُ تتحكَّم في حياتي، ولم يعد الهروب منها مُمكنًا!». لكنني بقيتُ صامئًا كأنني أحرص، فيما أتمتُ هي دخولها، وراحت تُغلق الباب من خلفها، كأنها سيِّدة هذا البيت!

«نجلِسُ هنا، تحتَ شجرةِ البان، ربّما ستكونُ شاهدةً هي الأخرى على ما سيحدث... هل لديكِ كُرسِيان؟». أشرتُ إلى إحدى العُرفِ، أحضرتهما. وجلسنا، كُنْتُ قد نسيْتُ ما طلبتُ منّي، حينَ بادرْتُ هي، فأخذتُ كَفِّي اليمنى بين يديها، فأنحيتُ بجذعي إلى الأمام قليلاً، وخفضتُ رأسي، واستسلمتُ لها!

مسحتُ بإصبعِ السَّبابةِ على باطنِ كَفِّي النَحيلةِ، والتي تبدو أصغر من كَفِّها وأضعف، فيما كانتُ تُغمضُ عينيها، وتتمتِمُ بكلماتٍ غير مفهومة، لم يُعجبني ما فعلتُ، أخذتُ كَفِّي، أردتُ أن أسحبها من بين يديها، أن أقول لها: «ليسَ لديّ وقتٌ لهذا الهُراء». ولكنَّ يديها كانتا قويتين إلى الحدِّ الذي خيلَ إليّ فيه أن كَفِّي تُمسكُ بها أذرعُ من حديدٍ، ثقيلة وقاسية. استسلمتُ لها من جديد، فأرختُ قبضتها الحديدية قليلاً، وهمستُ: «أرى لك ما أرى». سألتُها: «وماذا تَريين؟». كانتُ تُغمضُ عينيها في تلك اللحظة فلم تُبدُ لا ذنباً ولا صقرًا. جاء صوتها رفيعًا خافتًا، لم يكن يُشبه صوتها المعتاد. مرّت لحظة صمتٍ رهيبية، كنتُ لا أزال أنظر إلى شفّتيها وهما تتحرّكان كجناحي نحلةٍ، قبل أن تقول: «رأيتُ أفواجًا من الناس يخرجون إلى الشوارع». «لماذا يخرجون إلى الشوارع؟» سألتُها. هتفتُ: «اششش». فسكتُ: «إنهم يركضون في كلِّ اتجاه». «سألتُها: «يهجمون على شيءٍ أو يهربون من شيءٍ؟ هل هم يحتجّون على أمرٍ ما؟». هتفتُ وهي تنفضُ رأسها مرّاتٍ مُتتالفة: «كلّا، إنهم يهربون». بقيتُ صامتًا، عندما أكملتُ: «أرى الحريق يُحيط بالقاهرة، يأتيها من أبوابها الأربعة، وأرى... صمتتُ قليلاً، قبل أن تُكمل: «وأرى بيتك هذا يحترق». اضطربتُ، سحبتُ يدي، أردتُ أن أقول لها إنَّها تُخيفني، وإنَّ هذا يجب أن يتوقّف، لكنَّ يدي كانتُ مُسمّرةً بين كَفِّها، فيما راحتُ هي تُكمل: «أرى رياحًا تهبّ من الفيوم، تذرّو أهراء القمح فيها، وتدور بالقمح في عاصفةٍ تظلّ تدور حتّى تقتلع معها البيوت... وأرى حريقًا يخرج من البحر، يتصاعد في السماء، ويظلّ يجري على الماء حتّى لا يعودَ في البحر ماءً، وأرى... أرى كلَّ ما في القاع قد يبس... وأرى المساجد والجوامع والبرابي والتكايا تحتفل بالنار، ترقصُ في باحاتها ألسنة اللهب، ثمّ تسير تلك الألسنة إلى البيمارستان... لكنّها لا تدخله». فتحتُ عينيها فجأة، كانتا ذئبيتين، ونفضتُ يدي من يديها نفضًا، وتلقّنتُ حولها، وهتفتُ: «هل سمعتني أقول شيئًا؟ هل كنتُ أهدّي؟».

بقيتُ مُحدِّقًا فيها، لا أدري ما أقول، لكنّها قامتُ من فوق الكرسيّ، نظرتُ نظراتٍ زائغة عن يمينها وشمالها، وخبطتُ بباطن كَفِّها على ساقَيْها، ورفعتُها إلى رأسها، وأحكمتُ رِبط الشال على شعرها الذي تهذّل، ثمّ انسحبتُ بهدوء مثل أفعى، وانسابتُ من البوّابة، وغابتُ عن ناظرَيَّ!!

” (٨)

أهل الصّعيد

اشتدّ العمل في البيمارستان، صرّتُ أذهبُ إليه ثلاثة أيّام في الأسبوع، أهل مصر يعانون مع الحرِّ حُمى لا يكادُ ينجو منها صغيرٌ ولا كبيرٌ. وأولئك القاطنون في الجنوب أو في الصّعيد على ضفاف النيل يعانون من الإسهال كثيرًا، يشربون ماءً مُلوّثًا، إنَّهم لا يتركون النّهر يجري كما أراد، حينَ تُمسكُ بعنق النّهر تحاول أن يجري على هواك لن يفعل، وسيعصيك، النّهر لا يقوده أحدٌ، إنَّه يجري على سجيّته، يتداعى على هواه، يُغني على ليلاه، ويعرفُ متى يفيض، ومتى يغيض، ومتى يجري مُتمهلاً، ومتى يُسرّع... من الحُمق أن تتدخّل فيما يفعله النّهر، إنَّ غضبته حلّت بك اللعنات، وإنَّ أرضيته حلّت عليك البركات.

وكانت الغيطان التي يكثر فيها الفلاحون تأكل من عافيتهم، وكان يحدث أن يكون أحدهم خلف العجل الذي له حُورٌ يجري بمحراثه، وهو ينادي على فلاح آخر يبذر البذر في فدان بعيد، أو تحجز بينهما حقول من أشجار الجُميز، فيتكسر الصوت، فيضطرب إلى رفع صوته، فيُبْح، ويجري بطيئاً واهتأ، ويحدث أن يقضي الفلاح نهاره كله وهو يصيح: هات المية من الترة... أو اسقي الجاموسة يا ابن... أو الله يلعن ميتينك... والأمر يجري بالصلاة على النبي، وكل مشكلة يُمكن حلها باسم النبي الأعظم، ومصر كلها تحب النبي، ويكفيها هذه الصفة لتكون المحروسة!!

ولقد كنت يوم الخميس بعد الضحى أهبط إلى فدائينهم، فيجتمع المرضى منهم في بيت كبير الناحية، فأعالجهم واجداً واجداً دون أن أخذ مقابل ذلك شيئاً، ونشأت بيني وبين الفلاحين صداقةً وطيدة، وكانوا ينتظرون كل خميس بفارغ الصبر، ولا أفرغ من معالجتهم إلا إذا انتصف الليل، وأسهر عندهم تلك الليلة على أغانيهم الشقيقة، التي تُعبر عن همومهم البسيطة وأبيت في الصعيد، وأعود يوم الجمعة بمرآكب النيل إلى القاهرة. وتأخرت مرة، فاضطرت إلى حضور خطبة الجمعة في أحد مساجدهم، فإذا الخطيب يملك عنان اللغة لكنه شووم، أشأم من طويس؛ ولما وقف قال: «أين كسرى؟ أين قيصر؟ أين شداد؟ طوتهم يد التوائب. أين قوم نوح؟ جرّفهم الطوفان. أين قوم فرعون؟ ابتلعهم البحر. أين قوم عاد؟ اقتلعتهم الريح. أين قوم ثمود؟ مزقتهم العواصف. أين قوم لوط؟ حسف الله بهم الأرض. أيها الناس لا تخذعوا ولا تتخذعوا إن غضب الله لأت». فلم يترك مُصيبةً ولا هلاكاً في أقوام الغابرين إلا جمعه في لسانه وضرب به وجوهنا، كأنه التحاس المُذاب يُصَب في الأذان.

وقد بلغ حُبهم لي وثقتهم بي أن لم يبق فلاح إلا عَرَض عليّ ابنته للزواج، وكان أكثر البنات في الثانية أو الثالثة عشرة «ولم يبد للأتراب من ثديها حجم». ولم تكن لي رغبةً بالانصراف عما أنا فيه، فإن النساء مشغلة. وكانوا يعتقدون أنني أعرف كل شيء، وأتني أقرأ النجوم، وأتوقع الطالع، وأكشف المخبوء، وأن لدي قدرات خارقة، وأن الطبيب حكيم وعرف وخبير ودجال كذلك، وتذكرت قول عروة بن حزام وتسميته الطبيب عرافاً في قصيدته التي نأح فيها على عفراء:

جعلت لعراف اليمامة حُكمه

وعراف نجد إن هُما شفياني

وأهل الصعيد يجلسون للحشيش ليلة الجمعة، ويقولون إنها تقرّبهم من الله، ويُغنون من القلب، ويفرحون من القلب، ويبكون من القلب، ويشتمون كذلك من القلب، وكانوا يعرضون عليّ حيواناتهم لكي أعالجها، الأبقار والخراف والكلاب والأرانب، وكانوا يعرضون عليّ مشاكلهم العويصة، فهم يعتقدون أن لديّ حلاً لكل شيء. جاءتني امرأة تشكو أنها لم تحمل منذ خمس سنين، وأن زوجها سيتزوج عليها، وأنها تشك أنه تزوج بأخرى ولكنه يخفي ذلك عنها... وجاءتني امرأة أخرى حامل، وطلبت مني أن أضع يدي على بطنها لأبارك المولود... وجاءني رجل يقول لي إنه كلما هم أن يأتي امرأته تحولت إلى رجل، وهو يعتقد أنه مسحور، وطلب مني أن أصنع له تعويذة أو تميمة أو سحراً يقك هذا السحر عنه... وجاءني رجل يشكو أنه يحب أكل الحشرات، وأنها رغم تسببها بالأم شديدة في معدته لم يتمكن من الإقلاع عنها...

وكانوا يُحمّلونني بهدايا وأنا عائدٌ يومَ الجمعة، كانت أكثر هداياهم أرغفةً من الخبز البلديّ، وأقاصمًا من البطّ والإوزّ والدجاج، وألواحًا من خشبِ الجُميز، وقلائد لجلب الأرواح الخيرة وطرد الأرواح الشريرة!

كانت الحرارة في الصّعيد عالية، لا تُطاق، والجوّ خانقًا، وفي كلّ شهرين أو ثلاثة من زياراتي المُتكرّرة لهم يذبحون لي عجلًا، ويشوونه على النَّار، وكان ذلك يُفاقم من درجات الحرارة المُلتهبة، وكان البعوض عندهم كثيرًا، يأكل من لحم النَّائم لا يشرب من دمه فحسب، وكان حجمه بحجم الصرصار الطائر، أو بحجم الذباب الأزرق، وكان يكثر في التّرع، وكانوا يُبلّون أجولة من قماشٍ يرفعونها على عصيّ فوق رأسي، ويقفُّ أحدهم خلفها

بريشٍ يهشّ به على القماش المبلول لتبريد الهواء في وجهي، وطرد البعوض ما أمكن.

وكنتُ أستعمل فيما أستعمل في مُداواة أهل الصّعيد ورقّ (الفلقاش)، وهو ورقٌ شديد الخضرة، رقيق البشرة، شبيهة بورق الموز في خضرته ورونقه ونضارته، ويُعمل منه دقيقٌ يُشرب كالسويق، ويُعمل منه جساءً، فيُقوي المعدة، ويمنع الإسهال، وسحوج الأمعاء، وإذا سُحِق الورق وخُلطَ بدهن، وفُطِرَ في الأذن سكّنَ وجعها.

والتماسيح في الصّعيد كالذود كثرةٌ، ومنها الكبير الذي يصل إلى نيّفٍ وعشرين ذراعًا طولاً، لو مددت إلى جانبه نخلةً مُعمّرةً لطالها، ويوجد على سطح جسده ممّا يلي بطنه سلعةٌ كالبيضة تحتوي على رطوبةٍ دميّةٍ وهي كنافجة المسك في الصّورة والطيب، وكبد التماسح تُهيج الجِماع، وكُلّيتاه وشحمُه كذلك مُفيد في ذلك، وجلده سميكٌ جدًّا لا يقطع فيه السيف ولا الحديد، وهو إذا باضَ دفنَ بيضه الطويل في الرّمْل، فإذا فقس أخرج كالجراذين في جسمها وخلفتها، ثمّ تكبر حتى تصل من العظم أن تبتلع رجلاً كاملاً مرّةً واحدة. وجاءني أيام الخميس في الطّباية من فقد ذراعه أو ساقه بلقمةً عابرة من فم تماسح كان يلبد كالصخرة في وسط التّرفة، ولم يكن المسكين يراه.

وأهل الصّعيد داؤهم ودواؤهم فيما يأكلون، فإنّهم يعملون وقت الحصاد في الحرّ الشّديد، ويأكلون الفول ويطحنون القمح، ويزرعون البرسيم، ويداومون على شرب اللبن دون أن يغلوه، والماء من التّرع، أو ممّا داست أقدامهم، ولم يكونوا - حتى مع تنبيهي لهم - ليُقْلَعوا عن عاداتهم، ولذلك كان على طبيبٍ يزورهم في الشّهر مرّةً أن يقبلهم على ما هم عليه، فإنّ تغيير عادات مجتمعٍ ما، أصعبُ من تغيير الكلب إلى حمار، وبعضُ الرّؤوس التي تعلق الأكتاف لا يُمكن إصلاحها إلاّ بقطعها!

والنّيل في الصّعيد مسكين، يقبل كلّ ما يُلقى فيه، ولذلك يأسئ ماؤه أحيانًا، ويتغيّر لونه ويفسد طعمه، فلقد رأيتُ أهل هذه النّواحي يُلقون جواميسهم النّافقة، وكلابهم الميّتة، وحميرهم في النّيل، وإذا كان جريانه قويًا حمل الحمار، وطفا فيه، وسار به يعرضه في مسيرته الطويلة، ثمّ يلقيه إلى الشّاطئ بعد فرسخين أو ثلاثة أو أكثر. ويحدث أن ترى جنثًا لحيواناتٍ لا تعرفها، فرس النّهر، طيورًا، أو حتى بشرًا، وهي تجري مُسرعة مع الماء كأنها تُودع أو تُسلم على الساكنين من الجنوب إلى الشمال حيث يكثر النَّاس، فإذا حجزها حاجزٌ من صخر، أو تغيّر اتّجاه الماء فرمى بها إلى التّراب، وتعرّضتُ للشمس، انتفخت، ثمّ عطنت، ثمّ أنتنت، ثمّ امتلأت بالذود، ثمّ أفسدت الهواء والماء وجلبت الأمراض المعروفة والمُنكرة!!

ما زال لديّ مرضى كثيرون في الصّعيد، فقراء، بائسون، لكنّهم طيّبون، وأهل كرم، ولقد أصابني من الحمّى ما أصابهم، واتّفق مرّة أن بقيت في الفراش على إثر حمّى معدية عشرة أيّام لم أبارح بيتي. ولكنني مع ذلك لم أكن لأرى من المروءة أن أتركهم يُحاربون جيشًا من الأمراض وحدهم!

وتنوّع الشّمال ليس أكثر في العدد من تنوّع الجنوب، وإن اختلفت في الهيئة، فإنّ الحياة في الوجهين ضاحجة، وإنّ النّاس لتملأ الغيطان في الصّعيد كما تملأ الأسواق في القاهرة. وإنّ قلوبهم لترقص للنّعم الشّجيّ في الصّعيد كما ترقص للنّعم الشّريد في القاهرة، وإنّهم في الحالين لي يكون بكاء من فقد عزيزًا بكاءً مريّرًا كلّما سمع أحدهم موعظةً أو عبرة، ولو سمع العظة مرّة ثانيةً وثالثةً... وعاشرةً لعاد إلى البكاء؛ وتلك عادة القلوب الرّقيقة! «

” (٩)

لعنة النّيل

سيمرّ موكبُ الأمراء من الشّارع الكبير الفاصل بين المسجد الصّالحي وباب زويلة يوم الأحد، بعث لي ديوان مصر لكي أكون مُشاركًا في الموكب، يحبّ الأمير أن يخرج في موكبه الفقهاء والعلماء والوجهاء وكبار التّجار. وأعلن الديوان في الأسواق عن موعد الموكب. الموكب فرصة لا تتكرّر كثيرًا. الفقراء يشتاقون لظهوره في الشّارع مع أنّهم يكرهون أصحابه!

«هل أنت متزوجة؟» سألتُ دُرّية. أجابت: «حسب». «حسب؟ لم أفهم؟ إما أن تكوني متزوجة أو لا!». «حسب المقصود من السؤال». «كيف؟». «إذا كان من ورائه زوج أو لا؟». «لا، لم تفهميني، سألت لأعرف إن كان لديك أولاد». «أيضًا حسب». «مرّة أخرى؟!». «ماذا تريد من معرفة ذلك؟». «أن أرى أولادك، أن أعطيهم شيئًا يدخل الفرحة إلى قلوبهم، أن أقبلهم في حلقات الصّالحي...». «وهل تعني ذلك؟». «بالطبع». «إذا أنا متزوجة من اثنتي عشرة سنة وأنا ابنة خمس عشرة، ولي ثلاثة أولاد وبنات، الكبير مات، والثاني في السادسة، والثالث في الثالثة، وأما البنت ففي الحادية عشرة من عمرها». «هاتيهم معك يوم الخميس أريد أن أراهم». «وأنت لماذا لم تتزوج؟!». «كيف عرفت؟». «وهل هذا يحتاج إلى ذكاء؟ لو كنت متزوجة لما دعوتني لأعلمك الطبخ!». «لربّما تركتها في بغداد؟». «وأنت في بلادنا من سنين وتصبر على النّساء؟». «الصّبر على العِلم أصعب». «وما بغداد؟». «بجدة، ماؤها الصّافي يُشبه عينيك؛ إذا حلّ المساء كان لون الماء رماديًا كأنه عيون ذئب. وإذا ضربته الشّمس، فترقرق ترقرق الذهب كان لون الماء أصفر كأنه عيون الصّقر». «تتغرّل يا شيخ... ولكن لم لا يكون صفاؤهما يُشبه ماء النّيل؟». «النّيل وسيخ، لا يكاد يصفو». ضربت بكفّها على صدرها وشهقت: لا تقل ذلك يا سيدي... لئلا تُصيبك لعنة النّيل. للنّيل لعنة؟». «وأية لعنة؟». «كيف يكون لماء لعنة؟». «أنت تدعي المعرفة ولا تعرف شيئًا». «لو أخبرتني لعرفت». «لقد كانوا إذا غضب النّيل ولم يفيض جَهّزوا عروسًا بكرًا، وزيّتوها بأحلى زينة، وألقوها فيه، فإذا قبلها فاض ماؤه، وإذا لم يقبلها لم يفيض شيء». ابتمست، قلت لها: «إنني أعرف هذه الحكاية، لقد حدثت مع عمرو بن العاص، فلمّا أرادوا أن يرموا العروس، قال لهم: إنّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنّ الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا مدّة والنّيل لا يفيض حتّى همّوا بالجلّاء من بيوتهم خوف الجفاف والموت، فلمّا رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب يُعلمه بالأمر، فكتب إليه عُمر: قد أصبت؛ إنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في النّيل، فلمّا قدّم الكتاب على عمرو، فتح البطاقة فإذا فيها: (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإنّ كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإنّ كان الله الواحد القهار الذي يُجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك). ثمّ إنّ عمرو بن العاص ألقى البطاقة في النّيل قبل جلاء أهل النّيل بيوم، فأصبحوا وقد جرى النّيل وفاض، وقطع الله تلك السنّة السّوء عن أهل مصر». نظرت إليّ وقد ساءها أنّي لم أقلّ إنني أعرف من البداية: «أنت

ثُراوغ». ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَهَا هَزَاتٍ ببطء، وقالت: «ابسط كَفَكَ. الآنَ بعدَ الحديثِ عن لعنة النَّيلِ أريدُ أن أقرأ لك الكفت». تظارتُ معها: «إذا أردتِ أن تبدئي حفلة التَّنْبُو فتنبئي لي بشيءٍ يخصني، وليكن شيئاً جميلاً، فإنَّ الأشياءَ المُخيفة التي تنبأتِ بها لم تحدث... نريدُ أن نبتهج قليلاً يا دُرِّيَّة، أليسَ هذا من حقِّ الشَّيخ؟». لم يُعجبها ما قلتُ. نقرتُ رأسها: «أنتِ من الحُقِّ بمنزلة أولئك الذين لا يُصدِّقون إلا ما يرون. وهل أنتِ ترى كلَّ شيءٍ، إنَّه لا يرى كلَّ شيءٍ إلا الله». «إذا كان لا يرى إلا الله فلماذا تُريدين إقناعي بأنك تُشارِكينه الرُّؤية». «أنا أرى بنور الله يا مولانا». «يا دُرِّيَّة، لقد تنبأتِ بأشياء هي في علم الغيب الذي لم يطلع الله عليه أحدًا سِواه، ثم...» قاطعتني: «بل يُطلع عليه مَنْ يشاء». أكملتُ: «ثم إنَّ مصرَ محروسة، بل هي المحروسة من بين البلاد كُلِّها، هل تعرفين أنَّ التُّوراة تقول: «مصرُ خزائنُ الله، فمن أرادها بسوءِ قَصره الله». هَزَّتْ كَتْفَيْهَا، على عاداتها، لا يُعجبها غالباً ما أقول، في رأسها يدور كلامٌ كثيرٌ، لا تؤمن إلا به. قبضتُ على يدي، شدتها كما فعلتُ في المرَّة السَّابقة، كُنَّا واقفين في السَّاحة، لم تأتِ بكرسيين وتضعهما قرب شجرة البان، أغمضتُ عينيها، مشتٌ بأصابعها على باطن كَفِّي، استسلمتُ بانتظار ما ستقول. قالتُ بصوتٍ أقرب إلى فحيح أفعى: «سيفر المرء من أخيه، وأمّه وبنيه، ولن ينتظر أحدٌ أحدًا». ضحكت، ورفعْتُ رأسي في ضحكتي إلى الخلف، وقلتُ وأنا أكاد أدمع من الضَّحك: «يا دُرِّيَّة، هذا لا يكون في الدُّنيا، بل هذا يكون في الآخرة وأهلها».

ضغطتُ بأصابعها على جهتي كَفِّي حتَّى شعرتُ أنَّ عظامها ستتكسر، وصرختُ: «توقفي... توقفي...». نفضتُ يدي، وبدا على وجهها الحنق، كانتُ عيناها في الظلِّ عيني ذنب. أخذتُ نفساً عميقاً، أردتُ أن أطمئن نفسي قبل أن أطمئنَّها: «يا دُرِّيَّة، إنَّ كعبَ الأحبار قال: مصرٌ بلدٌ مُعافى من الفتن، فمن أرادها بسوءٍ كَبِه الله على وجهه... يا دُرِّيَّة، لو علمتني طبخةً لكان أحسنَ من هذا الكلام، أليس لديك شيءٌ آخر تقولينه غير ما سمعتُ؟».

لم تقل شيئاً، أدارتُ رأسها بشكلٍ رتيبٍ، وعقدتُ شالها على رأسها بطريقةٍ بطيئة، وبدا الهمُّ في وجهها، شُحِب، وبهت لونه، وقالتُ بأسى، وهي تقصد البوابة للخروج: «ما أكثر الحمقى!». هتفتُ بها: «يا دُرِّيَّة... يا دُرِّيَّة... لا تغيبني كثيراً، لا أريدُ أن تكونَ هذه آخر مرَّة أراك فيها، لو أتيتني يومين في الأسبوع لتؤدِّي لي بعضَ الخدمات فساكون لك شاكرًا». ظلَّت تمشي بهدوء صامت، حتَّى إذا عبرت البوابة، سمعتها تقول: «ستموتُ عقيماً، لن يكون لك عقب». كرهتها وكرهتُ نفسي، الخرافات مُعديَّة، إنَّها أعدى من الأمراض الخبيثة. لو توقفتُ لحظةً قبل أن تغيب في زاوية الشَّارع لقلتُ لها: «لا أريدُ أن أراك مرَّةً ثانية». لكنك طردتها، و... بصقتُ في وجهها، لا أدري لماذا أصبرُ على وقاحتها إلى اليوم!؟

ولقد كثرَ الخيرُ في مصر، فلا أدري هذه الثَّرثرة ما تقول لو رأيتها مرَّةً أخرى. لقد صار رطل اللِّحم بنصف درهم، وبعضهم يبيع العجل بأقلَّ من ذلك، والسُّكر الرُّطل بدرهم ونصف، والإردب من القمح بخمسة عشرَ درهماً، والإردب من الأرز بعشرة دراهم، ولقد رأيتُ من الخير والبركة في الأسواق ما لم أرَ طوالَ عشرين عاماً في بغداد. النَّاس يتبايعون ويتسامحون، ويأكلون ويشربون، ويخوضون في الأعراض والأمراض، وكان مَنْ لا يملك يملك الفدادين، ويبيع لأهل الشمال غلاله، وتعودُ عليه وعلى عياله كلُّهم بأوسع الرِّزق.

وكان أعيانُ مصر ووزراؤها يُقيمون المآدب، ويُنفقون فيها ما لا يسع الكلامَ وصفه، ولقد دُعيتُ إلى مأدبة في مُنشأة القاضي الفاضل، وكان فيها بساتين، إذا ركبت الخيلَ فيها غربتُ عليك الشَّمس وأنت تجري في أفيائها وتنتظر إلى خيراتها، وكان فيها من الثَّمار الأترج والحماض والكباد الذي يُصنع منه الرُّب، والتَّارنج، والليمون، وكانت تُزرع فيها ثمار الفصول الأربعة، فلا تكادُ تخلو من شجرٍ مُثمرٍ في كلِّ أوقات السنَّة، فتأكل الحامض والحلو والحادق واللَّذع. وكان في مُنشأة القاضي الفاضل أبراجٌ للطَّيور وبيوت، وكانت تضمُّ الحمامَ والدجاجَ والإوزَ والصقورَ والعقابَ والنسرَ والكركيَّ واللَّقْلُقَ والمرزمَ والبَجعَ والبَلشونَ والخدُّجَ والحجَل والكروانَ والسُّمانيَّ والبَلبلَ وسائر أنواع العصفير. وكانت هناك طاقاتٌ للحمام الرَّاجل تحمل بريد القاضي الفاضل إلى أصقاع مصر، وكان الحمامُ يعرفُ طريقه ومنازله ومواضع رسائله أكثرَ من البشر.

ولم يكتفِ القاضي الفاضل بذلك، فبنى الإسطبلات للخيل والحمير والبغال، والمرابض للجمال، والزرائب للأغنام والأبقار، وكان على كلِّ صنفٍ منها قيمون يرعون أمور تغذيتها، وحلبها إن كانت تُحلب، وطرح ما تُنتجُه في الأسواق.

وأقام القاضي الفاضل في طرفِ المنشأة جهةَ الشرق للداخل من أول سورها قصره المُنيف، فيما بينَ باب اللوق وظاهر القاهرة، وكان للعاير من هذا الشارع المؤدِّي لها يرى القصر الذي يحجب ما خلفه من البساتين والدور، وكان القصر على ثلاثة طوابق أو أربعة، من حجر يُشبهه حجر الأهرامات، ولا أدري إن جلب منها أم لا، وكان يقصده الأمراء، فلا يرون في عظمته قصورهم، والعلماء فلا يجدون أمامه إذا دخلوا مسجده الأزهر، والسور عالٍ، ولكن إذا كنتَ على بُعد فرسخٍ منه جهةَ الشرق رأيتَ القصر من على نَشْرِ في الأرض لا يحجب السور فهالك المنظر.

وكانتُ بساتين المنشأة تُطعم أهل القاهرة كلَّهم من ثمارها وأغابها وخيراتها، وكان يبذل منه للزكاة وإطعام الفقراء ما درَّ عليه البركة. ولما أقام لنا ولبعض الأمراء والعلماء الوليمة، دخل إليه أولئك الأمراء بالطيلسانات، والعلماء بالعمائم، تحفهم الورود والرياحين من كلِّ جانبٍ، فكانتُهم أهل الجنة يتقلبون في التعميم!

” (١٠)

عيناها

والقاهرة مثل دمشق وحلب، مُدُنُ تجمع المُتناقضات، فإن بحثتَ فيها عن الله وجدته، وإن بحثتَ فيها عن الشيطان وجدته، تجد المساجد مثلما تجد الكنائس والصوامع، تجد مجالس الذكر مثلما تجد مجالس الغناء، تجد دور القرآن كما تجد دور البغاء، تجد البرابي والخوانق كما تجد الملاهي والمفاسق، تجد فيها الخمر والجمر كما تجد النمر والأجر، وتجد فيها أهل الصفة كما تجد فيها أهل الرقة، وهي تقف على النجدين وتقول بكل ثقة: «اختر لنفسك ما تشاء».

قال لي السَّمان وهو يزن لي أوقيتين من العسل: «هل ما زلتَ على علاقةٍ بها؟». رفعتُ ذقني، وقلتُ باهتِمام: «منْ هذه؟». «دُرِّيَّة». «دُرِّيَّة؟ ماذا تعني؟». «إنها يصلح فيها قولُ القائل ابعُدْ عن الشرِّ وغمِّي له». «وما شأنك أنت؟». «أنا أحبُّك، نحن كلنا في السُّوق نعرفك، ونقدِّر علمك ومكانتك، ولا نريدُ لسَمْعَتِكَ أن تتلوَّث». «سَمْعَتِي تتلوَّث؟». اقتربَ مِنِّي بصوته الأَجَشِّ الذي تحول إلى ضباح ثعلب عندما حاول أن يهمس: «إنها حملتُ سِفاخًا، ولا أحد يدري من زوجها.. إن كانتُ صادقةً فلتقلْ لك من زوجها...». «وهؤلاء الأولاد الذين عندها؟». «إنهم أولاد حرام». انتفضتُ: «اخرس، لا تخضُ في أعراض النَّاسِ». «إنك مسكين. وإن فضلك بتدريس أبنائنا ليغفرَ لك سذاجتك. وإذا أردتَ ألا آتي بسيرتها مرَّة أخرى فسأفعل». «نعم، أريد. لا تخضُ فيها مرَّةً أخرى». مدَّ لي أوقيتَي العسل مَصبوبيتين في المرطبان، وأمال رأسه، كانتُ عينُه الحولاء تتججج نحوِي، حين قال بسخرية: «تُحبُّها؟». أخذتُ العسل ونقدتُه الثَّمَن، وأسرعْتُ في الخروج من دُكانه. كنتُ أهرول في الشارع باتجاه صِدْقِي اللَّحَام، اشتقتُ لأكل اللحم، إن هذه البطن لا تشبع ولكنها لا تسمن؛ كأني لا أكل شيئًا!

وصلتُ إليه وما زال أثر الغضب بادياً على مُحَيَّاي، سلَّمْتُ عليه بشيءٍ من العصبيةِ. ابتسم: «يا حكيم لو تركتَ قلبك الرقيق لكلام النَّاسِ فسيمتلئُ بالثُّقوب». رفعتُ نظري، صعدتُهُ إلى وجهه، كان يُنهى غمزةً بعينه اليُسرى، مع هزّةٍ في الرأسِ وفتلةٍ في الشَّاربِ الغليظ، لولا ابتسامته التي بدتُ لي مُصطنعةً لما رأيتُ شفقتيه، قلتُ له: «لماذا تقول لي مثل هذا الكلام؟». «اهدأ يا حكيم، أنا أعرفُ النَّاسَ من وجوههم، وأقرأ ما في قلوبهم، لا بدُّ أن أحدهم أغضبك بكلامِ تافهٍ حتَّى ولو كان حقيقةً، أهلُ السُّوقِ هكذا يا حكيم، أجودُ ما يقولونه تافهًا!». «يا صديقي، أعراضُ النَّاسِ لا تسلم من ألسنتهم!!». فتلَّ شاربه، واقتربَ مِنِّي: «وفي عرضٍ من خاضوا هذه المرّة؟». بلعتُ ريقِي، وأخذتُ نفسًا قبل أن أنظرَ في عينيه اللَّتين شجعتاني على البوح: «في دُرِّيَّة». وضربتُ كفاً بكفِّ. وشهقَ صديقي اللِّحام، وبدا شارباه الغليظان يهتزَّان فوق شفقتيه: «اخص... دُرِّيَّة... لعنة الله على السَّاقطين». «نعم، دُرِّيَّة... ولكن...» صممتُ قليلاً، قبل أن أتفحصه فيما أعطاني هو ظهره في تلك اللَّحظة وراح يتناول فخذَ شاةٍ مُعلَّقة على حُطَّاف، وبهمَّ بتقطيعها، فأكملتُ: «صديقي... ماذا تقول أنت في دُرِّيَّة؟». «دُرِّيَّة؟ إنها أشرفُ من ثلاثة أرباعِ نسانهم يا حكيم». وراحتُ سيكِّئُهُ تغوصُ في اللِّحم!

تركتُ السُّوقَ الصَّاحِب، وعدتُ إلى البيت، لم تهدأ لي ثائرة، كنتُ أفكرُ فيما قاله السَّمَّان، ومن قبلُ ما قاله الفاكهاني، كان يبدو أنهما نموذجٌ لأهلِ السُّوقِ كلِّه، أهلُ الفِتنة، وأهلُ الخوضِ مع الخائضين، رأيتُ السُّوقَ، كلَّ مَنْ في السُّوقِ، وقد وقفتُ على قدَميه، وراح يتكلَّمُ فيما يتخلَّله عن جاره أو جارته أو ابنةِ فلانٍ أو علانٍ، كانتُ أفواههم مفتوحةً بشهيةٍ للكلامِ، كانوا يدلقون العباراتِ من تلك الأفواه دلِّقاً في كلِّ اتِّجاه، كانوا يقيئون الكلامَ قبيحاً، رأيتُ كلَّ مَنْ في السُّوقِ يفعلُ ذلك، كلُّهم بلا استثناء يُثرثرون ويغتابون ويَنمُون، ما عدا المُغتَيَّ الشاب الذي بدا وجهه صفيحاً قد انشغل بالغناء وبالعرزف على القَصبةِ عن الحديثِ على الآخرين. وتخلَّلتُ أسواقاً أخرى في أحياءِ القاهرةِ كلَّها تقفُ هي الأخرى بكاملها على أقدامها الألف وتدلُّق الكلامِ النَّتن من أفواهها، كانتُ هناك لحومٌ أوجُه تتساقط، وكانتُ هناك عيونٌ تسيل، وكانتُ هناك أقدامٌ تسيح في الأرض، وكانتُ هناك أنيابٌ تغوص في لحومٍ بشريةٍ... والنَّاسُ رغم ذلك مُستمرِّون في نهشِ أعراضِ بعضهم بعضاً. نفضتُ رأسي، أردتُ لهذه الخيالات أن تنتهي، قمْتُ، توضَّأت، صليتُ ركعتين لم أدر ما قرأتُ فيهما، ثمَّ ذهبتُ إلى غرفةِ المكتبة، ونسيتُ نفسي بين الكتب.

اشتقتُ لطبخةٍ من طبخاتِ دُرِّيَّة، لها أكثر من عشرة أيَّامٍ مُختفية، إنَّها تأتي عندما تريد، وتغيب عندما تريد، لا قانون يحكم هذه المرأة العجيبة، لكنني أستطيع أن أقول إنني... لا، لا يمكن أن أكون قد أحببتها... يُمكنني أن أقول إنني أفتقدها؛ لكنَّ الافتقاد علامةٌ من علاماتِ الحبِّ، لو لم تكن تحبُّها فلماذا ستفتقد امرأةً

ما وتشناق إليها...؟! ربَّما جدَّبتني فيها جرأتها، وقاحتها أحياناً... لطمتُ خدي بباطن كفي، أنا رجلٌ مريضٌ؛ هل هناك أحدٌ تعجبه امرأةٌ وقحة تتناول عليه؟! لا أدري ما الذي يحدث؟ أتكون قد سحرَّتني كما قال الفاكهاني مرّةً؟ لا... لا... ما هذا الجنون؟ أنا لا أؤمن بالسَّحرِ بهذه الطَّريقة... كلُّ ما في الأمر أنني وحيدي في هذه البلاد، وأحتاج إلى طعامٍ يكون جاهزاً عندما أجوع، وهي التي كانت تُحقِّق لي هذه الرِّغبة... هذا كلُّ ما في الأمر، واضحٌ أنني أشناق إلى معدتي لا إليها! يبدو أنني من هذا الصَّنْفِ من الرِّجال الذي يحبُّ عندما تمتلئُ معدته... تَبّاً... كيف وصلتُ إلى هذا الحدِّ... تَلَفْتُ حولي وأنا في غرفةِ النَّوم، كنتُ مُستلقياً على سريري، لم أرَ ما يلفتُ انتباهي، قمْتُ من السرير، أردتُ أن أمشي في أروقةِ الطَّابقِ الثَّاني، أن أقتل بعضَ الفراغِ والمَلَلِ، خطوتُ في الرِّواقِ بالفعل، نظرتُ من أعلى إلى السَّاحةِ التي في مدخلِ البيت، كانتُ هادئةً ساكنةً، لا يبدو فيها أيُّ حيٍّ، فجأةً... قطعَ الصَّمْتِ المُطْبِقِ سهيلُ الأبلق في الإسطبل، كان الإسطبل تحت قدمي، يبدو أن الحصان أحسَّ بي وبوحدتي فأراد أن يُسلِّني، شعرتُ أن سهيله قال لي: «عمت مساءً يا أحا العرب... الخيلُ خيرٌ لك من النَّساء... ما رأيك بجولةٍ في شوارعِ القاهرة؟». قلتُ لنفسِي: «اقتراحٌ جميلٌ. انتظرني ريثما ألبسُ ثيابي وأوافيك يا جصاني العزيز». هممتُ بالالتفافِ والسَّيرِ إلى غرفةِ النَّومِ لأبدلُ ثيابي عندما حانتُ مِنِّي التَّفاتةُ إلى شجيرةِ البان في وسطِ الحديقة، فرأيتها هناك؛ كانتُ دُرِّيَّة تقفُ بجانب الشَّجرة، وتنظرُ إلى أعلى، التقتُ عينها بعيني، كانتا في الظلِّ عَيْنينِ ذُبَيْتَيْنِ، شيءٌ ما غريبٌ تراءى لي فيهما، كانتُ تُحدِّقُ بي بطريقةٍ لم أعدها، قلتُ مُتسائلاً: «دُرِّيَّة... ماذا تفعلين عندك؟». لم تقل شيئاً، واصلتُ التَّحديقَ في عيني... ارتختُ مفاصلي، ارتعشتُ رُكبتاي، شعرتُ بدوارٍ خفيفٍ، تمايلتُ قليلاً، أردتُ أن أستندَ إلى أقربِ جدارٍ، أو إلى طِفِّ الدَّرابزين، لكنني سقطتُ قبل أن أفعل... كما لو أنني جُدبتُ إلى بئرٍ عميقةٍ لا قرارَ لها!

صحوثُ فُبيلِ العُروبِ على قُرعِ البُوابَةِ الكُبيرةِ في الأُسفلِ، فُتُحُثُ عيني، فُرايُثُ سقُفِ الرُواقِ أوّلِ ما رايتُ، احتُجُثُ قليلاً من الوُقتِ لأُدرِكُ أنّي كُنتُ في غُيوبَةٍ، تلمُستُ بيديّ المِكانَ، إن شِمسَ الأُصيلِ ما زالتُ تُضيئُهُ بخُيوطِها الأُخيرةِ، استُرجعتُ ما حدثَ معي، ما الذي أوقَعتني في الغُيوبَةِ؟ هل هو الإِجْهادُ، أم قِلَّةُ الطَّعامِ، أم نُحولُ الجِسدِ ووَهْنُ القُوى، أم الجُوعُ، أم شيءٌ ما في الطَّعامِ الذي أكلتهُ أمسَ، أو... ثمّ تذكَّرتُ هُيئتُها إلى جانبِ شُجيرةِ البانِ، فهتُفتُ: «إنَّه عيناها... درِّيَّة... درِّيَّة هل أنتِ هنا؟». لكنّ صوتي انزلقَ على الرُواقِ، وخفتُ تدريجياً قبل أن يَنْتَهي بسُكونٍ تامٍّ. أردتُ أنْ أنْهَضَ، فسمعتُ القُرعَ على البُوابَةِ من جُديدٍ، وصوتٌ من الأُسفلِ يقولُ: «مولانا.. هل أنتِ هنا يا مولانا؟». رشقتُ الماءَ على وُجْهِ سَريعاً، وهبطتُ الدَّرْجاتِ، وهُرعتُ إلى البُوابَةِ ففتُحْتُها، فإذا هو جنديٌّ عَرفْتُ من لِباسِهِ أنّه يَتبعُ ديوانَ مصرَ، سلَّمني بريداً، وأعطاني ظَهره ومضى.

كان البُريدُ من الوُزيرِ ابنِ سَنا المُلْكِ، يُذكِّرني بِدُعوتِهِ إلى حُضورِ موكبِ الأُميرِ يومِ الأُحدِ، سيَمُرُ بالسُّوقِ الذي هو في بابِ زُويلةٍ ويُخرجُ منه إلى الشَّارِعِ الذي يفصلُ بينِ السُّوقِ ومَسْجِدِ الصَّالِحِي، وسيُتوقَّفُ في محطَّةٍ تبعدُ عن المَسْجِدِ فرسًا، وعليّ أنْ أكونَ فيها بطولِ الظَّهرِ لكي أنضمَّ إلى الموكبِ. طويثُ الرِّقَّ، وصعدتُ إلى عَرفةِ النُّومِ، وعبثاً حاولتُ أنْ أنامَ، كانتُ عينا درِّيَّةً تُظهِرانِ على الجُدرانِ والسَّقَفِ ورُجاجَ النِّافذةِ، لم أستطعُ أنْ أُلِيتُ منهما. فكَّرتُ أنْ أركبَ الأَبْلِقَ، وأطوي المِكانَ إلى تَربةِ الشَّافِعي لأَراها، ولكنتي استخففتُ بِنَفْسي؛ لِمَذا سأراها؟ ماذا سأقولُ لها عندما نَتَقابِلُ؟ هل سأقولُ إنَّني مُشْتاقٌ لِكِ؛ فأنتِ لم تَزرِينا في البَيتِ منذُ أكثرَ من عِشرةِ أيَّامٍ؟ ماذا لو ظَهرَ لي زُوجُها؟ صمتُ قليلاً، قبل أنْ أتساءلَ من جُديدٍ: ولكنّ ماذا لو لم يكنْ لها زُوجٌ كما قالَ ناجي السَّمانِ؟ ماذا لو كانَ على حَقِّ؟ سيكونُ الأمرُ صعباً. ماذا لو لم يكنَ على حَقِّ؟ سيكونُ الأمرُ أصعبَ؟!!

لم أنجُحْ في النُّومِ، كانَ اللَّيْلُ قد هبَطَ على القاهِرةِ، من نافذتي من هنا شاهدتُ المشاعلَ العالِيةَ من بعيدٍ وهي تُزَيِّنُ بابَ زُويلةٍ، وشاهدتُ مِئاتَ من المشاعلِ في الشَّارِعِ الفاصلِ بيننا، وفي شارِعِ المُعزِّ نَفْسيهِ، فاستأنستُ بالأضواءِ قليلاً، القاهِرةُ في اللَّيْلِ ساحرةٌ، تَبْدُو حورِيَّةً إغريقيَّةً خَرجتُ من البَحرِ فأضاءَ نورُها السَّمواتِ. ما الذي يَمْنَعُني من أنْ أخرجَ الآنَ في هذِهِ الشُّوارِعِ الفاتنةِ؟ أه لو أنّ درِّيَّةً هنا لتُخرجَ معي؟ لَمْتُ نَفْسي على هذِهِ الخاطرِ الأيِّمِ؛ كَيفَ تُفكِّرُ بِهذِهِ الطَّرِيقَةِ يا شَيشِ؟ درِّيَّةُ امرأَةٍ عابِرةٍ، امرأَةٌ مُنزَوِّجَةٌ، لها حَياتُها الخاصَّةُ، لِمَذا تُصرِّ على أنْ تُفحمَها في حَياتِكَ؟ وتَأقُفُ طويلاً: لو كنتُ أملكُ إجابةً على سؤالي كهذا

لكنّني ارتحُثُ من زَمَنِ. وهتُفتُ: آآه... وصعدتُ الإهَ كَأَنها نارٌ تَنقَدُ في الأضلاعِ. لن أخرجَ وحدي كالأبله لأطوفَ في هذِهِ اللَّيْلِ شُوارِعِ القاهِرةِ، وإن كانَ التَّجَوُّلُ في القاهِرةِ في اللَّيْلِ مُغرياً جِداً. قَرَّرتُ في النِّهايةِ أنْ أصلي، وأدخُلَ عَرفةَ المَكْتَبَةِ، وأغمسَ نَفْسي بينِ المَخْطُوطاتِ، ولكنتي شعرتُ بأنَّ هذِهِ سوفَ يحدُّ من حُضورِ درِّيَّةٍ في قَلْبِي؛ اللُّعِينَةُ، هتُفتُ، إنَّها تُسيطرُ على أفكاري حَقًّا، ورحتُ ألتَمِسُ وسيلَةً بها لأنسى، فلم يكنْ من وسيلةٍ أنجَعُ من النُّومِ، وفجأةً جذبني النُّومُ من يدي بِقُوَّةٍ وأسقَطَني في جوفِهِ في لَحْظاتٍ!!

لم يترك الموت منهم من يُخبرني

عنهم، فيوضح ما لاقوه تبياناً

بادوا جميعاً، وما شادوا، فواعجبا

للخطب؛ أهلك عمارة وعمرانا!

هذي قصورهم أمسث قبورهم

كذلك كانوا بها من قبل سكانا

ويح الزلازل أفنت معشري فإذا

ذكرتهم خلّنتي في القوم سكرانا

“ (أسامة بن منقذ) ”

” (١)

اللّهُ المُبَاح

القاهرة كلّها أسواق، حتّى أولئك الذين يريدون أن يذهبوا إلى المسجد ليصلّوا، لن يلجوا إلى باب المسجد حتّى يذرعوا شارع السوق كلّه من أوله إلى آخره؛ كان عليك أن تعبر - مثلاً - سوق القماحين شبراً شبراً قبل أن تدخل إلى مسجد الأقرم، تدخل من باب الفتوح، وتظلل ماشياً ودكاكين القمح تحفّ بك من كلّ جانب، فتشم رائحة السنبال من عهد يوسف

إلى اليوم، وهل رائحة الخبز المغموس بالدم الذي أكلت منه الطير فوق الرأس المصلوب، تُشبه رائحة الخبز المغموس بالعافية الذي كان يَأدُم به الملكُ طَعَامَهُ؟! سنتشمّ روائح هذه العصور كلّها قبل أن تضع قدمك اليمنى على عتبة مسجد الأقرم. كان أكثر السّوق مسقوفًا. حين مضى زمنُ الفاطميين صار السّوق في أنحاءٍ منه يُباع الشّمع، ولهذا سُمّي لاجئًا بسوق الشّمّاعين. لكنّه مع الرّمن انفلت من عقّاله، وصار يُؤوي الأجسادَ التي تبيع المُتعة الرّخيصة لكلّ مُشتهٍ يبحث عن وعاءٍ يُلقى فيه نرّواته الجسديّة!

هنا، حين يُلقى اللّيل سرباله، ويقلّ عددُ الأرجل العابرة، ولا يأتي إلاّ مَنْ كانَتْ له نيّةٌ في المجيء، في هذا السّتار تجلس بغايا يقال لهنّ زعيرات الشّمّاعين، لهنّ سيّما يُعرفنَ بها، وزيّ يتميّز به، وهو لبس الملاءات المفتوحة التي تُظهر فتنة الجسد، ويلبسنَ في أرجلهنّ سراويلاتٍ من أديم أحمر.

قد تكون البغيّ سيّدة نفسها، تعرضُ جسدها دون وسيطٍ، وقد يكون هناك مَنْ يعرضُ أو تعرضُ عنها ذلك، فإذا وجدت ذلك الصّنّف من الرّجال، ذوي الدّقون الحليقة، والوجوه الصّفيقة، والعيون العميقة، سيسألونك: بكم تريدُ أن تتمتع؟ وعلى مقدار ما في الجيب تكونُ السلعة؛ فإذا كان جيبك دافئًا، ودينارك وإفيا عرضوا عليك الصّغيرات في السنّ الممتلئات في الأجساد. وإذا كان جيبك مُهترئًا، فربّما لن تحظى إلاّ بعجوز، وإذا جنّت تسترق النّظر وما معك شيءٌ، فلربّما هجم عليك الدّلالون بالحديد، وطردوك من المكان، فرجعت لا أنت رأيت، ولا أنت نلت، هذا إذا لم يُحدثوا فيك عوارًا يسيل له بعضُ دمك!

كان ذلك ليلةً جمعةٍ، وقد دخلَ إلى قلبي بعضُ الملل، فقلّت أطوفُ في الأسواق، فقادتني قدماي إلى هنا، فعثرتُ بهؤلاء البغايا، وكانَتْ مجموعةً منهنّ قد نثرنَ شعورهنّ، وزجّجنَ حواجبهنّ، وكحلنَ عيونهنّ، وتمايلنَ بمضغَن الكلام مع كلّ مَنْ يطلب عندهنّ حاجته، وتذكّرتُ قول المتنبي:

حُسْنُ الحضارةِ مَجْلُوبٌ بنظريّةِ

وفي البداوةِ حُسْنٌ غيرُ مَجْلُوبِ

أفدي ظبَاءَ فِلاةٍ ما عرفنَ بها

مَضَعُ الكلامِ ولا صَبَغَ الحَواجيبِ

وكان عددٌ منهم يسترقُ النَّظْرَ إليّ، يدعونني بأطرافهنّ، ويقلنَ بحركاتهنّ كلّ شيءٍ؛ وتحركنَ فيّ ما يتحرك في الرجال، فخفتُ أن أقعَ في الحرام، فنكصتُ على عقبيّ، أنوي الخروجَ من المكان كلّهُ والرّجوعَ للبيت، وفعلتُ، غيرَ أنّي سمعتُ صوتاً من خلفِ ظهري، يُنادي: «مولانا...» فرجفتُ، وتبدّل لوني، واختلجَ قلبي، وخفتُ أن أعرفَ في مثل هذا المكان فتلقَ بي الفضيحة، وبنالني ما ينالني. وشددتُ العزمَ على المُضيّ بأسرع ما يُمكن، فسمعتُ الصّوتَ من جديد، يقول: «لا تخفِ يا مولانا...» وحُيّل إليّ هذه المرّة أنّي أعرفه؛ إنّه صوتُ دُرّيّة، وجمدتُ لما سمعتُ الصّوتَ في مكاني، ولم أجروُ على أن أستدير فأراها أو تراني، وقلتُ: «لعلّه يُشبهه صوتها». لكنّها أكملتُ: «إنّ ما يقوله السّمّان والفاكهانيّ محضُ افتراء». ولم أصدّق أنّي أسمعُ صوتها، إنّها امرأةٌ متزوّجة، ولديها أولاد، ولا يُمكن أن تتبعَ جسدها!! وحاولتُ التّخفيفَ من صدمة ما أنا فيه، فقلتُ في نفسي: لا بدّ أن هوسي بدريّة جعلني أركبُ صوتها فوقَ صوتِ هذه البغي. غير أنّها أردفتُ: «يا عبد الطّيف... إنّه لطيفٌ بعباده، ولا بأس من بعض اللّهُو المُباح». وبينما أنا في دوامة الشكّ إن كانت هي أو سواها، تتصاعدُ أنفاسي، ويُرَى ارتجاف جوارحي، ويُسْمَعُ حَفَقان قلبي، نقلتُ قَدَمَي التّقيّلتين ما استطعتُ وأنا أوّلي للصوتِ ظهري، ثمّ جاهدتُ لأتحرّرَ من ذلك النّقل، فتحرّرتُ، ثمّ رحنُ أركضُ كالأبله، وأنا أتعتّرُ في ركضي، ورأيثُ في طريقي صدقي اللّحامَ بشاربيّه الغليظين قد سربل نفسه بلباس أبيض، تفوح منه رائحة الطّيب من بعيد، وهو يمشي تُجاه البغايا كأنه يريدُهنّ، فتجافيتُهنّ، وتعاميتُ عنه حتّى خرجتُ من السّوق كلّها. ولم أدر إذا أطلقتُ ساقِي للريح هرباً من نظراتها، من هو الذي سيلحق بي؟ الصّقر الذي في عينيها، أم الذئب الذي هو فيهما؟! وكان صوتها لا يزال يطنّ في أذني: «اللّهُو المُباح... اللّهُو المُباح...». حتّى إذا وصلتُ إلى البيت، دخلتُ إلى السّاحة، وكان اللّيل قد مضى أكثرُ من نصفه، فسمعتُ سهيل الأبلق، كأنّه يقول لي: «عيبٌ عليك يا مولانا».

وتحاشيتُ النَّظْرَ تُجاه الإصطبل، وصعدتُ الدّرج وأنا أحسّ بالحمّى تسيل في جسدي كلّهُ، وألقيتُ بنفسي على السّرير، ولم أصحُ إلّا حينَ أسعتِ الشّمسُ صفحةً وجهي.

ثمّ تلتِ السّوقَ من بعد تلك الأيّام سوقَ الشّمّاعين، وكان يعمرُ أكثر ما يعمرُ أيّام رمضان؛ وكان يباع في هذه السوق في كل ليلةٍ شمع كثيرٌ، وكان فيه من التّزيّن والتّرف الكثير أيضاً. والشّوارع الطّويل الذي يمخرُ غُباب هذه السّوق مليءً بهذه الحوانيت التي تبيع الشمع أشكالاً وألواناً، وكانت تبيع الفوانيس أيضاً، فإذا كانت أوّل ليلةٍ في رمضان، أو قد كلّ دُكّان عدداً من الفوانيس أمام بابهِ من الجانبين، وتناقسوا في حجمها وثبّده ضوءها، فإذا وقفت في أوّل السّوق وأرسلتَ نظركَ إلى آخره هالك الجَمال المُعلّق بهذه الفوانيس، كأنّها كواكبُ دُرّيّة تهبطُ من قبة السّماء، وكان منظرها من أجمل ما يُمكن أن تقع عليه العينُ في ليالي رمضان.

وكانت السّوق تعجّ بالنّاس في هذه الليالي لكثرة ما يشترون من الفوانيس والشموع، وكان عددٌ من الفتیان أو الفتّيات يشترون أزواجاً منها، ويطوفون بها في مواكب باهرة. وبعضُ الأباء كانوا يشترون عجولاً أو خيولاً مصنوعةً من هذا الشمع في ألوانٍ زاهية، ويرغّبون الصّبيان بركوبها إذا حضروا معهم صلاة التّراويح.

فإذا خرجتُ من حوانيت الشّمّاعين، بدأتُك حوانيت الدّجاجين. وفي سوق الدّجاجين يُمكن أن تتعرّف إلى وجهٍ جديدٍ من وجوه القاهرة. هل يمكن أن تنتهي وجوه القاهرة؟!!

والنّاس في رمضان تأتي من الفسطاط، ليشهدوا الجُمعة في جامع الحاكمي، بدلاً من جامع عمرو بن العاص، ولكثّم يحرسون على ذلك ليس من أجل سماع الخطبة فحسب، بل من أجل أن يروا الدّراويش وهم يخرجون من حوانقهم إلى الجامع، فلم تكن صلاة الجمعة تُقام في تلك الحوانق، وأهل مصر يعدّون أهل الحوانق من الأولياء، فإذا خرجوا، وقف أهل القاهرة مع نسانهم وأطفالهم لكي تحصل لهم البركة برويتهم. ويخرجُ شيخُ الخانقاه وبين يديه خُدام الرّبعة الشريفة، قد

حُمِلَتْ فِي صِحَافٍ تَلْمَعُ فَوْقَ رَأْسِ أَكْبَرِهِمْ، وَالذَّرَاوِيشُ يَتَّبِعُونَ الشَّيْخَ فِي سَكُونٍ وَهَدْوٍ وَخَشْوَعٍ، مُطْرَقِينَ بَرُؤُسَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ، فِي زِيَّهِ الْمَهْيَبِ، حَتَّى يُوَافُوا بَابَ الْجَامِعِ الْحَاكِمِيِّ الَّذِي يَلِي الْمَنِيرَ، فَيَدْخُلُونَ إِلَى مَقْصُورَةٍ هُنَاكَ عَلَى يَسَارِ الدَّاخِلِ تُسَمَّى مَقْصُورَةَ الْبِسْمَلَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي أَعْلَى حِجَارَتِهَا (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بِحُرُوفٍ وَاضِحَةٍ. فَإِذَا تَكَامَلَ دَعْدُهُمْ دَاخِلَ الْمَقْصُورَةِ - وَأَهْلُ مِصْرَ بِنِسَائِهِمْ وَأَطْفَالَهُمْ وَرِجَالَهُمْ يَحْفَوْنَهُمْ - صَلَّى شَيْخُهُمْ تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا سَلَّمَ، جَلَسُوا فِي حَلَقَةٍ مَرْسُومَةٍ بِدَقَّةٍ، فَقَامَ خَادِمُهُمْ يوزِّعُ عَلَيْهِمْ أَجْزَاءَ الرَّبْعَةِ، فَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَشْتَغَلُونَ بِالذِّكْرِ، حَتَّى يُوَدِّنَ الْمُؤَدِّنُ لِمَسَلَةِ الْجُمُعَةِ، فَيَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْخَادِمُ مِنْ جَدِيدٍ، فَيَأْخُذُ مِنْهُمْ أَجْزَاءَ الرَّبْعَةِ وَيُعِيدُهَا إِلَى صِحَافِهَا. فَإِذَا صَعِدَ الْخَطِيبُ الْمَنِيرَ، رَأَيْتَهُمْ كَأَنَّمَا أَلْفُوا رُؤُسَهُمْ عَلَى صُدُورِهِمْ، يَسْتَمِعُونَ إِلَى الشَّيْخِ فِي خَشْوَعٍ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ، قَامَ قَارِئٌ مِنْ قُرَّانِهِمْ يَقْرَأُ بِصَوْتٍ نَدِيٍّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ دَعَا، فَأَمَّنُوا خَلْفَهُ، ثُمَّ اصْطَفَوْا عَلَى هَيْئَتِهِمْ الْأُولَى، وَخَرَجُوا يَقْصِدُونَ الْخَانَقَاهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَأَهْلُ الْقَاهِرَةِ تَحَفَّتْ بِهِمْ، وَالْأَطْفَالُ يَنْظُرُونَ مُوَلَّعِينَ بِمَا يُشَاهِدُونَ، وَالْأُمَّهَاتُ مَسْرُورَاتٌ بِالْبَرَكَاتِ الَّتِي سَتَحَلُّ بِالْعِيَالِ لِمَجْرَدِ النَّظَرِ. ثُمَّ يَمْشُونَ فِي الشُّوَارِعِ إِلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى خَوَانِقِهِمْ، فَإِذَا دَخَلُوا إِلَيْهَا، انْقَطَعَ سَعْيُهُمْ، وَلَمْ يَعْذُ أَحَدٌ يَرَاهُمْ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا إِذَا حَلَّتِ الْجُمُعَةُ الْقَادِمَةُ.

وَعُدْتُ إِلَى الْبِيْمَارِسْتَانِ، أَعَالِجُ الْمَرْضَى عِصَارَى يَوْمِي الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، وَقَدْ بَدَأْتُ أَعْرِفُ عَلَى الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَحَلُّ بِهَوْلَاءِ الْقَوْمِ، وَلِكُلِّ بَلَدٍ أَمْرَاضُهُ، فَمَا يَشِيْعُ فِي الْقَاهِرَةِ غَيْرُ مَا يَشِيْعُ فِي الصَّعِيدِ، وَبِالطَّبْعِ غَيْرِ الَّذِي كَانَ يَشِيْعُ فِي بَغْدَادٍ. “

” (٢)

سوق السَّجَّادِينَ

أَيْنَ اخْتَفَتْ دُرِّيَّةٌ، إِنَّهُ شَهْرٌ أَوْ يَزِيدُ، وَأَنَا لَا أَصْبِرُ كُلَّ هَذَا الصَّبْرِ! وَمَنْ تَكُونُ دَرِّيَّةٌ حَتَّى لَا تَصْبِرَ عَلَيْهَا، لَوْ سَمِعَ الْأَبْلَقُ خَاطِرَكَ هَذَا، لَقَالَ لَكَ: «عَيْبٌ عَلَيْكَ يَا مَوْلَانَا، تُعَلِّقُ قَلْبَكَ بِامْرَأَةٍ غَامِضَةٍ، يَنْكَشِفُ لَكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِهَا، وَيَنْزَاحُ عَنْ وَجْهِهَا قِنَاعٌ مِنْ أَقْنَعَتِهَا؟». «لَا تَلْمَنِي يَا حِصَانِي الْعَزِيزِ، إِنَّ فِي عَيْنَيْهَا نِدَاءً عَجِيبًا، أَسْمَعُهُ فِي قَلْبِي، لَا يَكَادُ يَهْدَأُ. أَتَمَنَّى أَنْ أَسْكُتَهُ، لَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ.»

كُنْتُ قَدْ تَوَسَّعْتُ فِي الْمَكْتَبَةِ، وَاشْتَرَيْتُ عِدَدًا جَدِيدًا مِنَ الْكُتُبِ، غَيْرَ تِلْكَ الَّتِي أُهْدِيْتُ إِلَيَّ، فَصَارَ لِي زَامًا عَلَيَّ أَنْ أُوتِثَ غُرْفَةً جَدِيدَةً لَهَا، لِأَنَّ الْأُولَى فَاضَتْ عَنِ السَّعَةِ، وَفِي الْغُرْفِ هُنَا مُنْتَسِعٌ، فَفَكَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى سُوقِ السَّجَّادِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، وَلَمَعَ فِي ذَهْنِي أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ أَجِدَهَا هُنَاكَ، فَسُوقُ السَّجَّادِينَ تَعَجَّ بِالنِّسَاءِ، ثُمَّ انْطَفَأَتِ التِّمَاعَةُ الْخَاطِرِ هَذَا، عِنْدَمَا تَذَكَّرْتُ أَنَّهَا تَعِيشُ فِي تَرْبَةٍ، وَأَنَّ السَّجَّادَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا يُعَدُّ تَرْفًا، وَمِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ لِتَفْرَشَ تَرَابَ الْمَقَابِرِ بِالذَّبْيَاجِ!! لَكِنَّ الْخَاطِرَ عَاوِدَ الْاِئْتِمَاعِ مِنْ جَدِيدٍ عِنْدَمَا فَكَّرْتُ أَنَّهَا يُمَكِّنُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ مِنْ أَجْلِ النَّسْكَ فَقَطْ، أَوْ أَنَّهَا تُوصِلُ بَعْضَ طِبْخَاتِهَا لِبَعْضِ بِيُوتِ السُّوقِ، فَأَكُونُ مَحْظُوظًا وَأَجِدَهَا، ثُمَّ قَلْتُ لِنَفْسِي: هَذَا اِحْتِمَالٌ ضئِيلٌ جِدًّا، وَإِذَا لَمْ أَجِدْهَا هُنَاكَ فَلِمَاذَا لَا أَذْهَبُ إِلَى حَيْثُ تَعِيشُ فِي تَرْبَةِ الشَّافِعِيِّ؟ وَأَحْسَسْتُ أَنَّي فَقَدْتُ كُلَّ وَقَارٍ يَجِبُ أَنْ أَمْتَنِعَ بِهِ بَعْدَ هَذَا الْخَاطِرِ، أَنَا؟ الشَّيْخُ؟ الطَّبِيبُ؟ التَّحْوِيُّ؟ الْعَالِمُ؟ مَاذَا سَيَقُولُونَ: مَوْلَانَا الْجَلِيلُ عَبْدِ الْلطِّيفِ الْبَغْدَادِيِّ يَذْهَبُ بِرِجْلَيْهِ، وَبَارَادَتَهُ، لِيَزُورَ امْرَأَةً فِي تَرْبَةِ الشَّافِعِيِّ تَكْتُرُ فِيهَا الْأَقَاوِيلُ؟ وَمَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ؟ أُمُّهُ، أَخْتُهُ، زَوْجَتُهُ، ابْنَتُهُ، رَجْمَتُهُ...؟ إِنَّهَا لَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ امْرَأَةٍ عَابِرَةٍ ظَهَرَتْ لَهُ فَجَاءَةً حِينَ كَانَتْ تَسْأَلُ سُكَّانَ الْبِيُوتِ الْجُدُدِ عَمَّا إِذَا كَانُوا يَرِغِبُونَ فِيْمَنْ يَطْبِخُ لَهُمْ طَعَامَهُمْ. لَا بُدَّ أَنَّي جُنِنْتُ، وَشَعَرْتُ بِاحْتِقَارٍ لِنَفْسِي، وَمَعَ هَذَا الشُّعُورِ الْمُدَلِّ إِلَّا أَنَّ عَيْنَيْهَا لَمْ تُفَارِقَانِي، وَسَقَطَتْ غَرِيفًا فِي أَمْوَاغٍ مِنَ الْحِيرَةِ الْمُتَلَاطِمَةِ.

سأذهبُ إلى سوق السَّجَّادين على أيِّ حالٍ، قلتُ، هذه أفضلُ فكرةٍ يُمكن أن أخرجَ بها ممَّا أنا فيه، ولبستُ ثيابي، وشددتُ المنطقة على وسطي، وأحكمتُ لَفَّ العِمَامَةِ البيضاء التي على رأسي، وعرفتُ (الأبلىق) ذلك من حُطَّواتي السَّريعة وأنا أنزل الدَّرَجَات، فصله، وأخرجَ عنقه من أعلى الباب المنخفض الذي يُغلق على إسطبله، وحركَ رأسه الكبيرة، فراح اللُّجام يتراشق، وسمعتُ مع صهيله صوتَ الحدائد التي في اللُّجام، فقلتُ له: «أنا قادم».

ومررتُ بسوق (بين القصرين) قبل أن أصلَ إلى سوق السَّجَّادين، وهو أعظمُ أسواق القاهرة، واسعٌ جدًّا، شارعه ليس ضيقًا كشارع المعز الذي في سوق باب زويلة، وتلعبُ فيه الخيول، ويتسع لعشرة آلاف فارسٍ بكامل عدَّتهم لا يضيقُ عنهم، وترى الخيول فيه تُطارِدُ نفسها، والخيول أجمل من البشر حين تجتمع في مكانٍ واحد! وكانت السوق أيام الدَّولة الفاطميَّة أعظمَ ممَّا هي الآن، فلقد أحمل الأيوبيُّون بهجتها، وأطفؤوا كثيرًا من بريقها، ومع ذلك ظلتُ يُباع فيها كلُّ ما يتعلَّق بالخيول من السُّرُج، واللُّجم، والحدَّوات، والأعنة، والزَّينة، ويُباع فيها إلى ذلك كلُّ ما يتعلَّق بالسَّلاح، من سيوفٍ ورماحٍ، ودلاصٍ، وزرديٍّ، ودروعٍ، وخوذٍ، ومناجلٍ، وسكاكين، وخناجر، وقسيٍّ، ونشابٍ، وحدائد... ولقد أدركته وقد صارَ باهتًا، فدخلته، فغيَّرتُ حدَّوات الحصان، واشتريتُ له سرجًا جديدًا، ففرح، وعرفتُ ذلك في عينيه، فقَبَّلته بينهما، ومسحتُ على عنقه البيضاء، فسرتُ بيننا وشانج المودة، ولولا أننا خلقان مُختلفان لقلتُ إنني أخوه، ولم يكن لي أخ في حياتي مثله، وشعرَ هو بذلك، فأغمضَ رموشه البيضاء الطويلة على عينيه الكحلَّوين، ثمَّ اعتنقته وقلتُ له: «إنني قدَّمْتُك على نفسي، ومن الوفاء أن أشتري لك أثاثك قبل أن أشتري لنفسي». ثمَّ مررتُ به على الخان، فأكل وشرب، وكان في الخان خيولٌ كثيرةٌ، فهل تتعارف إذا تلاققت؟! وهل يكون بينها في مجلسها هذا حديثٌ كما يكون بين البشر في مجالسهم؟! وطلبتُ من صاحب الخان أن يُوفي طعامَ الأبلق لستة أشهرٍ من تبنٍ وشعيرٍ إلى بيتي، وكان الخان في وسط الجهة المقابلة للشَّارع، وعلى جانبيه حوانيتٌ تجلسُ فيها الصَّيارف طوال النَّهار، يبيعون أنواعًا شتى من المأكَل، وأصنافًا مُشتهاه من المَطاعم، فإذا هبط اللَّيل، أشعلتُ السُّرُج والمصابيح التي لديوان مصر من الجهتين، وقد عددتُ كثيرًا من النَّاس، وراحوا يتمشُّون في الشَّارع، ويتنزهون، وأكثرهم فتیان، وأصحاب مجون، يتفكِّهون، ويتندرون، ويتسكعون، وتبدرُ منهم من أعمالٍ فيها من الخلاعات وسوء الأخلاق ما يضيق القول عنه؛ ومن فرغ عقله وكثرَ ماله ساءَ فعله... ثمَّ إنني خرجتُ إلى سوق السَّجَّادين.

وكانت السوق رحبةً، لم أرَ مثل هذه العظمة من قبل، فبعضُ السَّجَّاد يبلغ طوله ثلاثين ذراعًا، وعرضه عشرون، وكان صاحبه يعرضه من طابقٍ ثانٍ أو ثالثٍ، فيتدلَّى من الأعلى ويهبط، وينتهي قبل أن يمسن الأرض بقليل، فتتفرد السَّجَّادة كاملةً حتَّى يتسنَّى للمُشتري أن يعاين ألوانها، ويرى اللوحة المرسومة عليها، وكان يحدث أن تكون الرِّسومات على تلك السَّجاجيد تصويرًا لحروبٍ، أو تصويرًا لمساجد، أو تصويرًا لمجالس القيان، وكانت التَّصاویر من الإتقان بحيثُ إنَّك تكاد تعتقد في أن ما تراه ليس إلا حقيقةً، فالفرسان في صورة الحرب يلبسون الخوذ، ويضربون بالسيف، ويطعنون بالرَّمح، كأنَّ ذلك يحدث أمامك لا في نسيج مُصوَّر فوق قطعة من الدِّيباج، ويخيل إليك - لدقَّة التَّصوير - أنَّك تسمع صيحات المُتقاتلين، وصليل السيوف، وضبح الخيول، وشهيق الموتى، وأنين الجرحى... وتُفكِّر بأن تلحق بهم كي تُسعفهم وتخفِّف الآمهم!!

كنتُ لا أزال في ذهولي، وأنا أنظر إلى أصحاب هذه السوق يعرضون سجاجيدهم على الجدران العالية، أو في أكراتٍ مُخصَّصة للعرض، وطفَّتُ أبحثُ عن غايتي، فلم أرَ ههنا إلا نساء الأمراء والوزراء وأعيان النُّجَّار وأهل الثَّراء والغنى، وكلَّ سيِّدةٍ معها جاريتان أو ثلاثٌ، يتبعنَّها أتباع الكلب صاحبه، وهنَّ يتقصَّفن جميعًا في مشيهنَّ كأنَّما رُكبت أقدامهنَّ على زنبق.

وأدركتُ طرفي في الوجوه لعنني... ألقاك أو ألقى الذي يلقاك... فَرَدَدْتُ طَرْفي خَائِبًا مُتَحَسِّرًا... ما كنتُ أرجعُ خائِبًا لولاك...!!

وكان بعضُ السَّجَادِ يندَلِّي من أَسْطُوَانَاتِ بِأَلْوَانِ شَتَّى، والنِّسَاءُ يَتَلَمَّسْنَ تَلَمَّسَ الْخَبِيرِ، وَيُدَقَّقْنَ فِيهِ النَّظْرَ وَيُطْلِنَهُ، وَيُقَلِّبْنَهُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَكَانَ بَعْضُ عِبِيدِ السَّجَادِينَ يَسْتَعْمِدُهُ سَيْدَهُ وَسَيْلَةً لِعَرْضِ سِجَّادِهِ، فَتَرَاهُ يَحْمِلُهَا عَلَى كَتْفِهِ وَتَتَدَلَّى أَمَامَهُ، حَتَّى تَعْطِي الْأَرْضَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ، فَتَأْتِي الْمَرْأَةَ فَتَقْلِبُهَا، وَتَتَفَحَّصُهَا، مِنْ أَمَامٍ وَمِنْ خَلْفٍ، وَعَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وَالْعَبْدُ وَاقِفٌ فِي مَوْضِعِهِ لَا يَتَحَرَّكُ قِيْدَ أَنْمَلَةٍ، كَأَنَّهُ صَخْرَةٌ مَصْبُوبَةٌ. وَلَقَدْ تَمَرَّ عَلَى الْعَبْدِ عَشْرُونَ امْرَأَةً فِي الْيَوْمِ أَوْ ثَلَاثُونَ، مَا يَشْتَرِيْنَ سِجَّادَةً وَاحِدَةً، وَمَا يُرْحَنُ هَذَا الْمَسْكِينُ مِنْ وَقْفَتِهِ طَوَالَ النَّهَارِ فِي الْحَرِّ!

وَكَانَ يَحْدُثُ مِنْ أَجْلِ عَيُونِ النَّسَاءِ أَنْ يَصْعَدَ صَاحِبُ السَّجَادِ إِلَى دَكَّةٍ عَالِيَةٍ، وَيَقِفَ فَوْقَهَا، وَيَقُومُ بِبَسْطِ السَّجَادَةِ أَمَامَ الْمَرْأَةِ، وَتُوقَفُهُ هَذِهِ زَمَنًا طَوِيلًا وَهِيَ تَتَلَمَّسُ وَبَرَّ السَّجَادِ، وَتَتَمَعَّنُ فِي تَفَاصِيلِهِ وَأَلْوَانِهِ، وَقَدْ تُعْجِبُهَا سِجَّادَةٌ بَعْدَ أَنْ تُعَايَنَ عَشْرًا أَوْ عَشْرِينَ مِنْهَا، وَتَهَمُّ بِالشَّرَاءِ، ثُمَّ تَتَرَجَّعُ عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَلْوَانَ الَّتِي فِي أَطْرَافِهَا، لَيْسَتْ مُتَنَاسِقَةً مَعَ اللَّوْنِ الَّذِي فِي وَسْطِهَا، وَإِنْ كَانَ لَوْنُهَا الَّذِي تَحَبُّ... وَيَنْزِلُ السَّجَادُ بَعْدَ أَنْ تَخْرُجَ الْمَرْأَةُ مِنْ دُكَّانِهِ، وَهُوَ يَزْفِرُ، وَيَلْعَنُ النَّسَاءَ جَمِيعًا.

«أَنْتَ مِنْ هُنَا؟». «إِنَّكُمْ تَسْأَلُونَنِي هَذَا السُّؤَالَ دَائِمًا». «نَحْنُ نَعْرِفُ وَجُوهَنَا، سِخُنَّا لَا تَخْفَى عَلَيْنَا، وَالْعُرْبَاءُ لَا يَخْفُونَ». «أَنَا غَرِيبٌ... نَعَمْ... أَنَا غَرِيبٌ، قَدِمْتُ مِنَ الْمَشْرِقِ». «مِنَ الشَّامِ؟». «كَلَّا مِنْ بَغْدَادِ». «خَيْرُ النَّاسِ... أَنَا حَمَادُ السَّجَادِ...». وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيَّ وَابْتَسَمَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَجَزَيْتُهُ عَلَى ابْتِسَامَتِهِ بِابْتِسَامَةٍ، وَقُلْتُ: «أَنَا عَبْدُ اللَّطِيفِ...» فَرَفَعَ ذَقْنَهُ قَلِيلًا، وَقَالَ وَهُوَ يَحْكُمُهَا: «تَعْمَلُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ؟ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟». «بَلَى، بَعْضَ أَيَّامِ الْأَسْبُوعِ... وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتِ؟». «أَزُورُهُ بَيْنَ فِتْرَةٍ وَأُخْرَى، فَأَنَا...» وَسَعَلَ، ثُمَّ أَكْمَلَ: «كَبِيرٌ كَمَا تَرَى، وَشَاهِدْتُكَ هُنَاكَ». «عَظِيمٌ». «بِمَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ أُحْدِمَكَ؟!». «أُرِيدُ سِجَّادَةً تُصَوِّرُ مَكْتَبَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ». «الْمَكْتَبَةُ؟». «وَهَلْ فِي ذَلِكَ غَرَابَةٌ؟». «لَا، وَلَكِنْ الْمَكْتَبَةُ انْدَثَرَتْ...». «وَهَذِهِ التَّصَاوِيرُ لِهَذِهِ الْمَعَارِكِ وَتِلْكَ الْمَجَالِسِ أَمَا زَالَتْ تَدُورُ إِلَى الْيَوْمِ؟» وَضَحَكْتُ، حَتَّى رَأَيْتُ الْإِقْرَارَ فِي وَجْهِهِ، وَأَكْمَلَ: «لَدَيَّ شَيْءٌ مُشَابِهٌ... تَصَوِّرٌ لِكِتَابِ». تَبِعْتُهُ لِأَرَاهَا، وَأَعْجَبْتَنِي، قُلْتُ لَهُ: «هَذِهِ صَغِيرَةٌ، وَسَاعَلَقْتُهَا عَلَى الْجِدَارِ... هَلْ هُنَاكَ سِجَّادٌ مِنْ وَبَرٍ كَثِيفٍ، وَخِيَطٌ غَلِيظٌ، مِنْ أَجْلِ نَعْلِي هَذَا». رَدَّ: «بِالطَّبَعِ، لَدِينَا مَا تَشْتَهِي». اشْتَرَيْتُ السَّجَادَتَيْنِ، وَوَصَفْتُ لَهُ مَوْضِعَ مَنْزَلِي، وَقَالَ لِي: «قَبْلَ أَنْ يَرْتَفِعَ أَذَانُ الْعَصْرِ سَيَكُونُ صِيبِيَانِي قَدْ أَوْصَلُوهُمَا إِلَى بَيْتِكَ، وَبَسَطُوهُمَا فِي غُرْفَتِكَ».

عُدْتُ، قُلْتُ وَأَنَا عَائِدٌ: «لَا بُدَّ مِنَ الْوَرْدِ، وَإِنْ بَعُدَ الْوَرْدُ». وَقَصَدْتُ السُّوقَ الْقَرِيبَ مِنْ بَيْتِي، وَظَلَلْتُ أَرَدَّ تَحَايَا أَصْدِقَائِي مِنْ أَصْحَابِ الذِّكَاكِينِ الَّذِينَ رَبَطْتَنِي بِهِمْ عِلَاقَةَ الْجَوَارِ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى بَائِعِ الْوَرْدِ، الشَّابُّ الْأَبْيَضُ الَّذِي يَتَقَصَّعُ فِي الْكَلَامِ، فَاشْتَرَيْتُ مِنْ عِنْدِهِ أَضْمُومَةً مِنَ الْبِنْفَسِجِ، وَرَأَيْتُ عِنْدَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ صِيبِيَانِ، يَضَعُ لَهُمْ أَفَانِينَ مِنَ الْوَرْدِ فِي وَعَاءٍ عَمِيقٍ، وَيَضُمُّ جَذُوعَ كُلِّ وَرْدٍ عَلَى جِدَةٍ، وَيُرْتَبِّهَ فِي الْوَعَاءِ، فَإِذَا انْتَهَى مِنَ الْأَوَّلِ عَمَدَ إِلَى الثَّانِي، وَالثَّلَاثِ، وَهَكَذَا... حَتَّى يَمْلَأَ أَوْعِيَتَهُمْ جَمِيعًا بِأَصْنَافِ شَتَّى مِنَ الْوَرْدِ، ثُمَّ يَنْطَلِقُونَ إِلَى الشُّوَارِعِ وَمَوَاضِعِ تَزَاخُمِ الْأَقْدَامِ، وَيَضْرِبُونَ فِي الْقَاهِرَةِ، يَنَادُونَ عَلَى الْوَرْدِ: «مِينِ يَشْتَرِيكَ يَا وَرْدُ؟».

وَمِصْرُ يَوْمَئِذٍ تَفِيضُ بِالْوَرْدِ، وَشُورَاعُهَا تَمْتَلِي بِالشَّدَا حَتَّى يَسْتَرَّ اللَّيْلُ الْبُيُوتَ، فَهِيَ وَرْدٌ وَأَهْلُهَا وَرْدٌ، وَبَائِعُو الْوَرْدِ وَرْدٌ عَلَى وَرْدٍ!!

ثُمَّ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الَّذِي يَسْبِقُ يَوْمَ الْمَوْكَبِ، دَعَانَا الْقَاضِي الْفَاضِلُ إِلَى مُنْشَأَتِهِ عَلَى مَادِبَةٍ يَحْضُرُهَا عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الرَّيَاسَةِ، وَكَانَتْ مُنْشَأَتُهُ عَلَى دَرَبِ الْمَلُوحِيَّةِ، وَفِي الدَّرَبِ كَذَلِكَ مَدْرَسَتُهُ الَّتِي سُمِّيَتْ بِاسْمِهِ.

فلما وصلتُ إلى باب القصر بالأبلى سهل، فهُرَع العبيد إليّ يَحْقُونَ بي، وجفل الحصانُ منهم، فرفع قوائمه الأمامية، وعلا صوته بالصهيل، فهدأته بالأجام، وعاتبته: «ليس في هذا المكان يا صديقي، ماذا سيقول القاضي الفاضل؟!». ولكنه رفع قوائمه من جديد، وسهل سهيلاً طويلاً وعالياً، وتراجَعَ العبيد إلى الوراء، فيما حنبتُ ظهري فوقه، والتزمتُ عنقه ليهدأ، وكانتُ عيناه جاحظتين، قد بان في سوادهما احمرارٌ هائلٌ، وبقيتُ أمسحُ على عنقه بباطن كفي حتى خفتُ صوته وهذا تماماً. وطلبتُ من العبيد أن يدلوني على خان الخيول، لأقوده بنفسي، لأنني شعرتُ أنه لا يريدُ أن يكون معه أمام القصر سواي.

كان القصر يشهق بأكثر من خمسة طوابق، تعلوه الأقواس من فوقها الأقواس، ويقوم على أعمدةٍ تصطف بعضها خلف بعضٍ حتى ليخيلُ إليك إذا نظرت إليها من زاوية ما أن بعضها يتصل ببعضٍ لكثرتها وديقة هندستها، كأنما هي جدارٌ ممتدٌ من أسطواناتٍ تنفلت من العدة. وكانتُ أبهاؤه كثيرة، وعالية، وكلُّ بهوٍ يُفضي إلى بهوٍ، وكلُّ بهوٍ تدخل إليه، أجمل من الذي تتركه خلفك!

وجلسنا في حديقةٍ مُخضلة، بالندى مُبتلة، في روضةٍ من قلة، يجري وسطها نهرٌ لا هو النيل ولا هو الفرات، ولا أدري كيف أحدثه القاضي في منشأته، وكان يقسم الحديقة الكبيرة نصفين، وبين كلِّ مئة ذراعٍ وأخرى قنطرةٌ تمرُّ فوقه، يتخذها العابرون في التنقل بين الضفتين، وجلسنا نحن إلى النصف الذي يلي القصر، وكنا أكثر من ألف مدعو، لا يكاد بعضنا يعرفُ الذي بجانبه، وكان صوتُ أحاديثنا ولعظنا يعلو على خريبر النهر الذي يجري من تحتنا، وكانت الحديقة ملاءى بأشجار النخيل، وأصنافٍ من الورد وأزهاره لو طافت بها الرائي دون أن يقف عند أي نوعٍ منها لقضى النهار بأكمله دون أن ينتهي منها!!

ولما حان وقتُ الطعام، وقف القاضي الفاضل أمامنا، وخطب فينا خطبةً قصيرة، ورحب بنا، وقال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وإنني لا أقول كما قال قارون: إنما أوتيته على علمٍ عندي، بل أقول إنَّ كلَّ هذا لله في يدي، ولا تدوم النعم إلا بالشكر، ورب العزة يقول: «لئن شكرتم لأزيدنكم». وراح يدعو عبيده إلى الإسراع في إكرام الضيوف.

ومدَّ حاشية القاضي الفاضل المائدة. فلم أرَ حفاوةً مثل هذه الحفاوة، ولم أرَ طعاماً مثل هذا الطعام، ولم أرَ ترفاً مثل هذا الترف؛ لقد ذبح القاضي الفاضل عجولاً وأبقاراً وخرافاً ووطاً وإوزاً تكفي لأن تُطعم مصر كلها، بل تكفي لأهل الإقليم بأجمعه، ولقد وجدتُ في نفسي من ذلك، ولكنني لم أتكلم مخالفةً أن أكون شؤماً في مجلسٍ كرم. ثم رُفِع الطعام، فاحتاجوا ما بين أداني المغرب إلى العشاء الأخيرة حتى يُتموا رفعه، و(شريف) قائمٌ على أمر العبيد، يوزع بينهم الأدوار، ويصيح بكلِّ مُتلكي، وينهر كلَّ مُتقاعد. وجاءني غير مرة يسألني إذا كنتُ محتاجاً لشيء. كان (شريف) هذا غلاماً أسود، مسبوك العضلات، شفته غليظتان، والسقلى تهذل قليلاً حتى ترى باطنها ذا اللون الأحمر. وكانتُ عيناه زرقاوين، في بشرة سوداء صافية، كأنه ديك الجن، لكن روحه لطيفة، دائم البسمة، وشديد الحيوية والحركة.

ثم إنني أخذتُ (شريف) من طرفِ كفه، فنظر إليّ بعينيهِ مُسنفهماً، ومال برأسه نحوي، وهمس: «أنا في خدمة

”مولاي!“ فقلت: «أريدُ أن أرى المكتبة التي في القصر». فابتسم، وأشار بيده إلى أحد العبيد، فجاء سعيًا، فأمره أن يصطحبني إلى قاعة خزانة الكتب، فتبعته، نجتاز غرفة من خلفها غرفة مبنية، حتى وصلنا إلى المكتبة، فلما دخلتها، شهقتُ حتى حسبتُ أن النفس انقطع من صدري لهول ما رأيته، فسألتُ العبد بعدما ذهب عني الرّوع: «كم كتابًا هنا؟». فردّ: «مئة ألف كتابٍ أو يزيد». فشهقتُ شهقةً أخرى، وقلتُ له: «دعني بعض الوقت هنا أختلي وحدي بها، ثمّ غدّ إلي لترشدني إلى طريق الخروج من هذه المتاهة». فانصرف.

فطفتُ وأنا في غاية الذّهول ممّا أرى، كانتُ أعظم مكتبة أراها في حياتي، ليس مثلها مكتبة بغداد، ولا مكتبة البيمارستان على فضلها هناك، ولا مكتبة البيمارستان هنا، وأخذتني الرعدة وأنا أرى فيها كتب ابن قتيبة بخطّ يده، ومختارات المفضل الضبيّ بخطّ يده، وخفتُ أن يكون القاضي الفاضل أخى عنّا رؤية المكتبة لأنّه لا يريدنا أن نراها، فاستعجلتُ بالطواف بين رفوفها التي كانت تمتدّ في غرف متلاصقة يُفصي كل باب إلى آخر بقوس كبيرة في أعلاها، كلّ غرفة تطول أكثر من مئة ذراع، وكان هناك أكثر من مئة غرفة كلّها مليئة بالكتب عن بكرة أبيها. وعرفتُ من خلال تطوافي السّريع أن القاضي الفاضل قد صنّفها على أبوابها، فرأيتُ فيها كتب النحو واللّغة والحديث والتواريخ وسير الملوك والتنجيم والروحانيات والكيمياء، وغيرها... ولقد رأيتُ فيها تاريخ ابن الأثير المُسمّى الكامل في التّاريخ، وهو مُعاصر لنا، ولا بدّ أنّه كتبّه هو أو أحدُ تّساخه وجيء به إلى هنا من قوره، ولا أدري إن كان تامًا على هذه الهيئة، فقد رأيتُ منه ثمانية مجلّدات!

ورحلتُ أتجوّل في أهباء المكتبة، تستوقفني كلّ غرفة بما فيها، ثمّ يهمني الوقتُ أن أتركها لأرى ما في غيرها، حتّى برز لي العبدُ الذي ساقني إلى هنا وأنا في غمرة انشداهي، وقال لي: «إنهم يدعونك للشّراب». فتركتُ ما في يدي، وتبعته وأنا أجادب التّظر غير مُصدّق إلى هذه الرّقوف الطويلة التي تعصّ بها الغرف في كلّ شبرٍ منها.

ثمّ دار الولدان بأكوابٍ من فضّة، وكؤوسٍ من قوارير بالشّراب، وسكّراتٍ من ذهبٍ، فكان الشّراب من كلّ لونٍ، وطعمٍ، فما تركتُ في معدّنا فراغًا ليهبط فيها، ثمّ صنّعتُ أنواع الحلوى، فمنها ما عرفتُ، ومنها ما أنكرتُ، وظللنا حتّى اقترب أذان الفجر في ضيافته، نسمع أفانين من الأقوال العذاب، كأنّها الشّهذ المُذاب، من كلّ عالمٍ أو قاضٍ أو أديبٍ يغرف لنا من الأدب اللباب. وخشيتُ أن تفوتني صلاة الفجر في المسجد الصّالحي، فاستأذنتُ الوزير، وركبتُ الأبلق، الذي سمعتُ في صهيله عتابًا عميقًا بتأخري عليه، همزته همزة واحدةً برجلي، فطار، ولم تستقرّ له قائمة إلاّ على باب البيت!

” (٣)

أبعدوا هذا القرد!

هل تستطيع الغناء؟ لو كانت تغني لكانت ساحرة حقيقية، لكنّها تبدو ناعمة كأنعم ما تكون الأنثى أحيانًا، وغليلة كأغظ ما يكون الرجال في أحيانٍ أخرى. عيناها تصفوان كنهٍ من عسلٍ في الشّمس، وكنهٍ من لبنٍ في الظلّ، لكنّها إذا غضبتُ اتقدتتا شررًا، أي أنتي يُمكن أن تكون؟ ثلاثة وثلاثون يومًا ولم تظهر درية، أين تختفي هذه المرأة؟! فلتخف، لتُمت، لتدب في الرّمال، لتسيخ في السبخات، لتندفن في المقابر، ما لي وما لها؟ ما شأنني أنا بها؟ لماذا على عقلي هذا الذي ملأته بكلّ هذه العلوم منذ طفولتي ألا يتوقّف عن التّفكير بها؟

ابتدأ الموكب مسيرته من القصر، إنه يوم الأحد، وينتظر الفقراء في كلِّ مصر الإعلان عن مثل هذا الموكب مثلما ينتظرون الإعلان عن العيد وزيادة. سار خارجًا في زينته، يتقدّمه الأمير وقد لبس البردة المنقوشة في دار الطراز بالإسكندرية، وعليها اسم المَلِك، حمراء من الدِّباج، وكان نقش الاسم مُذهَّبًا، موضوعًا بشكلٍ طوليٍّ على الجزء الأيمن منها، وكان صاحب الرِّكاب يسير في المقدّمة عن يمين الأمير قليلاً يحمل (الغاشية)، وهي غاشيةٌ سُرُج من أديمٍ مخروزةً بالذهب، تلمع تحت الشمس كأنها كلّها من الذهب، وكان صاحب الرِّكاب يعرضها رافعًا يديه بها ذات اليمين وذات الشمال، وكان الأمير يركبُ في مقدّمة الموكب الذي يتكوّن من أكثر من مئةٍ خيلٍ يركبها الحرس والفرسان الأشداء. وكان خلف الأمير فارسٌ قد تقّع فلم تبدُ إلا عيناه، وكان يحمل مظلةً فوق رأس الأمير، وهي قُبّة من حريرٍ أصفر مُزركش بالذهب، على أعلاها طائرٌ من الفضة الخالصة.

أما الخيول التي خلفَ حصان الأمير، فكانت غايةً في الجمال والرّوعة والمهابة، فقد وضعوا على عنق كلّ فرسٍ منها رقبةً من أطلسٍ أصفر، مُزركشةً بالذهب، فلا تكاد ترى على أعناق الخيل إلا الذهب، وكانت هذه الرقبة الذهبية تُوضَع على رقبة الفرس من تحت أذنيها إلى نهاية عرقها.

وكانت تسير خلفَ الأمير عن يمينه وشماله مباشرةً (الجفتة)، وهما فارسان يركبان فرسين بالرقبة المذهبة إياها، عليهما ثوبان أصفران من حريرٍ بطرازٍ أحمر، وعل رأسيهما قُبعتان من زركش، وفرسهما أشهبان، يختلفان في اللون عن باقي الخيول التي تكون في الأغلب سوداء، وكان هناك انتظام في اللون، فلم يكن لونٌ من ألوان الخيل ليختلط بالأخرى. وكان هذان الفارسان هما اللذان يتوليان توزيع صدقات الأمير حينَ يحيئ وقت ذلك.

وفوق كلّ فرسٍ كانت الأعلام ترتفع، ولم تكن الرّايات واحدة، فلكلِّ مقام راية، فأما التي فوق حصان الأمير فكانت رايةً عظيمةً من حريرٍ أصفر مُطرزةً بالذهب، منقوشًا عليها اسم المَلِك. وكانت هناك راياتٌ أخرى في الصّفوف المتوسطة، سوداء وعلى ساريتها خُصلةٌ من شعر، وكانت هناك راياتٌ للصّفوف الخلفية خضراء مُهدّبةً بحريرٍ أصفر.

وإلى الخيالة الذين في الموكب، وأكثرهم حرسُ الأمير، كان هناك بعضُ الرّاجلين، فقد كان يمشي عن يمين حارس الملك المُلثم وعن شماله، وداخل (الجفتة) أربعة عازفين، اثنان في كلّ جهة، وخلف كلّ جهة صّفان مثلهما، وكان الرّاجلون يحملون الطبول والأبواق والمزامير، وهم يأتُمرون في الإيقاع بإشارةٍ من يدي الطّبّال الأول عن يمين الموكب. ويمشون على إيقاعات مدروسة.

وكان الأمير الذي في المقدّمة، يلبسُ تاجًا من الذهب الخالص، التّاج الشّريف، وفي مقدّمة التّاج فوق جبهة الأمير كانت هناك جوهرةٌ لازوردية اللون عظيمة، يخطف بريقها الأبصار، وكانت في يد الأمير عصًا من ذهب طولها يقترب من ذراعٍ مرصعة بالدرّ والجوهر، وكان يرفعها في وجوه الفقراء المُحتشدين لرؤية الموكب وهو يبتسم!

كنتُ - حسب الاتفاق مع ديوان مصر - أنتظر الموكب في محطة للتشريفات الأميرية تبعُدُ فرسًا عن بيتي، وكان عليّ أن أكون في المحطة قبل الظهر، وقد فعلت، وذلك من أجل أن يُزيّنوا حصاني الأبلق كي لا تبدو هيئته غير منسجمة مع هيئة الموكب بأكمله.

عندما اقترب المُزيّن من الأبلق ثار، ورفع قوائمه، وصهل، فلم يُمكنه من الاقتراب منه، فجنّته، فخفض طرفه، واقتربت منه، وهمست في أذنه بعد أن مسحتُ على عنقه: «لا تفضحنا، دَعهم يَضعون لك الزينة، قبل أن يفوتنا موكب الأمير». فصله كأنه لم يُعجبه ذلك، وكردش، وهزّ رأسه هزّاً مُتتابعاً، فابتعدتُ عنه قليلاً، فهممٌ بأن يعودَ إلى عِنايه ويرفع قوائمه الأمامية، فابتدرته ببدي، وصرختُ: «كفى... ليس هذا وقتَه».

إنّ هذا الجموح صار يُصيب الأبلق في الفترة الأخيرة كثيراً، منذ عشرة أيام، أراه كلما اقتربتُ منه أو هممتُ بركوبه يرفع قوائمه، ويُطلق صهياً شجناً طويلاً، ما الذي يُريد أن يقوله يا ثرى؟ نظرتُ في عينيّه، كانتا تبدوان جاحظتين! هل هو مريضٌ؟ كلاًّ إنّه يخبّ بي في أرحبة القاهرة كما لو كان ربحاً مُرسلة! هل هو خائفٌ؟ لكنّ ممّ يخاف؟ فكّرتُ قليلاً قبل أن يخطر لي هذا الخاطر: «أمعقولٌ أنّه يشناق إلى صاحبةِ تُونس وحثته، وتُدفي ليله الأُبكم». صمتتُ في خاطري، قبل أن أتابع: «ولمّ لا؟ له حاجاته هو الآخر، وفيّ فطانةٌ كما قال الأوّل». نظرتُ في عينيّه، هزّ رأسه، وطرف، اقتربتُ منه: «هل حقاً تريدُ أنثى إلى جانبك؟». وضحتُ بصوتٍ عالٍ بينما كان ساسة الإصطبلات الملكية ينظرون إليّ مُستغربين من ضحكي المُفاجئ. اقتربتُ منه أكثر، وداعبته: «يا صديقي، لا يخفى عليك شيءٌ، كلانا عَزبٌ، وكلانا فيه من الشوق إلى أنثاه ما فيه، ولكنّ علينا أن نصبر، فإنّ الصبر عن الأنثى أعظم أنواع الصبر، ثمّ... نحن ما زلنا شباباً؛ وفي مثل هذه السنّ يحسنُ بنا عدم الإفراط في الاقتراب من الإناث». أراح عنقه إلى الجهة الأخرى، وثنى إحدى قائمته الأماميتين... مسحتُ على عنقه من جديد، ثمّ وقفتُ فُبالته، وحنيتُ جذعي إلى الأمام قليلاً، ووضعتُ وجهي في وجهه، وقلتُ له: «أعدك أن ألبي رغبتك أوّل ما يتسنّى لي ذلك، وثمره الصبر حُلوة يا صديقي، والآن دَعهم يبدؤوا بتزيينك، فلقد تأخرنا، وأخاف أن يغضبوا مني، وأنا هنا غريبٌ». هزّ رأسه، وصهل صهياً خافتاً، وحرك أذنيه إلى الأمام، وانفرج مشفراه، فباتت من خلفهما أسنانه العريضة. حينها قلتُ للسّواس: «الآن يمكنكم أن تبدؤوا».

وانتظرتُ في البهو، ريثما يُتمّون تجهيزه، ويكون الموكب قد وصل المحطة فأنضمّ إليهم. حينما جاءني أحدُ السّانسين ليخبرني بأنّ الأمر قد تمّ، خرجتُ لأرى ما فعلوا بالأبلق، اتسعتُ حدقتا عينيّ، أباليس هؤلاء السّواس؛ لقد تغيّر عليّ تماماً؛ أزالوا عنه سرجه القديم مع أنّي لم أكن قد غيرته له منذ فترةٍ بعيدة، ووضعوا مكانه سرجاً من ديباجٍ أحمر خميل، يخفّس بالجاليس فوقه لجودته، وركبوا للسرج قربوساً من الذهب، ووضعوا فيها ستّة أطواقٍ من الفضة، تُحيطُ بها إحاطةٌ تامّة، وأبدلوا بلجامه لإجاماً من فضة كذلك، تصل به سيورٌ من الجلد، وأهبطوا على جانبي رأسيه غواش من حريرٍ مضفورةٍ بعضها إلى بعض على شكلٍ خَلقاتٍ، تهبط إلى ما فوق منخريه، ولا أدري إن كانوا كحلوه أم لا، لأنني رأيتُ كحلّه قد ازداد، وقد لا يكونون فعلاً، وإنّما لتدرج الألوان حول عينيّه شعرتُ بذلك، وكانوا قد وضعوا له رقبة من ذهبٍ كتلك التي يلبسها خيلُ الملك، وقصّوا قليلاً من شعْر ذيله فبدا متناسق الطول، وسرّحوه له، فبدا ذاهباً إلى حفلة، وقد كُنّا ذاهبين إلى حفلةٍ بالفعل.

ومضيتُ في الموكب، واتّجه الموكب إلى الجنوب، يطوفُ بالأسواق، والطّبالون في المقدّمة يصدحون بالألحان، ويُغنون الأشعار في مدح الملك، فلمّا ولجنا إلى سوقٍ قريبةٍ من مسجد ابن طولون، تكاثرتُ المُتسوّلون على الموكب، وكانت السّوق ظليلة، وحدثتُ أن سقطتُ ساريةً في السّوق من تراحم النَّاس على الأمير طلباً لجذواه، فتنشأ عم الأمير بذلك، وأصلح الحرس ما انفرد من عقد خيالة الموكب بسبب ذلك السّقوط، ومضى. وكنتُ أنا في المقدّمة، وكاد يُصيبني من سقطة السّارية أدّى لولا لطفُ الله، وكان المُوكّل بالتصدّق بالدراهم يرمي صرر النّفود عن يمينه، وذلك الذي في الشّمال عن شماله، وكان الأمير يرفع عصاه الذهبية كلّما مرّ بفقير وهو يبتسم، ورأيتُ من المُتسوّلين من كان شبحاً كبيراً يقوده ابنه الصّغير، ورأيتُ فيهم الأعمى، والأحدب، والذي يزحف على خلفيته تكاد أقدام الخيول العابرة أن تدهسه... وفجأةً ففزّ ولدٌ صغيرٌ قدّرتُ أنّه في الخامسة أو السادسة من عمره، وكان شبة عارٍ، وينطّ كالقرد، ولم يستطع الحرس أوّل الأمر منعه، لأنّه

باغْتَهُم بِقَفْزِهِ أَعْلَى مِنْ خَيْولِهِمْ، وَظَنَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَرَدٌ بِالْفِعْلِ، وَلَكِنَّهُ رَاحَ يَتَكَلَّمُ كَالْبَشَرِ، وَيَقُولُ: «صَدَقَ اللَّهُ». وَيَمُدُّ يَدَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ الْمُنْحَنِيةَ قَلِيلًا، وَالَّتِي تَعْلُوها كُتْلَةٌ مِنَ الشَّعْرِ الْكثِيفِ، وَيَتَابَعُ اسْتِجْدَاءَهُ. وَصَاحَ أَحَدُ الْحَرَسِ: «قَرْدٌ؟». فَرَدَّ عَلَيْهِ الْحَارِسُ الَّذِي بجانِبِهِ: «لا». وَرَاحَ يَنْطَبِّحُ بَيْنَ الْمُوكَبِ، وَقَدْ دَخَلَ فِيهِ، فَكَادَ يَعْزِلُ خُطَا الْخَيْلِ بِجِسَدِهِ الضَّنْبِيلِ، فَعَاجَلَهُ أَحَدُ الْحَرَسِ بَعْضًا يَرِيدُ دَفْعَهُ بِهَا، فَتَشَبَّثَ بِهَا، وَجَذِبَهَا جَذْبَةً قَوِيَّةً حَتَّى اخْتَلَّتْ لَهَا تَوَازُنُ الْفَارِسِ الَّذِي جَحِظَتْ عَيْنَاهُ دَهْشَةً مِنْ قُوَّتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ رَاحَ يَقْفِزُ أَمَامَ الْمُوكَبِ حَتَّى سَبَقَهُ، وَكَانَتْ عَوْرَتُهُ قَدْ بَانَتْ فِي وَجْهِ الْأَمِيرِ، فَاَنْزَعَجَ، وَصَاحَ: «أَبْعِدُوا هَذَا الْقَرْدَ مِنْ هُنَا». فَرَدَّدَ الْوَلَدُ مَقُولَةَ الْأَمِيرِ، وَهُوَ يَشِيرُ إِلَيْهِ: «أَبْعِدُوا هَذَا الْقَرْدَ مِنْ هُنَا».

فَاسْتَشَاطَ الْأَمِيرُ غَضَبًا وَلَمْ يَدْرِ مَا يَفْعَلُ، كَانَ الطَّبَّالُونَ وَقَتْنَدِيٌّ قَدْ تَوَقَّفُوا أَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ عَنِ إِشْدَادِ قِصَائِدِ الْمَدِيحِ الْمَفْخَمَةِ، وَهُمْ يَتَابِعُونَ مَا يَحْدُثُ، وَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ فِي الْمُوكَبِ، وَهَاجَ مَنْ فِيهِ، لَوْلَا أَنَّ أَحَدَ الْحَرَسِ هَمَزَ جِصَانَهُ الْأَسْوَدَ، وَعَاجَلَ الْوَلَدَ بِطَعْنَةٍ مِنْ رُحْمِهِ، فَرَاحَ الْوَلَدُ يَخْتَلِجُ كَالذَّبِيحَةِ، ثُمَّ عَاجَلَهُ آخَرَ، فَقَبِضَ عَلَى ذِرَاعِهِ الرَّفِيعَةِ، وَرَمَاهُ خَارِجَ الْمُوكَبِ، فَتَدَحَّرَجَ عَلَى الْأَرْضِ، وَنَدَّتْ مِنْهُ آهَةٌ وَاحِدَةٌ ثُمَّ حَمَدَ.

اضْطَرَبْتُ، شَدِدْتُ لِجَامِ الْأَبْلُقِ إِلَيَّ، وَتَوَقَّفْتُ فِي مَنْتَصَفِ الْمُوكَبِ، تَلَقَّتْ حَيْثُ سَقَطَ الصَّبِيِّ، لَعَلِّي أَجِدُ أَحَدًا رَفَعَهُ، أَوْ أَسْعِفَهُ، لَكِنَّ الشَّحَّادِينَ كَانُوا مَشْغُولِينَ بِمَلَاحِقَةِ الْجَفْتَةِ لَعَلَّهُمْ يَظْفِرُونَ بِصُرَّةٍ مِنْ خَيْرِ الْأَمِيرِ، وَأَمَّا الْفُرْسَانُ، فَلَمْ يَتَوَقَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا مِنَ الطَّبَّالِينَ، كَأَنَّ الَّذِي أَلْقَى لِلتَّوْخِرَةِ بِالْيَةِ. وَتَثَبْتُ أَنْزِدُ عِنَانَ الْأَبْلُقِ، وَخَرَجْتُ مِنَ الْمُوكَبِ، وَعَدَوْتُ بِهِ إِلَى حَيْثُ الصَّبِيِّ، نَزَلْتُ، عَايَنْتُهُ، كَانَ خَيْطٌ رَفِيعٌ مِنَ الدَّمِ يَنْزِلُ مِنْ طَرَفِ فَمِهِ، حَمَلْتُهُ خَلْفِي عَلَى الْأَبْلُقِ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّهُ إِلَيَّ، وَطَرْتُ بِهِ إِلَى الْبِيْمَارِسْتَانِ. “

” (٤)

زَرَقَاءُ الْيَمَامَةِ

وَجَدْتُ (سَالِمًا) ابْنَ حَسَنِ الْفَاكِهِانِيَّ فِي الْبِيْمَارِسْتَانِ، كَانَ فِي أَحَدِ دَرُوسِهِ الْعَمَلِيَّةِ، لَقَدْ أَلْزَمْتُ تَلَامِيذِي مِنْذُ فِتْرَةٍ بِالْإِقَامَةِ فِي الْبِيْمَارِسْتَانِ مِنْ أَجْلِ مَسَاعِدَةِ الْأَطْبَاءِ، وَلَكِي يُحْصَلُوا دَرَجَتَهُمْ فِي التَّحْوَلِ مِنْ مُسَاعِدِينَ إِلَى أَطْبَاءِ مُمَارِسِينَ، صِحْتُ بِهِ: «الْحَقُّ بِي إِلَى غُرْفَةِ النَّطِيبِ». أَخَذَ الصَّبِيُّ مَنِّي وَتَقَدَّمَنِي إِلَى هُنَاكَ.

مَسَحْنَا الدَّمَ الَّذِي تَخَثَّرَ عِنْدَ زَاوِيَةِ فَمِهِ، كَانَ لَا يَزَالُ يَسِيلُ بَعْضُهُ فِي جِذْعِهِ مِنَ الطَّعْنَةِ، تَفَحَّصْتُ الْجِرْحَ، وَيَبْدُو أَنَّ الطَّعْنَةَ قَدْ غَاصَتْ عَمِيقًا فِي جِسَدِهِ الضَّنْبِيلِ، كَانَ لَا يَزَالُ فِي غَيْبِيَّةٍ، نَبْضُهُ ضَعِيفٌ، لَكِنَّهُ حَيٌّ، وَإِذَا كَانَ مَحْظُوظًا فَسَيَعِيشُ، سَأَلَنِي (سَالِمًا): «مَا الَّذِي حَدَثَ؟». كُنَّا لَا نَزَالُ نَنْظُرُ فِي آثَارِ الطَّعْنَةِ، رَدَدْتُ عَلَى سُؤَالِهِ بِسُؤَالٍ مُبَلَّلٍ بِالرَّجَاءِ: «هَلْ يُمْكِنُ إِنْقَاذُهُ؟». ضَبَّقَ عَيْنَيْهِ: «إِذَا لَمْ يَحْصَلْ تَهْتِكُ كَبِيرٌ فِي الْأَنْسِجَةِ، فَيُمْكِنُ ذَلِكَ». «عَلَيْنَا أَنْ نَرِاقِبَهُ». «مَنْ طَعَنَهُ؟». «جُنْدُ الْأَمِيرِ».

قَضِينَا بَعْضَ الْوَقْتِ نُعَالِجُ جِرْحَهُ بِالْمَسَاحِقِ وَالْمَحَالِيلِ لِمَنْعِ اسْتِمْرَارِ النَّزِيفِ، نَطَّقْنَاهُ جَيِّدًا، لَفَقْنَاهُ بِقِمَاشٍ أَبْيَضٍ... تَنَهَّدْتُ، اتَّكَأْتُ عَلَى قَائِمَةِ السَّرِيرِ الْقَرِيبَةِ مِنْ رَأْسِهِ، رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ الْمُعَمَّضَتَيْنِ سَاكِنَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا تَرِيدَانِ الْإِبْتِعَادَ عَنِ هَذَا

العالم، والخروج منه، كان يبدو وادعاءً بريئاً، بائساً، مُشرداً، لم يَر من الدنيا إلا الشقاء... غرقت في الهَمِّ، لقد اخترم مشهداً اختلجه رُوحِي، ما الذي فعله هذا الطُفْل حتَّى تأتبه تلك الطَّعنة؟! شردت في استرجاع المشهد، آننذ جفأنا أنا وسالم على صوت صُراخ قادمٍ من أول البيمارستان، كان بعيداً في البداية، لكنّه اقترب، وبدأ الصُراخ يعلو، إنه صُراخ امرأة، كان يحمل شتائم وألعات وتهديدات، نظرت في عينيّ سالم، وسألته: «مَنْ تكونُ صاحبة هذا الصُراخ؟». رَمَ شفتيه: «لا أدري». كان الصَّوت يتبعثر في الأروقة، ويسأل: «أين وضعتموه يا قتلّة؟!». حُيِّل إليّ أنني سمعتُ مثل هذا الصَّوت من قبل، لكن ليس بهذه الجديّة، صار الصَّوت يُصدع رؤوسنا، خرجتُ إلى باب الغرفة لأتفاجأ بها، كانت هي، دُرِّيّة... قد شمّرت عن ذراعيها وراحت تضرب رأسها، هتفت: «دُرِّيّة... أنت هنا؟». نظرت في عينيّ نظرةً تشتعل بالغضب، وأزاحتني بيديها، وعبرت الباب، وركضت باتجاه الصَّبي، واحتضنته: «ابني... حبيبي...»، ثمَّ أجهشت بالبكاء.

بقيتُ ذاهلاً ممّا رأيته، اقترب مني سالم، سألتني: «أهي أمّه؟». أجبتُه: «الآن عرفت. ها أنت ترى ما يحدث مثلي». ظلّت مُحترضةً له، تُقبّله بين الفينة والأخرى، وتخرج كلماتها من بين دموعها: «لقد قتلوك يا حبيبي». اقتربتُ منها، حاولتُ أن أخفّف عنها: «لن يموت، سينجو». لم تلتفت إليّ، ظلّت غارقةً في نشيجها. أتيتها بكأس ماء، لم ترفع يدها لتأخذها، سألتها أن تجلس وتهدأ، لكنّها لم تتحرك. قلتُ بهمسٍ: «لو أنّه لم يقفز داخل الموكب». حينها رفعت إليّ رأسها ببطء، وبدا ذنبٌ مُفترسٌ في وسط عينيها في الظلّ: «القتلّة. لقد كنت معهم؟». رددتُ: «لقد حملته إلى هنا». ردّت: «قاتل». صُعقت. قدرتُ أنّها ما زالت تحت تأثير الصدمة، جرثُ ماذا يُمكن أن أفعل، همستُ من جديد: «عليك أن تتركه، إنّه بحاجة إلى الهواء». نظرتُ إليّ ثانية، كانت عيناها غائمتين، مُهكّتين، بدتَا كدبالة مصباح يوشك أن... أن ينطفئ، وانطفأت بالفعل. هتفتُ بالممرّضين أن ينقلوها إلى غرفةٍ أخرى، قال سالم: «إنّها في غيبوبة». قلتُ: «ستصحو قريباً». كان جسدها المُمدّد على السرير يقول كلّ شيء. خرجتُ من عندها حتّى أرتب أفكارِي. في العصر استيقظتُ، كانت أول كلمة تقولها: «أدهم... أين أدهم... ابني... حبيبي». ناولتها كأس الماء، شربتُ هذه المرّة، وبلعتُ ريقها بصعوبة، ثمَّ وقفتُ على قَدَميها وخرجتُ مسرعةً من الغرفة، تبعثها، وقفتُ معها إلى جانبِ أدهم، كان لا يزال مُسجّى فوق السرير وعيناها مُسبّلتين، وجسده العاري مُغطّى بالقماش الأبيض. أتيتها بكرسيّ، قلتُ: «اجلسي. دعينا نتحدّث». جلستُ. شهقتُ من آثار بُكاءٍ لم تزل قطراته تندى في عيونها: «إذا لم تُعده لي فأنت مُشارك في قتله». طمأنتها: «سأبذل كلّ ما في وسعي». ردّت: «هؤلاء الملوك القتلّة، سينهدم كلّ هذا البناء على رؤوسهم». سألتها: «البناء؟». «ثُصورهم». أردتُ أن أمارحها: «نبوءة جديدة؟». «بل حقيقة واقعة». «سترى. يسرقوننا، ثمَّ يمدّون لنا فُتاتاً ممّا سرقوه، ثمَّ يقتلوننا. إنَّ الله سيقتلهم». «أتفهم حُزرك». «وأتفهم سداجتك». حنيتُ جذعي إلى الأمام بعد شتيمتها، واتكأتُ على باطن كفيّ فوق رُكبتَي اليمنى: «سينجو». «لن ينجو أحدٌ». صيقتُ ذرعاً بردّها: «نبوءة أم تخاريف؟». «بل نبوءة». أنتِ عرّافة، ولستِ نبيّة». «أنا أرى ما لا ترى». «تعالِي نخرج إلى الحديقة، نشربُ شيئاً، عليك أن تهدئي».

«لن أهدأ قبل أن أرى قصور الملك والأمير وبيوت حاشيته، وكلّ مَنْ في السّوق تتهدّم حجراً حجراً فوق رؤوسهم».

أطاعتني في الخروج إلى حديقة البيمارستان، كان المساء قد زحف باتجاه الأبينة الحجريّة، فضربتها أشعة الشَّمس الواهنة فبدت واهنةً مثلها. الشَّمسُ تحزنُ، فتلبسُ الحجارة في المغيب حُزنها، لكنّ بعض النّسائم العليلة بعثت شيئاً من الإنعاش للنفوس، فاسترّوحت من تعبٍ وحُزن.

«ليس هنا شجرة بانٍ كذلك التي في بيتي». «ستسمع الرّدم من بينك». «يا دُرِّيّة، شبعتُ من نبوءاتك، كلّ ما أريده أن أساعدك في الإبقاء على أدهم حيّاً». «عليك أن تفعل». «لكنّ عليك أن تهدئي». جرّت الحديث إلى ناحيةٍ أخرى: «ماذا يفعل المغلوب إذا كان لا يملك من أمره شيئاً؟!». سألتها: «أنت تتكلمين بالألغاز». «ليست ألغازاً، إنّها واضحة وضوح الشَّمس، ولكنك لا تفهم؛ إمّا لأنك لا تُريد، أو لأنك لا تُشرع للفهم بوابات عقلك، انظر يا حكيم، تأمل يا عبد اللطيف...». وبسطت كفيها اليمنى، وأدارتها على كلّ ما حولها، وأكملت: «كلّ هذا سينتهي... كلّ هذا سيُصبح خراباً». أردتُ بدوري أن أجزّ الحديث إلى ناحيةٍ أخرى: «كيف عرفت أن أدهم في البيمارستان؟». «أنا عرّافة». «هل كنت هناك؟!». «أنا

أرى». ضحكك هذه المرة بصوت عالٍ: «أنت زرقاء اليمامة إذا». ردّت بثقة: «أنا هي». رددت: «ماذا تشربين؟». ظنّت صامتة. سألتها بإقرار: «ماء الریحان».

كان اللیل قد هبط تمامًا، مضيّنا إلى الغرفة، كانت الأروقة قد بدأت تخلو من الأطباء والممرّضين ومساعدتهم، كانت بعض الأهات المكتومة تُسمع بين فينةٍ وأخرى من هذه الغرفة أو تلك، هل الیمارستان بیث الأهات؟ لا؛ إنهم يُطلقونها هنا لكي يتخلّصوا منها، فإذا أفرغوا كلّ ما في أرواحهم من أهاتٍ وأشجانٍ، استراحوا وخرجوا من هنا معافينّ.

اقتربنا من (أدهم) كان يبدو أنه يحتاج إلى وقتٍ ليتعافى، احتضنته من جديد، جلسنا في الغرفة حتّى انتصف اللیل، طلبتُ منها أن تعود، قالت: «لن أترکه». عرضتُ عليها أن أقومَ بمرافقتها إلى تربة الشافعيّ، رفضت: «سأنام الليلة هنا». لم أستطع أن أقولَ أكثرَ من هذا. قلتُ: «سأعودُ إلى بيتي».

ركبتُ الأبلق، وانطلقتُ في شوارع القاهرة، كُنّا قد تجاوزنا منتصف اللیل، لم يكنْ شيءٌ ليغيّر وجه هذه المدينة القاهرة لا من ليلٍ ولا من نهار. كان الناسُ يمشون في الشوارع، والضّحكات تندرج من كلّ مكان، وصرخات الابتهاج تتعالى من كلّ زاوية، الأسواق تبقّ الناس، والزوايا تكتظّ بالعشاق، وتلك الشوارع المضاءة بآلاف السّرج تعبرها آلاف الأقدام، والناس من كلّ حدبٍ يسيلون.

في منتصف الطّريق، حرّنت الأبلق، رفع قوائمه إلى الأعلى فجأة، وكاد يسقطني من فوقه، صرختُ مُغتاظًا: «لن تعود إلى الأمر ثانية». لكنّه جمد مكانه ولم يتحرّك، حاولتُ أن أحضته على السير، لكنّ جرّانه زاد، ملتُ وأنا فوقه إلى ناحية عنقه: «أنا مُتعب يا صديقي، وأريدُ أن أرتاح... هيا تحرك». لم يتحرّك، صرختُ: «أنت تريدُ ذلك، فليكن». ترجّلت عنه، ومضيتُ إلى مصطبةٍ من تلك التي يجلسُ فوقها المتنزهون، ومددتُ جذعي فوقها، وقلتُ له: «سأنام هنا... هل أنت مُرتاح الآن؟». اقترب مَنّي، سهل سهيلَ المعتدّرين، تشمّمني بمنخريه الكبيرين، على ضوء الفوانيس رأيتُ عروق وجهه تملأ صدغه الأيمن، بدا جميلًا مع الظلال، قلتُ له: «هه.. ماذا تريد؟!». حرّك ظهره كأنه يريدُ إسقاط السّرج، سألتُه: «تريدُ أن تنام هنا معي؟!». ضحكك: «لا يُمكن أن يتسع المكان لنا معًا، أنت ستنام عندما نعودُ إلى البيت، إسطنبولك أولى بك». كردش، لمعت عيناه على الضوء، وأدار رأسه بعيدًا، وهبط بظهره وهو يهزه، كان واضحًا أنه يريدُ أن يسقط السّرج عنه، قلتُ له: «تريدُ ذلك، سأفعله لك». فُمت، أزلتُ عنه السّرج، ورميته بعيدًا، وأزلتُ عن رقبتة الرّقبة الذهبية، وحللتُ لجامه الفضّي، ورميتُ كلّ ذلك على الأرض، بدا بلا أيّ زينةٍ إلّا من بياضه الأخاذ، قلتُ له بغضبٍ: «هل ارتحت الآن؟». هملج، دار حول نفسه دورتين، كان يبدو بالفعل أنه ارتاح. ضحكك لمنظره، وقلتُ: «إبليس... والآن؛ هل يمكن أن نعود إلى البيت...؟ أقسمُ أنني لا أحتمل مزيدًا من التعب». دَلّ لي ظهره، بدا مُطيعًا. اعتليته بقفزةٍ واحدة، وحثّته فطار كأنه الضوء، كان جرّانه السّريع يقذف بيوت القاهرة وشوارعها وأحيائها خلفي، لم أصدّق أننا وصلنا إلى البيت، رافقته إلى إسطلبه، تأكّدتُ أنّ لديه ما يكفي ليلته من الشّعير والماء، وصعدتُ الدّرجات إلى غرفتي، وآلاف الأفكار تتصارع في روحي؛ ماذا تعرفُ هذه المرأة أيضًا؟! “

” (٥)

من يُعتق عصفورًا يدخل الجنة!

شددت في الصباح على الأبلق، وطرت إلى المستشفى، كانت لا تزال نائمة وهي تحتضنه بين ذراعيها كأنها تخاف أن يطير منها، أيقظتها: «أنت تُسببين له الأذى بهذه الطريقة. على جرحه أن لا يمسه أحد، ولا يضغط فوقه شيء». راحت تفتح عينيها ببطء، وتفركهما، كان الصقر والدئب يتعاركان فيهما، سقط شعاع الشمس عبر النافذة على عينيها، فرحل الدئب لصالح الصقر آنذا. استدارت، وضعت بهدوء على السرير، أصلحت من هدامها، ونظرت في عيني وقالت: «كيف هي أخباره؟». «عليك أن تخرجي، لكي أرى ماذا يُمكنني اليوم أن أفعل له». رفضت. ناديت على أحد المُسعفين، برز لي (سالم)، كان قد عرف أنني قدمت، سأله مُستغرباً: «ليس هذا يومك؟». رد بلطف: «قدّرت أنك ستعود لثرى ما حال الصبي، فقلت لا أتأخر عن أستاذي». طلبت من درّية أن تنتحي زاوية على الأقل، وكشفنا على أدهم، كان موضع الجرح ملتهداً، قد تحوّل إلى اللون الأزرق، وحول مركزه كان لونٌ جلده بنفسيجاً، يبدو أن ليلة أمس قد تراجعت في الشفاء إلى الوراء خطوات بدلاً من أن تتقدّم خطوة، أزلنا اللغافة كاملةً عنه، ونظفناه من جديد، سألت سالم: «ماذا ترى؟». «حدثت التهابات داخلية. الرّيح لم يرحمه. الذي ضرب به فعلاً بحق». «يبدو ذلك. ولكنّ الالتهاب لا يحدث بهذه الصورة إلا إذا كان الرّيح...». انحبست الكلمة تحت لسانني، أصابتني رعدة من إكمالها. نظر سالم في عيني، وفهم كل شيء، اقترب مني، وهمس: «مسموماً». سارعت بوضع يدي على فمه، ونظرت إليها بزواية عيني، وهمست: «إنها هنا». انتبهت ذرية، اقتربت منّا: «لماذا تتهامسان هكذا؟ قولاً لي ما حال ابني؟ هل...». قاطعتها وأنا أحنى على الجرح، وأضع عليه بعض الأدوية: «سينجو». ردت من ورائي بحزم: «تكذب». غاصت الكلمة في ظهري مثلما تغوص السكّة في الطين، رفعت جذعي، واستدرت نحوها، أردت أن أقول لها شيئاً، ولكنني بقيت صامتاً. يبدو أنها كانت تعرف كل شيء؛ في مساء ذلك اليوم كان قد فارق الحياة!

دفنته في قرافة الشافعي، على يمين الباب الذي تخرج منه حين تنام، كانت كتلة من الحزن الثقيل. بقيت إلى جانبها ثلاثة أيام أعودها، وأشد من أزرها، وأتبعها بما تحتاجه من طعام وشراب، حتى هدأت نفسها قليلاً، لم يزرها للتعزية في الأيام الثلاثة أحد، خشيت أن أسألها عن زوجها الذي لم يظهر على الأقل، فخفت أن يفتح السؤال جروحاً حامضة؛ فيكون زوجها قد طلقها، أو جروحاً مالحة؛ فيكون زوجها قد مات! تسعة أعشار الأسئلة التي نسألها، تقول لنا: كان من الأجدى أن تصمتوا!

تعرفت في هذه الأيام إلى ما تبقى من أبنائها؛ (مارية) الصبية الجميلة التي تشبه السوسنة؛ رقيقة، تشفت عن دلال في بؤس، خمريّة اللون، كأس سلاقة لم يُشرب، وماء وردٍ لم يُرَش، كأنها عنب الشام إذا نَفَج ولم يحن بعد قطافه. و(كرم) في الثالثة، لا يُشبه أخاه الرّاحل، كان أبيض، في وجهه ملاحه، ونظرائه تدلّ على ذكائه، وفي وسط ذقنه شامة سوداء تُكْمَل ملاحظته، وأذنه اليسرى تحمل في أعلى الصيوان حبة حمراء صغيرة. أحببته كأنه ابني.

بعد شهر، ألقّت عنها سيربال الحزن، أو لنقل إنّ السّربال نفسه بهت لونه، فلم يعد يُرى إلا في لمحات خاطفة، قالت لي: «قد عرفنا الطين الذي نسكن فيه؛ نحن الأحياء الأموات، فهلمّ أعرّفك الطين الذي يسكن فيه الأموات الأحياء». «القبور؟». «إنهم يسمعونك، وهم يعيشون حياة أفضل ممّا نعيش».

مشينا في دروب ترابية ضيقة، يعلو على جانبيها جدران من الآجر الأحمر، حتى انتهينا إلى بسطة من الأرض، وقفت وقالت: «هنا يرقد مولانا عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ زين العابدين، أما رأس جدّه فهناك كما تعلم، لو كانوا يفقهون لدفنوهما معاً، وهل يحنّ الجذع إلا إلى أصله؟». ومضينا على قبور صغيرة قالت إنها لآل البيت، حصدهم الموت الذي كان يسيل على السيوف أيام الفتن التي لا تنام، واستدركت: «ومن قال إنّ تلك الأيام قد ولت؟ ومن قال إنّ الفتن تنام أو تأخذ استراحة؟». ومضينا، فقالت: «وهنا رأس زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قُتل بالكوفة، وأجرق، وطافوا برأسه في الشام قبل أن يُحمل إلى مصر، ويستقرّ هنا... أسمعهم... في الليل، في منتصف الشهور القمرية، يتحدثون، همساً، الهمس من تحت التراب أصفى في أذني من الصوت الذي تدلّقه الجيف العابرة في الأسواق. الأموات

أبلغ من الأحياء يا عبد اللطيف لو كان لك أذنان لتسمع، إنّما الخلق ما لم يكن لهم من قلوبهم موضع صنم». وتعجبت من قولها، وعظّم ذلك في نفسي، وخفت أن أسألها السؤال القديم: «كيف عرفت؟».

فتردّ عليّ بشتيمة أنا في غنى عنها وخاصةً في مثل هذا الموقف المهيّب، وفي بعض السؤال أدّى. ومضينا، فقالت: «وهنا قبر عبد الله، مولى عائشة، لو كان الندم بعد القوات يُفقد، لكانت أول من يُقدم عليه، إنّما ذهب برأيها الرّبير والجمل». كنت أستمع وأعماقى تتصارع بين الدهشة والخوف، إنّ هذه المرأة أكثر من عرافة. ثمّ نظرت إليّ وكنا في كنف من الشمس إلى حائط في الظلّ، فبان الذئب الذي في عينيها، فشعرت أنّها عرفت ما يجول بخاطري، وأتني افترضت، فأدرت رأسي بعيداً عنها، وشغلت نفسي بالسؤال وأنا أنقل خطواتي إلى قبر آخر، قلت لأنفذ نفسي: «وهذا؟». فقالت: «قبر حية الكلب». فمضينا والرّهبية تأخذ بتلابيبي، فتكاد تخنقني، ووقفنا عند قبر قد درّس، وقالت: «إنّني أراه كما أرى أولادي». فسألتها: «فمن صاحبه؟». قالت: «روبيّل بن يعقوب أخو يوسف» ثمّ أشارت إلى قبر بجانبه يُشبهه: «وذلك قبر يهوذا أخوه». فسألته: «فأين قبر يوسف؟». فقالت: «لقد نقلوه من هنا!».

وعدت إلى التدريس في الصّالحيّ، والإقامة في البيمارستان يومين أو ثلاثة في الأسبوع، وازداد عدد الطلبة، وكان فيهم الذي جعل من العلم بُغيته من الدّنيا، وكان بعضهم يأتي من أنحاء بعيدة من مصر، فيبيت الأيلة في المسجد أو يكتري داراً، ويقوم في مصر، يلزم الحلقة كأنها سفينة نجاة من الغرق أيام الأسبوع، ويحضر كلّ حلقة، فإذا هبط الصّيف، عاد إلى أهله فمكث عندهم شهراً يُحدّثهم بما رأى وسمع من مصر، ثمّ لما ينقضي زمنه، يجيء ثانية فيلتزم الحلقات، كما يلتزم الصّوفيّ خانيقاه.

وسرى بيني وبين (ماريّة) و(كرم) ماء المودة، فدأبت على زيارتهم، وكنت أشتري لهم وأنا قادم ما يُحبون، ثمّ صرنا نخرج أربعين إلى الأسواق، أكثرى عربية يجرها حصانان مُطهّمان، ونطوف في الأسواق، ثمّ قالت لي درية مرّة: «إنّ السنة التّاس السنة من اللّهب، ولن أسلم لا أنا ولا أنت منها ونحن خاليان، فكيف إذا ركبت إلى جانبك في عربة فحمة تجرّها الخيول المُطهّمة؟!»، فقلت لها: «انذني لي على الأقلّ أن أخذ كرم معي، أسليه، ولو مرّة في الأسبوع». فأذنت.

وذهبت مع الصّغير، إلى حانوت العصفير في سوق الدّجاجين، وكان في الحانوت عصفير صغيرة كثيرة، وقد اعتاد الأباء على أن يشتروها لأطفالهم من أجل أن يُعتقوها لوجه الله. وقلت لكرم: «هيا، أيّ عصفور تختار؟». وقال لنا صاحب الحانوت أول ما رآه: «أهلاً بالعصفور الصّغير... العصفور يريد عصفوراً؟». وابتسم الطّفل، وسأله وهو يُداعب الشّامة السوداء على ذقنه: «اختر» وأخذ من يده وراح يمرّ به على الأفاص، واختار كرم عصفوراً أصفر، كان ثمن العصفور قلّساً واجداً، وفرح الطّفل عندما دفعته العصفور له، وابتهج به وهو يتحرّك بين يديه، وقلت له: «لماذا تريد أن تُعتق العصفور؟». وضحك غافلاً عن سُوالي ولم يجب، فأجبت أنا: «لأنّ من يُعتق عصفوراً يدخل الجنة». وقلت: «هيا أطلقه يا كرم». ومدّ كرم وهو يُكرّك من الضّحك يديه عاليّاً فوق رأسه الصّغيرة ذات الشّعر الأشقر، وفتحهما، فانطلق العصفور إلى السّماء وهو يُزقزق، وكانت ضحكة كرم تُشبه تلك الرّزقة، وكان إذ يُكرّك تظهر غمّاتاه، وإذ يضحك تبدو سنّاه الأماميّتان. وسألته: «هل أعجبتك هذه اللعبة؟». فهزّ رأسه بالموافقة، واشترى له عصفوراً ثانياً، وأطلقه، وهو يُكرّك، وكلّما سألته: «هل أعجبتك اللعبة؟». هزّ رأسه، وظللت أشتري له عصفوراً وراء عصفور، يُطلقه حتّى يدخل الجنة، إلى أن اشتريته له في ذلك اليوم عشرين عصفوراً، لم يكن لون أيّ عصفور منها يُشبه الآخر. وعُدنا.

في الطّريق عرّجنا على حانوت يبيغ الحلوى، وكان الحانوت فيه رجالاً ونساءً، وصغاراً وكباراً، وأطفالاً وشيوخاً، لا ينجو من حبّ الحلوى أحد، وكان الحانوت مشهوراً في سوق الحلوائين، وأعاد لي عقوداً سحيقة من الدّكري، أيام كنت أستبطئ أمي من أجل أن تشتري لي الفالودج، لكنّ الفالودج الذي كانت تعرفه بغداد يومئذٍ تحوّل إلى أكثر من خمسين

نوعًا من الفالودج الذي يُباع هنا في القاهرة، إنهم هنا لتفتنهم في صنع الحلوى يُخصّصون لها أسواقًا بأكملها، وكانت أواني صناعة الحلوى تزيد الحانوت بهجةً، فلقد كانت أواني من النحاس مُتعدّدة الأشكال والأحجام، يطرقُ بها الصنّاع بإيقاعاتٍ موسيقيةٍ جميلة يُرغّبون فيها الزبائن بالشراء، وكانوا يصنعون بالسكّر الذي تنفرد به مصر أشكالاً من الحلوى على هيئة خيولٍ أو سباعٍ أو قِططٍ وغيرها، تُسمّى العلاليق، لأنّها تُعلّق بخيوطٍ في الحانوت، وتتدلّى من علٍ وهي تدور مع أيّ حركةٍ للخيط فتزداد رغبةُ الأطفال بها، فاشتريتُ لكرم منها ما اختاره هو، ومنها ما اخترته أنا، وما أظنّ بيئاً في مصر كلّها لا يدخل أحدٌ أفرادَه سوقاً للحلوى في كل

يومٍ، لقاء طعمٍ يذوب فيه النعيم.

ثمّ غدنا، أردفته خلفي، وأمرته أن يطبق بيديه على جذعي حتّى لا يسقط، ورَمَح الأبلق، غير أنّي وهو في جزيه السربيع تذكرتُ أن أشتري لمارية شيئاً يبهجها، فثبيتُ عنانه إلى سوق (القفيصات)، وهي جمع (قفيص) التي هي تصغير (قَفَص)، وهذه القفيصات توضع أمام الحوانيت، ويُعرضُ فوقها كلّ ما يستهوي البنات الصغار، من الخواتم الملوّنة، والأساور، والخلاخيل، والغفود، والعرائس التي تكون من الشمع، وغيرها، فاشتريتُ منها أسورةً بألوانٍ مختلفة، وعدتُ بها مع كرم إلى تربة الشافعيّ.

” (٦)

الأهرامات؛ البناءُ صِفَةٌ بانيه

لم يكن في مصر أعظم من الأهرامات، ومع ذلك فالناس لا تعرفها، فالأهرامات التي على الحقيقة غير تلك التي في أذهان الناس، إنهم يعرفون من الكتاب عنوانه، فإذا سألتهم ما يضمّ هذا الكتاب بُهتوا! وإنهم لا يعرفون من الاسم غير الاسم، فإنّ ذهبتُ تسألهم ما معناه سكتوا! ذلك أنّ الأهرامات لم تكن يوماً عنواناً فحسب، ولا اسماً فقط، لقد كانت عالماً من السحر والعجائب لم يدرّها أحدٌ على كثرة مَنْ خاضوا فيها، وعلى كثرة مَنْ ذهب في تفسير نشأتها وسرّها، وبقيت عصيةً عليّ مثلما استعصت على مَنْ أراد أن يفكّ طلاسمها من الآخرين!

ولقد بنى (قراقوش) من الأهرامات لِذِكْرِ الأيوبيين ما بنت الأهرامات مِنْ ذِكْرِ للفراعنة، وإن كانوا الأصل، وجاء قراقوش هذا فاستعار من الأصل ما يُمكّنه من خلود الذِّكر لسيدّه، ذلك أنّ عدد الأهرامات في مصر بالمئات، بعضها صغيرٌ وآخر أكبر منه، وثالثٌ كبيرٌ جدّاً، وبعضها بُني من الطين، وبعضها من اللين، وآخر من الحجارة، وأشكالها مُتَشاكِلَة، فبعضها مَحروطيٌّ أملس، وبعضها مُندرج، ولقد عبّر بها الرّمن وعبّر، فهدم ما كان منها صغيراً، فأخذه قراقوش هذا وبنى سور القاهرة والفسطاط، وبنى بيئهما القلعة التي على المُقطم، وهي قلعةٌ عظيمةٌ مُشرفة، وحفر فيها البئرَين العجيبين، وهما آيتان من آياتِ البناء، يُنزَلُ إليهما بدرج عميق العور فيه ثلاثمئة درجةٍ. ولعلّه استفاد في هذا من الفكرة التي بُني لأجلها بئر المقياس الذي في الروضة.

وإلى ذلك بنى (قراقوش) من حجارة الأهرام المهذمة القناطر التي في الجيزة، وهي من أعمال الجبّارين، وتكون نيّفاً وأربعين قنطرةً، وفي هذه السنّة التي نحن فيها سنة ٥٩٧ من الهجرة تولى القيام عليها مَنْ لا بصيرة له بقوة الماء، فسندّها رجاء أن يحتبس الماء فيروي الجيزة، فلمّا اجتمع الماء، وضغطَ بقوته المهولة على القناطر تزلزلت، وشقّها فانهدم ثلثها، فعاد حبسها نكالا على الناس من حيث أراد صاحب الأمر الخير، وإذا ساء التدبير فلا يقي حُسْنُ النّيّة من سوء المصير.

أما الأهرامات الخالدة؛ فهذه ممّا تتحير فيها الأفهام، وتتعجب منها العقول، وهي ثلاثة، موضوعَةٌ على حَظِّ مُستقيم بالجيزة، وبينها مسافاتٌ يسيرة، وزواياها مُتقابلة نحو المشرق، واثنان منها عظيمان جدًّا وفي قَدْرٍ واحدٍ، ومبنيان بالحجارة البيض، وأما الثالث فينقصُ عنهما بنحو الرُّبع، لكنّه مبنيٌّ بحجارة الصُّوان الأحمر المُنقَط الشَّدِيد الصَّلابة، ولا يُؤثر فيه الحديد إلا في الزّمن الطَّويل، وتجده صغيرًا بالقياس إلى أخويه، فإذا اقتربت منه وأفرَدته بالنظر هالك مرآه، وحسر الطَّرف عند تأمله.

ولقد سئلك في بناء الأهرام طريقٌ عجيبة من الشكّل والإتقان، ولذلك صَبَرْتُ على مرّ الأيام، فإنّك إن تحرّيتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصّافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها. والبناء صِفَةٌ بانية؛ والأهرامات تُخبر عن مُهندسيها، وذلك أنّ وَضْعها على شكلٍ مخروطٍ يبتدئ من قاعدةٍ مُربّعة وينتهي إلى نُقطةٍ واحدة، ومن خواصّ الشكّل المخروطيّ أنّ مركز ثقله في وسطه، فهو يتساند على نفسه، ويتوافق على ذاته، ويتحامَلُ بعضه على بعض، فليس له جهةٌ أخرى خارجة عنه يتساقط عليها. ومن عجيب وَضْعها أنّ زواياها الأربعة تتقابل مع مهابّ الرياح الأربعة، فإنّ الرّيح تنكسر سورثها عند مُصادمتها الزّاوية التي تُقابلها، وليست كذلك عندما تتلقّى هذه الرّياح السّطح!

أما قاعدة الهرم الأكبر فهي أربعمئة ذراع طولاً ومثلها عرضاً، وارتفاعها أربعمئة ذراع، وينقطع المخروط في أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع في مثلها، ولقد جرّبت ذلك، إذ عرفت أنّ أهل القرية القريبة من الأهرامات فيهم مَنْ يستطيع أن يصعد حجارته حتّى يستوي على قمته، فدعوتُ بواحدٍ منهم، وأعطيتُه عشرة دنانير على أن يقيس قاعدة القمّة بعمامته، وكان عليه أن يبسطها، ويقف عند ما ينبسط منها، ورأيتُه يصعدُ حجارة الهرم كما أصدُ أنا الدّرج المؤدّي إلى الطّابق الثّاني من بيتي، فلمّا فرغ بعد مدّة ونزل، دفع إليّ عمامته، فقستُ ما انبسط منها، فإذا هو إحدى عشرة ذراعًا.

وفي أحد هذين الهَرَمَيْنِ مدخلٌ يُلجّه الناس يُفضي بهم إلى آبارٍ ومهالكٍ وغير ذلك ممّا يحكيه مَنْ يُلجّه ويتوغّل فيه، فإنّ ناسًا كثيرين لهم غرامٌ به وتحيلٌ فيه يُوغّلون في أعماقه، ولا بُدَّ أن ينتهوا إلى ما يعجزون عن سلوكه بعد، وأما ذلك الجزء المُسلوك المُطروق كثيرًا فزلاقة تُفضي إلى أعلاه، ويوجد فيها بيتٌ مُربّع فيه ناووسٌ من حجرٍ، وهو مُنقوبٌ نقبًا، وجُلٌّ مَنْ كان معنا ولجّوا فيها، وصعدوا إلى البيت الذي في

أعلاه، فلمّا نزلوا حدّثوا بعظيم ما شاهدوه، وأنّه مملوءٌ بالخفافيش على أبوابها حتّى كادت الخفافيش أن تمنع السالك من أن يستمرّ، ويعظمُ فيها الخُفّاش حتى يكون في حجم الحَمَام، وله عجيبٌ مُرعب، فإذا تردّد صداه بين الحجارة الصّماء في سكون الوقت صار أكثرَ رُعبًا. وفيه طاقاتٌ وروازنٌ جُعلتُ مسالكٌ للرّيح ومنافذٌ للضّوء، وولجّته مرّة مع جماعةٍ، وبلغتُ نحو ثلثي المسافة فأغمي عليّ من هول المُطّلع، فرجعتُ بيني وبين الموت خيط، وحلفتُ ألا أعود لمثلِ هذا، فإنّ الرّوع يمحِقُ العُمر.

وهذه الأهرامات مَبْنِيَّةٌ بحجارةٍ جافيةٍ يكونُ طولُ الحجر منها ما بين عشرةِ أذرعٍ إلى عشرين ذراعًا، وسُمِّكه ما بين ذراعين إلى ثلاثٍ، وعرضه نحو ذلك، والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ في وَضْعِ الحجر على الحجر بهندامٍ ليسَ في الإمكانِ أصحُّ منه؛ بحيثُ لا تجذُّ بينهما مدخلُ إبرة، ولا خَلَلُ شَعْرَةٍ، وبينهما طينٌ كأثَرِ الورقة لا أدري ما صنْفُهُ ولا ما هو، وعلى تلكِ الحِجارةِ كتاباتٌ بالقلم القديم المجهول الذي لم أجدُ بديار مصرَ مَنْ يزعمُ أَنَّهُ سمعَ بمن يعرفها أو قرأها، وهذه الكتاباتُ كثيرةٌ جدًّا، حتى لو أَنَّهُ نُقِلَ ما على الهَرَمَيْنِ الكبيرين فقط إلى صُحُفٍ لكانتْ زهاءَ عشرةِ آلافِ صحيفةٍ.

ومن زمنٍ قريبٍ سَوَّلَ بعضُ الجَهْلَةِ للملك (العزير) أن يهدمَ هذه الأهرامَ ويتَّخذَ منها قصورًا أو ما ينفعُ النَّاسَ، فبدأ جماعتهُ بالهرمِ الأصغر، ووَكَّلَ بذلك قومٌ من عَظَمَاءِ الدَّوْلَةِ وأمراءِ المملكة، فحشروا للأمرِ الرَّجالَ والصُّنَّاعَ المَهْرَةَ، فخبِموا قُربَهُ بخيولهم ومتاعهم ثمانية أشهرٍ، وأجريتْ عليهم النَّفَقَاتُ، وكان هؤلاء الرَّجالُ الأشداءُ يهدمونَ كُلَّ يومٍ بعدَ بذلِ الجُهدِ واستفراغِ الوُسْعِ حجرًا واحدًا أو اثنين، فقومٌ يدفعونه من الأعلى بالأسافين والأمخال، وقومٌ من الأسفل يجذبونه بالفلوس والأشطان، فإذا سقطَ الحجرُ سَمِعَ له دويٌّ عظيمٌ من مسافةٍ بعيدةٍ، حتى ترتجفُ الجبالُ وتزلزلُ الأرضُ، ويغوصُ في الرَّمْلِ، فيتعبونَ تعبًا آخرَ أشدَّ من الأوَّلِ حتَّى يُخرجوه من سَقَطَتِهِ، ثُمَّ ينقبونَ للأسافين موضعًا فيه، ويضربونه بها، ويببتونَ ليلتهم يقطعونَ فيه قِطْعًا تُحْمَلُ على العُجُولِ، فتنسحبُ حتَّى تُلقَى في ذيلِ الجبلِ وهي مسافةٌ قريبةٌ، فلَمَّا طال ثواؤُهُم، وتَوَدَّتْ نَفَقَاتُهُم، وخارتْ قُوَاهُم، وتضاعفَ نَصَبُهُم، وَهَتَّ عَزَائِمُهُم، كَفُّوا مَحْسورين مَذمومين، لم ينالوا بُغْيَةَ، ولا بلغوا غَايَةَ، بل كانتْ غايتهم أن شَوَّهوا الهرمَ، وأبانوا عن عجزٍ وفشل. وإذا أنتَ عاينتَ الحِجارةَ المُلقاةَ تحتَ الهرمِ الأصغرَ ظننتَ أَنَّهُ استوَصِلَ، فإذا رجعتَ إلى الورااءِ قليلاً، ونظرتَ إليه من بُعْدٍ رأيتَ أَنَّهُ لم يهدمَ منه شيءٌ، وإنَّما جانبٌ منه قد كُشِطَ بعضُهُ، كخِطِّ قصيرِ شأنِهِ في ورقةٍ ملساءٍ. ولقد عَنَ ببالي أن أسألهم، فأتيتُ كبيرَ الحِجَارِينِ الَّذِينَ وُكِّلَ إليهم العملُ، فقلتُ له: «إنْ بذلتُ لك ألفَ دينارٍ على أن تردَّ حجرًا واحدًا إلى مكانه وهندامه، فهل تستطيع ذلك؟». فأقسمَ باللهِ إنَّهُ هو ومَنْ معه لا يستطيعونَ ذلكَ ولو دُفِعَ لهم أضعافُه!

وبإزاءِ الأهراماتِ من الضَّقَّةِ الشَّرْقِيَةِ مغاراتُ كثيرةُ العددِ، كبيرةُ المقدارِ، عميقةُ الأغوارِ مُتداخلةٌ، وفيها ما هو ذو ثلاثِ طبقاتٍ، وتُسَمَّى المدينةُ، حتَّى إنَّ الفارسَ المِغوارِ إذا دخلها برمحه، فإنَّه يبقى يوماً كاملاً يتخلَّلها ويمرُّ في طبقاتها ولا يُنهبها؛ لكثرتها وسَعَتها وُبُعْدِها، وقيلَ إنَّها كانتْ بيوتًا تأوي العُمَّالَ القائمين على مقاطعِ الأحجارِ، وقيلَ كان الكَهَنَةُ يببتونَ فيها.

وعند هذه الأهراماتِ صورةٌ رأسِ بارزةٍ من الأرضِ، في غايةِ العِظَمِ، يُسَمِّيهِ النَّاسُ (أبا الهول)، ويزعمونَ أن جُنَّتَهُ مدفونةٌ تحتَ الأرضِ، ويقتضي القياسُ أن تكونَ جُنَّتُهُ بالنسبةِ إلى رأسِهِ سبعينَ ذراعًا فأكثرَ، وفي وجهِ (أبي الهول) حمرةٌ وِدْهانٌ أحمرٌ يلمعُ عليه رونقُ الطَّراءَةِ، وهو حَسَنُ الصُّورَةِ مَقْبُولُها، عليه مسحةٌ بَهاءٍ وَجَمالٍ، كأنَّه يضحكُ تَبَسُّمًا! وسألني بعضُ الفُضَلَاءِ: «ما أعجبُ ما رأيتَ؟» فقلتُ: «تناسُبُ وجهِ أبي الهول؛ فإنَّ أعضاءَ وجهه كالأنفِ والعينِ والأذنِ مُتناسبةٌ كتناسُبِها في الإنسانِ».

ولقد مرَّتْ عليَّ لِيالٍ طَوالٍ وأنا أتقلَّبُ في فراشي أفكِّرُ في الطَّرِيقَةِ الهندسيَّةِ الَّتِي بُنيتَ بها هذه الأهراماتِ، ولقد قرأتُ في تفسيرِ بنائها كثيرًا فلم أقتنعَ بما قالوا، وفكَّرتُ بطرقِ تفتضيبها ما عرفتُ من علمِ الهندسةِ فعيبتُ، ولقد نمتُ ليلةً، فرايتُ في المنامِ كبيرَ الجِنِّ، ولا أدري كيفَ عرفتهُ أَنَّهُ هو، فقال لي: «أنا الذي بنيتها مع مَرَدَةِ الجِنِّ، فكفَّ عن التَّفكيرِ في ذلكَ»، فلم يُعجبني التَّسليمُ له بهذا، فقلتُ له: «وما أدراني أنكم أنتم مَنْ بنيتموها؟!» فردَّ مُحنقًا: «لا أدراكَ». فقلتُ: «لا سلمت».

فرايتُ في وجهه الغضب، ورأيتُه قد تمعَّر، وتكوَّر، وتلطَّى حتَّى كأنه النَّار المُلتَهبة، ففزعتُ، فأردتُ أن أهرب، فقلتُ لنفسي: «إنني في الحلم، ولا يكون هذا صحيحاً». فاستعدتُ بالله من الشيطان الرجيم، فانتفخ بدل أن يذوب، وعظَّم جسده الأسود، ثمَّ إنَّه أخذ يكبرُ فوق رأسي، وأنا أراه يزداد جسامَةً وهولاً، وهتف: «أتجادولنني في أسماءٍ سمَّيتوها أنتم وأباؤكم». فأردتُ أن أضحك من رَدِّه بالقرآن ولا يكون ذلك للجنِّ، فانحنق صوتُ الضَّحكة فيّ، فوجدتُ حرَّها في عينيّ، فأوشكتُ أن أبكي، ثمَّ إنني قلتُ: «كيف تقول ما تقول؟». فردَّ عليّ: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً، وإنَّ الحفر في جحر الأفعى يُخرجها، فلا تسألني ما ليس لك به علمٌ». فأردتُ أن أولي وجهي إلى الجهة الأخرى لكي لا أراه، ففعلتُ، فما قدرتُ على نفيه خارج الحلم، فقلتُ في نفسي: «فلتفعل ما بدا لك». فما مرَّتُ لحظاتٍ حتَّى شعرتُ أنني خرجتُ من الحلم، وتابعتُ النومَ.

فمضتُ مُدَّة لا أدري كم هي، حتَّى شعرتُ بأنَّ السرير اهتزَّ من تحتي، فقلتُ في نفسي: «إنني أحلم». ثمَّ ازداد اهتزاز السرير، فوجَّلتُ، فقلتُ: «لعله كبير الجنِّ قد عاد، وعلى أيِّ حالٍ فهو وهمٌ، وهذه كلها أضغاث أحلام». لكنَّ اهتزاز السرير لم يتوقَّف، فصحوتُ، وفركتُ عينيّ، ونظرتُ نحو النَّافذة فلم أجد الفجر على ظرْفَيْها، فقلتُ ما زلنا في الثَّلاث الثَّاني من اللَّيل، فنهضتُ، وجلستُ على حافة السرير، فشعرتُ بالهزَّة من جديد، فدخلني الشكُّ في أنَّه الحلم، وقلتُ: «لو كان حُلماً لما استمرَّ». لكنَّ الهزَّة بعدَ هذا الخاطر كانتُ قد توقَّفتُ، فقمْتُ لكي أشرب الماء من الخابية في أوَّل الرِّواق، كان المشعل الذي أجعله على أوَّل الدَّرجات ما يزال مُضيئاً. لكنني ما إنَّ خرجتُ من باب الغرفة حتَّى شعرتُ بهزَّةٍ جديدة، وكانتُ قويَّةً لدرجة أنني تمايلتُ، وأمسكتُ بالدرازين المقابل لباب الغرفة في الرِّواق حتَّى لا أقع، وأقعبتُ على الأرض بأسطاً رجليّ في الرِّواق، ومُمسِكاً بمشربيات الدرازين المقابل لباب الغرفة في الرِّواق حتَّى لا أقع، وأقعبتُ على جديد، فدخلني من الخوف ما دخلني، ولا أدري لماذا خطرْتُ دُرِّيَّة على بالي في تلك اللَّحظة، تمنَّيتُ أن تكون موجودةً لأسألها ما الذي يجري، وبدلاً من ذلك، بقيتُ في مكاني أتلفَّتُ حولي، أوَّجَل فكرة الوقوف على قدَمي، والمشي إلى الخابية لأتناول كأساً من الماء، كان الجفاف قد بدأ ينتشر في حلقي من تسارع ضربات قلبي. ثمَّ... ثمَّ حدثتُ هزَّةً جديدةً أكبر من سابقتها، لدرجة أن إحدى مشربيات الدرازين القريبة من الدَّرج قد سقطتُ، فارتعتُ لذلك، ورأيتُ الكأس البلوريَّة المركوزة فوق فم الخابية قد سقطتُ هي الأخرى وتحطَّمتُ، فارتعتُ أكثر؛ كان صوتُ تحطُّمها حاداً، حتَّى شعرتُ أن رُجاجها جرح قلبي، ثمَّ بقيتُ على تلك الحال مُمسِكاً بالدرازين، حتَّى رأيتُ أن الأمور قد هدأتُ تماماً، فمضيتُ إلى أوَّل الرِّواق وقد انتعلتُ حذاءً سميكاً، فكنستُ الرِّجاج المكسور، وأتيتُ بكأس معدنيَّة، فمددتها في الخابية فوجدتها خالية، ليس فيها قطرة ماءٍ واحدة، فتعجَّبتُ لذلك، فلقد اعتدتُ ألا يمرُّ يومٌ دون أن أملاها، ولكن يبدو أنني مع زحمة الأحداث قد نسيتُ.

أوقدتُ مشعلاً جديداً، وأخذته بين يديّ، وهبطتُ به الدَّرجات، لا أدري ما الذي دفعني أن أسير باتجاه الإسطبل، تراءى الأبلق لي من بعيدٍ على ضوء المشعل، وقد لمعتُ عيناه، سهل، فرحتُ بصوته، في وسط هذا الجوّ المشحون بالغرانب، أسرعْتُ الخُطأ، علقْتُ المشعل على باب الإسطبل، فتحتُ بابه النَّصفيّ، ومددتُ ذراعِي على اتساعهما، واعتنقتُ الأبلق طويلاً وأمواجٍ من الطَّمأينية تملأ روعي الخائفة... كان أذان الفجر يرتفع من مسجد الصَّالحي، فازدادتُ روعي طَّمأينية، في الأذان راحةً لا يُمكن التَّنَبُّو بسرِّها. “

” (٧)

لا يكونُ نُقصانٌ إلا بعدَ تمام

قبل أن تُشرق الشمس، ركبتُ الأبلق، وطرقتُ إلى قرافة الشَّافعي لألتقي بدرية، لم أصبر أكثر من هذا، ثمَّ إنني خفتُ أن تخرج من الثَّربة لبعض شأنها فلا أجدها، ولديّ كلامٌ كثيرٌ لأقوله لها، وعندني أسئلةٌ أكثر، وأشعر أنَّه لا أحدٌ يُمكنه أن يُجيبني عنها أفضلَ منها.

عندما هبطت الدرجات إلى الغرفة التي ينامون فيها، رأيت ماريّة، وهي تغسل وجه كرم، وتفرك له رأسه، الأخت الكبيرة أمّ ثانية، كانت خيوط الشمس تتسلّل عبر حوائط القبور وأشجار القرافة فتعطي بعض الأمان، وكان صباحاً رائقاً بديعاً مثل أيّ صباح يصنعه الله دون أن يكون للإنسان تدخّل فيه. رأيت ماريّة أهبط الدرجات فابتسمت، ثمّ إنّه نادى على أمّها: «مولانا قادم يا أمي». فانتبه إليّ الطفل، وما إن رأني حتى ضحك وكركر، وحاول الإفلات من بين يدي أخته لكي يركض نحوي، لكنّها قالت له: «حتى أنهى لك الغسيل يا كرم». ومدّ هو صوته: «من يُعيق عصفوراً يدخل الجنة». فضحك حتى سُمع صوت ضحكتي، وأردفت: «سأشتري لك مئة عصفور هذه المرّة».

كنت قد أتممت هبوط الدرجات وصار باب الغرفة عن يميني، حين برزت دُرية من الداخل، وهي تعقد شالها فوق رأسها، وتربطه على عاتقها خلف عنقها، وتنظر إليّ بعينين سرعان ما جعلتاني أضرب، سرّت فيّ رعدة لا أدري مصدرها، أنا الذي كنت أضحك من قليل قبل أن تُطلّ من داخل الغرفة، كذب ما أجسّ به، وهتفت لنفسي: «لست جباناً إلى هذا الحدّ، وليست مخيفة إلى هذا الحدّ لولا... لولا عيناها». لم أكد أنهى هذا الخاطر حتى قذفت سؤالها المُباغت في وجهي: «ما الذي جاء بك؟». أردت أن أقول لها: إنّ الناس تتلاقى بالتحايا، وبالسلام، وبالسؤال عن الأحوال، وإنّ الضيوف يُقدّم لهم الشراب أو الطعام، قبل أن يُواجهوا سؤالاً سهلاً وصعباً في الآن نفسه مثل سؤالها هذا، لكنّها لم تمهل خواطري هذه كثيراً على عاداتها، فقذفت السؤال في وجهي من جديد: «لماذا أنت هنا في مثل هذه الساعة من الصباح؟». فكرت في إجابة مُقنعة، غير أنّ الإجابات تهرب حين تبحث عنها، ذلك يحدث كثيراً، بحث أكثر، عن أيّ إجابة مهما تكن، فقلت: «جئت لأتعرّف على مزيد من قبور الأموات الأحياء». قالت دون أن تتردّد وهي تنظر في عينيّ: «تكذب». من جديد تطعنني، أخذت شهيقاً عميقاً لكي أعوض الهواء الذي سحبته كلمتها الأخيرة، وقلت: «أنا لا أكذب». ردّت: «أنا أعرف أنّك تكذب، وأنت تعرف أنّي أعرف أنّك تكذب». شعرت بالإهانة فعلاً، أردت أن... لا أدري ماذا أردت، ربّما أن أعود من حيث أتيت، أو ألعن الحاجة إلى امرأة مثلهما، أو أن أفعل شيئاً، لكنّها على عاداتها لم تتركني كثيراً مع أفكارني، إذ قالت: «إنّ للكذب فأراً صغيراً يقضم حدقة العين؛ فكلماً همّ الإنسان بالكذب تصغر، فإذا كذب تصغر أكثر، وأنا رأيت عينيك كأصغر ما تكونان». أقررت بقولها وأنا أنظر في الأرض صامتاً، قالت: «الآن قل لي ما الذي أخرجك من بيتك يا عبد اللطيف..؟». قلت: «أردت أن أتحدّث معك عن...». أكملت هي كأنها تعرف كلّ شيء: «عن الهزّات التي حدثت ليلة أمس». هتفت: «تماماً». نظرت في عينيّ بصرامة، كنت بينها وبين الشمس فلم تصل إلى عينيها أشعتها مباشرة، وكان جدار من خلفها يُلقِي عليها بعض الظلال، فبدت عيناها تتقاسمان الصقر والدّنب معاً، وكان لونهما هذا المخلوط بين الأصفر والرّماديّ أرحم من اللون الصّافي منهما، قالت وهي لا تزال تنظر إليّ تلك النظرة: «إنّها البداية يا عبد اللطيف». سألتها: «البداية؟». ردّت: «أعني الهزّة، وإنّ هذا سوف يستمرّ ثلاثين شهراً». «ثلاثين شهراً؟». «الغلاء والوباء والموت». ورجفت، ونظرت إلى ماريّة وكانت قد أتمت حَمَام الصّغير، وأشارت لها أمّه، فدخلت إلى الغرفة لكي تُلبسه، ومشت الأمّ فمشيت خلفها، حتى إذا صرنا في القرافة عند أوّل القبور، قالت: «اسمع يا عبد اللطيف...»، فشعرت في تلك اللحظة أنّ جسدي كلّ قد تحوّل إلى أذنٍ تريد أن تسمع. فتابعته: «لقد كان في مصر من المساجد ستّة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوک، وألف ومئة وسبعون حَمَاماً، ولقد شهدت وأنا صغيرة حَمَام القرافة هذه، فما كان يتوصّل إليه إلا بعد عناءٍ شديدٍ لكثرة الرّحام...» ثمّ كأنها أرادت أن تقول شيئاً فصمتت، ولم أدر ما معنى ما قالت، أو ما علاقته بالهزّة، أو بالثلاثين شهراً! فاستدارت بعد أن كانت تُعطيني ظهرها فجأة نحوي، وسألت: «في أيّ عام نحن؟». فرددت مستغرباً: «عام ٥٩٧ للهجرة». «فأين نحن منها؟». «في وسطها؟». فبرقت عيناها، وقالت: «ففي تمام ٦٠٠ للهجرة يتمّ كلّ شيء». فسألت بشيءٍ من الضيق: «إنّك تتكلّمين بالألغاز».

فردّت: «بالطبع، عند من لا يدري». فمضت عاندة إلى غرفتها، وأنا أتبعها مُنقاداً خلفها، فلما وصلت قريباً من الباب التفتت إليّ، وقالت: «وسيكون زوالهم سريعاً». فسألتها: «من هؤلاء؟». فقالت: «بنو أيّوب». فاستغربت ممّا قالت على أشدّ ما يكون الاستغراب، وقلت مُنكرًا قولها: «إنّ هذا من الشيطان، وأنت ترين ملك بني أيّوب اليوم على أتمّ ما يكون». فردّت: «لا يكون نقصان إلا بعد تمام»، فقلت: «وكيف عرفت؟». قالت: «إذا نزل رُحل بُرج الجوزاء عزّت الأقوات في مصر، وقلّ أغنياؤهم، وكثُر فقراؤهم، ويكون الموت فيهم». فهممت أن أقول لها: «كذب المُنجّمون ولو صدّقوا». لكنني صمت. وحاولت أن أخطئ نبوءتها، فقلت مُستدرّكاً: «انظري إلى القاهرة اليوم؛ إنّ ملك الأيوبيين فيها عالي السّمك والسّناء». فردّت: «لقد صنعه لهم صلاح الدين، أما وقد مات، فإنّ ملكهم إلى زوال». فسألتها: «وكيف يكون ذلك». فرجعت خُطوتين إلى الورا، وتناولت كيزاناً فضربت بعضها ببعض فانكسرت، وقالت: «هكذا؛ يهجم عليهم عدو من خارجهم فيهلكهم».

لم أستطع أن أسمع أكثر من هذا، كان لا بُدَّ أن تتوقف هذه النبوءات، لويث طرف رداي، قلتُ لها: «أراك قريباً». ومضيتُ، لم أكد أصعد الدرجة الأولى، حتى جاءني سؤالها: «مِمَّ تخاف؟». «مِمَّ سيأتي». «لا تخف ما لم تُفَنِّ». ومضيتُ.

قضيتُ نهاري ذلك، وأنا في ضياع بين ما رأيثُ من أمر الزلزلة في تلك الليلة، وبين ما سمعتُ من درية، لا بُدَّ أن في الغيب ما لا نعرف، ولا ندرك خيره من شره، وإن كثرة التفكير فيه لتثور الوهن، وإن انتظار الشر شر من الشر نفسه، وإن ترك المقادير تجري في أعنتها خير من الإمساك بتلك الأعنة ومحاولة جرّها أو فهمها، فإن بعض المقادير لا يجري معها الفهم، ولا ينبغي معها إلا التسليم.

وشعرتُ بحاجة إلى خلوة بعيدة عن التدريس في مسجد الصالحى، أو متابعة المرضى مع المساعدين في الليمارستان، فركبتُ الأبلق ذات مساء، ومضيتُ به إلى الأهرامات، فلما تراءت لي تراءت لي ضالتي معها، فشعرتُ أنني ذرة من رمال هذه البيداء الفسيحة، وأتني غائصٌ فيها عن قريب.

لم يكن قريباً من الأهرامات أحدٌ، كان الليل قد غطى الرمال والدور البعيدة والقرى الأبعد، فلم بين شيء، إلا بعض أضواء القاهرة تتراقص مشاعلها في أسواقها من مسافاتٍ متطاولة. كان السكون سيد الوقت، وكان الهواء عليلاً، فأطرقْتُ أصغي لحديث النفس، وكان القمر في تلك الليلة قد اكتمل، وكان يقف من موضعي هذا على قمة الهرم الأكبر، فبدا تاجاً يُرصع رأسه، وكانت إلى جانب الهرم عن يساره نخلة عالية قد بدت قزماً على جصاني عندها، وبدت أشد قزامة إلى الهرم العالي، ولقد وجدتُ من الخشوع في حضرة الغابرين ما زادني إيماناً بعظمة ما أعطاهم الله إلى ما أعطانا، ولا أدري إن كانت القصور في القساطر والقاهرة ستصمد مثلما صمدت هذه القبور؟!!

ثم نزلتُ عن الأبلق، وتركتُ عنانه يجر على الأرض، ومضيتُ في تأملاتي، وأنا لا أزال أنظر إلى القمر يتحول شيئاً فشيئاً عن قمة الهرم، وهو يسقط في الأفق البعيد حتى يصير على الأرض كأنه بين قدميه، ثم إنني رأيثُ الأبلق في هدوء الليل يمضي مُبتعداً، فناديتُهُ فلم يسمع، فقمْتُ أتبعه، فأمسكتُ بِلجامه أريد أن أقوده، فهز رأسه هزاتٍ شديدة حتى أفلت اللجام، فعرفتُ ما يريد، فمشى، فمشيتُ خلفه، وظلّ ماشياً وأنا أتبعه، حتى دخل بي إلى البرابي، كانت الأهرامات الثلاثة قد صارت بعيدة، بعيدة إلى الحد الذي فقدتُ فيها نصف حجمها، فلما دخلتُ بعضها عبرتني أرواح من سكنوها فشعرتُ بالرهبة، ثم طلبتُ من الأبلق أن ينتظرنى أمام الباب، فأطاعني هذه المرة، وأخذتُ أقدامى تسير، فما إن ولجتُ البرية الأولى، حتى رأيثُ المشاعل تُضاء وحدها في الداخل، فجفنتُ أول الأمر، ثم اطمأننتُ، كأن المشاعل أضيئت من أجلي، فعبرتُ، فسمعتُ صوتاً يقول: «لا يغرّك لين الأفعى، فإنما السم في نابها»، فالتفتُ فلم أرَ أحداً، غير أنني رغم وحدتي لم أشعر بالخوف، وتساءلتُ من تكون هذه الأفعى؟ فمضيتُ، فسمعتُ صوتاً جديداً يقول: «إن الثور يخلع الباب، ولكناك تحتاج إلى نجارٍ ماهرٍ لإصلاحه». فسمعتُ صوت انخلاع الباب يرن في سكون البرية، فشجعتُ نفسي رغم ما أنا فيه ومضيتُ، فسمعتُ صوتاً يقول: «سهم الظالم يرتد إلى صدره»، فهزرتُ رأسي ومضيتُ حطواتٍ أخرى، فكان الصوت السابق امتد إلى قوله: «وإن بناء المستبد لينهدم فوق رأسه»، وبقيتُ أمشي، وأنا أرى فوق الجدران على ضوء المشاعل التي تُضاء وحدها كلما توغلتُ أكثر كتاباتٍ باللغة القديمة التي لا يفهمها أحدٌ، وشعرتُ أن هذا الصوت كان يقرأ ما كان مكتوباً في اللحظة التي أمر فيها بجانب

تلك الكتابة. ثم إنني أحسستُ أنني امتلأتُ بالحكمة، فخرجتُ، ووجدتُ الأبلق في مكانه، وهو يبحث في الأرض على ما تبقى من النجوم الغائرة، فركبته، وهمزته فطار، ومضينا عائدتين إلى القاهرة. “

وصلت إلى البيت في الثلث الأخير من الليل، لم يبقَ للفجر إلا القليل، قلتُ أصليّ بعض الرّكعات ريثما يصعد المؤدّن سطح المسجد فينادي لصلاة الفجر، دخلتُ غرفتي، فشعرتُ بالتعب، فمنت. ليس في النوم إلى الرّاحة غيرُ الحلم. ما أكثر ما أرى هذه الأيام!

صوت ارتطام قويّ، صخرة بقدر الهرم الأكبر حجماً، تسقط من جبل المُقطّم، وتهوي مثل جرمٍ مُخيفٍ من السّماء، وتتحمّط في الوادي أسفل القلعة، وتتشظى إلى عددٍ لا يُحصَى من الشّظايا، والشّظايا تدخل البيوت، فلم يبقَ بيتٌ إلا دخلته شظيّةٌ أو اثنتان، قمتُ فزعاً، أتفصّد عرقاً، أرتجف، شعرتُ بالبرد الشّديد، سال العرق بارداً على جبهتي، مسحته بطرف يدي، ونظرتُ من النّافذة، وفتفتُ: «حلم؟» سمعتُ سهيل الأبلق في الأسفل، إنّه حلمٌ إذاً، لكنّ الأبلق كان يصهل سهيلاً مُخيفاً هو الآخر، تمنّيتُ أنّ يسكت، فأنا لا ينقصني الرّعب الذي يبثّه صوته في نفسي، أردتُ أنّ أصرخ به: «كفى». ولكنّ الصّوت ذاب في حنجرتي، كأنني فقدتُ القدرة على الكلام، جررتُ رجليّ عن السرير، ووضعتهما على الأرض، إنّ أمرًا ما يجري، ماذا يُمكن أنّ أفعل؟ هل أذهب إلى دُرّية لكي تُفسّر لي كلّ هذا؟ لماذا عليّ أنّ أذهب إليها في كلّ مرّة؟ هل هي عرّافتي أو طبيبتني؟ أنا الطّبيب هنا لا هي؟ لماذا أشعر أنّها تعرف كلّ شيء؟ لماذا تخطر ببالي كلّما وقعتُ مُصيبة أو جرتُ حادثةٌ غريبة؟ رددتُ في سرّي بعض الآيات، ووقفْتُ على قدَمي، كدتُ أسقط، كان لا يزال الأبلق يصهل سهيلاً مجروحاً، كان تفكيري مُشوّشاً، قدّرتُ أنّ هذا الحلم نتيجةٌ طبيعيّةٌ لدخولي إلى البرابي هذه اللّيلة، ولإرهاقي الشّديد، لا بُدّ أنّي عبرتُ موضعاً مُحرمًا، وتجاوزتُ حدّي، بعض الأماكن دخولها لعنة، والخروج منها لعنةٌ أكبر، تذكّرتُ ما قاله الرّسول الأعظم لعبد الله بن مسعود في حادثة الجنّ عندما حطّ له في الأرض خطًا برجله الشّريفة، وقال له: «إيّاك أنّ تعدوه حتّى لا تحترق بهم». هل كنتُ أمام هولٍ كهذا وأنا لا أدري؟

وقفْتُ أعلى الدّرجات، مددتُ الكوز المعدنيّ إلى الخابية، كانت مليئة بالماء هذه المرّة، شربتُ ماءً عذبًا أزاح عني بعض الخوف الذي نشب في ضلوعي، نزلتُ إلى الطّابق الأرضيّ بعد أن شربت، كان الأبلق قد سمع صوت أقدامي فهذا قليلًا، مسح على عنقه، كانت عيناه على ضوء المشعل المركزيّ أمام باب الإسطل تبدوان مُتقدّتين، كأنهما جمرتان، ظللتُ أمسح على عنقه وأحادثه حتّى هدأ تمامًا، وحتّى خبت النّار التي كانت تشتعل في عينيّ، رَفَع عنقه إلى أعلى، سألتُه: «تريدُ الخروج؟». هزّ رأسه، كأنّما كان يريد ذلك، حللتُ رباطه، ووضعْتُ عليه السّرج، وركبته، وخرجتُ، كانت شوارع القاهرة شبه خالية ليس فيها إلا النّزر اليسير من النّاس، بعض العاندين من سوق التّسمّاعين، ربّما أولئك الذين يبحثون عن المُتعة ولا يجدونها إلا في آخر اللّيل، وبعض النّجار أو صبيانهم، وبعض الرّعّار، وآخرون، كثيرةٌ هي المشاعل المُطفأة، وقليلةٌ هي الأقدام السّائرة إلى المساجد، كان بيننا وبين أذان الفجر ساعةٌ أو بعض ساعة.

لم أكن أدري في تلك اللّحظة ما أريد، ولم أكن أعرف إلى أين أسير بالأبلق، أو يسير هو بي، غير أنّنا بقينا ماضيين، دار في خلدي أنّ أذهب إلى الأهرامات، فلويتُ عنق الأبلق شرّقاً، فمضى، لكنّه في عدوه السّريع توقّف، كأنّه لا يريد أن يستمرّ في الطّريق الدّاهية إليها، أردتُ أنّ أسأله، لكنني قبل أن أفعل، كان يمضي بنفسه إلى القلعة، القلعة التي بناها صلاح الدّين ولم يسكنها، كانت في ذلك العهد ما تزال غير مسكونةٍ مع أنّ أخاه العادل يحكم الدّولة اليوم، لم يكن على أبوابها الكثيرة حرسٌ كثيرٌ، دخل الأبلق من أحد تلك الأبواب، وظلّ يصعد ساحاتها المرصوفة، ودرجاتها، حتّى وقفنا على الرّواية التي تُرى منها القاهرة بأكملها. بقيتُ فوق الأبلق، أنظر في البعيد نحو مساكن القاهرة وحدائقها وقصورها وشوارعها وأحيائها، كانت غارقةً في النوم، مُنطفئةً حيّ كأنّ المشاعل القليلة المتبقية في بعض أزقتها تبدو مثل روح

هاربة من جسدٍ يواجه الموت في لحظاته الأخيرة، نزلت عن الأبلق، وجلست على مصطبة، وسرحت في البيوت النائمة، والأفاق البعيدة، فجأة رأيت الصخرة إياها التي رأيتها في المنام تهوي، رجفت، وقفت على قدمي مذعورًا، لا يمكن أن يكون هذا حُلْمًا، إنني في صحو، ليس في ذلك شك، كانت الصخرة لا تزال تهوي، وأنا أرجع دون أن أنظر إلى ما خلفي، فاصطدمت بالأبلق، فتأكدت أنني لا أحلم، فأخذت عنقه بين ذراعي كمن يلوذ به ويحتمي، كانت الصخرة قد سقطت على البيوت، وتناثر قطعا، فتهدم تحتها كل شيء، وتوزعت تلك القطع الصغيرة حتى نقرت جدران البيوت البعيدة، وحُيِل إلي من هينتها أنها طيور تملأ السماء، وأن بعضها سيدخل في

عينَي، فاحتميت منها بالنكوص إلى ظهر الأبلق، واختبأت خلفه، كان لا يزال صوت الدوي يترجرج في أذني، عندما سمعت من مسجد القلعة المؤذن يُنادي لصلاة الفجر، فهذا صوت الدوي، وانسحب لصالح الأذان، استدثت من خلف الأبلق، ونظرت شيئًا فشيئًا، وأنا أمد جزءًا من رأسي لأرى ما حدث للصخرة، فما وجدت غير أضواء هزيلة من المشاعل والقناديل، تتراقص على ما تبقى فيها من حياة، فهذأت، غير أن ذلك زادني خوفًا مما يحدث لي، إنني أرى ما ليس موجودًا، صمت قليلًا قبل أن أسأل نفسي: ولماذا لا أكون أرى ما سيحدث؟ وخطرت ببالي زرقاء اليمامة في عصرنا؛ درية، وتمنييت على عادتي أن أفق بين يديها وأسألها عما يجري، إنها نائمة بين القبور. نائمة؟ من يدري!؟

صليت في المسجد القريب، كان التلاميذ ينتظرونني في مسجد الصالح في درس النحو، (سعد) ابن البقال سيقرا علي كتاب اللمع لابن جني، وسياخذ فيه إجازة، وهذا يومه، همزت الأبلق، وطرت به إلى مسجد الصالح لكي أدركه والتلاميذ، فلما دخلت كانوا لا يزالون على هينتهم في انتظاري بعد الصلاة كأنني كنت كل هذا الوقت بين أيديهم.

أنهيت الدرس النحوي، وتفرغت لسعد، وبدأت في اختياره، وقرأ علي دراسته للكتاب، وأعطيته الإجازة في ذلك. كان الضحى قد ارتفع، ولم يبق الكثير إلى صلاة الظهر، شعرت بالتعب، عدت إلى البيت، في الطريق رأيت عددًا لم أراه من قبل من القطط يجوب الشوارع بخطا سريعة، ورأيت كلابًا بأحجام مختلفة وألوان عجيبة تتجه غربًا، كانت تركض وهي تدلق ألسنتها من بين أنيابها وتنبج نباحًا مستمرًا، فيما كانت أدنا كل كلب مُنتصبين فوق رأسي كأنها تُصغي إلى شيء ما، ورأيت عجولًا تعبر الشوارع وقد فكث النير الذي حول رقبتها وراحت تهيم على وجهها، تساءلت من أين يمكن أن تكون قد جاءت يا ثري؟ لم يكن مألوفًا أن ترى عجولًا تسير على هذا النحو في هذه المدينة؟! ثم رأيت ما هو أعجب، كان ذلك قطيعًا من الأثن والحمير، وهي تتناشق، وتمضي مُسرعةً جهة الغرب، تساءلت عن سير أن تمضي الحيوانات كلها إلى تلك الجهة، فلم تخظر ببالي أية إجابة!!

شددت عنان الأبلق لكي أوقفه، فلم يُطعني بسهولة، عندما توقفت نظرت إلى السماء لعلي أرى فيها برقًا أو غيمًا أو شيئًا يدل على قرب هطول مطر، لكنني رأيت السماء صافية، والرياح شبه ساكنة، وشمس الضحى تتوهج، ثم عدلت عن فكرة الرياح وخطأت نفسي، هذا في غير أوانه؛ إذ لا يمكن أن تمطر السماء في شهور الصيف! لكن الغرابية ظلت تنقر هدأة عقلي، مم تهرب هذه الحيوانات كلها؟ ولكن هل تهرب حقًا؟ بالطبع، وإلا لما كانت تخرج من زرائبها وإسبلاها بهذا العدد. إذا كانت العجول تهرب من ظلم أصحابها، فما بال القطط التي لا يملكها أحد، كان صوت مؤانها أشبه بالنواح؛ هل القطط تبكي!؟

حين لا تجد لأسئلتك إجابات، فإن أحسن شيء تفعله، أن تتركها خلف ظهرك، وتحاول أن تغلق الباب عليها تُصارغ نفسها حتى تنتهي، ولا تفتحها إلا على رماها. همزت الحصان، ومضيت باتجاه البيت. أدخلت الأبلق إلى غرفته، وصعدت إلى غرفتي، وغسست في نوم عميق؛ يبدو أنه أعمق مما يجب!!

صحوث على جَلْبَةٍ كبيرةٍ، وصياح شديد، وهيعةٍ أشدّ، كانت الأصوات عاليةً لدرجة أنني لم أكن أسمع هياج الأبلق الذي كان يصله هو الآخر، ويرفع قدَميه في الهواء عاليًا، ويكاد يُحطّم كلَّ شيءٍ من حوله، يبدو أنّه أفلت من عقاله، وكسر الباب التّصفي الذي أمام الإسطبل، وراح يصعد الدّرجات إليّ، هل كان يريد تحذيري ممّا هو قادمٌ أو كائنٌ؟ هل كان يريد إنقاذي؟ كان سهيله على الدّرج قد بات مسموعًا وسط هذه الصّباحات، قمتُ من السرير فرعًا، ركضتُ إلى النّافذة، ألقيتُ من خلالها نظرةً سريعةً على الشّارع والنّاس فرأيتُ عَجَبًا، كان النّاس يتراكمون في الشّوارع، يصدم بعضهم بعضًا، وهم يتصايحون.. نظرتُ إلى ظلّ الشّمس، كان الوقتُ قد اقترب من الزّوال، إنّه العصر أو قريبًا منه، فكّرتُ بالصّلاة، لكنّ صوت الأبلق الذي يبدو أنّه أتمّ صعود الدّرجات كان قد صار أمام باب الغرفة، لم يتمكّن من الدّخول، فخرجتُ إليه، كان يرفع رأسه إلى الأعلى، ترشّخ عيناه رُعبًا، والأحمر الذي في أطراف جفّنيه كان كأنه يسيل دمًا، لم أدر ما يحدث، ولا ماذا أفعل، أحسنُ شيءٍ أن أخرج على ظهر الأبلق لأتأكد ممّا يجري في الخارج، لم ألبس أيّ ثيابٍ غير تلك التي ألبسها للنّوم، ركبتُ الأبلق، وانبطحتُ على ظهره، وراح ينزل الدّرجات وأنا أتقلقل بجسدي الضّئيل النّحيل فوقه، كان رأسي حاسرًا هو الآخر، في أعلى الدّرج رأيتُ الخابية قد انكفأت على وجهها، وانكسر فمها! في السّاحة الأرضية رأيتُ بعض المشريّيات قد سقطتُ من الرّواقات الأربعة في الطّابق

الثّاني، البوابة كانت مفتوحة، المزلاج مكسور، والحجر الذي في وسط التّصف الأيمن من القوس التي تعلوه قد تزحزح من مكانه، الشّجرات التي في السّاحة قد نزلَ عليها بعض الرّكام من السّماء المفتوحة فوقها، كان هذا مدعاةً لمزيد من الخوف، قيل أن أخرج من البوابة الكبيرة على ظهر الأبلق، ثنيتُ عنانه باتجاه عُرف المكتبة، لا بُدّ أن ألقى نظرةً على أئمن ما أملك، من الباب رأيتُ الرّفوف قد انكسر بعضها، وسقطتُ على الأرض بعضُ الكتب، تقدّمتُ قليلًا، ونظرتُ من باب الغرفة الثّانية، كانت الكتب قد تكوّمتُ عددٌ كبيرٌ منها جرّاء السّقوط في أرضية الغرفة، خرج السّؤال من فمي دون أن أشعر: «ما الذي يحدثُ يا دُرّيّة؟».

لويثُ عنان الحصان، وهمزته بخوفٍ وغضبٍ معًا، فطار بي، في الشّارع لم أستطع أن أعدو بالحصان كما يحلو لي، رأيتُ الهياج يملأ الشّارع، كاد الحصان أن يوقع بعض الرّاكضين اللّاهثين، رأيتُ بعض النّاس يحملون بين أيديهم بعض الأمتعة، الصّحون، الطّعام، الثّياب، وأشياء أخرى لا يُمكن معرفتها وسط هذه الفوضى... ما الذي يجري يا دُرّيّة؟ لا بُدّ أنك أكثرُ مَنْ يعرف؟ ولكنّ ليست الوحيدة التي تعرف؟ أنا أعرف أيضًا؛ إنّه زلزالٌ شديدٌ، ضرب كلَّ هذا... نشر الزّلال دُعرًا كبيرًا بين النّاس، مشى في أفئدتهم فنقبها، وفي أرجلهم فحرّكها في البحث عن نجاة.

توجّهتُ نحو باب زويلة، أريد أن أرى ما يحدثُ للنّاس في السّوق، كان النّاس يخرجون أفواجًا وهم يركضون ركض الحُمُر المُستنفرة التي فرّت من قسورة، كان باب السّوق ينحسر بالهاربين، وهم يتخلّصون، ويتخبّطون، كان بعضهم أقوى في الجسد من سواه، فيزحمُ الأقوى الأضعف فيلقيه على الأرض، فتدوسه الأقدام، و... يختنق، أو يموت، النّاس تُهرع في كلّ اتجاه، تهربُ إلى الحياة فرارًا من الموت، الموتُ يختبئ في الهدم والرّدم، الزّلال يهدم البيوت والأبنية والمساكن والدّور على النّاس، في السّوق لماذا تهرب النّاس؟ الحوانيت هي التي تداعتُ أمام ضربات الزّلال فتقوّضتُ.

رأيتُ أصحاب الحوانيت والدّكاكين، يتركون بضاعتهم ويهربون، يهربون دون أن يُفكّروا في إغلاق تلك الحوانيت، أو حماية ما فيها، رأيتُ صدقي اللّحام بشاربيه، يُمسكُ ثيابه بإحدى يديه، ويركض، كان شارباه يهتزان تحت اهتزاز أقدامه المذعورة، ورأيتُ السّمّان الأحول يبذلُ جهده في الرّكض، لكنّ كرشه تمنعه من الحركة السّريعة، وهو يُطيح بيديه يمينًا وشمالًا، تُوقعان في ذلك التّطويح كلّ مرّة أحدًا، أو تلمحه على وجهه أو صدره... ورأيتُ الفاكهانيّ وهو يُهرول هو الآخر خارجًا من الباب، ومن هنا بدتُ فاكهته التي تركها خلفه، وقد انقلبتُ بعضُ صناديقها وراحتُ تتدحرج بين الأقدام الكثيرة التي تهرسها تحتها. كان الأبلق، يصله سهيلًا شجبيًا فيه صَحْلَةٌ وغلظةٌ وخوفٌ ودُعرٌ، وكانت قدماه لا تستطيعان الرّكض بحريّة، فيجرّ الأرض من تحت حافريه وهو يصيح كلّما اعترضه شيء، ووجدتُ نفسي أعيّد السّؤال من جديد:

«ما الذي يحدث يا درّية؟». وسمعتُ صوتها القديم هذه المرّة وهي تردّ: «إنّها البداية يا عبد اللّطيف... إنّها البداية يا مولانا...!!».

” (٩)

نَحْنُ نَنْسَاوِي أَمَامَ الْخَوْفِ

«إنّ الجبل الساقطُ يَنْتَثِرُ، والصّخر يُرْحَزُخُ من مكانه. الحجارة تُبْلِيهَا المِياه وتجرُفُ سيولها تُرابَ الأرض».

هربَ النَّاسُ إلى السّاحات، كانت تلك الهزّة التي وقعت وقت الظّهر هي البداية لسلسلةٍ من الهزّات، لم يعد أحدٌ يعدّها بعد أن كُثرت ولا يدري متى تتوقّف، بدأ النَّاسُ يتركون بيوتهم، لم يعد بيتٌ واحدٌ أميناً على أهله، يبدو أنّ هذه الزلّزلة تمتدّ عبر أراضٍ شاسعة، ربّما تصل إلى بلدانٍ مُجاورة، حلب، ودمشق، والقدس، لستُ أدري إنّ كُنّا قريبيين من مركزها في القاهرة، أو على محيط دائرتها، لكننا قطعاً لسنا في المركز، فلو كُنّا كذلك، لَمَا بقي من الدّور والقصور حجراً فوق حجر، ولن تسلم من ذلك إلا القبور، هذا إنّ سلّمنا!

كانت البيوت ترجفُ، كأنّها قطعةٌ من ورقٍ يزحفُ فوق ورقةٍ أخرى، كانت قشرة الأرض صفائح تموج، وبموج فوقها كلّ ما هو فوقها من البشر والشجر والحجر، ظلّ النَّاسُ في البداية يأملون أنّ تهدأ زلّزلة الظّهر، وقد هدأت بالفعل، بعد أن نشرت ذعراً كبيراً، ومع أنّ النَّاسَ اطمأنّوا قليلاً حينما وجدوا الأرض قد ثبتت من تحتهم ولم تعد تتحرّك، إلا أنّ اطمئنّانهم ظلّ ناقصاً، ظلّ مشوّباً بالخوف الذي يجرح تلك الطمأنينة، وليس أفسى من طمأنينةٍ مجروحةٍ على قومٍ مُجربين، وقد ظلّوا يترقّبون أنّ تحدث هزّة أخرى، كان الترقّب في حدّ ذاته مخيفاً أكثر من الهزّة نفسها، إنّه لا يُريحك أبداً، فالنّاس من حدّر الخوف في خوف، وظلّوا يُراوحوّن في أماكنهم، تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت، ينظرون من طرفٍ خفيّ، ولا أحدٌ يستطيع أن يتكلّم في الأمر، فإنّ عدداً منهم، ظنّ أنّ الحديث عن الكارثة يجلب الكارثة، وإذا فليصمتوا عن أحاسيسهم الرّاحة خيرٌ من أن يبوحوا بها، ومن سكت سلّم.

ويبدو أنّهم كانوا في تلك الأمور على حقّ، إذ لم يكد المساء يهبط، والشّمس تسحبُ ذبولها على مآذن القاهرة، وتصبغ حُمرتها الواهنة على جدران أسواقها، وتُعادر ببطء، حتّى حدثت هزّة جديدة، ويبدو أنّ الهزّات تتصاعدُ في جدتها مع كلّ مرّة تنوي فيها أن تزورنا هنا، على الأقلّ في القاهرة، فلا ندري ما حلّ بالأرياف، ولا بالأنحاء، ولا بجنوب البلاد أو شمالها!!

ومن جديد، برزت في خاطري دُرية، وتساءلت: أين أنت يا درّية من كلّ هذا؟ وفكرتُ أنّ أركب الأبلق إليها، لعلني أجدُ عندها ما يُطفئ ظمئي إلى ما يحدث، إنّها أكثر من مجرد عرّافة، لا أدري ما تكون، وجهلي بما تكون عليه هو الذي يجعل من ظهورها في خاطري أمراً محسوماً ومحتوماً.

رَجَبَتِ الأَرْضُ، فصاح كلٌّ مَنْ في القاهرة صيحةً واحدةً، كأنَّ لهم فَمَا واجدًا، وذعرًا واجدًا، وحينَ كانتِ الأَرْضُ ترتجُّ بصوتِ الزلازلِ، كان فُضاء القاهرة يرتجُّ بصوتِ الضَّارِّعينِ إلى الله... ثُمَّ حينَ سكنتُ ضراعاتهم، ارتجبتِ الأَرْضُ من جديدٍ، وبدأ الهدمُ، فسقطتِ أوَّل ما سقطتِ الشَّرَفاتِ الممدودة في الطَّوابقِ، ثُمَّ سقطتِ جِدارَةُ البيوتِ، ثُمَّ سقطتِ الأعمدة في الشُّوارعِ، ثُمَّ توالَتِ السَّقَطاتُ، حتَّى بدأ أن كلَّ حجرٍ مَقامٍ فوقَ حجرٍ فارَقَ صاحبه، كان كلُّ شيءٍ يَميدٌ، كأنَّ البيوتِ رُكِبَتْ على زئبقٍ، فهي تترجرج وتتلجج، وكان كلُّ عمودٍ يحمل المصابيح يتراقص كأنَّه بهلوانٌ، ثُمَّ تنقصف رجله أو رأسه فيسقط، وكان صوتُ السَّقَطاتِ يُعْطِي على كلِّ صوتٍ، كان يبدو أن الأَرْضَ قد فُجِّرَتْ من أركانها، وكان اللَّيْلُ قد أتمَّ هُبُوطه، فزادَ الظَّلامُ من رعب النَّاسِ، وانطفأتِ المشاعلُ التي في الأسواقِ بسببِ تلكِ الرَّجَّاتِ، فغرقتِ القاهرة في الظَّلامِ، ولم يكنْ يُسمَعُ أعلى من صوتِ الرَّدَمِ... دُم... دُم... دُم... كلُّ شيءٍ يتهاوَى، كانتِ العَبْرَةُ تُشكِّلُ بعد كلِّ سقوطِ بيتٍ أو بناءٍ غيمةً كثيفةً في السَّمَاءِ تعلو في الفضاءِ، وتتعاظَمُ، وهي تقذفُ ببعضِ الحجارةِ من باطنها، هل الحجارة تحت الضَّغَطِ تتفجَّرُ؟!!

كان نشيج الأبلق لا يُطاق، اعتليته على وجه السرعة وانطلقتُ، أردتُ أن أذهبَ إلى قِرافة الشَّافعي حيثُ دُرِّيَّة، أعرفُ عن الزلازلِ أكبرَ منها بالطَّبْعِ، لكنني وجدتُ نفسي أهرُبُ إليها، شيءٌ ما لديها لا يتعلَّقُ بالعلمِ يجعلني دائمَ التَّفكيرِ بها، مُنجذِبًا نحوها، في الطَّرِيقِ كان الرَّدَمُ قد بدأ يُعْطِي الشُّوارعِ، ما زال الأبلق قادرًا على أن يمرَّ من بين الحجارة المترامية. بدأتُ أشاهدُ بعضَ الجرحى، كانوا يركضون إلى المصحَّاتِ، ويهرولون إلى المساجدِ، البيمارستانِ بعيدًا من هنا، عليهم أن يجدوا بعضَ المُسعفينِ في المصحَّاتِ القريبة، لم أخذ احتياطاتي من المراهم والقماش الأبيض، والجبانر، من أجل أن أسعفَ بعضهم، كان الذَّهولُ يُسيطر على الجميع، علينا أن نعترف أن الإنسانَ خُلِقَ ضعيفًا، هزَّة واحدةٌ مثل هذه تُغيِّرُ نظرته إلى الكونِ ألفَ سنة، وتُعيد تفكيره في كلِّ شيءٍ، وتجعل مِمَّا كان يتنمَّرُ منه نعمةً، كم هاربٍ الآنَ يتمنَّى لو أن هذا الكابوس

ينتهي؟!!

في الشَّارعِ الذي أعبره على الأبلق، محاولاً ألا أسقطَ عنها ماضيًا إلى القِرافة رأيتُ أحدهم يركضُ خارجًا من البيتِ، سقطتِ عليه مشربية الشَّرَفَةِ، فخرج أوَّل الأمرِ وعرجتُ معه صرخته، ثُمَّ سقطتِ عليه مشربية أخرى فوقَ على الأَرْضِ، وقد ارتطم وجهه بالشَّارعِ فتهشَّم فَكَّه، واختلطَ دمه في فمه مع التُّرابِ، زحفَ بما تبقى له من حياة، ولكنَّ مشربية ثالثة سقطتِ مثل قدرٍ محتومٍ وأخمدتُ حركته إلى الأبد. ركضتُ إليه، وأنا أحاذر أن يقع عليّ مزيدٌ من المشربياتِ، كانتِ عيناه جاحظتين، ويداه ممدودتين إلى الأمامِ، ورأسه قد هُشَّم بالكامل تحتِ الحجارة الثَّقيلة حتَّى سالَ دماغه على الأَرْضِ. خلعتُ ردائي، وغطيته به، كنتُ أودُّ أن أحمله إلى أيِّ مأوى من أجل ألا تبقى جُثته في الشَّارعِ، أيِّ مأوى آمنٌ الآن؟! ثُمَّ إنَّ الرَّدَمَ لم يُمكنني من سحبه، كان ثُلثًا جسده يرزح تحته!

كان الظَّلامُ يسحبُ ثوبه الثَّقيلَ على كلِّ شيءٍ، كان يتنافس مع الموتِ في علوقه بالأحياءِ، كان عددٌ كبيرٌ منهم يحمل المشاعلِ المُضاءة ويهربُ باتجاه السَّاحاتِ الفسيحة بعيدًا عن الأبينة المُتداعية والبيوتِ المُتهاوية. فصَّ أحد الجوامع التي مررتُ بها سقطَ أمامي، لم يكنْ بالإمكانِ التَّفكيرِ في الاستعانة بالنَّاسِ من أجلِ إعادته، بعضُ الأفكارِ تبدو في المصائبِ بلهاء، هناك ما هو أهمُّ منها بكثيرٍ. مضيئٌ في طريقي بين الرِّجالِ المذعورين والنِّساءِ والأطفالِ، والمشاعلِ المُضاءة والصِّباحاتِ ماضيًا جهة الجنوبِ من القاهرة لأصل إلى القِرافة، كنتُ خائفًا كالآخرين، المعرفة وحدها لا تحمي من القلقِ، نحن نتساوى أمام الخوفِ، أولئك الذين يعرفونه أو يجهلونهُ أو يحملونه في قلوبهم أو يركلونه بأرجلهم، جميعنا أمام الخوفِ سواء، هل تراني أجاهدُ للوصول إلى درِّيَّة من أجل أن أنشدَ عندها بعضَ الأمان؟! أفي هذه الطُّروف؟! أيِّ مجنونٍ أنا؟!!

سمعتُ من خلفي صوتًا يصيح: «اخرجوا إلى السّاحات أو إلى الأرباض». كان الصّائح يركبُ حصانًا أدهم، صوته ليس غريبًا، مَنْ يكون يا ترى؟ التفتُ نحوه، فإذا هو مُساعدي الطّبيّ (سالم)، إنّه سيُصبح طبيبًا عمّا قريب، بينه وبين الدّرجة خطوةً واحدةً، لولا الهزّة العنيفة هذه لكان بين يدي صباح غدٍ أختبره من أجل أن يُصبح طبيبًا مُسعفًا. صحتُ: «سالم!». انتبه إليّ، عرفني من ضالّة جسدي، لم يكن الظلام ليُعيّنه على معرفتي لأوّل وهلة، صاح: «الأستاذ». ترجّل عن حصانه، وقاده خلقه، وترجّل عن حصاني، واعتنقته، شعرتُ برغبةٍ كبيرةٍ في البكاء، معرفة أحدهم في وسط المُصيبية له قدرةٌ عجيبةٌ على التّخفيف من وطأتها. هتفتُ: «ما الذي جاء بك؟». ردّ: «الواجب». «الواجب؟». «علينا أن نُساعِد هؤلاء النّاس، كثيرٌ منهم يحتاج إلى رعايةٍ، الجرحى بالمئات يا سيّدي... ما العمل؟». قلتُ له: «ادعهم، أعني ما استطعت منهم أن يتجمّعوا في تلك السّاحة، إنّه الأبعد عن الأبنية، ولم يصلها من الرّدم إلّا قليلٌ من الشّظايا... الهزّة الآن قد تقلّصت، وأعتقد أنّنا نقدر على أن نُساعدهم...». «على الفور يا سيّدي... ولكنّ ليس لدينا ما يلزم من الأدوات الطّبيّة». «قليلٌ منها يكفي، إنّهم بحاجةٍ إلى كلماتنا نحن الأطبّاء في هذه الحالة أكثر من أدويتنا، إنّهم مصدومون من وقّع الزلزال أكثر من كونهم مُصابين» هزّ رأسه، وأردفتُ: «يُمكنني أن أذهب إلى البيمارستان وأتي ببعض الأدوية، أمّا أنت فاختر ثلاثة أو أربعة ممّن تعرف لِيُساعِدوك إلى إرشاد النّاس إلى السّاحة... ساحة العزيز، تلك...» هزّ رأسه مُوافقًا، فيما انطلقتُ أنا بأسرع ما يُمكنني إلى البيمارستان، لم يكفّ عقلي طوَال الطّريق عن التّفكير بدريّة وبنيتها، شغلاني حتّى كادا بصرفانني عن الدّهاب إلى البيمارستان، وثنيثُ عنان الأبلق أكثر من مرّة تُجاه القرافة لكّته كان يعرفُ الواجب أكثر منّي، فلم يُطعني، وظلّ ماضيًا إلى البيمارستان كأنّه سمع الحديث الذي دار بيننا، وحدّد وجهته فلم يحدّ عنها.

وصلتُ إلى البيمارستان، كان يضيقُ بالنّاس ويموج بهم عن بكرة أبيه، قبل أن أصله بمئات الأذرع رأيتُ النّاس يقصدونه، عندما تبيّنوا وجهي على بابهِ، تعلقُ بي العشرات رجاءً أن أدوي جراحهم، تخلّصتُ من كلّ ذراع تشبّثتُ بي، وطمأنته بأنني سأفعل أنا أو أحد الأطبّاء، وشققتُ الجموع حتّى وصلتُ إلى خزّانة الأدوية، مررتُ من بين الجموع، ودخلتُ الباب، كان القيم عليها يعرفني، سألتني إن كنتُ سأتولّى مهمّة علاج النّاس هنا، فسألته بدوري عن عدد الأطبّاء المُقيمين؟ فقال إنّهم عشرون، فقلتُ فيهم كفاية، إذا كنتم تستغنون عن اثنين أو ثلاثة ليذهبوا معي إلى ساحة العزيز، فإنّ فيها عددًا ينتظر من الجرحى، وبعضهم جراحه غائرة.

ردّ إنّه لا يستطيع أن يُخاطبهم بذلك، وأنّ عليّ أنا أن أخاطبهم إن أردتُ، حملتُ ما استطعتُ من الأدوية، كانت الخزّانة فيها فائضٌ جيّد، وتخلّصتُ من النّاس بصعوبة، وكنتُ أقول: «إنّ الأطبّاء ينتظرونكم في الدّاخل»، ومضيثُ شاقًا طريقي إلى السّاحة، كان يبدو أنّ القاهرة كلّها قد نفرتُ من بيوتها جرّاء الزلّزلة، وتجمّعتُ في السّاحات، كلّ مجموعةٍ في السّاحة القريبة من حيّها، ولا بُدّ أنّ في كلّ حيٍّ من يتعهّد أهله بالمداواة من أطبّائه!

تلقّاني (سالم)، كان معه عددٌ من المتطوّعين، هتف: «الوقتُ مهم يا سيّدي، إنّ بين نجاة أحدهم وموته لَحظَات، علينا أن نُسارع». على وجه السّرعة علّمتُ أنا وسالم المتطوّعين أساليب المُداواة، وتنظيف الجروح، وتعقيمها، وكيفية إعطاء الجرحى الأدوية المُسكّنة، وبدأنا العمل... كُنّا نعمل دون توقّف، كان بعضُ الجرحى يكتفي بالنّظرة، وبعضهم بالمسح مرّة واحدةً على الجرح، إنّ للكلام تأثير السّحر على مَنْ يسمعه إذا قيل في موضعه الصّحيح. كان مرضُ الرّعب هو أكثر ما أصاب هذه النفوس المُلتاعة... قضينا الوقت كلّهُ في الطّباية... عندما انتصف اللّيل بدأت القاهرة تستعيدُ أنفاسها، كانت الزلّزلة قد توقّفت منذ زمنٍ، وكانت النفوس قد هدأت، ومع أنّ الدّموع كانت تنساب على خدود أولئك الذين جلسوا ساهمين، وهم يُفكّرون فيما حصل لأحبّائهم، أو لممتلكاتهم، إلّا أنّ بعض الرّاحة من المصيبة يبدو نعمةً تستحقّ الشّكر.

بات أهل القاهرة ليلتهم في السّاحات، كانت جماعاتٌ منهم تكي، وأخرى تتوسّل، وثالثة تصمت، ورابعةٌ تقوم بين يدي ربّها تدعو، رأيتُ جماعةً وقفوا في زاوية السّاحة يصلّون، ويمدّون أكفّ الضّراعة إلى ربّهم، عندما انتهوا من الصلاة،

فأمّ بينهم خطيب، قرأ سورة الزلزلة، وكان أول ما قاله بعدها: «إنّ هذا عذابٌ من الله، وعلينا أن...» فقاطعه، وهتفت بصوت عالٍ: «بل هي رحمةٌ من الله». وهاج الناس بيني وبينه، فأخذته من ذراعه وانتحيث به جانبًا: «الناس في هذه اللحظات محتاجون إلى مَنْ يبث الطمأنينة فيهم لا الخوف، ألا ترى أنّهم يكادون يقضون حتفهم من الرعب الذي عاينوه، هل ينقصهم أن يأتي واحدٌ مثلك فيجهز عليهم تمامًا؟!». «

” (١٠)

وماذا بعد؟!

عاد الناس إلى بيوتهم، المصيبة لا تُرى وقت حدوثها، إنّها تكون في القلب، وعليك أن تصبر عليها قليلاً حتّى تخرج من هناك، فإذا خرجت سترها بكامل أركانها؛ حين دخل الناس بيوتهم صبيحة اليوم التالي تبين لهم حجم المأساة، فقدوا أعز ما يملكون، مات العشرات، ديوان مصر لم يُعلن عن الموتى حتّى الآن، الإحصاء يحتاج إلى وقت، من الممكن أن يكون عدد الموتى في القاهرة وحدها حيث سيكون إحصاء العدد أسهل من غيرها، أقول من الممكن أن يكون أكثر من مئة؛ هذا تقديرٌ أولي، مَنْ يدري ما حدث فيما لم يطلع عليه أحدٌ. بعض الناس ماتوا دون أن يتمكّنوا من إطلاق صيحةٍ واحدةٍ، بعضهم كان آخر ما رآه هو حائط البيت الذي كان يجلس تحته وقد ماج كأنه قطعة خشبٍ بيضاء تحركها موجة ماء، ثمّ جاءت موجةٌ عاتية فألقّت بالجدار فوقه، فساد الظلام.

عندما دخلت البيت، وجدت الباب بسبب تصدّع حجارة البوابة قد تكسّر ووقع على الأرض، ووجدت في الدّاخل أنّ عشرات من المشربيات قد سقطت في السّاحة، وأنّها قد حطّمت الأشجار المغروسة فيها، وحزنت على شجرة البان، فلها عندي ذكريات غالية، غير أنّها لم تُدفن تحت الرّدم، إلا أنّ ساقها قد تكسّرت، هُرعت أول الأمر إليها، إنّ ساق الشجر مثل ساق البشر، يُمكن تجبيره، ويُمكن إعادة الحياة ليسري فيه الغداء، فيعود ليعيش من جديد، دفعت الجزء المنكسر الذي كان يبدو رايحًا على الأرض، وقد مسّت أوراقها وجذوعها من التّصّف تراب السّاحة، جاهدت لأعيد هذا الجزء إلى مكانه، فلمّا فعلت، أتيت بجبارة من خشبٍ طولها ذراع، فوضعتها على امتداد السّاق المكسورة، ولففتها بقمّاش، وشددتها عليها، ثمّ طليت السّاق ببعض دواء الأشجار لتحميها من النّزيف خارجها، ثمّ سقيتها بالماء حتّى ارتوت، ورجعت إلى الورااء خُطوتين، وأنا أمسح العرق عن جبينني وأبتسم لإتمام المهمّة، وشعرت أنّها تبتسم هي الأخرى، كانت ابتسامتها شدًا عبق في الأجواء فملاً أنفي برائحته، وهل هناك تعبيرٌ عن الشّكر أبلغ من العطر؟!

كان الأبلق يُراقبني من الإسطبل وأنا أفعل هذا، فصله، فتذكّرت أنّ مِعلفه هو الآخر قد انقلب على الأرض بسبب الهزّة، فسارعت إلى إصلاحه، ثمّ مضيت إلى غرفة التّخزين، فملأت دلوًا كبيرةً من الشّعير، وفردتها في المِعلف، ومسحت على عنقه، وقلت: «هل تظنّ أنّي أهتمّ بشجرة البان وأنساك؟ أنت صديقي في هذه البلاد العجيبة، وليس لي سواك!» فصله، كانت هذه تعني شكرًا، أعرفها، ويعرف أنّي أعرفها، فمسحت على عنقه ثانيةً، ثمّ ملأت له جرّنه بالماء ليشرب بعد أن يأكل، وخرجت من عنده أتفقّد بقية أنحاء البيت.

كانت الكتب في الغرفة الأولى قد غادرت رفوفها بالكامل تقريبًا، وتجمّعت في كومةٍ كبيرةٍ في منتصفها، جزاء سقوطها من الجدران الأربعة على الأرض، الكؤمة أعلى منّي، كان بعض الكتب قد انفتح وسقط على وجهه، وبعضها على حرفه،

وبعضها قد تمزق جِراء السقطة، وعددٌ منها قد تشبَّث بالأرفف ما استطاع فظلَّ نصفه عاليًا بها، ونصفه الآخر مُورجًا في الهواء، وكان بينه وبين السقوط شعرة، وهو ينتظر مَنْ يأتي لكي ينقذه من هذا التَّهاوي المُميت، يُمسك بيديه بأخر ما تبقى فيهما من قُوَّة بالزاوية الخشبيَّة للرَّف... كان منظر الكتب مُحزَّنًا، يُقطع القلب حسرة، إنَّ للكتب أرواحًا، ولا بُدَّ أن لها قلوبًا، وإنني أتخيلها ليلة أمس وهي تبكي كالشعر، وتخافُ مثلهم، وتموتُ تحت الرِّدم كما يموتون، وتنتظر في عيون الآخرين من إخوانها لعلها تجدُ عندهم عونًا على ما هي فيه، فتقول لها كلَّ عين: «إننا في الهَمِّ يا أختاه سواء، إنَّ ما يُشجيك يُشجيني، وإنني مثلك لا حول لي ولا قُوَّة!

قضيتُ نهار ذلك اليوم وأنا أنظف الكتب، وأمسخ جراحها، وأزيل عن وجوها العَبْرَة والقَتْرَة، وعن بطونها الحجارة، وأقبلُ كلَّ كتابٍ بعد أن أعالجه، وأضعه على رأسي، ثُمَّ أعيده إلى مكانه، كان عليَّ أن أهتمَّ بالكتب أكثر من أيِّ شيءٍ سواها، إنَّها امتدادي، وهي أنا، وفيها منِّي أشياء وأشياء، وأجدُ لديها نفسي، وإنَّ ما يُؤذيها يُؤذيني، ولذلك كان عليَّ في البداية أن أعنتي بكلِّ ما يُزيل عن قلبي الهَمَّ... كان كلَّ كتابٍ يشكرني بعد كلِّ اهتمامٍ به وتطبيبه، يُمكنك أن تعرفَ ذلك إذا كنتَ تعرفُ الكتب، معرفة الكتب غير رؤيتها، غير معرفة عناوينها، غير الإمساك بها والنظر إلى ألوانها، غير التَّبجَّح بعددها أو بقيمتها الماديَّة، معرفة الكتب تُعادل معرفتك بنفسك، إذا كانتُ لديك الجِراء لتقول إنَّك تعرفُ نفسك جيّدًا، فمعنى ذلك أنَّك تعرفُ الكتب جيّدًا، وهذا يتطلبُ أن تسكنَ قلبك، أن تجول في عقلك، أن ترى العبارة التي غيَّرتُ خليَّة فاسدة في عقلك فأبدلتُ بها خليَّةً سالحة، كما تراك، إذا كانتُ الكتب تُساويك، فانظر كم هي روحك غاليةٌ عليك، وكم تُقدِّمها على كلِّ ما عداها!

بعدَ ليلتين، تمَّ إعادة كلِّ شيءٍ في الغرفتين إلى ما كانتا عليه، من ترتيبٍ وتنظيفٍ ونظافةٍ، وأصلحَ كلَّ مكسور، وأعيدَ كلَّ مفقود، وأنصُر كلَّ باهت، وأرجعتُ البسمة إلى شفاة الكُتب الشَّاحبة.

في عصر اليوم الثَّاني أعلنَ ديوان مصر أنَّ الذين ماتوا بسبب الزَّلزلة الكبيرة هو مئة وثلاثة وخمسون نَفْسًا. أُقيمتُ لهم الجناز اللانقَّة، وصلى المَلِك على مجموعةٍ منهم في المسجد الجامع في الأزهر، ومَنحهم لقبَ شُهداء، ثُمَّ أنعمَ على أهلهم براتبٍ شهريٍّ جِراء موتهم في هذه المحنة.

عادَ النَّاس إلى أسواقهم وإلى شؤونهم، كأنَّ أمر الزَّلزلة مع كلِّ ما فيها من الأهوال قد نسي، هل هي قدرة الإنسان على النسيان؟ أم قدرته على التَّعاش؟ أم كلاهما؟ عادَ الصَّخْبُ واللَّغَطُ في الأسواق، والصِّياح على البضائع، والمُساومة على الأثمان، وعادَ صوتُ باعة الوَرد، وعادتُ معه جُلُسات الأُنس في شوارع القفيصات، وأصلحَ النَّاس ما فسد من حياتهم أو مزاجهم، الحارات تُظفَّت، الرِّدمُ أزيل، الحجارة المُتساقطة أُعيدتُ إلى أماكنها أو جُلبتُ حجارة جديدةٌ تستطيع الصِّمود أكثر، القَططُ عادتُ تموء، والكلاب رجعتُ تنبح، والموتى دُفِنوا، والبضاعةُ عادتُ تتدقَّق إلى القاهرة من الشَّمال عبر بحر الإسكندريَّة، وراح النَّاس يَصِفُّون في كلِّ اتِّجاه، ورجع القُضاة إلى مجالسهم يَقبضون بين النَّاس، والأمراء إلى كراسيهم، والملوك إلى أسيرتهم، والسلاطين إلى صولجاناتهم، كأنَّ ما مرَّ لم يكنْ غير حُلْمٍ عابرٍ لا يستحقُّ التَّوقُّفَ عنده كثيرًا، وكأنَّها قرصةٌ واحدةٌ ليس منها سواها، وليس هناك ما بعدها!! هل هذا هو الإنسان؟!

في سوق الشَّماعين عادت البغايا إلى أعمالهنَّ، عددُ الرِّبائن قد زادَ بعدَ المُصيبية على غير المتوقَّع! يبدو أن النَّاس تغوصُ في الشَّهوات أوقات المصائب لتنسى، آخرون ينسون بطريقتهم؛ يجدون في اللُّجوء إلى الله عزاءً، إنَّها أنفُس، وإنَّ شئيًّا ما في قلوبها يُحرِّكها، مَنْ يلوم القلب؟!

الحجارة والتراب والغبرة والدم والموتى وقطع اللحم والكسور والآهات وصرخات المذعورين وصيحات الثكالي وأنين
المفقودين... كلها كُنست من الشوارع، ليعود إلى وجه الشوارع جمالها، ليس للإنسان وقت كبير ليتذكر بؤسه، إنه خلق
ليفر منه لا ليفر إليه!

تابعثُ تدريسي في مسجد الصالحِي، عددُ طلبتي زاد هو الآخر، إنهم الصنف الثاني من الناس، الناس أجناس، وعدد
الذين طلبوا أن أعطيهم إجازة في النحو أو اللغة زاد، وعددُ الأطباء المُساعدين الذين سينحولون إلى أطباء مُسعين زاد،
سالم تخرج، وثلاثة آخرون خلال الأسبوعين اللذين تلياً الهزة العنيفة أعطوا الإجازة كذلك. الحياة بكل ما فيها من توافقات
وتناقضات تسير.

لم تظهر درية، غيابها يُقلني، تمنيت لو أنها لم تُعلمني الطبخ، وبقيت تزورني كل يوم مع طبختها لأشتري ذلك منها، أنا
محتاج إلى الجلوس معها، لقد مرت أيام لم يمر علي مثلها بعد ما حدث، لا أدري إن كان قد مرّ عليها هي مثلها من قبل،
من يدري ما تُخبئ هذه المرأة؟ قد تكون عاينتُ أحداثاً يشيب لها رأس الوليد؟ إنها خابية حكايا! قررتُ - على عادتي في
الاستسلام لنداء القلب - أن أذهب إليها، أحسن وقت حتى أجدها في القرافة هو الصباح الباكر جداً، قبل أن تذهب إلى أي
شأن، صليتُ الفجر في الصالحِي، ودعوتُ الأبلق إليّ، واعتليته، ومضيتُ إلى تربة الشافعيّ، الدرجات الهابطات لم
يتغيرن، المكان كله كان كما تركته آخر مرة كأنه لم يمسن، تراءت لي صورة مارية وهي تغسل رأس أخيها في البسطة،
ولكنني لم أرها هناك، ربّما لم يستيقظوا بعد! طرقتُ الباب، جاءني صوتها العميق: «من؟». كان الصوتُ يكتسبُ وجهًا،
إنه وجهها، لا يحضرُ صوتها إلا ويحضرُ وجهها معه، حين فتحت الباب وهي تعقد شالها بالطريقة إياها على رأسها،
قالت: «هل تشربُ شيئاً؟». «جئتُ لتدليني على قبر موسى بن عمران». ضحكتُ: «ليس هذا وقتَه، إنك تريدُ أن تعرف
ماذا سيحلّ بمصر وبالبلاد كلها بعد ما حدث». أنغضتُ رأسي موافقاً: «صحيح». ردتُ وهي تجلبُ إلى البسطة كرسيين
وتجلس على أحدهما، وتدعوني للجلوس على الآخر: «قلتُ لك، إنها البداية، لكنك لا تريدُ أن تُصدقني، ولا أدري لماذا
عليّ أن أخبر في كل مرة أولئك البُلهاء الذين يشكون فيما أقول، ولا يُصدقون ما يسمعون». فرددتُ وأنا مُنزعج، ومشتاق
في الوقت نفسه لأسمع الإجابة: «وماذا بعد؟!».

” القسم الرابع

الطاعون

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

أَلْقَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

لَا بُدَّ مِنْ تَلْفٍ مُقِيمٍ فَإِنْتَظِرْ

أبَارِضِ قَوْمَكَ أَمْ بِأُخْرَى الْمَصْرَعِ

كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَمِمْ الْهَوَى

بَاتُوا بِعَيْشِ نَاعِمٍ فَتَصَدَّعُوا

فَلَمَّا بِهِمْ فَجَعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ

إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمَفَجَّعُ

“ (أبو ذؤيب الهذلي) ”

” (١)

مَنْ فَرَّ عَنِ نِيرَانِهَا

مرَّ شهرٌ أو شهران، مَنْ يريدُ أَنْ يتذكَّرَ اليومَ الَّذي مات فيه أكثر من مئةِ نَفْسٍ؟ من الأفضلِ نسيانِ حوادثِ الماضي من أجلِ الاستمرارِ في الحياة، سيكونُ صعباً دونَ النسيانِ أَنْ تسيرَ حياةُ الإنسانِ بشكلٍ طبيعيٍّ، لكنَّ النسيانِ نفسه لا ينسى، فيعودُ إليك بوجهٍ جديدةٍ، ربَّما يغيِّرُ الزَّمانُ، ولربَّما المكانُ، ولربَّما الوجهُ، لكنَّه لا يغيِّرُ الأثرَ، الأثرُ عميقٌ جدًّا هذه المرَّة!

كنتُ في مسجدِ الصَّالحي ظهرَ الأربعماءِ الثَّالثة من شهرِ شعبانِ لسنة ٥٩٧ هجرية، كنتُ في درسِ النَّحو، ولديَّ مستويان للتدريس، ينضمُّ الصَّغارُ الَّذين لا تزيدُ أعمارهم عن عشرةِ أعوامٍ إلى المستوىِ الأوَّل، ويأخذون مبادئَ في النَّحو، يدرسون في هذا المستوى موجزاً لكتابِ سيبويه، في المستوى الثَّاني المُتقدِّم يكونُ المجلسُ يضمُّ مَنْ هم فوقَ العاشرةِ ودونِ السَّادسةِ عشرة، على هؤلاء أَنْ يأخذوا إجازةً في النَّحو، النَّحو بعدَ السَّادسةِ عشرة يصبحُ عصياً، عليك أَنْ تأخذ الإجازة فيه قبل هذه السنِّ.

كنتُ أدرّس المستوى الأوّل، وكان في حلقتي حوالي عشرين صبيّاً دون العاشرة، بعضهم في الخامسة أو السادسة، بعثَ به أبوه مُستمِعاً، ولربّما كان يقضي الوقت وهو يتكلّم أو يقفز من مكان إلى مكان، وعليه فإنّني كنتُ أشتري سُكوتهم ببعض الحلوى، أو أسمح لهم باللّعب في باحة المسجد. كان الموضع الذي نأخذ فيه درس التّحويّ بناءً صغيراً مُلحقاً بالمسجد، من الجهة الشماليّة الغربيّة المُقابلة للقبلة، وكان سقفه من الحجارة المسنودة بخشب الجُميز القويّ، كان الصّبيان يجلسون في دائرةٍ حولي، وكلّ صبيٍّ أمامه قرطاسه موضوعاً على مسندٍ خشبيٍّ يُمكنه من بسط القرطاس، وكتابة ما يشاء على هامشه، وكان مربوط الأبلق على المدخل، ومن هنا إذا نظرتُ إليه من موضعي، رأيتُ بياضه يملأ فراغ الباب، وكنتُ أختلسُ النظر إليه من حينٍ إلى آخر. كنّا مأخوذين بما نقرأ، ولا أدري ما الذي أزعجه في تلك اللّحظة حتّى بدأ يصهل صهيلاً عاليّاً، وراح يحفر في الأرض، ومن هنا رأيتُ منخزيه يفتحان وينغلقان بسرعة، كان هذا مُزعجاً بالنسبة لي، كان صوته إذا صهل أو حفر في الأرض أو رفع أقدامه عاليّاً واستند على كفّليه أعلى من صوت أيّ قارئٍ من هؤلاء الصّغار، وكان هذا ينعني من السّماع، وطلبتُ من الصّبيان أن ينتظروني قليلاً، خرجتُ إليه ومسحتُ على عنقه، وقلت: «أرجوك، ليس الآن، لدينا درس، وعليك أن تصون حُرمة العِلْم» كنتُ أقفُ عن يساره حين رأيتُه ينظر إليّ من طرف عينيّه دون أن يحني عنقه، كانتا تيدوان مرعوبتين، سألتُهُ: «لِمَ أنتَ خائف؟ نحن في بيت الله، مَنْ يخاف هنا؟». لكنّه راح يحفر في الأرض بشكلٍ أكبر، سألتُهُ: «هل أنتَ جائع؟ اصبر قليلاً، في البيت الكثير من الطّعام». لكنّ ضَبْحَ فمه كان مسموعاً ومرئياً. «أوووه...» هتفتُ: «لقد ضجرتُ منك، لم يكنْ يَنقُصني سوى أن تنضمَّ أنتَ إلى الصّبيان الذين في الخامسة من المُزججين... هل أنتَ عطش؟ سأسقيك من ماء المسجد، لكنّ أرجوك، اهدأ حتّى أنهي الدّرس». أتيتُهُ بالماء من خابية المسجد، وضعته له في سطل، وراحتُ شفّته تعبان منه بسرعة، كأنّه لم يشرب منذُ دهر. تركته وعدتُ للحلقة، كان الأولاد يلقون جذوعهم وهم في أماكنهم يُراقبونني ويضحكون، قلتُ حين صرّحتُ فوق رؤوسهم: «لا بأس، إنّه حصان مُدلل». لم يقولوا شيئاً، غير أنّ ضحكاتٍ بعضهم سمعتُ وهي تخرج محبوسةً من تحت أسنانهم.

جلستُ في موضعي، وطلبتُ من الصّبيّ الذي حان دوره أن يقرأ عليّ من الكتاب. فقال: «وزعموا أنّ بعضهم قرأ: (ولات حين مناص) وهي قليلة، كما قال بعضهم في قول سعد بن مالك القيسي:

مَنْ فَرَّ عن نيرانِها

فأنا ابنُ قيسٍ لا براخ»

إذ ذلك، شعرتُ بأنّ الأرض تتحرّك من تحتنا، وأنّ المساند الخشبيّة بدأت تهتزّ، وكانت أوراق القراطيس تتحرّك كأجنحة باشقٍ يهيم بالطّيران، وعرفتُ أنّ زلزالاً سيقع، وكان عليّ أن أنقذ الأولاد، وبدؤوا هم يشعرون بالخوف، ونظرتُ إلى الباب، وإليهم، لأعرف الطّريقة الأسرع للهروب، وصحتُ: «إلى الباب... هيا...» لم أكمل الجملة، كان السّقف يهوي دفعةً واحدةً، الأبعد عن الباب دُفِنوا تحته للتوّ، الأقرب نجا نصحهم، وأنا تمكّنتُ من النّجاة، سنّة من الصّبيان، واثنان اللذان كانا يلعبان في السّاحة، هم الذين لم يموتوا، الآخرون، لم تُسمع لهم صيحة، عدتُ، كان السّقف ما يزال ينهار، تجمّعتُ أمامي كومة من الرُّكام، حاولتُ أن أجتازها، صعبتُ فوقها، هوى حجرٌ على رأسي فأفقدني توازني، تمايلتُ، نزّ بعضُ الدّم من عنقي، وضعتُ كفيّ على الجرح، تماسكتُ، نظرتُ إلى موضع الرّدم حيثُ الأطفال، فلم أرَ طفلاً واحداً، كانوا قد دُفِنوا بأجسادهم الصّغيرة تحته، خرجتُ ورأسي تسيلُ دماً، كان الأبلق قد اهتاج في السّاحة، والصّغار يبكون ويصيحون من الدّع، لم أدر ما أفعل، ضمنتُ الصّبيان إلى صدري واحداً واحداً، وبكيتُ أمامهم كطفلٍ،

ما الذي يجري بحق السماء؟ ليس للسؤال من إجابة إلا أن تكون مزيداً من الرَّجَفَات، كان الزلزال لا يزال مُستمرّاً، سارعتُ إلى إخراج الأطفال الثمانية النَّاجين، ولم أدر كيف سأخبر أهل الذين ماتوا، كان على أهلهم أن يأتوا ليعيدوهم إلى بيوتهم بعد انتهاء وقت الدرس، فكُرتُ في أن أنتظر حتّى يأتوا، ونظّل أنا والصبيان والأبلىق في السّاحة المفتوحة بعيداً عن البناء، ريثما يأتون، «هذا أفضل حلّ» قلتُ بيني وبين نفسي، حاولتُ أن أعود إلى الرّدم فأجد حياً أو ناجياً من الذين خرّ عليهم السقف، لكنّ السقف كان لا يزال يتهدّم، والرّكام يتعلّى، وإذا كانت الفرصة في نجاتهم أوّل ما وقع الرّدم فوقهم ضئيلة، فإنّها الآن بعد أن خرّ السقف بأكمله ونصف الجدران فوقهم ستكون معدومة، حتّى قراطيسهم دُفنت معهم، لم يظهر إلا قِرطاسٌ واحدٌ، هو قِرطاس الصّبيّ الذي كان يقرأ لحظة وقوع الزلزال، يبدو أنّه قذفه من يده دون أن يدري بسبب الهول، كان القِرطاس مفتوحاً عند قوله: «مَنْ فَرَّ عن نيرانها» ويبدو أنّه هو والآخرون من زملائه لم يستطيعوا الفرار. مسحتُ جرحي، نظفّته بالماء، شققتُ شيئاً من عمامتي، ولففّته به، جرحٌ سطحيّ، لن يكون خطيراً.

كان الزلزال لا يزال يجعل الأرض كلّها تتحرّك، من الباب من هنا، رأيتُ جموعاً تفرّ كأثما تُساق إلى المحشر، كانوا لا يعرفون إلى أين يفرّون، يركضون إلى لا جهة، ويفرّون من الزلزال خوف الموت، والزلزال مع الموت يبرز لهم في كلّ زاوية، كلّما هربوا منه وجدوه أمامهم.

مرّ وقتٌ بطيءٌ ثقيلٌ وأنا أنتظر أهل الطّلبة النَّاجين أو الموتى أن يأتوا لكي يعودوا بأبنائهم أو ما تبقى منهم، ولكنّ مع طول الانتظار لم يأت أحدٌ، وكانوا لا يزالون يترقّبون مثلي بروز أحدٍ من ذويهم، وينظرون في الفارين بحثاً عن وجهٍ يعرفونه، ولكنّ دون جدوى، وقدّرتُ أنّ أهلهم إمّا أن يكونوا قد ماتوا، أو مات الموكّلون بإحضارهم، أو أنّهم فقدوا صوابهم من هول الموقف فنسوا أبناءهم، أو أنّهم حُبسوا في أماكنهم، ومن يحبسه الرّدم الآن فلن يُخرجه أحدٌ. ثمّ حلّ وقتُ العصر، ومالت الشمس وهي تنظر ما يحلّ بالأرض جهة الغرب، ولم يأتوا، وأنا في مكاني، قد حرّث، وضقتُ بما يحدث، فقرّرتُ أن أخذ الأولاد إلى أقرب موضع للإيواء. لا بُدّ أنّه في مثل هذه الظروف تتشكّل مواضع إيواءٍ في السّاحات المفتوحة، وفي أفنية المساجد، وفي أبهاء البيمارستانات. بالفعل، أخبرتهم بما نويّت أن أفعله، وأمّنتُ النَّاجين منهم في أحد هذه المراكز، وتعجّبتُ أنّه لم يسأل أحدٌ عنهم البتّة!!

ركبتُ الأبلىق، واحترتُ إلى أين أمضي؛ البيت؟ ربّما أفضلُ خيار، لا تزال الشمس موجودةً في السماء، ويُمكن أن أرى ما يحدث في البيت، كانت الأرض تنشقّ من تحت أقدام الأبلىق، الشّارع الذي يفصل بين المسجد والبيت تفسّخ من المنتصف، شقّ طوليّ عبّره من أوّله إلى آخره بسرعة الماء المنساب في المنحدر، سقطتُ فيه أقدام الأبلىق، عرج، سهل، أزبدتُ شفّته، مال شقّه، حُشرتُ ساقه، كادتُ تنكسر، نزلتُ عنه، ساعدته، أمسكتُ بقدمه، أزلتُ عنها قطعاً من الحجارة المُتَشَقِّقة، وبصعوبةٍ بالغه حرّرتُ قدمه، سهل يشكرني، «نحن صديقان» همستُ في أذنه بصوتٍ لاهت، ركبته بقفزةٍ واحدة، وانطلقتُ إلى البيت، كان أثر الزلزال هذه المرة أقوى بكثيرٍ من مرّته السّابقة، التّوّابة انهارتُ بالكامل، هل يُمكن أن يتعرّض البيت للصّوص، صار سهلاً على أيّ أحدٍ أن يدخله وينهب ما فيه، ولكنّ هل يُمكن أن يجد ما يريدُ تحت الرّدم، في زمن الفوضى لا يحكمُ أحدٌ أحدًا، الفوضى هي المَلِكَة المُتَوَجِّة التي تحكم الجميع. دخلتُ بالأبلىق رغم تراكم بعض الحجارة والقطع تحت البوّابة، إنّ أمرًا ما سماويًا يحدث، نحن في زمن الملك العادل، فلماذا يحدث كلّ هذا، دخلتُ بالأبلىق إلى السّاحة، شجرةُ البان سلمتُ من الكسر أو الموت هذه المرّة أيضًا، فرحتُ شيئاً ما، ارتسمتُ ابتسامةً شاحبةً على زاوية فمي، المشربيات كلّها سقطتُ مع أجزاء كبيرة من الدّرابزين، هل يمكنني الصّعود إلى أعلى؟ الدّرجات مُمتلئةٌ بما تهدّم، لكنّ يمكن القفز فوق الرّكام... مضيتُ، أشعلتُ المشعل الأوّل، أردتُ أن أجلسَ هنا وقت الغروب، وأشاهد كلّ شيء، منظر الدّمار الذي يحدثُ لك، أو فيك، قد تكون مُشاهدته مُمتعةً بعد أن يتمّ، أشعلتُ عشرة مشاعل على محيط السّاحة، ثمّ صعدتُ إلى غرفتي، ليس فيها شيءٌ في مكانه، الأشياء تكوّم بعضها فوق بعض، لم أكثرتُ كثيرًا، لا أدري لماذا أصابتنّي البلادة وأنا أرى هذا كلّهُ؟! ربّما لأنّ بقائي على قيد الحياة نعمةٌ تُزري بكلّ مُصيبية... أشعلتُ عشرة مشاعل في الرّواقات الأربعة في الطّابق الثّاني، وهبطتُ مُسرّعًا إلى الأبلىق، مسحتُ على عنقه: «هل أكلتُ جيّدًا؟».

هَزَّ رَأْسَهُ، كَانَتْ تَعْنِي: «نَعَمْ»، هَمَسَتْ: «أَشْعُرُ بِرَغْبَةٍ عَارِمَةٍ فِي الْبِكَاءِ... الْبِكَاءِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... وَلَكِنْ هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَعِيزَ عَنْ ذَلِكَ بِالْخُرُوجِ مِنْ هُنَا... هَيَّا... هَيَّا يَا صَدِيقِي». وَرَكِبْتُهُ وَمَضَيْتُ. «

” (٢)

إِنَّهُ اللهُ

هَرَبَ النَّاسُ مِنْ بَيْوتِهِمْ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ، مَضَوْا فِي الشَّعَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى الشَّامِ، وَأَخْرُونَ اتَّجَهُوا جَنُوبًا، وَقَسَمَ ثَالِثٌ لَأَدَّ بِالْأَرْيَافِ حَيْثُ لَا تَكُونُ الْأَبْنِيَّةُ الْعَالِيَةُ سَبَبًا رَئِيسًا فِي الْمَوْتِ، الزَّلْزَالُ لَا يَهْدِمُ تَرَابَ الْحُقُولِ، وَعَلَيْهِ فَقَدَ كَانَ الْفَلَاحُونَ وَجَوَامِيسِهِمْ هُمُ الْأَكْثَرُ حَظًّا فِي هَذِهِ الْكَارِثَةِ.

امْتَلَأَتْ بَوَابَاتُ الْقَاهِرَةِ كُلِّهَا بِالنَّاسِ الْهَارِبِينَ إِلَى النَّوَاحِي الْبَعِيدَةِ، سَرَى بَيْنَهُمْ كَلَامٌ كَثِيرٌ، قَالَ بَعْضُهُمْ: «عَقَابٌ مِنَ اللَّهِ». قَالَ آخَرُونَ: «نَحْنُ نَسْتَحِقُّ لِأَنَّنا قَبَلْنَا بِهَذَا الظُّلْمِ». رَدَّ عَلَيْهِ ثَالِثٌ: «كَمَا تَكُونُوا يُؤَلُّ عَلَيْكُمْ». سَأَلَ رَابِعٌ: «إِنَّهَا الطَّبِيعَةُ؟». قَالَ الْخَامِسُ: «وَتَصْنَعُ مَا تَشَاءُ». قَالَ السَّادِسُ: «إِنَّهُ اللهُ». وَارْتَفَعَ صَوْتُ شَجِيٍّ مِنْ فَوْقِ مُنْذَنَةٍ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ».

إِلَى أَيْنَ يَهْرَبُ النَّاسُ؟ الْأَرْضُ كُلُّهَا تَتَزَلْزَلُ. الزَّلْزَالُ يَسْكُتُ لِحْظَاتٍ كَأَنَّهُ يَزْدَرِدُ لِقَمَّةٍ كَبِيرَةٍ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْحَرَكَةِ، أحيانًا يَضْحَكُ الزَّلْزَالُ فَتَسْمَعُ صَوْتَ الرَّدْمِ وَالْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ وَالصَّفَائِحِ تُرَدِّدُ صَدَى ضِحْكَتِهِ، نَحْنُ نَبْكِي يَا اللهُ؛ إِنَّا نَعُودُ بِكَ مِنْ غَضَبِكَ. مَنْ يُفَسِّرُ لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الْغَضَبِ؟ أَيْنَ فَهَاءُ الْأُمَّةِ لِيَقُولُوا لَنَا سَبَبَ مَا يَحْصُلُ، وَكَيْفَ نَرُدُّهُ عَنَّا؟ إِنَّهُ لَا سَبَبَ، الْأَرْضُ تَحْرَكَتْ، أَرَادَتْ أَنْ تَتَنَفَّسَ فَفَتَحَتْ فَمَهَا، فَسَقَطَ فِيهِ كُلُّ هَؤُلَاءِ الْأَحْيَاءِ، أَرَادَتْ أَنْ تَتَمَطَّى فَفَرَدَتْ ذِرَاعِيهَا، فَابْتَلَعَتْ كُلَّ هَؤُلَاءِ الْبَشَرِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَمُدَّ سَاقِيهَا حَتَّى لَا تَتَخَدَّرَا فَرَكَلَتْ إِلَى وَادِي الْمَوْتِ كُلِّ هَذِهِ الْجُمُوعِ الْهَارِبَةِ. إِنَّهُ الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ لَا يُفَسِّرُهُ أَحَدٌ!!

قَالَ أَحَدُ الْقَوْمِ: «إِنَّ بَغَايَا سَوْقِ الشَّمَاعِينَ هُنَّ السَّبَبُ؛ لَمْ يَتَّعْظُوا مِنَ الْهَزَّةِ الْأُولَى فَعَاقَبَنَا اللهُ بِسُوءِ صَنِيْعِهِمْ». رَدَّ عَلَيْهِ جَارُهُ: «دَفَعْتُهُمْ لِقَمَّةِ الْعَيْشِ، إِنَّهُمْ أَشْرَفُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ التُّجَّارِ الْجَشِيعِينَ؛ هَؤُلَاءِ التُّجَّارُ هُمُ السَّبَبُ». قَالَ ثَالِثٌ: «لَوْلَا الْقَاضِي الْمُرْتَشِي الَّذِي سَمِحَ بِفَتْحِ سَوْقِ الْبَغَايَا، وَلَمْ يَرُدِّعِ التُّجَّارَ الْجَشِيعِينَ لِمَا حَدَثَ مَا حَدَثَ؛ الْقُضَاةُ هُمُ السَّبَبُ». قَالَ الرَّابِعُ وَهُوَ يَضْحَكُ مَلءَ شِدْقِيهِ: «مَنْ عَيَّنَ الْقُضَاةَ أَيُّهَا الْفَهِيمُ؟ إِنَّهُ الْمَلِكُ؛ الْمَلِكُ هُوَ السَّبَبُ». قَالَ الْخَامِسُ: «أَخْرَسُوا، أَنْتُمْ السَّبَبُ، أَنْتُمْ رَضَيْتُمْ بِهِمْ، لَوْلَا رِضَاكُمْ لِمَا تَجَرَّوْا أَنْ يُعَيِّنُوا الْقُضَاةَ الْمُرْتَشِينَ، وَيَغْضُوا الطَّرْفَ عَنِ التُّجَّارِ الْجَشِيعِينَ، وَلَا أَنْ يَفْتَحُوا بَيْنَنَا الْمَوَاحِيرَ». قَالَ السَّادِسُ: «فَلْتَطَامِنُوا مِنْ أَصْوَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُتَفَذِّلُونَ، كَلْنَا السَّبَبَ، فِي دَاخِلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا بَغْيٌ طَاهِرَةٌ، وَتَاجِرٌ جَشِيعٌ، وَمَلِكٌ ظَالِمٌ، وَقَاضٍ مُرْتَشٍ».

الزَّلْزَالُ لَا يَتَوَقَّفُ إِلَّا لِيَأْخُذَ اسْتِرَاحَةً الْمَحَارِبِ، إِنَّهُ يَسْتَمِرُّ كَمَا لَوْ كَانَ فِي سِبَاقٍ مَعَ الْمَوْتِ، أَيُّهُمَا يَصِلُ قَبْلَ الْآخَرِ إِلَى أَرْوَاحِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّ الزَّلْزَالُ وَالْمَوْتَ لَيْسَا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، هَلْ هُمَا كَذَلِكَ؟ بِالطَّبَعِ، هُمَا مُخْتَلِفَانِ، الزَّلْزَالُ يُشْبِعُ الْفَوْضَى

والموت يكنس، الزلزال يهدم فوق الأجساد والموت يرسم على الوجوه، الزلزال يتقدّم والموت يتبع، الزلزال يقتل والموت يعدّ، الزلزال يضحك والموت يعبس، بالمختصر، الزلزال سبب والموت نتيجة، إنّه مقدّمة والموت خاتمة.

طرتُ إلى الأهرامات، كانت الشمس قد احمرّت قرصها خجلاً وبدأت تتوارى في الأفق البعيد، والناس تنشعبُ في كلّ اتجاه، وتهرب في كلّ طريق، وتصرخ، وتبكي، وتسترجع، وتنهار، وتكثرُ، وتتبدّل، وتفعل كلّ شيءٍ لا يُتوقّع، ما الذي أخرج الناس من بيوتهم؟! ما الذي يُطاردهم فيهربون منه على هذه الهيئة، إنّه الخوف الذي يركض وراءهم فيسوقهم كالأنعام الضالّة، وليس الموت، الموت يلاقيهم من أمامهم في هربهم هذا، وإدّاً فما الحلّ؟ النّحك في الخوف وحده في هذه الظروف يُمكن أن يُنقذ الإنسان، ولكن هل يستطيع؟!

مررتُ في طريقي إلى الأهرامات على مُنشأة القاضي الفاضل، كانت قد تهدّمت، وصعدت النيران من ساحاتها وأبنيتها، كان الشجر يحترق، رأيتُ ألسنة اللهب تزحف على القصر، كأنه وحشٌ يلحسُ بلسانه الأسطوريّ كلّ شيءٍ يجده في طريقه، ثمّ يقوم بالتهامه، وصلتُ النيران إلى السماء، لا أدري ما الذي أشعل النيران؟ لا بُدّ أنّها المشاعل التي سقطت فأحدثت كلّ هذا، وإذا امتدّ الحريق عبر أرضٍ مُهيأة له فإنّه لن يتوقّف حتّى يأتي على كلّ شيءٍ، ماذا حدث للمكتبة يا تُرى؟! هل تنجو من هذا؟ إنّ فيها أكثر من مئة ألف مُجلّد، أمعقولٌ أنّ النيران ستأكلها هكذا ببساطة؟ يا للكارثة! فكّرتُ أن أدخل وسط هذا اللهب لأرى، كان قلبي يتمزّق، خفتُ أن يتمزّق أكثر إذا شاهدت تلك الكتب وهي تموت أمامه، لكن لا بدّ من المحاولة؟ كان ذلك جنوناً؟ الجنون في الجوائح لا يعودُ له معنى!!

كنتُ أقف على بُعد ثلاثمئة ذراع، كان الناس يخرجون من المنشأة، الخدم والجواري والعبيد وآخرون، يهربون من البوابة الكبيرة، يبحثون عن حياة يبدو الإبقاء عليها صعباً، كان القاضي الفاضل قد مات قبل ما يقرب من عام، رحمة الله على روحك يا سيدي، لو بقيت إلى هذا الزمّن لتمنيت الموت على أن ترى كلّ ما عشت من أجله يحترق أمام عينيك، كيف ينتهي ما

جمعه الإنسان عبر خمسين عامًا في لحظة واحدة!

فكّرتُ في أن أبحث عن غلامه (شريف)، لا بُدّ أنّه في الدّاخل، إنّه يتدبّر أمره، ولكنّه ربّما يحتاج إلى مُساعدة من أجل إيقاف هذا الحريق، لكن من يستطيع أن يفعل؟ أين ديوان مصر؟ إنّ في مصر حرائق في كلّ مكان تحتاج إلى ألف ديوان من أجل أن يُجابهوها، لقد طغى الموت وطمّ.

قلتُ في نفسي: «سأحاول». ثنيتُ عنان الحصان، ومضيتُ إلى البوّابة، إنّ عبورها ممكن، لكنني ما إن اقتربت قليلاً حتّى شعرتُ بحرّ النّار يلفح وجهي، لقد وصل حرّها إلى هنا، كيف تكون جهنّم إدّاً؟ شعرتُ أنّ وجهي ووجه الأبلق سيُشويان في لحظة، سهل الأبلق، ورفع قوائمه الأماميّة عاليًا، وراح يُدير قدميه في الفراغ، ربّتُ على عنقه: «اهدأ». كان الظلام قد بدأ يحلّ، وكانت النيران ما تزال تجعل من اللّيل نهارًا، في قلبي ألفُ غصّة، تخيلتُ منظر الكتب وهي تستغيث تحت وطأة النيران وتبكي وتسيل بطنونها ولا تجد مُغيثًا، لويتُ عنان الأبلق، صارت المنشأة المُحترقة خلفي، كانت ألفُ طعنة تنشبُ في ظهري.

مضيتُ إلى الأهرامات، الطَّرِيقَ الَّتِي كُنَّا نَقْطَعُهَا أَنَا وَالْأَبْلَقُ عَلَى جَنَاحِ الرِّيحِ، صَارَتْ فِي الْوَحْلِ وَالطِّينِ، فَزَغَ النَّاسُ،
أَمُوجَهُمُ الْمُتَدَاغَةُ، الْإِنْهِيَارَاتِ، الْخَسْفِ، الرَّكَامِ... كَلَّ ذَلِكَ أَعَاقَ طَرِيقَنَا، كُنْتُ أَهْرَبُ مِثْلَهُمْ، وَلَمْ أَكُنْ أُدْرِي إِلَى أَيْنِ
مِثْلَهُمْ كَذَلِكَ، لَكُنْتُ عَلَى الْأَقْلِّ حَدَّدْتُ وَجْهَتِي، الْأَهْرَامَاتِ. خَطَرْتُ بِبَالِي دُرِّيَّةً؟ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ مَرَّةٍ، لَكِنْ وَجْهِي لَمْ يَعْذُ فِيهِ
مَاءٌ، وَلَمْ أَعُدْ قَادِرًا عَلَى التَّحَجُّجِ بِأَيِّ حُجَّةٍ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّنِي إِنْ ذَهَبْتُ فَعَلَيَّ أَنْ أَخَذَ مَعِيَ بَعْضَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْمَالِ،
وَهَذَا مُتَعَدِّرُ الْآنَ، ثُمَّ مَنْ يَدْرِي مَاذَا حَصَلَ لَهَا وَلَا بِنَيْهَا!؟

وصلتُ إلى الأهرامات وقد هبط اللَّيْلُ تمامًا، بعضُ المساجد نادَتْ لِأَذَانِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، بَعْضُهَا تَهْدَمُ، بَعْضُهَا مَاتَ
مُؤَدَّنُوهَا، وَبَعْضُهَا كَانَتْ تَبْكِي مِثْلَمَا يَبْكِي النَّاسُ عَلَى مَا تَرَى.

من هنا، من مُحِيطِ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ أُرْسَلْتُ نَظْرَةً إِلَى الْقَاهِرَةِ، كَانَ يَبْدُو أَنَّ جَحِيمًا قَدْ حَاقَ بِهَا، كَانَتْ أَلْسِنَةُ النَّيْرَانِ تَصْعَدُ
فِي السَّمَاءِ، أَدْخَنَةٌ كَثِيفَةٌ، نَيْرَانٌ تَتْرَاقِصُ فَوْقَ الْأَبْنِيَةِ، كَانَتْ الْقَاهِرَةُ تَحْتَرِقُ، الْقَاهِرَةُ كُلُّهَا فِي جَوْفِ النَّارِ، النَّاسُ تَرَكَوْا
الْقَاهِرَةَ وَكَلَّ مَا لَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ فِيهَا، وَهَرَبُوا إِلَى كُلِّ مَكَانٍ. هُنَا حَوْلِي عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ، لَجَأَ إِلَى سَاحَاتِ الْأَهْرَامَاتِ،
كَانَتْ الشَّائِعَاتُ قَدْ بَدَأَتْ تَنْتَشِرُ بَيْنَهُمْ، قَالَ أَحَدُهُمْ لِمَنْ كَانَ فِي جِوَارِهِ، كُنْتُ أَسْمَعُهُ: «انظُرِ الْهَرَمَ يَنْهَارُ». نَظَرْتُ مَعَهُمَا،
لَمْ يَكُنْ يَبْدُو أَنَّهُ قَدْ تَأَثَّرَ، لَكِنَّ الْقَائِلَ فَزَعٌ، أَخَذَ بِيَدِ جَارِهِ، وَقَالَ لَهُ: «انظُرِ مِنْ هَذِهِ الزَّوَايَةِ، إِنَّهُ يَقِفُ عَلَى حَرْفِهِ... إِنَّهُ
مَائِلٌ... سَوْفَ يَقَعُ عَلَيْنَا!!!» كَانَ صَوْتُهُ يَرشُخُ بِالرَّعْبِ، عِنْدَمَا أَكْمَلَ عِبَارَتَهُ الْآخِرَةَ، هَرَبَ مُبْتَعِدًا، وَتَبِعَهُ جَارُهُ، تَرَاجَعْتُ
إِلَى الْوَرَاءِ، ثُمَّ انْزَوَيْتُ إِلَى الْيَسَارِ قَلِيلًا، وَنَظَرْتُ مِنَ الزَّوَايَةِ الَّتِي كَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا، فَهَلَعْتُ، كَانَ الْهَرَمُ الْأَكْبَرُ بِالْفِعْلِ يَقِفُ
عَلَى ضِلْعِهِ الَّذِي جِهَةَ الشَّرْقِ، وَكَانَ يَبْدُو مَائِلًا يَتِمَائِلُ لِلسَّقُوطِ، شَهَقْتُ، وَرَكَضْتُ هَارِبًا، ثُمَّ قَلْتُ فِي نَفْسِي: «لَقَدْ سُجِرْتُ،
كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدِثَ هَذَا؟! لَا بُدَّ أَنَّ الْخَوْفَ يُرِيكَ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدِثَ، إِنَّهُ الْوَهْمُ، الْعَقْلُ يَتَصَوَّرُ مَا يَخَافُ، وَالْخَوْفُ فِي
مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَسْهَلُ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَنُونِ». نَفَضْتُ رَأْسِي، وَعَدْتُ أَنْظُرَ مِنَ الزَّوَايَةِ إِيَّاهَا، فَرَأَيْتُهُ بِالْفِعْلِ يَقِفُ عَلَى
الْحَرْفِ، حَاولْتُ أَنْ أَحَافِظَ عَلَى هِدُونِي وَأَرْكَزَ، النَّاسُ كُلُّهَا مُشَوَّشَةٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فَكَّرْتُ: «مَاذَا لَوْ انْهَارَ الْهَرَمُ بِالْفِعْلِ،
وَتَدَحْرَجْتُ حِجَارَتَهُ الْعِمْلَاقَةَ مِنْ عَلِيٍّ؛ مَاذَا سَيَحِلُّ بِمِصْرٍ؟ سَوْفَ تَنْهَرُسُ تَحْتَهُ كَأَنَّهَا بَيْضَةٌ سَحَقْتُ بِأَقْدَامِ عِمْلَاقٍ!». “

” (٣)

مِصْرُ الشَّهِيدَةِ

بِتُّ - مِثْلَ كَثِيرِينَ - تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي فِنَاءِ الْأَهْرَامَاتِ. كَثِيرُونَ لَمْ يَنَامُوا، رُسُلُ الْأَخْبَارِ قَالُوا مَا لَا يُقَالُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. حَدِثَتْ
خَسْفٌ فَابْتَلَعَ قَرْيَةً بِأَكْمَلِهَا، لِلزَّلْزَالِ أَثَارٌ مُدْمِرَةٌ، الْخَسُوفُ الَّتِي تَكُونَتْ فِي الْقَاطِعِ الشَّمَالِيِّ ابْتَلَعَتْ أَبْنِيَةً بِالْكَامِلِ فِي جَوْفِهَا
بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ بَشَرٍ، لَمْ يَعْذُ مُمْكِنًا إِنْقَادُ الْكَثِيرِينَ، وَلَمْ يَعْذُ كَذَلِكَ بِالْإِمْكَانِ إِحْصَاءُ الضَّحَايَا، رَبَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرَ أُسْبُوعًا
أَوْ اثْنَيْنِ بَعْدَ أَنْ يَهْدَأَ الزَّلْزَالُ لِنَرَى حِجْمَ الْحَاقَّةِ الَّتِي حَقَّتْ بِمِصْرٍ وَأَهْلِهَا.

كَانَتْ الْأَفْوَاحُ تَتَنَاقَلُ أَخْبَارًا لَا تَكَادُ تُصَدِّقُ، كَثِيرُونَ ظَنُّوا أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ هَذِهِ النَّارَ الَّتِي تَأْكُلُ الْقَاهِرَةَ هِيَ النَّارُ الَّتِي
تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، تَخْرُجُ مِنْ بَحْرِ حَضْرَمَوْتِ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ النَّجَاةَ تَكُونُ فِي الشَّامِ،
وَلِهَذَا خَرَجَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ إِلَى الشَّامِ، مِنْذُ الزَّلْزَلَةِ الْأُولَى وَهُمْ يَخْرُجُونَ تَبَاعًا وَأَفْوَاجًا إِلَى الشَّامِ، يَلُودُونَ بِهَا مِنْ
غَضَبِ السَّمَاءِ. مِنْ هُنَا يُمَكِّنُ رُؤْيَا التَّمَاعِ النَّارَ عَلَى حِجَارَةِ الْهَرَمِ، صُفْرَةٌ قَوِيَّةٌ تَضْرِبُ إِلَى الْحَمْرَةِ، تُضِيءُ كُلَّ حَجَرٍ،
حَتَّى لَتَكَادُ تَرَى النَّمْلَةَ الَّتِي تَدَبُّ عَلَيْهِ.

من هنا يُمكنك أن تتخيل أن القاهرة تموج بالناس الهاربين في الشوارع، كنتَ تسمع أصواتًا بشرية مُرعبة، كما يُمكنك أن تسمع أصواتَ الحيوانات والدواب، تفرّ هي الأخرى من هذا الجحيم، القاهرة تخلو من كلِّ حيٍّ فيها، ما بالُ الملك والأمرء وكبار الأعيان والقادة والجُند والتجار وأهل المال؟! لم يبقَ منهم أحدٌ، النَّار لا تميّز أحدًا، ولا تأنف عن ذي كُفٍّ طويل!

رأيتُ كثيرين هنا يضرعون إلى الله، جلاببهم سقطت عن أكتافهم وهم يمدّون أيديهم إلى السماء، رؤوسهم مُلقاة على صدورهم في خشوع تامّ، جذوعهم تهتزّ لطول بُكائهم وتوسّلهم، رأيتُ آخرين يُمرّعون جباههم في توسّلهم بالتراب، بعضهم سجدَ على الأرض، والأرض تتقلقل من تحت جبهته، ولم يبقَ من تلك السجدة، كان يريدُ أن يموت ساجدًا، يريدُ أن يلقي الله على هذه الشاكلة.

لم تهدأ الحرائق طوال الليل، كان يُمكن رؤية كثير منها بوضوح من هنا، لم تكنُ ألعابًا، هكذا يتصوّر الخيال، ما كان لمشهدٍ مثل هذا أن يحدث لولا أن أمرًا فوق طاقة النَّصوّر يحدث؛ هل يُمكن أن ترى الجثة تتحوّل إلى جحيم، حاضرة الكون، وأمّ الدنيا، ومهوى الأفئدة، كلّ ذلك يُساق إلى النَّار بهذه البساطة!!

استمرت الخسوف، هكذا تقول الأفواه التي تنقل الأخبار، وانحسر الماء من بحر الإسكندرية، ونزل النَّاس ليتلقطوا ما فيه من سمكٍ من الجوع، ثمّ عاد فجأة وهم فيه فابتلع المئات منهم في موجة واحدة. النَّاس تسمع طرف الخبر وتزيدُ عليه، الرَّعب الذي في القلوب ينسجُ حكاياتٍ غريبةً وعجيبة، بعضها لا يُصدّق، قد تكونُ حقيقيّة، ولكنّ الحقيقة تختلطُ بألفٍ شائبة، لسان الرَّعب يزيدُ في الرّواية، الوعّاط الجُدُد، حتّى من أولئك الذين لم يركعوا لله مرّة واحدة في حياتهم زادوا، تحوّلوا إلى فقهاء ومشايخ وأصحاب تقوى، الإنسان الضّعيف يلوذ بالقويّ، لم يكن قويًّا يومئذٍ إلا الله، ولذلك لجأ إليه البِرّ والفاجر، والجاهل والعالم، والصّغير والكبير، لجأ إليه كل أحد.

تعطلت الحياة في مصر، استمرّ الحريق فيها شهرًا كاملًا، لم تعد البلاد معروفة، لم يعد لها وجه، النَّاس لم تعد تعرف إلى أين تعود، بدا أنّ الحياة تحتاج إلى عامٍ كاملٍ من أجل أن تعود كما كانت، كانت الأدخنة من أثر الحرائق في الأمكنة العامّة ما زالت تتصاعد رغم مرور أكثر من شهرٍ على بدايتها، نقصَ بسبب التّزوج إلى الشّام نصفُ سكّان القاهرة وحدها، ربّما هو أكثر من ذلك، ليس لدينا إحصاءٌ دقيق، ديوان مصر تعطلّ هو الآخر، لا يستطيع أن يقوم بمهمّته، عددٌ كبير من العاملين فيه هاجروا إلى الشّام شرقًا أو إلى ليبيا غربًا، أكثر منهم ماتوا تحت الرّدم أو في الحريق، كانت الجثث خلال هذا الشّهر لا تزال تحت الرُّكام، كثيرٌ منها تفسخ أو تحلّل أو تعفن، الجثث التي أتى عليها الحريق كانت أحسنَ حظًّا من تلك التي دُفنت تحت الرُّكام، الأولى لن تتعفن مثل الثّانية. بدأ النَّاس يتفقّدون أحبّابهم، ومن مات منهم، يبدو أنّ المصيبة أكبر من البُكاء، والحزن أكبر من الغيوان، استمرت الفرق المُتطوّعة، وتلك التي ظلّت من أهل ديوان مصر تقوم بجمع الجثث، عددٌ من الأطباء ترأس لجان تجميع الجثث، لم يكن هناك أطباء بالعدد الكافي لكي يقوموا على رأس كلِّ فريق يجمع ضحاياه، لم يكن سهلاً كذلك العثور على هذه الجثث، فمن يُمكنه أن يتنبأ بمكانها؟ بحثت الفرق تحت كلِّ كومةٍ من الرّدم، هذه أمكنة يُتوقّع أن يكون تحتها ضحايا، ولكن مع ذلك التوقّع الذي هو في مكانه، فإن عددًا كبيرًا منها لم يكن مُمكنًا إخراجُه بسهولة، من بين أنقاض الحرائق كذلك يُمكن أن تعثر على جثث، ربّما في البيوت تجد بعض تلك الجثث،

لكن غير المتوقع أن تجد الجثث في الجوامع والبرابي والصوامع والحدائق، كانت الحدائق بعيدة، ومن الصعب كذلك الذهاب إليها وانتشال الجثث المنفجعة أو المنفسيخة فيها وحملها أو جرّها إلى مكان واحد، ولذلك هناك عدد لا يمكن معرفته من هذه الجثث ظلّ مكانه، وإذ ظلّ مكانه فإن رائحته مع الريح بدأت تهبّ على القاهرة، كانت رائحة الموت، من يستطيع أن يصمد أمام رائحة كهذه؟! كانت نقادة إلى الحدّ أنها يمكن إذا دخلت إلى الأنف دوّخت صاحبها وأسقطته على الأرض، عبرت الرائحة الكريهة كلّ حيّ، وسكنت في كلّ بيت، وعششت في جذوع كلّ شجرة، كانت تزكم الأنوف، لم تسترح القاهرة منها لا في نهار ولا في ليل، كان قد مرّ على بدء نفثي الرائحة أكثر من عشرة أيام، وظلّت قويّة كأنها تفوح الآن، وبرزت لمواجهتها ألف فكرة، وطبقت جميعها ولكنها لم تؤدّ بشيء، وبدا أنّ ما تبقى في القاهرة من الأحياء يستعدّون لنوع جديد من الموت، إنّه الموت بالرائحة!!

الحريق الذي لم يرحم الموتى، أثاره لا ترحم الأحياء، تراكمت طبقة من السناج الأسود على كلّ شيء، على الجدران التي ظلّت صامدة، على الطرقات، على مآذن الجوامع، على الأرصفة، على المصاطب، على القفصيات، على كلّ شيء... حتى تراكمت على القلوب، فلم تعد ترى فمًا مُبتسمًا، وبات الشحوب يظهر في القسّمات، وبدا أنّ الخوف من موت جديد يُخيم على الوجوه، فبينما من أنّ تشعر بأنّها ما تزال حيّة! كان يمكن أنّ تمرّ بشجرة سلمت من الردم أو الحرق، فلا ترى فيها اللون الأخضر أبدًا، فإذا أخذت ورقة من أوراقها ومسحتها بأصابعك تحاثت في يدك طبقة سميكة من السناج الأسود، حتى ليكاد إذا هبّ ريح خفيفة أنّ يملأك بالسواد في لحظة، فيغيّر لونها، فلا تعود إذا نظرت في المرأة تعرفك!

ثمّ بدأ عهد الجنائز، كانت المصحات والبيمارستانات تُخرج آلاف الجثث، صلى الملك على أول مئة منها، لا أدري كيف اختاروها لتحظى بصلاة الملك نفسه، إنّها بركة السماء، ثمّ دُفنت في القرافة الجديدة، كلّ جثة في قبر، وكان ذلك غاية ما تريد لو خُيرت وهي حيّة، ثمّ صلى الأئمة على ألف في اليوم التالي، فدفنوا في المقبرة، من الصباح إلى المساء، كلّ ثلاثة في قبر، ثمّ لم يعد أحدٌ يجد من يُصلي على ضحاياه، ولا من يدفنها، فدفنت في أرضها، بعض الناس حفروا الحفر في جنانهم، أو أمام بيوتهم، وألقوا فيها جثث أقربائهم، وأهلوا عليها التراب، كان هذا أحسن حظًا من ذلك الذي لم يجد له قبرًا، أو دُفن في مقبرة جماعيّة بظاهر البلد، أو في سفح الهرم، أو في الأرياف، كان الموت يسخر من كلّ حيّ؛ فهُرّ بقدره خالقه كلّ جبار!

بعض الخسف وُلد حُفرًا كبيرة، احتاج الناس إلى شهور لردمها من أجل أنّ تُعبر، بعضهم تحاشاها، لكنّ نوعًا من الخسف لم يكن ممكّنًا تحاشيه، ذلك الذي نجمت عنه عيون حَمِيّة، وخاصّة في المناطق الأكثر انخفاصًا جهة القسطنطينية، إذ كوّن الخسف بُحيرات حارّة لا يدري أحدٌ من أين امتلأت بالماء، ربّما طبقات الأرض العميقة الساخنة هي التي أخرجتها، بعضها كان يغلي، لو وقع فيها بشريّ لذاب لحمه عن عظمه في لحظات، الناس القريبون من تلك العيون الحَمِيّة غادروا بيوتهم، الذين لا يجدون أمكنة أخرى لكي يُغادروا إليها، راحوا بمعاونة آخرين يُهيلون فيها الركام والتراب وما أتت عليه الحرائق حتى استطاعوا بعد مدّة أنّ يردموها بالكامل، من أجل أنّ يستأنفوا حياتهم أو ما تبقى منها.

مرّ ثلاثة أشهر على الحريق الكبير، ما زالت رائحة الجثث تزكم الأنوف وتملأ فضاء القاهرة والبلاد كلّها، التّعاش مع الموت ليس صعبًا كما يُظنّ، قدرة الإنسان على ذلك عجيبة، نداء الحياة في أعماقه أقوى من أيّ نداءٍ آخر، لكنّ المشكلة ليست في التكيّف مع الرائحة واعتبارها شيئًا عاديًا، المشكلة في تبعات هذه الرائحة، لقد جرّت معها موتًا من نوع جديد، ربّما تحتاج أقوى العقول إلى فترة طويلة من أجل أنّ تفهمه، أو تفهم كيف تشكّل!!

اليوم بعد مرور كلّ هذا الوقت، يُمكن أن تُفكّر بعدد ضحايا الكارثة الأخيرة، إنهم أكثر من مِئتي ألفٍ، بدا ذلك الرّمق مئة وثلاث وخمسون رقمًا ساذجًا، أبله، بدا أضحوكة أمام ضحايا الزلزال الأعظم... بدا تكريم المَلِك لهم ضررًا من الهدّيان... إنّ فكرة التّكريم نفسها لا يُمكن أن تكون واردة، ولنفرض أنّه فعل، وأنّه أراد أن يُجري لأسرهم رواتب شُهداء، فإنّه سيضطرّ إلى أن يصرف كلّ ما في خزينة الدّولة، وما في خزائن الدّول الصّديقة المُجاورة من أجل أن يدفع لهؤلاء الشّهاء رواتبهم، إذ لم يخلُ بيتٌ واحدٌ من شهيد، كان يُمكن أن تُسمّى مصر حينها: مصر الشّهيدة. “

” (٤)

روائح المَوت

وعادَ إلى القاهرة من خراجٍ منها، بعدَ أن مشى النّسيان في البيوت، أو بعد أن تناسى النّاس، وأيقنوا أنّ دَفَع عجلة الحياة إلى الأمام مع ما أصابها من خرابٍ خيّرٍ من الإبقاء عليها واقفةً في مكانها تنهشها جوارحُ الفضاء!

كان النّاس يكتشفون الجُثث يوميًا، كانت الرّائحة تدلّ عليهم في البداية، ثمّ تعود النّاس على الرّائحة فصارت تدلّهم الكلاب، ثمّ لم تعد الكلاب تفعل، فصارت تدلّهم العظام البشريّة التي يعثرون بها في سيرهم، أو تعثر بها أقدامُ دوابهم.

لم تأتِ دريّة لتعرف ما حلّ بي! ربّما عليّ أنا أن أذهب إليها، لم أستطع أن أفعل الكثير في البيت بعد كلّ هذا، كان الحريق قد أكل كُتبي، المشاعل التي أوقدتها قبل أن أخرج إلى الأهرامات في ذلك اليوم البعيد سقطت بفعل الزلزلة، بعضها انطفأ، وبعضها وجدّ في سقوطه ما يزدادُ به اشتعالًا، مرّ على هذا شهران، وما زلتُ أرى السّجاج يُغطّي حواف التّوافذ، وزوايا الأروقة، وما تبقى من الدّرابزين، شهران وأنا مع بعض الخدم تُنظّف ما حاقّ بالبيت، ولم نتمكّن من ذلك على الوجه الصّحيح، القاهرة كلّها سقطت على الثّرى بعد الحريق، فمن يستطيع أن يُنظّف رَمادها؟ ومن يستطيع أن يُنهضها من سقطتها؟!

لم أستطع أن أنام في اللّيالي الأولى للكارثة في البيت، فضلتُ أن أنام في باحة جامع الصّالحيّ، لكنّ فكرة أن تنام قريبًا من جُثث الصّبيان الذي قَضُوا تحت الرّدم مُرعبة، كنتُ أتخيّل أن بعضهم ما زال حيًّا، ماذا لو كان يرى من تحت الأنقاض ومن بين تلك الشّقوق الفُضاء، يُغالِبُ الحجارة الثّقيلة والسّقْف الذي يجثم على صدره، وتختنق أنفاسه في صدره يريد أن يطلق صرخة استغاثة ولكنّه لا يستطيع، إنّه يرى بعينيّه موته، كان مجرد تخيّلٍ لذلك يُصيبني بالرّعدة، كان ذلك يدعوني إلى أن أقوم في وسط اللّيل من الفناء، أذهب إلى ذلك المُلحَق المُهدّم، وأقوم بمحاولات يائسة للبحث عن ناجين، لكنّه كان جنونًا؟ إلى اليوم لم يأت أحدٌ ليسأل عنهم، أو يقول: «هل رأيت ابني؟!».

بعد مرور بضعة أشهر، كانت الأسواق قد شحّت من البضائع، لم يعد ميناء الإسكندريّة قادرًا على رَفْد البلاد بالطّعام، عددٌ كبيرٌ من الذين يعملون في الأسواق ماتوا أو تركوا مصر إلى الشّام، فأغلقت نصفُ المحلّات في معظم الأسواق، وبدأ الجوع يزحف على المدينة، كان لا بُدّ لديوان مصر، ومَلِكها والقائمين عليها أن يُؤمّنوا الطّعام من موانئ الشّرق، لكنّ

الشَّرْق كان هو الآخر يُعاني من آثار زلزاله، فتأخَّر الطَّعام، الفلاحون الذين بقوا على قيد الحياة، لديهم أراضٍ شاسعة ليزرعوها، لكنَّها أكبر من طاقتهم، فلقد فقدوا كثيرًا من الأيدي العاملة.

قلَّت تبعًا لذلك النِّظافة في الشُّوارع، كثيرٌ من الرِّدم لم يتمكَّن أحدٌ من إزالته، وكثيرٌ من الماء الذي تجمَّع في الخسوف هنا وهناك لم يستطع أحدٌ أن يُهيل فوقه ترابًا أو صخورًا حتَّى لا يأسن، بدأت تتشكَّل المُستنقعات في الخسوف، وصارت هذه المُستنقعات مراكز للأمراض، صار الماء الآسن فيها محضًا لكلِّ الحشرات والجراثيم والدُّويبيات، ولم يعد النَّاس يكثرثون لكلِّ ما يرونه في الشُّوارع من ردمٍ، فصارت الشُّوارع مرتعًا للكلاب الضَّالة، وانتشرت الأوساخ في كلِّ مكان، وبرزت جُنثٌ جديدةٌ هنا وهناك فركبتُ إلى روائح المُستنقعات والأسبخة والأوساخ رائحةً جديدةً، وكانت هذه الرَّائحة النَّفَّاثة القاتلة بؤابةً لما سيأتي بعدها.

مكتبتي احترقت في اللَّيلة التي قضيتها في ساحة الأهرامات، احترقت بالكامل، ألفا مُجلدٌ من أنفيس المُجلدات، جمعتها عبر رحلتي الطَّويلة في العلم، بعضها حملته معي من بغداد، والقدس، وعكا، وصور، والمَوْصل، وحواضر أخرى... كلُّه احترق، بقي من الألفين حوالي عشرين كتابًا، الأثمن من مكتبتي التَّهمته النَّيران، بعضُ هذه الكتب بخطوط أصحابها، كتب الأنباري أكثرها كانت لديَّ نُسخٌ منها بخطِّ يده، ابن جبير الرَّحالة أهداني كُرَّاسة من كراريس رحلاته بخطِّ يده، نُسخةٌ من ديوان المتنبي، عليها شروحاتٌ بخطِّ تلاميذ العُكبريِّ كانت في هذه المكتبة، والآن كلُّ هذا انتهى. انتهى لأنَّ النَّار كانت جائعةً في تلك اللَّيلة! لا يُمكن أن يكون في الفقد أفسى من أن تفقد كتابًا عزيزًا عليك، فكيف بهذه المجموعة التي لا يُمكن أن تُعوَّض. بقيتُ مريضًا بسبب هذا الفقدان شهرًا كاملًا لا أبرح سريري، لم أكن لأفعل شيئًا سوى أن أرسل نُظراتٍ بلهاء لا معنى لها عبر نافذة الغرفة، وأبكي دموعًا حارةً تسيل على خدي بصمت.

توقَّفت التَّدريس في جامع الصَّالحِي منذُ مدَّة، لم يعدْ هناك طلبه، مسجدي بالذَّات، لم يعدْ أحدٌ يُفكِّر ببيعِ ابنه في مثل هذه الظُّروف إلى حلقاته، وخاصَّةً أنَّه المسجد المشهور بوقوع الرِّدم على الصِّبيان فيه، توقَّفت التَّدريس في أكثر من نصف مساجد القاهرة، وظلَّ بعضُه في المساجد الكبرى كمشهد الحُسين والأزهر، وتحوَّل في مساجد أخرى إلى ابتهالات وتضرَّعات إلى الله.

عَنَّ ببالي في هذه الأجواء الحزينة أن أذهبَ إلى مُنشأة القاضي الفاضل، فركبتُ الحِصان، الأبلق هو الآخر لم يعدْ قويًّا كما كان في السَّابق، زحفتُ إليه الهُزال تدريجيًّا، إنَّه لا يأكل جيِّدًا، لم تعدِ الأسواق تطرح شعيرًا كثيرًا، بالكادِ أعتُر له على كميَّة معقولةٍ كلَّ أسبوعٍ مرَّة، لكنَّه يبدو صابرًا ومُتفهِّمًا لما يحدث، فهو ما يزال يُطيعني، ولئن كان يحزن في أيَّام الرِّخاء، إنَّه الآن في أيَّام الشدَّة لا يفعل ذلك أبدًا، ثمَّ يُمكن القول إنَّه صديقٌ وفِيٌّ يُقدِّر ما نمرُّ به. مضينا أنا وهو، قلتُ له: «إلى مُنشأة القاضي الفاضل» كان يَكفيه أن أضع قدميه على أوَّل الطَّريق في الجهة التي تُؤدِّي إليها من أجل أن يجري بي إلى هناك.

في الطَّريق مرَّنا بالقلعة، قلعة صلاح الدِّين، كان جزءٌ من سورها قد تهدَّم وملا الطَّريق، أربعة أبراج من أبراجها الثَّمانية سقطت، وبوابةٍ واحدةٍ أغلقتها الحجارة المُتساقطة، على الأقلِّ فيما بدا لي من هنا أنا والأبلق. الدِّيار تُصبح بلقعا، الأحبة يموتون، والبيوت تخلو من أهلها، وما كان عاليًا سُوي أكثره بالأرض، كأنَّ الزَّلزال كان يُعجبه أن يُسقط الرُّوس العالية!

وتذكّرتُ لما طلع إليها صلاح الدّين ومعه أخوه العادل، فقال صلاح الدّين له: «هذه القلعة بُنيّت لأولادك». فظنّ العادل أنّ أخاه لا يريدُه أن يسكنها، أو أنّه يُعجّل بموته، فتنشأ، فرأى صلاح الدّين ذلك في وجهه، فقال له: «لم تفهم عني، إنّما أردتُ أنّ أولادي غير نُجباء، وأنّ أولادك نُجباء». وكان الأمر على ما قال صلاح الدّين، سكنها ابنُ أخيه، وهي اليوم خاليةٌ ليس فيها إلاّ مَنْ يحرسها، وقد تزلزلتْ فزلتْ عن رؤوسها تيجانها.

ومضيتُ بالأبلق، فأشرَفنا على المنشأة، فبدتْ خرابةً، وهالني أنّ أحدًا لم يلتفتْ إليها، بتنظيفها، وإزالة رُكامها، وإصلاح سورها وقصرها، وإعادة زراعة حدائقها، فلما دخلتُ بالحصان من الباب المُتهدّم، عبرتُ أنفي رائحة القاهرة الكريهة، إنّها مجموعةٌ من الرّوائح التي قَطَرها الموت ونثرها في الجوّ. رأيتُ الصّمت يُطبّق في المنشأة على كلّ شيء، وخيّل إليّ أنّها مهجورةٌ تمامًا، ليس فيها إلاّ الغربان تحوم على ما تبقى من لحوم الموتى وتنهشها، فقلتُ: «لا بُدّ من العبور إلى المكتبة لأرى إنْ ظلّ فيها أو منها شيء». ومضيتُ وسط العجيرة والحجارة المُبعثرة، أدوسُ بالأبلق على كلّ ما في طريقنا حتّى أشفيتُ على الرّواق المُفضي إلى المكتبة، فسمعتُ أصواتًا مُتداخلةً، وجلبةً عاليةً، فخفتُ أوّل الأمر، وظننتُ أنّهم لصوص أو قُطاع طُرق، وأنّ الأمر فيه مُخاطرة، ثمّ سمعتُ من بينها صوتًا أعرفه، لكنني لم أعرف صاحبه في البداية، كان الصّوت يقول: «الصندوق بدرهم». ثمّ لما أصخّث إليه السّمع، عرفتُ أنّه (شريف) غلام القاضي الفاضل، فقلتُ في نفسي: «هل ظلّ يعيش في المنشأة بعد موت سيّده؟» واستدركتُ: «ولمّ لا؟ فوّرثة القاضي الفاضل كثيرون، ولربّما عاش عندهم، واستمرّتْ حياته بينهم... لكنّ ما قصّة الصندوق بدينار..؟!». نزلتُ عن الأبلق، وربطته، ورحتُ أمرّ على آثار الحريق، وقد غطّى السّناج الجدران، وكان يزداد في الرّوايا مع العناكب التي تتخذ لها في تلك الرّوايا مسكنًا، فتندلّي فخاخ العناكب إذ صارت مضمفورةً من السّناج الأسود. ولما انكشفت لي الرّواق عن باب المكتبة عند أوّل غرفةٍ، هالني ما رأيتُ، ووقفتُ أنظر دون أن أشعرهم بوجودي؛ لقد كان هناك أكثر من عشرة جال، يقومون بملء الصناديق بالكتب، أو ما تبقى منها، إذ كانت النّار قد أتتْ على نصفها، والزّلزال قد كَبّ أكثر النّصف الآخر على وجهه في وسط الرّدم، وكان فيها قبل الكارثة أكثر من مئة ألف كتاب، ولعلّ هذه الكارثة أهدمت ثمانين ألفًا أو أكثر منها، وبقي عشرون ألفًا وإنّ كُبت على وجوهها، وهذا العبد (شريف) يبيعه على هواه، كلّ صندوق بدرهم، فلما عرفته، وعابنتُ سواد بشرته، وزرقة عينيّه، صحتُ به: «يا شريف... ما تفعل أيّها الأحمق؟». فلما سمع القوم صوتي، نظروا إلى موضعي، وتوقّفوا عن رمي الكتب في الصناديق، ونظر إليّ شريف فعرفني، فهتف: «مولاي». فصرختُ: «كيف تبيع ما لا تملك أيّها اللّص؟!». فمضى نحوي وأراد أن يعتنقني، فرددته بباطن كفيّ، فتراجع، ومسح على جبهته، ووضع ما كان في يده من الدّراهم في جيب قميصه، وقال: «لقد مات سيّدي». «فإنّ مات أفيكون لك الحقّ في ماله؟». «يا مولاي؛ لم ينبج سواي».

هرّتني جملته الأخيرة، وسألته: «ماذا تعني؟». «لقد قضى بعضُ ورثته في الزّلزال، وما زالت جُثثهم تحت الأرض لم أجد من يُعينني على إخراجها من هناك». «والعبيد؟». «بعضهم مات، وبعضهم هرب، ومنّ تبقى منهم نهب ما في القصر من طعامٍ وشرابٍ ومؤونةٍ وغادر، العبيد الملاعين لم يتركوا غير الكتب، حتّى الخزائن والفُرش والسّجاد والصّحون أخذوها، وبقيتُ أنا هنا وحيدًا، أحرصُ القصر منذ ثلاثة أشهرٍ حتّى يأتي أحدُ الورثة، لكنّ أحدًا لم يأت، وداهمني الجوع، فكنتُ أكل ورق الشّجر حتّى لم يبقَ في الشّجر ورق، ثمّ جاءني أحدُ الدّالين، وعرض عليّ أن يشتري ما نجا من مكتبة القاضي، فقلتُ: أبيعها وأحمي نفسي من الموت، وإذا جاء صاحبها أضع نفسي بين يديه يحكم فيّ كما يشاء... وما أنت تراني يا مولاي، أفق على الحرف بين الموت والحياة، وهذه الصناديق التي يملؤها بالكتب، أبيعها كما سمعتُ الصندوق بدرهم أسدّ بهذا الدرهم الواحد رمقي». شعرتُ بالإشفاق عليه، ربّث على كتفه، أخذته زاويةً وسألته بصوتٍ خفيض: «كم صندوقًا بعت؟». «بعث مئة صندوق». «وكم بقي؟». «أظنّه بقي ما يملأ مئة أخرى». «إدًا، هذا يكفي، المئة التي بعتها تكفي، دغ لصوص الكتب يرحلون من هنا، أنا سأشتري ما تبقى، لا تقلق، هي عندي خير من أن تكون عند هؤلاء يجعلون منها لُعَبًا يبيعونها في سوق القفيصات أو الشّمّاعين». هرّ رأسه مُوافقًا. ثمّ هتف بالرجال الذين كانوا لا يزالون مُنهمكين في إلقاء الكتب بدون ترتيب أو حرمةٍ في الصناديق: «هذا يكفي، لن أبيع شيئًا بعد الآن، هيا، ارحلوا». خرج الرجال وهم يرمقوني شزرا. جلستُ على الأرض بعد أن خرجوا، ووضعْتُ رأسي بين يدي، وانخرطتُ في بكاءٍ شديد!!

الجوع يحاول المشي، كان يحب، والآن قويت رجلاه، إنه يمشي بشكلٍ مُستقيم، بعدَ قليلٍ سوف يمشي بشكلٍ أسرع، ثم سيتناول خنجرًا من أول تابوت، ويبدأ بطعن مَنْ يجده في طريقه ذات اليمين وذات الشمال. كان ظلًا فصار مادة، وكان خيالًا فصار واقعًا، إنه إن ألقى ثوبه على أرضٍ فلن يرتفع عنها إلا بعد أن ينهشَ فيها كلَّ شيء.

استغاث الملك بكبار التجار، بالديوان، بالقائمين على تأمين الغذاء لأهل مصر، فقالوا إن قوافل طريق الحرير قادمة، لكن الزلزال أخرها، كان من المفترض أن تصل منذ ستة أشهر، لكنها توقفت كل هذه الفترة في ميناء أنطاكية بسبب ما حدث، وقريبًا ستبحر إلى اللاذقية، ومنها إلى الإسكندرية، وعلى أهل مصر أن يصبروا شهرًا في الحد الأقصى حتى يأتيهم الغذاء ويستعيدوا عافيتهم. أما أهل الشام فلم يتمكنوا من إيجاد مصر؛ بسبب ما حدث أيضًا، فالزلزال لم يرحم أحدًا.

كان الصليبيون يراقبون الأمر عن كثب، طمعوًا في مصر والشام والقدس بعد أن أخرجهم صلاح الدين، والآن حان الوقت ليثاروا من الدولة المتداعية، كانوا مثل كلابٍ قد سمنت في وقت الشدة وأرادت أن تهجم على الأسد الهزيل الذي لم يعد قادرًا على أن يتحرك من مربضه.

كانت البضائع تبدأ طريق الحرير من الصين، من مدينة (تشانغ آن)، تعبر طريقًا بريًا، وآخر بحريًا إلى أن تصل إلى أنطاكية، لتبحر من هناك إلى كل دول البحر الأبيض، ولقد اقترب موعد وصولها إلى الإسكندرية، ولكن طول المدة، وظروف بقائها في هواء البحر، وطرق تخزين البضائع أفسدها، فلما هبطت ميناء الإسكندرية، كانت قد فسدت تمامًا، فلقد عاث فيها العث والدوبيات، ولقد كانت مرتعًا للفئران، تنام وتأكُل وتشرّب وتسرّح وتمرّح فيها، ولقد كانت الفئران لكثرتها تنقب كل شيء، حتى لقد رُئيَتْ تتراكم على جبال السفينة، وشوهدت تصعد تلك الجبال إلى الأشرعة، إنها تعيش هنا بأمان، فلم يكن أحدٌ من بحاري هذه السفن لديه النية في أن يقضي عليها، ولماذا يفعل ذلك إذا كان عددها لا ينتهي؟ وهي تتوالد في كل يوم بالمئات، إضافةً إلى أن القضاء عليها سوف يبخر من ثمن البضاعة، فهي وزنٌ إضافي، وهي قدرٌ من الله، ومن الحمق التعرّض لهذا القدر!!

نحن في الشهر الثاني من عام ٥٩٨ للهجرة، البيوت المهجورة أكثر من البيوت المعمورة، قلّ صفقُ الناس بالأسواق، الجوع يزداد، بعض الناس لجؤوا إلى السرقة، ربّما حدثت حادثة واحدة أرقت الملك بنفسه، قتل أحد اللصوص في سوق الحلوانيين صاحب حانوت ليأخذ ما في حانوته من طعام، فخاف القاضي أن ينتشر القتل في الناس، فنصح الملك بأن يُعديه في ساحة المشهد حتى يراه أكبر عددٍ من الناس، ففعل. كان اللص مُقيّد اليدين خلف ظهره، جاثيًا على رُكبتيه، وكان رأسه مشدودًا إلى صدره، وعنقه بارزةً لضربة السيّاف، هوى السيّاف عليها فتدحرجت بضربة واحدة أمام الناس، وصاح المُتجمهرون، وكان في ذلك إيذانًا من الدولة أن السيّاف جاهزٌ لكي يقطع عنق أي أحدٍ يظنّ التلاعب بالأمن سهلاً.

سكت الناس بعد أن شاهدوا الرأس المُتدحرجة، لزم كثيرٌ منهم البيوت، حتى أولئك الذين لم يحضروا المشهد الرهيب ووصلت إليهم أنباؤه لبدوا في بيوتهم، ثم أخرجتهم الحاجة، والحاجة أشد من الخوف، فبدؤوا يطوفون في الأسواق، يبيعون أي شيءٍ من متاع بيوتهم، ثم لم يعد شيءٌ يُباع، فصاروا يأخذون من بعض التجار بعض ما لديهم من أشياء، ويطوفون في الطرقات من أول النهار إلى آخره لا يكادون يُحصلون من يشتري ما معهم، فلم يعد في جيوب الناس مال، ولم يعد لدى أكثرهم عمل، ثم في آخر النهار يعودون إلى التاجر الذي أخذوا منه البضاعة فإما أن يرجعوا إليه كما أخذوها لم

يشتر منهم أحد، أو يكونوا قد وُفقوا إلى بيعها، فيعطوا التاجر ماله، ويشترى بما ربحوه؛ درهمين أو ثلاثة ما يسدّ رمقهم
ورمق عيالهم لتلك الليلة!

ثم وصلت بضائع طريق الحرير إلى الإسكندرية، فتوزّعها التجار الكبار، فبيعت في أسواق البلاد، فدخلت مع فنرائها
إلى المدينة، وبعد أسبوع من دخولها، صار مألوفاً أن تجد فأراً يركضُ مُسرّعاً وهو يعبر شارعاً، أو يدخل جحراً أو
يتراكم بين أقدام المارة، وبدا منظرها أول الأمر مثيراً، لدرجة أن بعض المارة هلعوا وخاصة النساء منهم، لكنهم مع
الوقت صاروا يعتادون ذلك، غير أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، إذ بدأ الناس يُشاهدون تلك الفنران مَيّنة في الطرقات،
وكان من المُمكِن أن تلاحظ أحدهم وقد لَفَّ الفأر في خرقه وألقاه بعيداً عن الشارع. أو حمله من ذيله بين إصبعيه، ووضع
أصابعه الأخرى فوق أنفه اتقاءً للرائحة، ثم رماه عن قارعة الطريق.

ثم صارت الفنران تموت في الشوارع ويراها الناس دون أن يلقوا لها بالاً، ثم صارت الفنران تموت داخل البيوت، ثم ألف
كثير من الناس النوم مع الفنران المَيّنة، ثم لما انقضى الربع الأول من تلك السنة، صارت الفنران تُشاهد تركض حية، أو
تجثم مَيّنة في كل مكان، لقد كانت القاهرة آنئذٍ مدينة الفنران!!

كنتُ أجلسُ في فناء السّاحة، أنظر إلى شجرة البان التي سلمت من الموت حتّى الآن، وأرى خيال دريّة تحتها، وهي
تنظر إليّ بعينيها السّاحرتين، وأسترجع صورها مع صور الزلزال والخسف والحرائق، وأهتف في نفسي: «أين دريّة من
كلّ هذا؟». إنه شعورٌ طاع بالوحدة، لأول مرّة أشعر أنني غريبٌ إلى هذا الحد، كأن مصر تقول لي: «لم تعد لك هنا حياة،
فارحل». ولكنّ الرّحيل ليس سهلاً، ثمّ إنني وجدت ذاتي هنا، وقضيت في هذه البلاد أكثر ممّا قضيت في بغداد، ولقد
عشتُ فيها زمناً رغيداً، وأصبحت من العيش هناءة، الآن لأنّ المحنة أصابها صارت تراودني نفسي أن أتركها؟! أمّن
الوفاء أن أهجّر بلدًا حنا عليّ، وعشتُ فيه أجمل أيامي، بدعوى أنه صار يتفجّر بالموت في كلّ زاوية منه؟ وأين واجبي
طبيياً مهمته أن ينقذ أكبر عددٍ من الأرواح في هذه الجائحة؟ ثمّ إذا لم أقض حقّ هذه البلاد وأرد لها الجميل في مثل هذا
الظرف، فمتى سيكون ذلك؟!!

صعدتُ إلى غرفتي، إنّه أيام عصيبة، راودتُ النوم عن نفسه، فلم يبذل لي مُبتغاي، فقمّت، هبطتُ الدّرجات، من هنا في
آخر الرّواق، يُمكنك أن ترى الأبلق، يبدو حزينا هو الآخر، عيناه مُغمضتان، ضميرُ بطنه، وخفّ لحمُ كَفَلِيه، وبدا الهُزال
في وجهه، صار صفيقاً بعد أن كان مُكتنزاً سميئاً، اقتربتُ منه، أردتُ أن أحضنه، لكنّه كان في عالمٍ غير عالمنا، لديه
همومه هو الآخر، ولديه أوجاعه، ومخاوفه، يُحزنني يا جصاني العزيز ما نمر به، لكنّ ما يخفّ عليّ وعليك أننا نمرّ به
معاً، وأنّ كلّ هذا سينتهي، وستؤول الأمور إلى خير. تركته ساهماً في أفكاره، وقلتُ لنفسي: أجلسُ في المكتبة أقرأ حتّى
أنعس، ثمّ أقوم إلى النوم، كنتُ قد اشتريتُ ما تبقى، أو ما تمّ إنقاذه من مكتبة القاضي الفاضل، لكنّ الكتب اليوم تبدو حزينةً
وشاحبةً مثل البشر، الغبار يعلو أوراقها، والكسر أصاب كُعبها، والتمزق حاقّ بأطرافها، إنّه تبدو بالفعل بائسة، كلّ
كتابٍ أخرجته من الرّفّ أسمعُه يقول: «دعني في همّي، فإنك إن قلبت أضلاعي، تكون كمن أثرت أوجاعي».

بقيتُ في المكتبة حتّى انتصف اللّيل، صعدتُ ثانيةً إلى غرفتي، منذ أول هزّة انقلب حائلها هي الأخرى، أقدم السّرير
تهشمت، ولم تعد قادرةً على حمل جسدي النّحيل رغم أنني قمتُ بإصلاحها قدر المُستطاع، الجدران يزداد سوادها من
السّناج على ضوء القمر الذي تنساب أنواره من النّوافذ، تمددتُ على السّرير، استجلبتُ سعدَ النّوم لكنّه لم يأت، تقلّبتُ
كثيراً، لم أنم، ظلّت دريّة تخطر ببالي، كنتُ متشوقاً جدّاً لمعرفة ما حدث لها، بقيتُ حتّى الفجر أفكر فيها، نهضتُ الفجر
فنهضتُ، ترددتُ في الدّهاب، إنّه لا وجه له، ربّما أقول إنني أريدُ أن أفق إلى جانب من تضرّروا في هذه الأيام، نداءً
أخلاقيّ قد يكون مُفنعاً بعض الشّيء، ولكنّ لماذا هي وحدها دون غيرها؟! هناك مئات الآلاف مثلها، إنّ البلاد كلّها أصابها

ما أصابها، فلماذا هي دون سواها؟ ظللت في ترددي حتى صليت الظهر، ثم ولجت إلى المكتبة، فبدأت أطلع فيها بعض كتب الطب، فكان وجهها يخرج لي من بين السطور، أغلقت الكتاب الذي بين يدي، وتمشيت في الأروقة قليلاً أطرده بعض ما أصاب ذاكرتي، وعدت، تناولت كتاباً آخر، ثم كتبت سواها، وجميعها أغلقتها بعد أن لم أتم قراءة صفحة أو اثنتين منها، لأن وجهها كان يظهر لي في كل كتاب!! «الحل في رؤيتها»، قلت ذلك لنفسي. «بعض الوجوه تُريح». أردفت. «وبالرؤية ينبت الشك». ركب الأبلق وطرت إليها.

نزلت الدرجات إليها، بدت سليمة تماماً، لم تتأثر بالزلال، ولم يأتها الحريق، وكذلك بدت القبور من هنا، كأن الموت لا يزور الموت، فإذا مر بطريقه سلم عليه وأعطاه الأمان ومضى، عندما أتممت هبوط الدرجات، وصرت في مواجهة الباب، طرقت عليه طرقات خفيفة، وفتفت: «درية». لكن الدرجات والباب والعتبة ظلت صامتة مثل القبور التي في ظهري، طرقت بشكلٍ أشد، ورفعت صوتي: «درية». فجاءني صوتٌ واهنٌ من الداخل: «ادخل». فتحت الباب ودخلت، كانت درية تجلس على الأرض وفي حضنها ابنها (كرم)، وكانا يبدوان ميّنين، لولا أن عيونهم كانت تتحرك نحوي، دُعرت لمشهدهما، اقتربت أكثر، جثوت على قدمي، وقلت بصوتٍ مجروح: «ماذا حدث يا درية؟». ردت بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «لم نأكل منذ شهر». وقف على قدمي، وأنا أرتجف: «لماذا لم تقولي؟».

لكنها ظلت صامتة، خرجت مسرعاً، ركب الأبلق، وقصدت أقرب بقالٍ من التربة، مررت على السوق، فتشئت من أوله إلى آخره، فلم أجد فيه بقالاً واحداً يفتح دكانه، طرت إلى سوقٍ آخر، ووجدت أحد الحوانيت، فيه بعض العدس وال فول والياميا والأقط، فاشتريت منه ما وسعني، وعدت، جاهدت أن أجد مخبزاً، لكنني عييت، ووجدت عند سمان بعض الخبز، يبيعه بأثمانٍ مُرتفعة، فاشتريت منه بعض الأروقة، وطرث من جديد إلى التربة، أوقدت على النار، وطبخت لهم ما أمكنتني، وأكلوا.

كانوا يأكلون بشراسة، بدوا خلقاً آخر، لم أعرف درية أول ما رأيته، جسدها المكتنز أصبح نحيلاً جداً، وجهها الممتلئ صار صفيقاً، جبته العريضة ضاقت، وعيناها باهتتين، قد ماتت فيهما الدنّب والصقر معاً، أما كرم ذو الرابطة فقد بدا أنه قطعة من اللحم تتكور على نفسها، وهو يتضاغى وقد اختلج صوته الخارج من فمه الصغير، رق قلبي لحالهم، بكيت في داخلي لما ألوا إليه، لم يكونوا وحدهم في هذا، كان هناك آخرون يُعانون ما يعانون، ولكنهم في قلبي.

سألته بعد أن شبعت، وشبع كرم: «أين مارية؟». تجاهلت سُوالي، قامت وقالت: «سأعد لك شرباً». تركتها مدة، ثم سألتها ثانية: «أين مارية؟». كنت أنظر في عينيها، فأزاحت رأسها إلى الجهة الأخرى، درت حتى صرّت مواجها لها، وسألته من جديد: «هل ماتت؟». خفضت طرفها، ثم همست بصوتٍ خافت: «يُمكن أن تعتبرها كذلك؟». «كيف؟ كيف ماتت؟ هل انهار عليها شيء؟ هل...». قاطعتني: «لا، لم تمت». «فأين هي إذا؟». «في سوق الشماعين». «في سوق الشماعين؟». رفعت صوتها قليلاً: «نعم في السوق». «هل تقصدين...؟». وصمتت خوفاً من نطق الكلمة، ثم استجمعت شجاعتي، وسألت مُستكبراً: «هل تقصدين في دور البغايا؟». أسقطت نظراتها بعيداً عني، كررت هذه المرة السؤال بطريقة أحد: «هل بعثت بها إلى البغايا؟». رفعت رأسها إليّ فجأة، وحدقت فيّ بقوة، وبدا الدنّب ينهض مُتثاقلاً في عينيها: «نعم». صرخت: «أجنت يا امرأة؟». «لا علاقة لك بالأمر». «مجنونة، أنتِ مجنونة يا درية، كيف تُطاولك نفسك أن تفعل هذا؟». صرخت في وجهي: «اخرج من هنا، أنت لا تعرف شيئاً، أنت لا تعرف ما معنى الجوع؟». وبدا أن صوتها لان، وأنه مُندى بالدمع. «وترمين ابنتك لحثالة الناس وللحرام من أجل هذا؟». «وقر على نفسك وعظك أيها الفقيه، إنك لم تُجرب أكل التراب في حياتك». صرخت وأنا أضغ كفي على جانبي رأسي: «سأستعيدها رضية أم سخطت، لن أسمح لك أن ترميها بين أنياب الدناب بهذه الطريقة». نظرت إليّ ساخرة وهزت جذعها، وهي تضع كفها على وسطها: «ومن أنت حتى لا تسمح لي؟ عُد إلى دروسك البلهاء مع الصبيان، مع أنني متأكدة من أنه لم يعد أحد يستمع إليك، ودعنا وشأننا». «لن أدعك وشأنك، سوف أخرج من هنا، وسأخلصها من الوحل الذي رميتها فيه، أنت مجرمة». وصفت الباب خلفي.

الشمسُ ترحلُ مُسرعةً وأنا أطاردها، أركضُ خلفها خارجًا من قِرافة الشّافعيّ إلى سوق الشّماعين، سوف يبدوون بعد أن تغيب، وعليّ أن ألحق بها قبل أن تكون قد تورّطت في هذه المهنة الملعونة، إنّها في الثّالثة عشرة، ربّما أصغر أو أكبر قليلاً، لكن كيف فعلتُ دريّة بها هذا، تذكّرتُ وأنا أعدو فوق الأبلق، أحثّه بكلّ ما أستطيع كي يسرع، تذكّرتُ يومَ لمحتّها في السوقِ إيّاه، ويوم خُيل إليّ أنّني أسمعُ صوتها، ولا أدري إلى اليوم إن كان صوتها أم لا، لكنّها بسمحها لابنتها مُمارسة هذه الرّذيلة قد يكون ذلك الصّوت صوتها بالفعل.

وصلتُ إلى السّوق، نزلتُ عن الأبلق كالمجنون، ربطته على عجلٍ في أحد المرابط، وتوجّهتُ إلى دُورهنّ، كان الرّبانن لا يزالون قليلين، هكذا يبدو المشهد من هنا، لكنّ مَنْ يدري ماذا يدور في الدّاخل؟ كم من زليخة خلف الأبواب تراوّد فتاها عن نفسه! رأني القوّاد ذا الجُتّة الضّخمة الذي يقفُ على المدخل، كنتُ في هيئةٍ غاضبة، ألفّ عباةتي على جذعي كي لا تُعيقني، وأخطو بخطواتٍ واسعة، أرادَ أن يسألني: «ماذا تريد؟ لدينا كلّ ما تطلب» فلم ألثفتُ إليه، ومضيتُ أنهبُ ما تبقى بيني وبين الباب، فلقق بي، وأرادَ هذه المرّة أن يُوقفني، فأزحّته بغضبٍ عن طريقي، ومضيتُ. دخلتُ، فصاح: «هيه.. أنت... توقّف». لم ألثفتُ إليه، كان الغضبُ قد استبدّ بي، كان الرّواق مُضاءً بالشمّوع ذات الألوان المُتعدّدة، صفراء، وحمراء، وبنفسجيّة، ووردية... مشيتُ في الرّواق الذي تنتشر على جانبيه غُرف البغايا، أقتحمها والقوّاد خلفي يصيح، كان الغضبُ قد أكسبني قوّة هائلة، وشجاعةً غير مُتوقّعة، فبقيتُ أفتح الأبواب، توقّعتُ في زمن المحنة ألاّ أجد خلف تلك الأبواب بغياً ولا فاجراً، ولكنّها كانتُ تغصّ بالرّبانن! فكّرتُ للحظات؛ بدل أن يلجؤوا إلى الله ينغمسون في الخطايا؟ لم أجدها حتّى الآن في أيّ غرفةٍ من الغرف التي اقتحمتها، كانتُ بعضُ أصوات البغايا تنفجر من هلع حينما أقتحمُ عليهنّ الباب وهنّ يستلقين في أحضان رذائلهنّ مع الرّجال، بعضهنّ لم يكثرن، واستمررن في أداء عملهنّ، أخريات كنّ يبتسمن ويدعونني إليهنّ خاصّة أولئك اللواتي لم يكن معهنّ من الفجرة أحد، كنتُ لا أزال أخبطُ الأبواب، والقوّاد يُمسك بي وأنا أفلتُ من ذراعهم، وأتملصُ منها بما ملأه الحنق فيّ من قوّة، وأصيحُ بأعلى صوتي: «ماریة... يا ماریة...». حتّى دخلتُ غرفةً، ووجدتُ فيها فتاةً صغيرةً نائمةً على السرير، كانت وحدها، قلتُ: لعلّها هي، كان ضوء المشعل الذي أمام غرفتها أصفر، وهذا يعني أنّها بدون زبون، أولئك اللواتي كنّ مشغولاتٍ مع زبائنهنّ، كانتُ أضواء المشاعل أمام غرفهنّ حمراء. دخلتُ إليها، على الصّوء الخافت في الغرفة رأيتها، اقتربتُ أكثر وقد صرّتُ فوق رأسها تماماً، جثوتُ على رُكبتيّ، وصار وجهي في وجهها، إنّها هي، هزّرتها من كتفها، وهتفتُ: «ماریة، استيقظي... ماریة». تحرّكتُ في الفراش، فتحتُ عينيها ببطء، ونظرتُ إليّ مذعورةً، واستوتت على السرير، كان الدّعر يسيل من عينيها، هتفتُ بحنو، وأنا أمسكُ بيدها: «أنا عبد اللّطيف يا ماریة... عمك عبد اللّطيف...». بدأتُ تتذكّر: «عبد اللّطيف... أه...» التفتتُ حولها، فرأت القوّاد الضّخم، فلانثتُ بي، هتفتُ: «لا تخافي، سوف أخرجك من هنا.. هيا بنا». وقفتُ على قدميها، ومضينا، سدّ القوّاد الباب بجُتته: «إلى أين أيّها الشّيخ الجليل، إنّها مُلك لنا». «ابتعدُ عن طريقي». «أقول لك إنّها مُلك لنا». «هل باعتهَا أمّها يعني لكم؟». «تقريباً؟». «ماذا تعني؟». «ليس لها أن تخرج حتّى تكون قد حصلتُ لنا أجرة يومها، وعليها أن تدفع ثمن ليلتها». «وإذا دفعته لك تتركنا؟». «أترككها، إذا دفعته مُضاعفاً عنك وعنها». «لَمْ أنا مُضطرّ أن أدفع عني؟». «لأته كان من المُحتمل أن يأتيها زبونٌ وسيدفع». كانتُ أنفاسي تتلاحق من الغضب: «كم أيّها الكلب؟». «خمسون ديناراً». دفعتهَا، فخلّى بيننا وبين الخروج، قهقه بصوتٍ عالٍ ارتجّت له جدران الرّواق، هتف: «إنّ زبائن هذه الأيام لا يدفعون ديناراً واحداً في ليلةٍ حمراء مع بغّي، تعرف الظّروف، صرنا نبيع الأجساد بأقلّ من هذا الدّينار في هذه الأيام، لكنّ رزق الله واسع، خمسون ديناراً هي غلّة شهرٍ بأكمله!!».

أركبتهَا على الأبلق خلفي، وانطلقتُ بها إلى بيتي، قلتُ لها في الطّريق: «ستعيشين معي ريثما نجدُ حلاً». هزّتُ رأسها موافقةً، لم تكن قادرةً على الكلام، وصلنا بعد العشاء الأخرى، أرشدتها إلى الحّمّام: «نظفي جسدك من قذارات سوق

الشَّمَاعِينَ». كانت تنظر في الأرض، عيناها زائغتين، بدت جميلةً حتّى مع شعنها، رقيقة، وردة ألقيت في مزبلة، ما الذي فعلينه بها يا دُرِّيَّة؟ أكَّدت لها: «مِنْ هنا». مضت إلى الحَمَّام، هتفت: «هل تحتاجين إلى ملابس جديدة؟». لم تقل شيئاً.

ظَلَّت تسير إلى الحَمَّام، أرددت: «غداً تذهبين معي، وتشتريين ما تحتاجين له».

خرجنا إلى السُّوق معاً، إلى سوق الحرير، اشترت كلّ ما تحتاجه، كانت عيناها تنطق بالشكر لكنها كانت لا تتكلّم إلا كلماتٍ مُبعثرةً حتّى الآن: «ما الذي حبسَ لسانك يا ماريّة؟». عُذنا إلى البيت وقت الظّهر، توجّهت إلى المطبخ، لم تقل شيئاً، أخرجت ما فيه من طعامٍ، وطبخت لنا ملوخيةً، جلسنا إلى طاولة الطّعام الموجودة في المطبخ، وضعت الصّحون على الطاولة، كانت رائحة الطّعام شهيةً، استرجعتُ بها زمنَ أمّها، عندما طرقتُ بابي أوّل مرّة قبل ما يقربُ من سنتين، تدور على البيوت تطبخُ لهم مقابل دُرِيهمات. كانت ماريّة قد أتمّت وضع ما تريدُ من الطّعام على المائدة، جلستُ قبالي مُنكسةً الرّأس، كان واضحاً أنّ في فمها كلاماً كثيراً لكنها لا تريدُ البوحَ به، بعضُ البوح يُريح وبعضُه يُعذب، يبدو أنّ سكوتها منذ أمس حتّى هذه اللّحظة يُرجّح النوع الثّاني منهما.

بدأت بالأكل، دعوتُها: «إته طعامك... كُلي». كان شيئاً أكثر ممّا أتوقّع أو أريد، يبدو أنّها ماهرةٌ في الطبخِ بالفطرة، لم تمدّ يدها إلى لُقمة. «إتك جائعة، وأنتِ من أعددتِ هذا، فهيا». قَسَمْتُ بأصابعها الصّغيرة الرّقيقة لُقمةً واحدةً من الخبز، وراحت تمضغها في فمها ببطء. كان الطّعام ساخناً ولذيذاً، وسائعاً في الفم، لم أكل مثله منذ عامٍ، هكذا كنتُ أفكر، بينما هي لم ترفع رأسها إليّ. كدتُ أنهي الطّعام، وهي لم تأكلُ إلا على استحياء، نظرتُ في عينيها، لم تكنُ كعيني أمّها، كانتا واسعتين، وبرينتين، وحزينتين: «إتك في أمانٍ يا ماريّة. كُلي». هتفتُ بصوتٍ خفيض: «ماذا ستفعلُ بي؟». ابتسمتُ: «الأمر إليك». ردّت بعجلة: «افعلُ أيّ شيءٍ إلا أن تُعيدني إلى أمّي». سألتُ مُستغرياً: «لماذا؟» ظَلَّت صامتة. قلتُ: «كُلي الآن، سوف نتحدّث عن ذلك فيما بعد». قمتُ، حينها راحتُ تأكلُ بنهمٍ وسرعة، وأنتِ على ما تبقى، كنتُ ألمحها تفعل ذلك وأبتسم، لا بُدَّ أن تستعيدَ هذه الصّبيّة عافيتها.

انشغلتُ بالكُتُب، قرأتُ في الأمراض التي تحدثُ في الكوارث، وما الذي يُمكنُ فعلُه حيالها، دخلتُ عليّ ماريّة المكتبة، سألتُ بحياء: «هل تريدُ شيئاً يا سيّدي؟». قلتُ لها: «لا، وشكراً يا ماريّة». ظَلَّت واقفة، كانت تنظر إلى الكتاب الذي بين يدي، رفعته، ونظرتُ مُستفهِماً. قالت: «ماذا تقرأ يا سيّدي؟». رددتُ سؤالها بسؤال: «هل تعرفين القراءة؟». «قليلاً يا سيّدي». «لا أحبّ هذه الكلمة». جفلتُ، تابعتُ: «أعني كلمة سيّدي. أنا لستُ سيّدك». فحصتُ الأرضَ بنظراتها، أرددتُ: «الكتاب في الطّب عن كيفية صناعة الدّواء من الأعشاب، هل تريدان تعلّم ذلك؟». هزّت رأسها هزّاً سريعة وهي تفرك يديها: «بالطبع يا سيّدي، إذا سمحت لي». «سوف أعلمك يا ماريّة، لا تقلقي». مضت. بعد المغرب، قلتُ لها: «سنجلسُ في السّاحة، عند شجرة البان، لونها يبعثُ على الرّاحة، ما رأيك؟». هزّت رأسها: «حاضر يا سيّدي».

أعدتُ لنا حلواءٍ من بقايا ما في المطبخ من الطّعام، أحبّ الحلوى منذ أن كنتُ طفلاً، جلستُ قبالي، كانت لا تزال خجلةً، قلتُ لها: «سأعلمك صناعة الأدوية، إنّه ليستُ صعبة، لكنها ستكون كذلك إذا لم نمتلك تلك الأعشاب». تحمّستُ، تفلقتُ فوق كرسيها: «أنا سريعة التعلّم يا سيّدي». قلتُ مُعائياً: «لا تقولي سيّدي، لستُ جاريةً عندي». «ماذا أقول؟». «يمكنني أن تعتبريني عمك أو أبك». هتفتُ: «أبي؟». كان صوتها مجروحاً بالحزن، نظرتُ إليها: «أنا في عمُر أبيك». «بالطبع، ولكنني لم أرَ أبي في حياتي». سألتُها: «لِمَ؟». ردّت: «أمّي تقول إنّه رحل وأنا صغيرة». «مات؟». ردّت: «نقول أمّي إنّه هَجَرنا إلى زوجةٍ أخرى». «وكلّ هؤلاء الذين جاؤوا من بعدك؟». «مَنْ؟». «أعني إخوتك». «ما بالهم؟». «هل هم من أبيك؟». «لا أدري». كانتُ حزينة. يبدو أنّ في القصة كثيراً من الأسرار. سألتُها: «وأَمك؟». «ما شأنها؟». «لماذا بعثتُ بكِ إلى سوق الشَّمَاعين؟». «لستُ متأكّداً من أنّها أمّي». أرسلتُ طرفي في البعيد، القصة تتعقّد أكثر، «فمن تكون

إدًا؟». «وعيث على الحياة وأنا معها، لكنّ بعضَ الذين ولدتهم من بعدي لم أر لهم أبًا». تنهدتّ طويلًا: «يُمكنك أن تبقى هنا». فرحت: «حقًا يا سيدي؟». «بالطبع». «وسأكون خادمةً لك، أطبخ طعامك، وأنظف فناءك». «لست خادمة، أنت ابنتي، تُقيمين في بيتي كأنه بيتك. والأب لا يُحمّل ابنته ما لا تُطيق». «بالطبع يا سيدي. سأطبخ لك أكلاّت لم تأكل مثلها في حياتك». وضحكت، فضحكت، وانفرطَ بيننا عقدُ الكلام.

بقينا أسبوعًا نجلسُ في المساء تحت شجرة البان، علّمثها كثيرًا من صناعة الأدوية، اقترحت عليّ، بدلًا من أن نشترى الأعشاب من السوق أن نزرعها في حديقة البيت: «إتھا مساحةٌ واسعة، يُمكننا أن نزرع فيها عشرين صنغًا من الأعشاب المفيدة». «سأتيك بما تطلبين، هل تعرفين أسماءها؟». «نعم، لقد حفظتها كلها من الكتاب». وبدأت حديقة البيت تنمو بأنواعٍ جديدةٍ من النباتات.

كُنّا نجلسُ على عادتنا في أحد الأيام في السّاحة، حينما مرّ فأرٌ كبيرٌ، جفلتُ ماريّة، ووقفتُ على قدميها مذعورةً، كان قد مرّ من تحت ثوبها، ضربتُ صدرها بباطن كَفّها هلغًا، وفتفت: «يا ربّي...». مرّت الحادثةُ بسلامٍ، مع الأيام صار الفأر الذي يمرّ في الأروقة وفي السّاحة ويتعربشُ على الدّرابزين تظهر منه أحجامٌ أكبر، شيئًا فشيئًا صارتُ تظهر الجرذان، كان الهلع قد أصابنا معًا، فتفتُ بي: «علينا أن نربّي قططًا في البيت». وافقتُها: «صحيح، ولكنّ القطط شحيحةٌ، أين نجدُ قطةً في القاهرة اليوم؟ ثمّ إنني حاولتُ من قبلُ فرأيتُ القطط هزيلة، وإذا أتينا بمثلها إلى هنا، فأظنّ أنّها ستكون هي الضّحايا بدلًا من هذه الجرذان الكبيرة». فتفتُ: «دع ذلك لي». «ماذا ستفعلين؟». «أعطني الأبلق، ودينارًا واحدًا، وخلال نهار هذا اليوم سوف آتيك بعشرٍ منها». ركبتُ الأبلق، كان أبيض، وكانت تلبسُ ثوبًا أبيض، وقد بدتُ ملاكًا والهواء يعبثُ بذيول ثوبها، وهي تجري به في المدى. عادتُ بعشر قطط كما قالتُ: «أعرفُ من يبيع السّمين منها بدرهم واحدٍ».

ورّعتُهنّ على الأروقة والغرف، وتركتُ بعضَها أمام البوّابة. راحتِ القطط تستلم مهمتها الجديدة، كانت لها عند ماريّة أسماء واضحة، وكانت تحفظهنّ وتعرفهنّ من صوت أقدامهنّ على الدّرج، وموئهنّ، أو من هينتهنّ من بعيدٍ، ناهيك بالوانهنّ المميّزة، وبعد ثلاثة أيام، لم يعد يُعكر صفو جلستنا في المساء جرّدٌ واحد. لكنّ مواءهنّ في الليل وهنّ يَنقِصُن على جرّدٍ أو يربوعٍ كان يُوقظني في بعض الأحيان.

مرّ شهرٌ ونصف الشّهر قبل أن تطرق دريّة بابنا ذات صباح، وتقفُ في السّاحة، وهي تصرخ: «خطفت ابنتي منّي أيها الطّبيب؟ يا عبد اللّطيف... أيها الورع الكاذب... اخرج إليّ...». استيقظنا أنا وماريّة على صراخها، ونزلنا إليها: «لم أخطفها يا دريّة، عليك أن تخجلي من نفسك، أنت التي أكرهتها على البغاء». سخرتُ: «وأنت الذي أعدت إليها النّقوى؟ ماذا كنتم تفعلان خلال هذه المدة؟». «لم أمس ابنتك يا امرأة، وهي عندي مثل ابنتي». «فُل هذا لغيري أيها النّقي، فأنا التي تعرفُ الرّجال، وتعرفُ شهواتهم». تدخّلتُ ماريّة: «لم أجد ما تقولين عن الرّجال!». «لأنك لا تعرفينهم». «أنا أعيشُ أحسن من العيشة التي عشتها عندك». كان ذلك يتطلّب جرأةً عالية منها، لكنّها فعلتها، استشاطت دريّة غضبًا: «تريدن أن تتخلّصي منّي يا عاه...»، ولكنها تراجعَت عن إتمام الكلمة، وتابعتُ: «أنت ابنة عاقّة، ربّيّك كلّ هذه السنوات، حتّى صرت فتاةً بهذا الجمال، وتتنكرين الآن لي؟». «ربّيّتي لكي تقدفي بي إلى الرّجال، كما قذفت بك أبوك إليهم». ركضتُ نحوها، وهوتُ عليها بجمع كَفّها، فأسقطتها على الأرض فتناثرتُ صفائرها المجدولة فوق وجهها، وصرختُ: «اخترسي يا وقحة. لولا وجودي إلى جانبك لكنت ميّنة الآن». هُرعتُ إلى ماريّة، أنهضتها من الأرض، ووقفتُ وهي تنظر بذهولٍ إلى أمها، لم تقل شيئًا راحتُ تمسح أثر الصّفعة على وجهها الأسمر الرّقيق، وقد احمرّ موضعها. وأردفتُ أمها: «هيا معي، إلى البيت. هذا يكفي». لكنّ البنات تراجعَت إلى الوراء، ولادنتُ بظهري، كأنها تحتمي بي، أنذتُ فتفتُ أمها بصوتٍ حنونٍ: «أنا لن أتخلّي عنك يا ماريّة، إذا كنتُ أطلبُ منك أن تعودتي إليّ، فليس من أجلي، بل من أجل أخيك كرم، إنه يسأل عنك كلّ يومٍ». يبدو أنّ الكلمات الأخيرة فعلتُ فعلها في قلب ماريّة، فبرزتُ من خلفي، وسألتُ: «هل هو بخير؟». «كرم؟ إنه بخير، هذا الصّغير الذي بحجم اللّقمة يكبر، وهو يتلفظ باسمك دائمًا... هيا... هيا يا

ماريّة». ومدّت يدها، فيما تراجعَتْ ماريّة خلف ظهري من جديد، تدخّلت لحظّتها، وقلت: «أنتِ أمّها، ومن حقّكِ استعادة ابنتك، ولم أَرُدْ إلاّ إنقاذها من الفاحشة، وقد فعلتُ، الآن يُمكننا أن نترك الخيار لها،

” إذا أرادت...». قاطعتني ماريّة، وهتفت بثقة: «أريدُ أن أبقى معك؟». أسقط في يد الأمّ، مسحت وجهها بظاهر كفّها، ونظرت إلينا مُصدّعة النّظر، فبدأ الدّنب في الظّلال يفتح فكّي لتبرز منهما أنيابه، وقالت: «تريدين البقاء معه...؟» هزّت رأسها وراحت تخطو بعض الخطوات كأنما تدور حول نفسها، وأردفت: «تريدين أن تبقى هنا؟». ردّت البنت: «نعم». نظرت إليّ: «تريدُها أن تبقى عندك؟». أجبتها: «هي التي تريد، الخيار لها». ابتسمت دريّة، وصوّبت إليها نظراتها، وقالت كأنما تريد أن ترتاح: «إذا أردت أن تبقى معه فعليك أن تتزوّجيه». ردّت وهي تنزل رأسها، وتعقد كفيها على صدرها: «أنا مُوافقة». «توقّفا... توقّفا... أنا لستُ في سببٍ يؤهّلي للزّواج منها». هتفت دريّة بخبت: «تعني أنك لا تشتهي النّساء؟». «ليس الأمر على هذا النّحو، لماذا لا تفكرين إلاّ بهذه الطّريقة؟». «لأنتي أعرف الطّريقة التي يُفكر بها الرّجال، أنا أكثر من خبّرم». تجاهلت الأمّ، ونظرت إلى ماريّة: «يا ابنتي، أنا في سببٍ أبك». «هذا لا يمنع أن تكون زوجي». «كلّا» تدخّلت الأمّ: «هه... أرايت... إته لا يُريدك، لو كنتُ مكانك لحفظت ماء وجهي وخرجتُ، كيف يُمكن أن أبقى مع رجلٍ لا يُريدني؟!». قلتُ بشيءٍ من الضّيق: «لا تحاولي أن تصطادي في الماء العكر يا دريّة، أستطيع أن أتزوّج من أشياء من نساء مصر كلّها، وغيرها، لديّ القدرة على ذلك، وأنت تعرفين، ولكنّ، ماريّة...» وتوجّهت إلى ماريّة: «أنت ابنتي، لو تزوّجت وأنا في بغداد، لكانتُ لي ابنةٌ أكبر منك... أنا أزيدُ عنك بما يقرب من ثلاثين عامًا، هذا غير معقول، أنا أعاملك كما لو كنتُ من صلبّي، أنت تعويضُ لي عن ابنتي التي كانتُ يُمكن أن تكونها لو...» وتوقّفت، حينها، تدخّلت أمّها: «هيا إدا، عودي إلى بيتك يا حبيبتي، هذا الرّجل كذاب، ومُراوغ». وسحبت ابنتها بغلظة من يدها، وولّيا لي ظهرَيْهما، هتفت حينَ عبروا البوابة خارجين: «لا تُكرهيهما على ما لا تريد يا دريّة، أنا أحذرك». ردّت من خلف البوابة: «حذّر نفسك أيّها الأبله».

” (٧)

سقط فجأة!!

الماء يشخّ، كثيرة هي الآبار التي لم تعدّ صالحة للشّرب، سقط فيها الرّدم، وآثار الحريق، وبعض الجثث، فتلوّثت، القنوات التي تُمدّ من النّيل تهدم كثيرٌ منها، النّيل هو الآخر يشخّ، مقياسه ينقص، الأمور تتّجه إلى المجهول، لو لم يجر النّيل بارتفاع هذا العام، فسوف يكون ذلك إيذانًا بالكارثة.

شاركْتُ في قراءة القياس هذه المرّة، ذهبنا إلى مبنى المقياس الذي يقع في الطّرف الجنوبيّ للرّوضة، عمود رُخامي مُدرّج، ومُتمنّ القطاع، يعلوه تاج رومانيّ، يبلغ طوله تسع عشرة ذراعًا، محفورٌ عليه علامات القياس.

هذا العمود يتوسط بُئرًا مربعةً مُشيّدةً بأحجار تزداد سماكتها كلما زاد العمق، لأنّ الضّغط الأفقيّ للتربة يزداد بازدياد العمق إلى أسفل. شيدت هذه البئر من ثلاث طبقات: السّفلى على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمُربّع العلويّ والأخير ضلعها أكبر من المُربّع الأوسط. حول جدران البئر من الدّاخل هناك درجٌ يوصل إلى القاع، يُمكن أن ننزل فيه حسب ارتفاع الماء، ويُمكن قراءة المقياس حينئذٍ. كان المقياس ولا يزال يستخدم لقياس فيضان النّيل، وعلى أساسه يتمّ تحديد الضّرائب في العام الزراعيّ المُقبل. وإذ دمر الزّلازل كثيرًا من الفرى والأراضي المزروعة في الآونة الأخيرة، صار من غير المقبول مُطالبة النّاس بالضّرائب على زراعتهم، إذ إنّ الحقول مع شخّ الماء لم تعدّ مُنتجة كما كانت في السّابق، إضافةً إلى موت عددٍ كبيرٍ من العاملين فيها.

يَتَّصِلُ المِقْيَاسُ بِالنَّيْلِ بِوِاسِطَةِ ثَلَاثَةِ أَنْفَاقٍ، يَصُبُّ مَآوِهَا فِي البَيْرِ مِنْ خِلالِ ثَلَاثِ فَتْحَاتٍ فِي الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ، يعلو هذه الفتحَاتُ عُقُودٌ مُدْبِيَّةٌ تَرْتَكِزُ عَلَى أَعْمَدَةٍ مُدْمَجَةٍ فِي الجِدْرَانِ ذَاتِ تِيْجَانٍ وَقَوَاعِدِ نَاقُوسِيَّةٍ. وَحِينَ يَدْخُلُ المَاءُ إِلَى المِقْيَاسِ يَبْقَى سَاكِنًا فِي البَيْرِ؛ فَحَرَكَةُ المِيَاهِ فِي النَّيْلِ مِنَ الجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، وَلَا يَوجَدُ حَرَكَةً لِّلْمِيَاهِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ أَوْ الغَرْبِيَّةِ. وَسُكُونُ المَاءِ فِي بَيْرِ المِقْيَاسِ يُمَكِّنُنَا مِنَ القِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ. أَمَّا عَمُودُ المِقْيَاسِ نَفْسَهُ فَيَرْتَكِزُ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ خَشَبِ الجُمَيْرِ؛ لِأَنَّهُ الوَحِيدُ الَّذِي لَا يَتَأَثَّرُ بِالمَاءِ، وَذَلِكَ لِتَنْبِيئِهِ مِنَ الأَسْفَلِ، وَهُوَ مُنْبَتٌّ مِنْ أَعْلَى بِوِاسِطَةِ كَمْرَةٍ رَابِطَةٍ، وَعَلَيْهِ نَقِشٌ بِالخَطِّ الكُوفِيِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا». وَكَانَ العَمُودُ إِذَا وَصَلَ فِيهِ المَاءُ مَا بَيْنَ أَرْبَعِ عَشْرَةِ ذِرَاعًا إِلَى سِتِّ عَشْرَةِ ذِرَاعًا بِكَوْنِ أَهْلِ مِصرَ فِي خَيْرٍ وَبِرَكَّةٍ، فَإِذَا زَادَ عَنِ سِتِّ عَشْرَةِ يُخَشَى الفَيْضَانُ وَالهَلَاكُ، وَإِذَا نَقَصَ عَنِ أَرْبَعِ عَشْرَةِ ذِرَاعًا يُخَشَى الجَدْبُ وَالفَقْطُ، فَلَمَّا قَسِنَاهُ هَذَا العَامَ وَجَدْنَاهُ أَقَلَّ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةِ ذِرَاعًا فَهَبَطَ الخَوْفُ فِي قُلُوبِنَا هُبُوطَ الحِجْرِ الثَّقِيلِ فِي البُحَيْرَةِ الرَّاكِدَةِ.

كَانَ الَّذِينَ يَمِيزُونَ النَّيْلَ، يَرْفَعُونَ القِيَّاسَ إِلَى المَلِكِ أَوْ أَهْلِ خَاصَّتِهِ، لَا يُدْرَى بِهِ وَلَا يُشَاعُ؛ إِذْ إِنَّهُ يَكُونُ سِرًّا، لِئَلَّا يَخَافَ أَهْلُ مِصرَ مِنْ زِيَادَتِهِ أَوْ نَقْصَانِهِ، وَلَعَلَّ صَاحِبَ المِقْيَاسِ كَانَ لَا يَقُولُ الحَقِيقَةَ لِلنَّاسِ فِي حَالَةِ النُّقْصَانِ، حَتَّى لَا يَدْبَ فِيهِمُ الهَلَعُ، وَهَذَا مَا كَانَ؛ لَمْ يَجْرُوا فِي عَامِ ٥٩٩ هـ لِلهَجْرَةِ عَنْ أَنْ يُعْلِنُوا لِلعَامَّةِ قِيَّاسَ النَّيْلِ، وَظَلَّ هَذَا سِرًّا!

الجوع من جديد. الجوع في الإنسان، في الحيوان، في النمل، في الحقل، في كل شيء، ثم تلك الفئران التي ازداد عددها بشكل جنوني، ثم تلك الجثث المتعفنة التي ما زالت تُكتشف إلى الآن، ثم تلك الوساخة التي نتجت عن الردم والركام والخسف والزلازل الكثيرة. ثم ضاق الأمر بالناس.

أغلقت أكثر الحوانيت، وسرق بعضها في غفلة من عيون الشرطه والعسس، وخربث الأسواق حتى لا تكاد ترى فيها طوال اليوم عابراً وإجداً، وبدت فارغة شاحبة يتيممة بعد أن كانت تضح بالحياة.

بدأ الناس يتساقطون في الشوارع، شيء ما يحدث لم يتوقعه أحد، هكذا على حين غرة ذلك الذي يمشي على قدميه، يترنح، ويسقط، يتلوى على الأرض لحظات ثم يسكن جسده تماماً. انتشر الخبر سريعاً بين الناس. هناك مرض غامض يصيب الناس الأصحاء ويقتلهم بلا مقدمات. الأخبار السيئة تنتشر أسرع من النار، خرجت إلى الشارع، مشيئة مسافة ليست قصيرة، قبل أن أرى سواداً متجمعا على باب زويلة، هرعته إلى الناس، يبدو أن هناك أمراً ما جمع الناس على هذه الهيئة، عندما وصلت إليهم كان لعظهم عالياً، سمعت أحدهم يقول: «كنا نمشي معاً، فسقط فجأة، إنه أخي، كنا ذاهبين للبحث عن طعام». هتفت بصوت عالٍ: «أيها الناس، ابتعدوا قليلاً، أريد أن أعاينه». تفرس في بعضهم، وأردفت: «أنا الطبيب عبد اللطيف البغدادي...» رد آخر يعرفني: «إنه هو، دعوه ير المريض».

ابتعد الناس، فشققط الطريق إلى الرجل الملقى، كان يبدو في الثلاثين، فحصت نبضه، يبدو أنني تأخرت؛ كان ميتاً، نظرت إلى شفتيه كانتا مغطاتين بالدم، كأنه بصق الدم على هيئة دقات، شققط القميص عن صدره، بدا لونه غير طبيعي، أمثته على جانبه، كانت عنقه من الأسفل تحمل بعض البثور، إنها علامة سيئة. تراجعته إلى الورا بسرعة، تطلعت حولي في الوجوه، أردت أن أنظر إلى أعناقهم جميعاً، على الأرجح سيكون المرضى قد انتقل إليهم، أو هو في طريقه لذلك. أصابني شيء من الفزع. لا أدري ماذا أقول لهم، إن قلت لهم ما اعتقد فإنني سأصيبهم بالهلع، وليس من الحكمة فعل ذلك، على الأقل الآن، وإن أخفيت ذلك، فسنشهد أياماً سوداً في المستقبل، تطلعت أعلى منهم، إلى قوس الباب، إلى البعيد حيث الحوانيت على الجانبين، يبدو أن هذا المرض سيصيب السوق كلها ومن فيها. قلت لأخيه: «إنه ميت، لا جدوى من علاجه، بعباءتك هذه لف أحاك، وادفنه إن استطعت الليلة». بكى. أردفت وأنا أبتعد: «احفر له في الأرض أعمق ما

تستطيع» وركضت عائدًا إلى البيت. في الطريق كنتُ أشمُّ رائحةً غريبة، تحسّستُ أنفي أكثر من مرّة، قد يكون الجهل في بعض الأمور خيرًا من العِلْم بها. إنني أعرفُ ما يحدث، لكن عليّ أن أتأكد قبل أن أطلق أحكامي، التريُّث هو ما يجب أن يحكم خطواتي القادمة، والحذر، والترقّب، ومُتابعة سير الأمور.

دخلتُ إلى البيت، فكّرتُ بكلّ الأطباء الذين تخرّجوا على يديّ، والأطباء المُساعدين، والمُمرّضين، والعاملين في المصحّات والبيمارستانات، إن مهمّة إنقاذ أرواح النَّاس ستثقل كواهلهم بعد قليل. فكّرتُ أول الأمر بسالم، وخليل، سنكون مُحتاجين إلى كلّ مَنْ يستطيع أن يُساعد في الظرف القادم. وتنهّدتُ طويلًا، وأنا أجلسُ على حافة السرير، سرحنٌ بعيدًا، وشعرتُ أنّ الظلام يُحيطُ بكلِّ شيءٍ حولي، وأردتُ أن أنامَ لأنسى، ولكنّ النّوم مع ما رأيتُ كان ضربًا من المُستحيل!!

قمتُ، غسلتُ وجهي، نظرتُ في المرآة، كان يبدو عليّ التعب والهَمّ، قلتُ أنزلُ إلى المكتبة، عليّ أن أعرف أكثر عن المرض الذي سيهاجم مصر في الأيام القادمة. قرأتُ ما قاله ابن سينا، وقرأتُ ما قاله غيره، نحنُ في المراحل الأولى، ويُمكن ببعض التّدابير أن تُسيطر على الأمور، هكذا كنتُ أفكّر. توجّهتُ إلى الأبلق، ركبته ومضيتُ إلى ديوان مصر، عليّ أن أحذر صاحب الولاية ممّا هو قادمٌ، وجدتُ الديوان فارغًا إلّا من عاملٍ وحيدٍ، كان يجلسُ في مُلحقٍ صغيرٍ على بابهِ، قال لي: «لقد انتهتِ عمل القائمين هنا». كررتُ راجعًا، لم أستطع النّوم، في الصّباح، شققتُ شوارع القاهرة إلى البيمارستان الرئيس، أعرفُ أنّه لن يطول الأمر حتّى تأتي إليه الحالات من كلّ مكان، تلقّاني عددٌ من المُمرّضين، سألتُ أحدهم: «أين سالم؟». ردّ: «لا أدري». طلبتُ منه أن يجمعَ الأطباء المُسعفين كلّهم والمُساعدين، وأن يبعثَ إلى (سالم) ليوافينا إلى هنا، لديّ ما أقوله.

اجتمعتُ بهم بعد أن أتوا من أماكن شتّى، ومن أقسامٍ مُختلفةٍ من البيمارستان في قاعة التّدريس الكبيرة، قلتُ لهم: «إننا مُقبِلون على أمرٍ من الصّعب التكهّن بتبعاته، الأمر يتعلّق...» لم أكذُ أكمل الجملة حتّى سمعنا صراخًا شديدًا في الرّواق الذي يودّي إلى الغرفة، خرجتُ مُسرّعًا وسط استغراب الأطباء، وتبعني بعضهم، قلتُ لهم: «أدخلوه إلى أقرب غرفة». طلبتُ من المُساعدين أن يطلبوا إلى الأهل أن يبقوا في الخارج ريثما نعرفُ ماذا أصابه، امتلأتِ الغرفة بالأطباء، أردتُ أن يروا ما أريدُ لهم أن يعرفوه. كان المريضُ مُمددًا على السرير، تتدفّق من فمه دقات من الدّم كأنها نافورةٌ صغيرة، طلبتُ أن يقيسوا درجة الحرارة، كانت الحُمى تجعل جسده قِطعةً من النّار الملتهبة، طلبتُ من أحدهم أن ينظّف فمه، لكنّ بعد أن يلبسَ في يديه ما يقي وصول الدّم إليه، ثمّ فتحَ آخر له فمه، وصبّ فيه دواءً يُخفّض حرارته، كان المريضُ يهذي من الحُمى، لم نفهم منه ما يقول، لكنّ الكلمة التي كان يُكرّرها وسط كلماتٍ كثيرةٍ غير مفهومه، هي: «الجرذان...» ثمّ راح صوته يخفّض تدريجيًا، هل يُمكن أن تكون حرارته قد انخفضتُ، لا تسيّرُ الأمور بهذه السّرعة، قلتُ لأحدهم بعد أن خلعنا عنه قميصه: «ارفع ذراعه»، رقعها، طلبتُ منهم أن ينظروا تحت إبطه، نظروا، كان هناك دُمٌ كبير كأنها حبة فول، ضيقُ الأطباء والمُمرّضون أعينهم: «ما هذا يا حكيم؟». «ألم تروا شيئًا مثل هذا من قبل؟!». هزّوا رؤوسهم بالنّفي، قلتُ: «لقد حدثَ هذا غير مرّة، لكنّ النَّاس تنسى، إنَّها لا تُصدّق أنّ مُصيبته ستقع إلّا إذا وقعتُ». أشارَ المريضُ إلى فمه، قلتُ لهم: «إنّه عطشان، ولكن لا يُفيده أن يشرب». «هل سيموت؟» سألتني أحدهم. «لن ينتظره الموتُ طويلًا» أجبتُ.

حرّك المريضُ شفّتيه، كان يبدو أشدّ وهنًا، سكبَ طبيبٌ في فمه بعضَ الماء، مرّت لَحظَاتٌ، قبل أن تتباطأ أنفاسه، وتخمد حركته بالكامل، سألتني أحدهم: «هل مات؟». أجبتُ بأسى: «نعم، وسيموتُ كثيرون إن لم نتدارك الأمر، إنّه الطّاعون أيّها الحُكماء». توقّفتُ قلوب الأطباء كلّها في اللّحظة نفسها، إنهم الآن يُدركون أكثر من غيرهم ماذا يعني ذلك.

ليس من السهل أن يُغسل الميت المطعون، على مَنْ يُغسله أن يكون قد حكم على نفسه بالموت بفارقٍ زمنيّ لن يطول أكثر من بضعة أيام. قلتُ لهم: «ليست المشكلة في جُنة هذا الميت، بل في النَّاس الذين عاشَ بينهم، إنَّ هذا المرض مُعدٍ، ربّما لن يكون في الأمراض المُعدية عبر تاريخ البشر ما هو أشدُّ فتكًا منه». «وعليه؟». سألني سالم. أجبتُه: «ستكون هذه البداية، وسترى مثل الذي رأيته اليوم كلَّ يومٍ، إذا لم يكن كلَّ لحظة!».

عُدتُ إلى البيت، كان عليّ أن أفكر مع بقية الأطباء، مع القائمين على ديوان الصّحة في مصر بالطريقة التي علينا أن نواجه بها الطّاعون، في العودة كانت الطّريق الخالية من البشر تعجّ بالفئران، خُيل إليّ أنّ الفئران هي سيّدة الأمر في مصر، صارت ملكةً تتبخر في الشوارع، في زاوية إحدى الرّقاقات التي تبدأ من سوق الحلوانيين عند عتبة أحد البيوت، رأيتُ جُنة مُلقاة على الأرض، يبدو أنّ صاحبها سقط فجأةً، إذ إنّ الطّاعون لم يُمهله حتى يدخل بيته، كان الأمر - على الأقلّ بالنسبة لي - عاديًا، لولا أنّني رأيتُ عددًا من الجرذان بالعشرات تنهشُ جُنته بهم وبسرعة، كان يبدو جاحظًا العينين مُستسلمًا، جاعلاً من نفسه وليمةً شهيةً لهذه الجرادين اللعينة، كان رأسٌ أحدها قد انحسر في فمه، وذيله يتراقص من خلفه.

“

” (٨)

الجُردان!!

على بوّابة البيت وجدتُ ثلاثة من الجرذان تبدو ميّنة، تساءلت: «هل قتلناها القطط وتركناها هنا». داس الأبلق على أحدها، فأخرج صوتًا حادًا قبل أن تندلق أحشائه، ويُلطّخ دمه حافر الحصان، يبدو أنّه لم يكن ميّئًا، تقزّزت نفسي عندما رأيتُ المنظر، مضينا عابرين البوّابة، ترجّلت عن الأبلق، ومشيتُ في الرّواق الطويل الذي ينتهي بالدرجات التي تصعدُ إلى غرف النوم، على أوّل الدرجات لفت انتباهي جُرد آخرٌ ميّت، استغربتُ، أين القطط؟ توقفتُ مليًا، ونظرتُ حولي، لا أثر للقطط. إنها عشرة كاملة؛ فأين ذهبّت؟ هل يُمكن أن تكون هربت؟ إنها لن تجد بيتًا فيه طعامٌ ومأوى في القاهرة كلّها مثل بيت عبد اللطيف البغدادي، هكذا همستُ في أعماقي وأنا أبتسم. صرفتُ خاطر عن أمر القطط المُختفية، وأزحتُ الجُردَ برجلي، وقلتُ: «سأستدعي خادمةً تنظّف البيت منها». صعدتُ، سمعتُ صوت الفئران: «زق زق زق زيق زيق». دُهِشتُ: «أوه إنها ترتع في بيتي». خفتُ، يجب التفكير سريعًا بالتخلّص منها، عُدتُ إلى فكرة القطط مرّة أخرى: «ولكنّ أين أنتِ أيتها القطط؟». مشيتُ وقد فكّرتُ أنّ أجوب البيت كلّهُ لأعرف من أين أتت. وصلتُ إلى غرفة النوم، لم ألاحظ فيها شيئًا غير عاديّ، بحثتُ تحت السرير، وخلف الخزانة، والرّفوف، وفي شقوق النّافذة الخشبيّة، وفي الملابس، لكنني لم أعر للفئران على أثر، فرحتُ، غيّرتُ ثيابي، وخرجتُ أطوف الأروقة، لم يظهر لي في الأروقة أيّ فأر أو جُرد، داهمني تفكيرٌ بأنّ أحد الجيران، أو المازّة هو الذي رمى بعض الفئران في بيتي من أجل أن يُخيفني؟ اطمأننتُ إلى هذا خاطر، وقلتُ لو كان في البيت فئرانٌ تلهو لكنّك تسمع مواء القطط وهي تلاحقها، لكنني خفتُ من جديدٍ لما تذكرتُ أنّ القطط لم تظهر منذ وصولي إلى هنا، أحسن شيء هو أن أتابع التفتيش في أرجاء البيت عن هذه الفئران، الأروقة في الأعلى نظيفة، زواياها نظيفة، ربّما لاحظتُ في بعض الزوايا بُراز الفئران، ذلك البراز الأسود الصّغير، لكنّ قلتُ: الأمر لا يستحقّ الالتفات إليه، إنّه براز الفئران التي قضتُ عليها قططي الجميلة. تابعتُ التفتيش، الدّرابزين ومشربياته وما تحت المشربيات كلّها تبدو نظيفة، العُرف العلويّة نظيفة، هبطتُ الدرجات، التقيتُ بالفأر الميت الذي أزحّته برجلي، تجاوزته، قلتُ أبدأ بالمطبخ، دخلته، لم يبدُ فيه شيءٌ غير طبيعيّ، الأدوات في أماكنها، نظرتُ في الفرن، إنّه خالٍ، نظرتُ في داخل الصّحون العميقة، وتحت طاولة الطّعام، وفي النّافذة، كلّها تبدو خالية تمامًا، ربّما وجدتُ كذلك بعض البراز في زاوية تخزين الطّعام، لكنني فكّرتُ - مثلما فكّرتُ في المرّة الأولى - أنّها مُخلفات فئران فُضي عليها سابقًا من قططي العزيزة. خرجتُ من المطبخ، أفتش في الأروقة، إنها خالية، الإسطبل كان خاليًا، سلّمتُ على الأبلق وخرجتُ، ظنّ أنّني أتيتُ لكي نمضي معًا في مهمّة جديدة، مسحتُ على عنقه: «لا يا جصاني العزيز، بالكاد دخلنا البيت والتقطنا بعض الأنفاس، علينا أن نستريح أنا وأنت؛ لدينا أيامٌ مُتعبة عمّا قليل»، خرجتُ من عنده، فسمعتُ صوت: (زق زق زيق زيق)، خفق قلبي بسرعة، إنّه صوتُ الفئران، أصحّتُ السّمع، فخدم الصوت، وحلّ السكون، كأنّه لم يكن هنالك شيءٌ، نفصتُ رأسي،

وقلت: «لا بُدَّ أنِّي أتخيل... أنا مُتعب... بالطَّبع... كلُّنا مُتعبون، القاهرة كلها تتمنى لو تستريح!!». تركتُ الإسطبلَ ورأيتُ، صارت البوابة الكبيرة عن يميني، باستثناء منظر الفرن التي عثرَ بها حافر الأبلق عندما دخلنا لم يكن هناك ما يُثير الرِّيبة، تجاوزتها وصارت خلفي، الآن ستكون غرف المكتبة عن يميني، إنها كتب القاضي الفاضل، أو ما تبقى منها، أما كتبي القديمة، فقد أكلها الحريق، كان الباب مُعلَقًا، ففتحتُه بحدْرٍ، وأطلتُ برأسي رويدًا من وراء الباب المشقوق، وهالني ما رأيته، لقد كان في الغرفة مئات الفئران الصَّغيرة والجُردان الكبيرة، وقد أسقطتِ الكتب عن الأرفف، فشكَّلتُ كومةً في وسط الغرفة، وهي تروح وتجيء على قِمة تلك الكومة، وتنقر في الكتب وتقرضُ الورق، لقد كانت الجردان تأكل عقول الأدياء والعلماء في تلك الغرفة، وتقضم ما أفنوا فيه حياتهم لكي يصل إلينا، صرختُ، حتَّى أذعرتُ صرختي الجردان، فراحتُ تهربُ في كلِّ اتجاه، تناولتُ مكنسةً قريبةً من الغرفة، ورحتُ أهوي عليها بلا وعي، وظللتُ أضرب بالمكنسة يمينًا وشمالًا حتَّى تعبتُ، وحتَّى سقطَ شعري على وجهي، والنَّف ثوبي على جذعي، كنتُ ألَهتُ، رحتُ أمسحُ العرقَ المُتفصِّد عن جبيني، كنتُ أركنُ ظهري على الجدار خارج الغرفة في الرِّواق، فكَّرتُ: هل هذه الغرفة هي الوحيدة الموبوءة؟ ذهبتُ إلى الغرفة الثَّانية فوجدتُ عددًا لا يقلُّ عن عددها في الغرفة الأولى، ورأيتُ أحدَ القططِ مَيِّتًا، وقد راحتِ الجردان تنهشُ أحشاءه، وهي تُدير

رؤوسها المُلطَّخة بالدم في بطنه، وتنهش ما اندلق من أمعائه، كدثُ أتقيًا، لولا أنِّي أغلقتُ باب الغرفة، وهرعتُ بملابس البيت إلى الأبلق، وركبته، وطرتُ أضربُ في السَّوق أبحثُ عمَّن يأتي معي ليُخلصني من هذه الجردان، أو يبعيني على الأقلِّ بعضَ القطط، لكنَّ القطط كانتُ غالبية الثَّمَن، إذ إنَّ كلَّ الذين كانتُ لديهم مقدرةٌ لشرائها كانوا قد اشتروها بالفعل بأثمانٍ عالية، ولعلَّ قططي التسعة المتبقية كانتُ قد سُرقَت أو بيعت. اهتديتُ بعدَ عناءٍ إلى اثنين يعملان معًا في هذا المجال، ساوماني على عشرة دنانير، في السَّابق، كان الواحد يتوسَّل لكي يُستأجر بنصف دينار في اليوم، قلتُ لهما: «لماذا عشرة دنانير؟». «لأنَّ الجردان كثيرة، ولا أحدَ يرغب في أن تتمشى على وجهه أثناء النَّوم، أو تتغوّط في طعامه». أيَّدتهما على الفور فيما قالاه، وهزرتُ رأسي بشيءٍ من الرَّجاء: «عشرة دنانير لكما معًا، أليس كذلك؟». «كلا، بل لكلِّ واحدٍ عشرة». وافقتُ مرَّغمًا، وغدنا إلى البيت، استغرقتُ ما تبقى من النَّهار، وكلَّ اللَّيل، حتَّى اطمأننتُ إلى أنِّي لن أسمع في أثناء نومي: «زق زق زيق زيق». لم يكن في المشهد أكثرَ بؤسًا وسُخريَّةً من رؤية الفئران وقد بالث وتغوّطت بالفعل على الكتب، كتب المؤرِّخين والتَّحاة والأطباء والفلكيين والمهندسين والقضاة والفلاسفة،... ما الذي أعجب الفئران في الكتب أكثرَ من الطَّعام مثلاً حتَّى تجعل منها وليمتها المُفضَّلة!!

النَّاس تخرجُ إلى الشَّارع، الجوع يدفعها إلى ذلك، تشتري بما ادَّخرتُ من مالٍ شيئًا من الطَّعام، لم يكن الحُصول على الطَّعام سهلاً، الجذب بسبب نقصان مياه النَّيل ضربَ الأراضي المزروعة، غريزة الجوع تنهش المِعَد الخاوية، عاد النَّاس على سجية أجدادهم الأوائل، تدفعهم غريزة البقاء للبحث عن الطَّعام بشكلٍ محمومٍ؛ حتَّى ولو اضطرَّهم ذلك إلى أن ينبشوا في كلِّ موضع، بقايا أكلٍ لبيتِ ميسورٍ مطروح في الأرض، قاذورات، أو ساخ، أوراق ملوحيَّة مُتعفَّنة،... أيَّ شيءٍ يُؤكل، رأيتُ نداء الجوع في وجوه أقوى من أيِّ نداءٍ إنسانيٍّ، يستغني الإنسان عن أخيه الإنسان، عن ابنه، عن زوجته، يُمكنه أن يعيشَ وحيدًا، أو راهبًا، أو عزبًا طوال حياته، ولكنَّه لا يستطيع أن يعيشَ جائعًا، الجوع بعدَ بضعة أيَّام يُصبح عدوَّ الإنسان الأوَّل، إنَّه الحُرْبَةُ التي تسيل على حدِّها الحياة، ويلمع في شبَّها الموت، وإذا فنحن في حربٍ مع هذا العدوِّ القاتل، لكننا يُمكن أن نُداريه؟ أيَّامًا، صحيح، بعدَ ذلك لا يُمكننا أن نفعَل، ربَّما نُسكته قليلاً، بأكل ورق الشَّجر، أو مُخلفات حُضرةٍ مرميةٍ في قارعة الطَّريق، هذا ما شاهدته في الأيام الأولى، كانتُ هناك كومةٌ بالية من حشائش الجرجير والخس، وكانتُ تلعبُ فوقها مجموعةٌ من الجردان، ورأيتُ ثلاثةً من الفتيان يتقاتلون على تلك القاذورات، لا أحدَ يريدُ أن يموت!!

في البيوت، بدأتُ قصَّة الجردان تنتشر، صارت مُضغَّة الألسن، وبرزتُ مجموعةٌ من الأسئلة عنها؛ من أين أتت تلك الجردان؟ لا أحدَ يدري على وجه الدقَّة. قال العارف من النَّجار: لقد جاءت مع السِّفن؟ إنَّ السِّفن تنقل الجردان وتنقل غيرها، فلماذا نقلتِ الجردان على وجه الخصوص؟ جاء الجواب: لأنَّها جاءت من بلادٍ تكثُرُ فيها الجردان ويأكلها أهلها كما يأكلون السُّمن من الطَّيور؟ تقصد تشانغ أن في الصِّين؟ ربَّما، أو أنطاكية، أو القسطنطينية أو الإسكندرية؛ مَنْ يدري؟! أهل الإسكندرية لا يأكلون الجردان. لنقل إنَّها مدينةٌ ساحليَّة؟ لماذا على أهل المدن السَّاحليَّة أن يأكلوا الجردان، ألا يشبعون من الأسماك التي تملأ البحار؟

لم يتوقّف الحديث عن الجردان في القاهرة، من المفيد أن نعرف أن الناس بدأت ترى الجردان شيئاً طبيعياً، لم يعد ممكناً مُحارِبة هذه الجردان كلّها، من العبث فعل ذلك، وعلى الطّبيعة أن تسير كما أراد الله لها أن تسير. الذي جلب الجردان هو الله، لنقل قدره الذي لا يُردّ، وعليه، فمن المُستحسن أن نسكت أمام قدر الله. قال آخر: الجردان لم يأت بها الله، ولا قدر الله، يكفي الافتراء على الله في كلّ مصيبة، الجردان جاءت مع سفن الإسكندرية التي جاءت من الصين أو من آسيا الوسطى أو من الجحيم، لكنّها جاءت مع البشر، وعلى البشر أن يخرسوا أو يقطعوا ألسنتهم قبل أن يُلصقوا بالله أو بقدره أو حتّى بالشيطان كلّ شيء.

الخسف الذي في أوّل درب الملوخية لم يُردم جيّداً، يمكنك أن تسمع زق زيق الفئران من مسافة بعيدة، المياه الوسخة الدافئة المتجمّعة في الخسف تُعجبها، يُمكنك أن تشاهدها تسبح بأمان، وتحوم حول الخسف بحرية، وإذا أردت ألا تفقد قدمك، أو شيئاً من ربّلة ساقك، فعليك أن تبتعد عن المكان بسرعة، إن أعدادها هنا بالآلاف، إذا لم تكن أكثر من ذلك، إن بعضها يلتصق ببعض ويُصدر هذا الصوت الحادّ كأنّها صيصان صغيرة، كيف استطاعت

الفئران الإناث أن تلد كلّ هذه الأعداد المُذهلة؟!!

من أقبية البيوت المهذّمة، يُمكن أن ترى الجردان تنفر في صفوفٍ مُتشعبة كأنّها تخرج من مركز دائرة وتتشعب في كلّ اتجاه، لا أدري إن كانت الأرض دبقاً بالأساس، أم أنّها صارت كذلك بفعل بُراز الجردان وبولها وبقايا الأوساخ المُتراكمّة، للجردان طريقة مُدهشة في المشي، إنّها تمشي سريعاً في خطّ مستقيم، قبل أن تتوقّف فجأة، وترفع قائمتيها الأماميتين الصّغيرتين، وتُحرك شواربها، وتُوصوص بعينيها، وتُخرج صوت: زق زيق، أو تلوك شيئاً في فمها، ثمّ تُنزل تلك القوائم القصيرة، وتهزّ ذنبها الذي يشبه انحناء القوس هزّتين أو ثلاثاً، ثمّ تنطلق مسرعةً مرّةً أخرى، أين القطط لكي تُشارك في هذا الاستعراض؟!!

لم يتعوّد آخرون على وجود الجردان، كان منظرها تركض في جماعات، وتتراصّ بالمئات يبعث الرّعب في القلوب، الجردان ليست جميلة، من يحبّ جرّداً كريهاً؟! لنفترض أنّ أحداً ما يحبّها، من يستطيع احتمال رائحتها؟! لنفترض أنّ أحداً ما يعتبر تلك الرّائحة مقبولةً أكثر من رائحة البشر، فمن يحتمل صوتها: زق.. زيق؟ لنفترض أنّ صوتها موسيقيّ لدى بعض البشر، فمن يحتمل طريقة أكلها، أو ما تأكل، إنّها تأكل القدر والودر؟!!

أيّ سوقٍ أو موضعٍ خلا منها؟ السّماعين وبغاياها؟ السّجادين وسجاجيدها الجميلة ذات النّفوش الفارسيّة؟ الحلوانيين وحلواها الشّهية ذات المذاق الطّريّ الذي يذوب في الفم نوباً؟ الدّجاجين، الجُرخيين، بين القصرين، القفصيات، زويلة، درب الملوخية، التّربة، المشهد، الجوامع، البرابي، الخوانق، البيوت، الأسيرة، الحواري، الأزقة، العُرف، العتبات،... لم يخل منها مفحصٌ قطّاء؛ لقد بدأ غزو الجردان لمدينتنا المسكينة، فيا أهل المحروسة استعدّوا!!!

مسغبة _ أيمن العتوم:

” (٩)

كيف أحاربُ عدوّاً لا أعرفه؟!!

وقعت مطرقة الطّاعون على رأس القاهرة، فصاحت القاهرة كلّها صيحةً واحدةً: «آآآ». لقد كانت المُصيبة ثقيلة، لم يرها أحدٌ من قبل، لم يُفكر بها، لم يعرف كيف جاءت، ولم يكن يؤمن قبل مجيئها أنّها ستجيء. لكنّ الحقيقة تقول، إنّ الطّاعون صارَ جزءًا من هذه الحياة التي على أهل القاهرة أن يعيشوها!!

من الصّعب أن ترفع رأسك من صفةٍ قاسيةٍ لتواجه صفةً جديدةً أفسى وأشدّ، لم يكن قد مضى على الزلزال الكبير عامٍ حتّى وقد هذا الوباء، والنّاس في زمن الأوبئة لا تعرف ما تفعل؟ والطّاعون سُمّي كذلك لكثرة طغنه في النّاس، يُكثّر فيهم الطّعن بحريةٍ سامّةٍ لا يكاد يبرأ منها أحدٌ، وأمامها كان النّاس في البداية في حيرةٍ من أمرهم؛ كيف يُمكن الهرب من هذه الجائحة؟!!

توجّهت من فوري إلى ديوان مصر، طلبت منهم أن يجمعوني برئيس الديوان، حينما صرّحت بين يديه، طلبت منه أن يجمع رؤساء الدّواوين المهمّة، مثل ديوان القضاء، وديوان الشّروطة، وديوان الجند، بصفتي رئيس قسم الجراحة والأوبئة في الليمارستان الرّئيس، لم يُفكر رئيس ديوان مصر أن يستجيب لطلبي، لكنّ إسانًا ما قال إنّ عليه أن يفعل!

حينما صرنا في غرفةٍ مُغلقة، لم أَرِدُ أن أمهد للموضوع كثيرًا، فالأمر لا يحتاج إلى مُقدّمات. كان رئيس الديوان قد اعتلى عرشًا يرتفع عن البساط الذي مُدّت فيه كراسينا، وقد جلسَ عن يمينه رئيس ديوان الجند، وعن يساره رئيس ديوان القضاء: «تكلّم يا عبد اللّطيف» قال بلهجةٍ صارمة. «سيدي، نحن نتعرّض للطّاعون، إنّه مرضٌ فتّاك، تبدو جيوش الأرض كلّها بأثقال أسلحتها ذات تأثير هامشيّ بالنسبة إليه، إنّه يستطيع أن يُضخّم بعض أعضاء الإنسان الداخليّة، ويؤدّي إلى تقيحها أو انفجارها في غضون ثلاثة أيّام إلى سبعة، والنّجاة منه لمن أصيب به تُعدّ ضربًا من المُستحيل إلاّ بمشيئة الله، وكلّ يوم يمرّ على القاهرة لا تُتخذ فيه إجراءات حازمة لمواجهته، فمعنى ذلك أنّنا نضع أعناق النّاس على حدّ السيوف، إنني أطلب...» قاطعني رئيس الديوان: «توقّف... توقّف... هل الأمر خطيرٌ إلى هذا الحدّ؟». «سيدي، إذا لم تكن لدينا نحن أهل العِلْم وأهل الأمر سرعةٌ في مواجهته، فإنّ هذا المرض الفتّاك قادرٌ في بضعة شهورٍ أن يُبيد نصف سكّان مصر بأكملها، وإذا أطلبُ أن...» أوقفني هذه المرّة رئيس الجند وهو ينظر إلى رئيس الديوان: «أرى أنّ في لغة الطّبيب شيئًا من العُجبيّة، يُمكنك أن تُعلّمنا بالأمر، وهذا يكفي...». تابعت دون أن أَرِدَ عليه: «إنني أطلبُ أن تُبني المصحّات والبيمارستانات في المدن والأسواق المُكتظة من أجل...». قاطعني من جديد رئيس الجند، وقد أحنقه أنّي أهملتُ كلامه: «مَنْ أنت حتّى تطلب شيئًا كهذا؟ لقد خُضنا عشرة حروب حتّى الآن مع أعدائنا من الصّليبيين ولم نُضطرّ إلى أن نبني بيمارستانًا واحدًا». «سيدي رئيس الديوان، إنني هنا لأقول هذه العبارات، ولا أظنّ أنّنا سنلتقي مرّةً أخرى، وليس لديّ ما أقوله غيرّها، إنكم إن لم تُسارعوا في إنقاذ النّاس، فسترى العرّبات تجوبُ شوارع القاهرة كلّها، تخرج من بيوتها الفقيرة وقصورها الغنيّة وهي تحمل جثث الموتى، لا تُفرّق بين أحدٍ... إنني...». وتوقّفت أنا هذه المرّة، وتحشرج صوتي، بلعت ريقِي، ومسحتُ دمعَةً طفرت من عيني بظاهر يدي، وتابعت: «إنني سأعمل بكل ما أستطيع من أجل أن أنقذ ما أستطيع إنقاذه أنا والمُخلصين معي». بدوتُ واعظًا في الجملة الأخيرة، وتحرك الفقيه الذي فيّ، لكنّ الطّبيب صحا من جديد: «إنّ الكارثة أكبر منّا جميعًا». كان رئيس الديوان يُصغي مُضيقًا عينيه، حين سأل: «أيها الحكيم، إنني لا أعرف ما الطّاعون؟ هل تريدُ منّي أن أحارب عدوًا لا أعرفه؟!». «سيدي، الطّاعون مرضٌ ينتقل بالهواء، وبالملامسة، وسببه على الأرجح الفئران، وأنت ترى أنّ الفئران لولا حرسك الذين في الخارج لكانت تتهدّى الآن بين ساقيك، وقد يكون سببه البراغيث، وقد يكون فساد الهواء، وما أطلّفته الحرائق من أدخنة، أو ما صعد من باطن الأرض أيّام الزلزال من أبخرةٍ سامّة، وقد يكون قلة النّظافة، وما تعفّن من جثث الموتى بعد الزلزال، لا يُمكن أن أحدد لك سببًا واحدًا». أوقف رئيس الجند سيل الكلام المُتدفّق من فمي برفع يده في وجهي، وسألني بشيءٍ من البلاهة: «ولكنني سمعتُ من يقول إنّ سبب الطّاعون ليس كما تدّعي، وإنّما هو بُذيرات سقطت من النّجوم إلى الأرض، وهي تتوالد في جسم الإنسان إذا دخلت إليه».

أجبتُه: «هذا تفسير كاهنٍ أو عَرَّافٍ، وأنا أتحدّث هنا بوصفي طبيبًا، لكنّ قد تكون له أسبابٌ أخرى مثل رداءة الطّعام، وشدّة الازديحام، وإهمال الضوء جيّدًا، والتّسمّم التّاجم عن تناول بقايا الطّعام المُلقاة في صناديق القمامة، أو اللّحم الفاسد، أو الرّائحة النّاتجة عن عدم تصريف فضلات الإنسان بشكلٍ صحيح، أو الحيوانات النّافقة في النّيل، أو... لديّ قائمة تطول». وتنهّدُ وأنا أرفع كتفَيّ إلى الأعلى وأهبطهما بشكلٍ سريع، وأطلق زفيرًا عاليًا كأنني أريدُ أن أنتهي من قذف الأسباب بأسرع ما يُمكن في وجوه رؤساء الدّواوين. سألني رئيس الدّيوان أن أكمل ما كنتُ أقوله من قبل أن يعترض عليّ رئيس الجند، فتابعت: «سيدي؛ إنّ الطّاعون إذا انتقل عبر الهواء الفاسد إمّا بالاستنشاق أو مسامّ الجلد، فإنّه يُؤلّد سُمًّا داخل الجسم، فإذا تراكم السّمّ حول القلب كما قال ابنُ سينا، فإنّه يؤدّي إلى الموت، فإذا أرادَ الجسم أن يُصرف السّمّ الذي دخل إليه، ظهر في أماكن ثلاثة، هي منطقة العنق لقرّبها من الدّماغ، وتحت الإبطين لقرّبها من القلب، والأربيّة في أسفل البطن أو أعلى الفخذ لقرّبها من الكبد». تنهّدُ رئيس الدّيوان، وكان يبدو عليه أنّه شعر بخطورة ما أقول، فتابعتُ: «ولكنّ...». فانتبه إليّ بعد أن كان مُطرقًا، وقال: «ولكنّ ماذا؟ تكلم أيّها الحكيم». فقلتُ: «ولكنّ يُمكن الوقاية منه، لأنّ علاجه إن وقع صار مُتعدّدًا في أكثر الأحوال، ومن أجل ذلك كان هذا الاجتِماع، إن ابن سينا قبلي، وآخرين قد رسموا طرق الوقاية، وإنّ الطّاعون ليس جديّدًا على الأرض ولا على البشر، ولعلّه هبطَ مع أبينا الأوّل، وقد مرّ علينا نحن المسلمون أكثر من عشرة طواعين قبل هذا، وما طاعون (عمواس) الذي قتل ما يقرب من خمسة وعشرين ألفًا من المسلمون عنا بغريب... وطرق الوقاية مُمكنةٌ ما لم يسبق السيفُ العنق، فعدم الخوف من المرض، والبعد عن الأسواق، ومنع الاتين إلى القاهرة من دخولها، وعدم خروجنا من بيوتنا، ووقف الصّلاة في المساجد والصلاة في المنزل، والصبر، كلّها وسائل قد تكون مُفيدةً في مثل هذه الحال».

خرجتُ لا أدري، إن وقع قولِي في القلب، أم أنّه لم يُجاوز الأذان. الآن تبدأ مهمّتي، وعليّ أن أعرف ما يتعيّن عليّ القيام به على الوجه الصّحيح.

في الصّباح توجّهتُ إلى اليبمارستان الرّئيس، النّاس سيبدوون بالتّوافد إليه، هذا مُؤكّد، كانتُ هناك أعدادٌ كبيرةٌ بالفعل تُعالج في العُرف المُخصّصة، وأخرى تنتظر، وثلاثة تتجمهر من ذوي المرضى في الأروقة، وبعضها يجلسُ على العشب في السّاحات الخارجيّة، وكان هناك لَعَطٌ يعلو هنا، وصياحٌ يعلو هناك.

عُرف مرضاي في قسم الجراحة، قريبًا من قاعة التّدريس الكبيرة، دخلتُ الغرفة الأولى، المريض يتكوّر على نفسه من الألم، كان المساعدون قد نزعوا عنه ثيابه، فظهر دُمّل في عنقه، كان ضخّمًا، الدّمّل السّابق الذي رأيته كان أصغرَ من هذا، كان لونه أحمر داكنًا يميلُ إلى السّواد، واضحٌ من حجمه ولونه أنّه مُحتقن، كان المريض إلى ذلك محموّمًا، وكان يهذي، طلبتُ من المُساعدين نقله إلى غرفة التّدريس الكبيرة، فنقلوه، حينما ولجتُ من الباب تلقّاني سالم، وخليل، فرحتُ برويتهما، قالوا: «لن نُفارقك بعد اليوم». ابتسمتُ: «نحن بحاجة إلى كلّ مَنْ يستطيع أن يُقدّم المساعدة». قلتُ لهما وهما يرفّعانه ليضعاه على سرير التّحضير لعمليّة الفصد: «الوقاية من العدوى للطّبيب أهمّ منها للمريض، علينا أن نُحافظ على أجسامنا صحيحة. اربطوا على أفواهكم وأنافكم اللّثام الخاصّ بذلك، ولا تمسكوا بأيّ آلةٍ جراحية قبل أن تكون الفُقازات في أيديكم».

أدوات الجراحة على الطّاوله، كان هناك المِقصّات، والسكاكين الدّقيقة، والمشارط، والإبر، والخيوط لربط الجروح المفتوحة، والملاقط، والحلقات المعدنيّة، والمطارق الصّغيرة... أمرتهم أن يتأكّدوا من تعقيمها جيّدًا، قال لي خليل: «إنّها جاهزة يا سيدي». «ناولني المشرط»، كان المريض يننّ من الألم، ويهذي من الحُمى، وكانت عيناه زائغتين، ويدها مُرتخيتين، أمسكُ مُساعدٌ لي عنقه، وأعملتُ المشرطَ ذا الطّرف الحادّ في الدّمّل، ثمّ أعملتُه في الخطّ المتقاطع مع الخطّ الأوّل، فسال الصّديد منه، كان مزيجًا من القيح الأصفر والدّم الأحمر، صرخَ المريضُ صرخةً عاليةً من الوجع، وحاول أن يحرك رأسه لكنّها كانت مُمسكةً بذراعين قويتين من أحد المُساعدين.

قلت لهم: «شفاؤه مُمكن، الآن سينام، حينَ يُفِيق، سيكون قد قطع أول شوطٍ في التَّعافي. علينا أن نراقبه خلال هذه المدة». مكث المريضُ ثلاثةَ أيَّام، لم يتضخَّم أيّ عضوٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ فيه، تعافى في اليوم الرَّابع بشكلٍ ممتازٍ على ما يبدو، فرحنا أنا ومجموعة الأطباء لشِفائه كثيرًا، كانت تجربتنا الأولى! «

” (١٠)

الرَّجلِ صِفر

في الأيَّام التي تعافى فيها المريضُ الأول، بدأت تَفُذ إلى البيمارستان أعدادٌ كبيرةٌ من المرضى، كان يبدو أنَّ المكان يضيِّقُ بهم. صار تعافي المريضِ الأولِ حلمًا، نراه ولا نراه.

أعلن ديوان مصر: «على النَّاس أن يبقوا في بيوتهم، ولا يُغادروها أبدًا، إلَّا إذا اقتضتِ الضَّرورة». التزم النَّاس بأوامر الديوان، باتت شوارع القاهرة خاليةً من النَّاس، لا يتجول فيها إلَّا الشرطَةُ والعَسَس، والفئران التي لم تنقطع. في الليل انقطعت الأقدام من الشَّوارع، كان يبدو أنَّ نومًا طويلًا في ليلٍ أطول قد أصاب المدينة، وأنها لن تستيقظَ منه قريبًا.

أعلن الديوان مكافحةَ الفئران: «إنَّ مَنْ يصيدُ فأرًا ويأتي به إلى المحرقة الخاصة سينال مُكافأةً قدرُها درهمان». بعد بضعة أيام اكتظَّ الشَّارع المؤدِّي إلى المحرقة بالنَّاس وهم يحملون فئرانهم من ذبولها أو في أجربة، كان بعضهم يحمل خمسين فأرًا، بعضهم كان يحمل مئةً من تلك الفئران الميَّتة في قفصٍ خشبيٍّ فوق رأسه؛ لقد كانوا يُربِّون الفئران في بيوتهم ليحصلوا على المكافأة المائيَّة!! من نافلة القول إنَّ ذلك الاكتظاظ، وتلك الفئران الميَّتة في الشَّارع المؤدِّي إلى المحرقة سوف تكون هديَّة الديوان إلى أهل مصر، لقد سقطت مصر كلُّها في هول الطَّاعون.

اشترى النَّاس بكلِّ ما تبقى لديهم من مالٍ آخرَ ما تبقى في الأسواق من طعام، إعلان عدم التَّجوال في الشَّوارع فاقم الإحساس بالموت، وبأنَّ شبحه يُخيم عليهم، كان الجوع يُرسخ في عقول النَّاس صورةَ الموت الأليمة، وكانوا يُحاربون الموت من خلال تلافي ذلك الجوع عن طريق شراء ما كانوا يحتاجونه وما لا يحتاجونه، اشتروا كلَّ ما في مخازر القاهرة في الأيَّام الثلاثة التي سُمِّح لهم فيها بالشَّراء، لكنَّ بطونهم التي ظنَّوا أنَّهم يستطيعون أن يلقوا فيها حمولة سفينة كاملة ليطردوا عن أنفسهم شبح الجوع، لم تستطع أن تأكل أكثر ممَّا يملؤها، وإدًا فإنَّ هذه الأردبات التي لا يُمكن تخيلها، وتلك المئات من الأُرغفة التي لا يُمكن عدُّها صارت وليمةً شهيةً بعد ذلك للفئران، التي بدأت تنزاد بأعداد مُرعبة، أنذ كان على الديوان أن يدفع لمُربي الفئران كلَّ ما في خزينة الدولة من ذهبٍ ومال، وعليه؛ فقد أعلن الديوان: «لا مكافأة مائيَّة بعد اليوم لصيادي الفئران».

الشَّرْطَة في اللَّيْلِ مع العَسَس مع رجال الدَّوْلَة يجوبون شوارع القاهرة والمدن القريبة، لكنَّ الدَّوْلَة لا تملك هذا العدد الكافي من رجال الأمن لكي تنتهرهم في كلِّ مكانٍ، ولذا، كان بعضُ الخارجين المُتَلصِّصين، ينسلُّون من بيوتهم إلى الطَّرقات خلسةً وبعيدًا عن الأعين لالتقاط بعضِ الفُتات، أو طرق أبواب النَّاس الذين لديهم طعامٌ يُمكن أن يتصدَّقوا به، لكنَّ أهلَ اليسار أنفسهم بدؤوا لا يجدون ما يأكلون.

كان أهلُ القرى أحسنَ حظًّا من أهل القاهرة والمدن، كان يُمكن أن يأكلوا بعضَ ما تبقى ممَّا تُخرج الأرض، لكنَّ الأرض هي الأخرى بدأت تجوع، لا ماء التَّيْل الشَّحِيح أرواها، ولا ماء التَّرعات، ولا ماء الخسف الحَمِي الَّذِي أَهْلَكَ خُضرة الزَّرْع منذ ما يقربُ من عامٍ، ولا ماء البرِّك ولا الفَنوات. لكنَّ في الأرض ما يُمكن أن تجودَ به أكثر من البشر، لأولئك البشر الذين لا يسألون النَّاس إلحافًا، ولا يطرقون الأبواب المُغلقة على الأغنياء، الأغنياء من الأمراء والوزراء الذين بدؤوا يُخزِّنون في بيوتهم وفُصورهم الطَّعام، تاركين النَّاس يأكلون التُّراب.

«القانون يسري على أهل مصر كلِّهم، لا أحدَ يمرقُ فوقه، المارقون لهم السَّيف»، هكذا صار الشَّرْطَة ينادون في الطَّرقات، وهم يتابعون: «لا أحدَ يخرجُ من بيته، الخارجون يُحاكَمون». ولكنَّ النَّاس حتَّى لو كانت قِطْطًا، لا يُمكن أن تحشرها لتموت من الجوع في إحدى زوايا البيت راضيةً مُستسلمة. لقد كان على عددٍ منهم أن يخرجوا؛ لأنَّ لديهم أطفالًا يموتون، أو كبارًا في السنِّ لا يستطيعون تحمُّل الجوع مثل الآخرين، ويحتاجون إلى العناية، وربَّما إلى البيمارستان. ولذا تجرَّأ بعضُ النَّاس لكسر القانون، وخرجوا من أجل أن يُحافظوا على ما تبقى في أجسادهم من حياة. بعضهم نَجح، ولكنَّ بعضهم ألقَتْ عليه الشَّرْطَة القبض، فسبِقَ إلى السَّجْن ريثما تتمَّ محاكمته، كان هذا أوَّل سجينٍ يدخل إلى السَّجْن في زمن الطَّاعون، لم يكن أحدٌ من نزلاء السَّجْن مُصابًا بالطَّاعون قبله، بدخوله إلى هناك، فتحَّ البوابة على عددٍ لا يُمكن التَّنَبُّؤ به من الموبوءين، لنفترض أنَّه الرَّجُل صفر، دخل الرَّجُل صفر إلى غرفة التَّوقيف، غالبًا ما يكون فيها ذلك الصَّنْف من المقبوض عليهم قبل أن تُوجَّه إليهم تُهمة، ويكون عددهم كبيرًا، كانوا لا يقلُّون عن مئة في تلك النَّظارة، الدَّاخِل الجديدي إلى نظارة التَّوقيف يحمل الحكايا من الخارج، ولذلك فرح به الموقوفون، وتحلَّقوا حوله في المساء ليروي لهم ما يجري في الخارج: «هل صحيحٌ أنَّ

الدولة منعت التَّجوال في الشَّوارع؟! يسأله أحدهم، لكنَّ آخر لا يُعطيه الوقت ليجيب عن هذا السَّؤال، فيقول بصوتٍ غاضبٍ: «أنا رزقي كلُّه يعتمد على التَّجوال في الشَّوارع، أنا أبيع الورود، صحيحٌ أنَّه لم يعد أحدٌ يشتري وروداً هذه الأيام، أنا أحاول، ولو كنتُ مكانَ الشَّباب لاشتريتُ أضمومةً وردٍ قبل أن أشتري رغيف خبزٍ...» ثمَّ تلبَّس لهجته، ويضحك وهو يلوِّح بقبضته في الهواء: «لنَّ يمعني أحدٌ من البيع في الشَّارع، وإذا لم أبع الورد فسأبيع الشَّعير، هؤلاء قومٌ لا يشترون إلا الشَّعير!». ويضحك وتضحك معه جماعةٌ، فيردُّ عليه الرَّجُل صفر مُمازحًا: «إنَّه حتَّى الشَّعير فُقدَ يا صديقي». فتسري همهمةٌ بين المُتخلِّفين حوله، يقول رجلٌ ثالث: «دعوه يا جماعة يُخبرنا كيف ألقوا القبضَ عليه». يردُّ الرَّجُل صفر: «لقد كنتُ أمشي في الشَّارع أبحتُّ عن طعامٍ لأبي الَّذي جاوز الثَّمانين، وهو مريضٌ في الفراش، ومنذ ثلاثة أيَّام لم يأكل شيئًا، ف...». يُقاطعُه صوتٌ من آخر الحلقة: «الملاعين، ألا توجد في قلوبهم رحمة؟!». يتابع الرَّجُل صفر: «نزلتُ عليَّ هراوةٌ فوق رأسي فشجَّته، وأسقطتُ العمامة، وسالَ دمي غزيرًا». يُميل رأسه نحوه يُريهم الجرح ليتأكَّدوا من صدق روايته، ثمَّ يمسح بإصبعه على موضع الجرح بما تخنَّر فيه من دم، ويرفع الإصبع أمام عيونهم، ويتابع بلهجة مُستخذية: «لم أكنُّ أريدُ أكثر من لقمة لأبي». يتقدَّم إليه شخصٌ من الحلقة الثَّانية، ويقبله على رأسه، ويلعق موضع الجرح، ويهتف: «لا تحزن يا أخي... سنُفَرِّج». ويعودُ إلى مكانه. يأتي صوتُ الشَّرْطَة من نافذة الباب: «ناموا أيُّها الملاعين...». يضحكون، ويقول شخصٌ ما: «إنَّه ابنُ حرام، دعك منه، نريدُ أن نسمع المزيد...». يُسبغ فضولهم بمعرفة ما يجري في الخارج، ثمَّ يستيقظ أولئك الذين كانوا نائمين أثناء حديث الرَّجُل صفر، إنَّهم مُتَشَوِّقون كذلك إلى سماع ما فاتهم، ينام الذين سمعوا، ويتخلَّق حول الرَّجُل صفر الذين استيقظوا للتَّو، يُعيد لهم الحكاية من جديد، ويزيدُ عليها، ويؤدِّيها أداءً تمثيليًّا أجمل هذه المرَّة بعد أن تدربَ عليها في المرَّة السَّابقة، إنَّ صوته المُتهدِّج وهو يتحدَّث عن أبيه: «لا أدري كيف هي حاله الآن بعد أن ألقوا عليَّ القبض، ورموني في هذا السَّجْن، إنَّني ابنُه الوحيد، وليس له مَنْ يرعاه سواي» يجعل قلوب المُستمعين تنفطر، فيقوم إليه عددٌ من المُشفقين ويحتضنونه، ويهدِّنون من روعه.

الآن يُمكننا تخيّل السلسلة، خمسون من مئة من الذين قبلوه على رأسه أو احتضنوه أو جلسوا بجانبه وربّوا على كتفه بين فينةٍ وأخرى، أو ناموا قريبين منه، انتقل إليهم الطّاعون. هؤلاء الخمسون احتاجوا إلى يومٍ واحدٍ آخر فقط من أجل أن ينقلوا الطّاعون إلى كلّ مَنْ في النّظارة، المئة الذين كانوا في النّظارة انتقلوا إلى محاكمٍ مُختلفةٍ، يتوزّعون على قضايا وثمّ مُتعدّدة، نقلوا الطّاعون إلى أولئك الذين في المحاكم، عندما عادوا إلى السّجن لم يعودوا إلى النّظارة لأنّهم صاروا من المحكومين، بل نُقلوا إلى عُرفٍ أخرى في السّجن حسب قضاياهم، أو إلى سجونٍ أخرى حسب مدّة المحكوميّة، وكانوا جميعًا يحملون معهم الطّاعون في أجسادهم. بعدَ نحو أسبوعين كانت سجون مصر كلّها مُصابة بالطّاعون؛ السّجناء، الشّريطة، الأمرون، الخُراس، رؤساء السّجون، كان كلّ سجينٍ يحمل نُسختين منه؛ جسده وطاعونه. كان الطّاعون يمشي في الغرف، وفي السّاحات، وفي الأقبية، وفي الأروقة، وكان ينطبع على الحجارة، ويسيل في الأمعاء مع الطّعام، وبدأ يتجسّد في هيئاته المُحبّية؛ أجسامٌ هزيلة، بأسمالٍ بالية، في عُرفٍ تحت الأرض، لا يصل إليها الهواء، تنبعثُ منها روائح لا تُطاق، يستلقون على الأرض، ينتظرون شُرْبَ ماءٍ واحدةٍ لا يُمكن لأحدٍ أن يحصلَ عليها، فلا الماء موجود، ولا أحدٌ قادرٌ على أن ينهضَ ويأتي به، أو أن يُقدّمه لسجينٍ بجانبه.

الذين نجوا من المساجين هم أولئك الذين ماتوا في المحاكمات قبل أن يعودوا بهم إلى السّجن، لقد نزلت بهم رحمةُ الله؛ أولئك الذين هوث على رقابهم سيوفُ الجلّادين تنفيذًا لقضاء الله فأطارت رؤوسهم من فوق أكتافهم!!

أعلن ديوان مصر أنّ السّجون موبوءةً بالطّاعون، وسيّر كلّ عرّباته لنقلِ الموتى، واستغرقوا خمسةَ أيّام لنقلِ الجُثث، ودفنها، جثث الذين ماتوا، وأولئك الذين كانوا يموتون في العنابر الأخرى أثناء نقلِ الموتى إلى مثاويهم الأخيرة. العرّبات لا تتوقّف عن الحركة، لقد أصبحتْ لكثرتها مع الخيول، كأنّها جيوشٌ جرّارة، ومع ذلك لم تكن كافية! “

” القسم الخامس

الموت الأسود

(الذين ينتظرون الموت وليس هو، ويحفرون عليه أكثرَ مِنَ الكُنوز، المسزورين إلى أن يبتهجوا، الفرحين عندما يجدون قبرًا، لرجلٍ قد خفي عليه طريقه، وقد سيح الله حوله، لأنّه مثلُ خُبزي يأتيني أيني، ومثلُ المياه تنسكبُ زفرتي، لأني ارتعابًا ارتعبتُ فاتاني، والذي فرغتُ منه جاء عني، لم أطمئنّ ولم أسكنّ ولم أسترح، وقد جاء الرُّجز).

(سفر أيّوب، ٣: ٢١-٢٦) “

لم يعد رئيس الشرطة يحتمل الخروقات، كان عليه أن يُفكّر بطريقة تجعل الناس يرتعدون، جمع ثلاثين رجلاً من الذين ألقت الشرطة القبض عليهم، وعلّقهم في جذوع النخل، مصلوبين، على قوارع الطرق، كان منظرهم مُرعباً على الحقيقة، رجالاً في أواسط العمر، مدقوقة أجسامهم بمسامير كبيرة، وقد قُطعت لكل واحد منهم يده اليمنى مع رجله الشمال، وبعضهم كان يتدلّى جسده مُعلّقاً من رقبتة أو من جذعه بجبال غليظة من تحت الأشجار العالية. كان رئيس الشرطة يريد أن يجعلهم عيرة لأولئك الذين يُخالفون أوامر رئيس الديوان بالبقاء في البيوت، كان يقول لمن يعترض على إنزال العقوبة بهم: «هلاكَ شيرذمة من الناس فيه رحمة لبقيتهم، لن أغامر بحياة ألف ألف في القاهرة وحدها من أجل حفنة من المارقين». ولذا صُلّب هؤلاء المارقون على مُفترقات الطرق في الشوارع الرئيسية والكبرى، والتي يتجمع حولها أكبر عدد من البيوت، ولذا كان الناس دون أن يخرجوا من بيوتهم، يستطيعون أن يروا هذه الجثث المُرعبة من شُرُفات بيوتهم ومن الأبواب إذا أشرعوها، ومن التوافذ إذا وقفوا ونظروا إلى الخارج. كان المنظر يُلقي في قلوب أشد الناس شجاعة خوفاً لا يُمكن الحدس به، وكان الآباء يُحدّرون أطفالهم من اختلاس النظر من التوافذ دون أن يقولوا السبب، ممّا زاد في فضولهم لينظروا، وصار مجرد التحذير من النظر عبر النافذة أو الخروج إلى الشرفة، يجعل منهما؛ النافذة والشرفة مكانين مُخيفين، لا أحد يريد أن يحدّق فيهما أو يتلقظ باسمهما، وصار فراغ النافذة أو باب الشرفة موطئاً خصباً للخيلات المُرعبة، فارتسمت عليه صور الموت في أذهان الكبار قبل الصغار، وأشباح تتجول، وتظهر بأرديتها السوداء، وأنوفها المَعقوفة، وصوتها القبيح، وأشداقها التي يسيل منها الصديد، وإذا حدث أن حانت من الأطفال نظرة في غفلة من الآباء، فإن طاعون الخوف يتشبث بخيالهم الخصب ولا يُمكن أننذ التخلّص منه أو الشفاء من آثاره، ولذلك عاش الآباء على أعصابهم، وهم يراقبون ذويهم ألا يقتربوا من تلك الفراغات المُحرمة!!

أما أولئك الذين قُدّر لهم أن يسيروا في الشوارع من الشرطة أو المُتسللين فإنهم يرؤون عن تلك الجثث المصلوبة روايات تفوق الخيال، يروى هذا الشرطي الذي جاء إليّ في المُستشفى ليعالج من اضطراباته العصبيّة، كيف أنّه كان يركب حصانه في ظلال الصباح قبيل طلوع الشمس، فإذا هو يرتطم دون أن ينتبه بجثة مُتدلّية من تحت شجرة، وإذا هو ينظر إلى وجه الجثة فيرى عدداً من الأفاعي تخرج من عينيها، ودوداً يخرج من فمها. وروى لي آخر كيف أنّه كان يمشي في مهمته للبحث عن المُتسللين في الشوارع، فإذا هو يشعر بلحم طري يسقط فوق خده، وعندما رفع رأسه ليرى ما الذي يسقط وقعت عيناه على جثة قد نقت الغربان لحمها فصارث تتساقط أحشاؤها على المارين من تحتها! وروى لي ثالث أنّه شاهد بأع عينيه كيف قُطع رأس أبيه أمامه، وإنّ كلّ ذنبه أنّه خرج لكي يخبز للناس الجوعى، ولم تكن الشرطة تعرفه، فظنّته أحد اللصوص!

فاقمت الإجراءات الأخيرة في انتشار الطاعون، الجثث المُتدلّية من تحت الأشجار صارث بالعفن والتفسخ والروائح موضعاً خصباً للإصابة به، ولذلك وفد إلى البيمارستان عدد كبير من الشرطة، بل إنّ بعضهم من شدة الرعب، ظنّ أنّه أصيب بالطاعون من مجرد النظر إليها. وهذا ما استقرّ عليه رأي العامّة من أهل البيوت، إذ اعتقدوا أنّ مجرد النظر إلى المطعون يُعدي، ولذلك راح بعض الآباء يُغلق النوافذ بالمسامير، ويدقّ فيها الشواقل، ويُنزل فوقها الستائر السميكة، ويفعل ذلك مع أبواب الشرفات، وآخرون أغلقوا على أنفسهم بيوت أبوابهم، ولم يفتحوا لطارق حتى ماتوا دون أن يشعر بهم أحد!!

نشر ديوان مصر تعميم بعض البيمارستانات، والمصحّات في القاهرة، لمحاولة احتواء المرض: «على من يشتبه بإصابته بالطاعون أن يتقياً مرّتين في الصباح دون أن يكون قد أكل الليلة كاملة، وأن يتمدّد في فراش دافئ، ويشرب منقوع الزنجبيل كي يتعرق ويُخرج السموم من جسمه، وإذا شعر بحكة تحت الإبط أو أسفل العنق، فعليه أن يذهب إلى أقرب بيمارستان أو مصحة». كان تعميماً لا فائدة منه؛ إذ وُزع على أهالي في وقت المنع من الخروج، لكنّ الدولة أرفقت معه بياناً آخر؛ أنّ عرباتها ستقوم بنقل المرضى من بيوتهم إلى المشافي، وسمحت الدولة للعربات أن تنتقل في

الشّوارع، وسخّرت كلّ عَرَباتها في دواوينها لهذا الغرض، ثمّ ظهّر من أهل القاهرة من يُوجّر عربته لنقل المرضى، وكان هذا إيذاناً بسماع وقع حوافر الأحصنة على الطّرقات المرصوفة، أو وقع عجلاتها الحديدية، وهي تعبر الشّوارع ماضية إلى المشافي في سكون اللّيل، بعد أن كانت المدينة

بكلّ ما فيها تغرق في صمتٍ مُظلمٍ كثيف!

ازدهرت تجارة تأجير العَرَبات مع ازدياد المرضى بشكلٍ جنونيّ، في البيمارستان الرّئيس، كان يُمكنك أن تشاهد المئات تروح وتجيء في السّاحة أمام البوّابة الكبيرة، تصطفّ في أدوار لنقل النّاس. سيكون هناك جَشعون، بالطبع، تلك هي تجارة الأوبئة، كانت العربية تُستأجر في أيام الرّخاء بنصف دينار، واليوم يطلبون عشرة دنانير لنقل مرضاهم أو موتاهم. لكنّ (شريف) الذي كدّ أنسائه برز ذات يوم بلونه الأسود، وكان العرق قد جعل بشرته تلمع تحت الشّمس، وهو يبتسم لي عن أسنانٍ بيضاء كأنّها نهارٌ في ليل: «سيدي، جئتُ لأقدم المساعدة». كان يقفّ وفي يده لجام حصانٍ من خلفه عربةٌ تبدو فارهةً بصندوقها الواسع المصنوع من خشب الجُميز الفاخر، سألتُه: «من أين لك العَربة يا شريف؟». ردّ باعتزاز: «لقد كانت في مُنشأة القاضي الفاضل، مُخبّأة في أحد المُلحقات التي لم يصل إليها اللّصوص، ولذلك لم تُسرق، في الحقيقة هناك اثنتان، هذه صالحةٌ للمباشرة في العمل، والأخرى تحتاج بعضُ التّصليح». ابتسمتُ: «وأيّ خدمةٍ ستقدمها يا شريف؟». «أنا رهنُ إشارتك سيدي؛ أنقل المرضى من البيوت إلى هنا، أو أعيدهم». «مقابل مالٍ؟». «لا يا سيدي، أفعل ذلك عن روح القاضي الفاضل». اتسعت ابتسامتي، وقلتُ له: «يبدو أنّك ستتعبُ كثيرًا في هذه المهمّة!». «أنا جاهزٌ يا سيدي».

في العُرف، نحاول مع الموت، نحن لا نحاول مع جسد المريض، نحن نحاول مع ذلك الموت المُستتر خلف هذا المرض الفتاك. طلبتُ من شريف أن يتولّى في هذه المرحلة إحضار الأدوية من ديوان مصر، كان بعضها يأتي جاهزًا، وبعضها نقوم نحن بتجهيزه في البيمارستان، توافر في صيدليتنا كثيرٌ من الموادّ الخام؛ الصنوبر والرّنجبيل والتّنعنغ والصّعتر البرّي والقرنفل والمسك والعنبر والبخور والرّاردين والشّعير، والهال، والرّعفران، والكافور،... وكثيرٌ من العقاقير، صرنا نمسح بها الدّمامل التي نقوم بقصّها من أجل تطهيرها، ونغلي بعضها الآخر ليشربها المريض، كُنّا نتبع طريقة ابن سينا في العلاج. كان القصد أوّل المراحل، القصد يزيدُ في نسبة الشفاء، مع أنّها ضئيلةٌ جدًّا.

لم أستطع أن أعود إلى بيتي منذُ أكثر من شهرين، وأنا أنام في البيمارستان، التّوم مع المطعونين المُقبلين على الموت في حدّ ذاته ليس سهلاً، قد يتألف معه الطّبيب، ولكنّه لا يُمكن أن يتألف مع أصواتهم وهي تصعدُ بأرواحهم إلى السّماء لشدة الألام التي يُعانونها. إنني مع زملائي الأطبّاء لا نكادُ ننام في اليوم أقلّ من ثلث اللّيل، وإذا ما أردنا أن نخلد إلى النّوم من أجل الرّاحة، لم نجد الهدوء، إذ إنّ صرخات الموجوعين لا يُمكن أن تجعلك تغفو للحظة. كنتُ أهربُ من تلك الأصوات، صوت أحواض الاستحمام التي تغلي بالماء أو تُبقب من أجل التّطهير، صوت صنابير الماء الفضيّة المسكوبة على الدّوارق فوق أعمدة النّار، صوت الأهات المُعدّبة، صوت العرغرات، صوت النّزع، شخير الخروج الأخير للروح، وصوت فرع المُمرّضات مع كلّ قادمٍ جديدٍ وهنّ يركضن في الممرّات في محاولةٍ الإمساك بالحيّوات الهاربة. كنتُ أخرجُ في بعض اللّيالي إلى ساحة البيمارستان الفسيحة التي تربط بين أقسامه، وأتمدّد على العشب وأنظر في النّجوم الصّحيحة المُشرقة من عليائها على الأجسام العليّة، وهي تسبح في صفحة السّماء الداكنة، لم أعد أُطيق أن أكون مسؤولاً عن سقوط العالم في حُفرة الموت، صار ينتابني شعورٌ أنّي منزوعٌ من هذا العالم، أت في غير زماني، وماكثُ في غير مكاني، وأنّه عليّ أن أكون أقلّ اكترانًا بكلّ ما يجري، وأنّه عليّ ألا أفزع كثيرًا وأنا أرى الموت يتفنّن في الحول في هذه الأجساد المُنهكة. لقد خرجتُ إلى السّاحة في هذه اللّيلة أستجلبُ بعض الهدوء، ومع ذلك فإنني لا أحظى به دائميًا، إذ ما أكادُ أقترُب من غفوةٍ بسيطةٍ حتّى تطرق سمعي صرخةٌ آتيةٌ مع عربةٍ من عربات نقل المرضى وهي تقفُ عند البوّابة الرّئيسة القريبة تدلق حمولتها إلى المجهول!

بدأ النَّاسُ يَتَذَمَّرُونَ مِنْ وَطْأَةِ الْوَبَاءِ، إِنَّهُ لَمْ يَحْجِرْهُمْ فِي بَيوتِهِمْ فَحَسَبَ، بَلْ أَجَاعَهُمْ، وَجَعَلَ الْأَشْبَاحَ تَرْتَسِمُ أَمَامَ نَوَاطِرِهِمْ، لَقَدْ بَدَّوْا يُفَكِّرُونَ بِمَوَاجَهَتِهِ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ، إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ قُوَّةَ خَفِيَّةٍ غَامِضَةٍ، وَلِذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ إِلَّا قُوَّةَ خَفِيَّةٍ غَامِضَةٍ مِثْلِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْخَفِيَّةُ الْغَامِضَةُ هِيَ قُوَّةُ اللَّهِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَلِذَلِكَ رَاحُوا يَكْتَبُونَ التَّعَاوِذَ وَالتَّمَانِمَ وَيَعْلَقُونَهَا فِي الْأَعْنَاقِ، وَخَاصَّةً أَعْنَاقَ الْأَطْفَالِ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الْخَفِيَّةُ الْغَامِضَةُ هِيَ قُوَّةُ السَّحَرِ أَوْ الْجِنِّ عِنْدَ قَوْمٍ آخَرِينَ، فَرَاخُوا يَكْتَبُونَ التَّعَاوِذَ الَّتِي تَطْلُبُ حِمَايَةَ الْجِنِّ لَهُمْ، وَمَعَ أَنَّ الْإِعْتِقَادِينَ مُخْتَلِفِينَ تَمَامًا، إِلَّا أَنَّهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ وَاجْهُوا الطَّاعُونَ بِالْأَسْلُوبِ نَفْسِهِ، كَأَنَّ الْمَذْهَبَ لَا يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَتَمَانِمِهِ، وَكَأَنَّ هَذِهِ التَّمَانِمَ تَصْلِحُ لِكُلِّ شَيْءٍ!!

كَانَتْ التَّمِيمَةُ رُقْعَةً خَفِيَّةً مِنَ الْجِلْدِ، مُرَبَّعَةً، تُكْتَبُ فِيهَا آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ تُمَرَّرُ عَلَى طَسْتٍ مَعْدِنِيٍّ فَضَيَّ، فِيهِ مَاءٌ زَمْزَمٌ، وَتُقْرَأُ عَلَى الْمَاءِ وَالتَّمِيمَةِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ تَوْضَعُ الرُقْعَةُ دَاخِلَ جِرَابٍ صَغِيرٍ مِنَ الْجِلْدِ الْأَحْمَرِ، وَتُلْفَتُ بِخَيْطٍ مِنَ الْكَتَّانِ، وَيُنْقَبُ أَعْلَى الْجِرَابِ، وَيَدْخُلُ فِي النَّقْبِ سِلْسِلَةٌ مِنَ الْفِضَّةِ غَالِبًا يُمَكِّنُ رِبْطَ طَرَفَيْهَا، التَّمِيمَةُ جَاهِزَةٌ الْآنَ لِلتَّلْعِيقِ فِي الْعُنُقِ، كَانَتْ أَعْنَاقَ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ أَكْثَرَ الْأَعْنَاقِ الَّتِي تَتَّخِذُ مِنْهَا التَّمِيمَةَ مَوْضِعَهَا، وَإِنْ لَمْ تَسْلَمْ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا. أَمَّا عِنْدَ الْأَقْبَاطِ، فَكَانَتْ التَّمِيمَةُ شَبِيهَةً فِي الشَّكْلِ بِتَمَانِمِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ يُكْتَبُ فِيهَا آيَاتٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَقَدْ يُرَشُّ عَلَيْهَا الْمَاءُ الْمُقَدَّسُ، وَقَدْ تَكُونُ التَّعْوِذَةُ خَاتَمًا مِنَ الْأَلْمَاسِ، لِإِعْتِقَادِ الْأَقْبَاطِ أَنَّ بَعْضَ الْجَوَاهِرِ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى امْتِصَاصِ السَّمُومِ أَوْ طَرْدِهَا.

غَيْرَ أَنَّ تَمِيمَةً تَحْوِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ الْإِنْجِيلِ أَوْ الثَّوْرَةِ، تَبْدُو مَقْبُولَةً وَلَمْ تَكُنْ مُسْتَعْرَبَةً، إِلَّا أَنَّ مَا يَبِيعُ عَلَى الْحِيرَةِ، هُوَ مَا كُنْتُ أَرَاهُ مِنَ التَّمَانِمِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي نَحَلُّهَا عَنْ أَعْنَاقِ الْمَطَاعِينَ الْقَادِمِينَ إِلَى الْبِيْمَارِسْتَانِ، فَقَدْ اشْتَرَى أَحَدُهُمْ تَمِيمَةً مِنْ تَوَلِيفَةِ مُكَوَّنَةٍ مِنْ أَقْدَامِ أَرْنَبٍ، وَأَعْضَاءِ عُلُجٍ مُجَفَّفٍ، مُخَيِّطٍ فِي فُماشٍ مِنَ الْكَتَّانِ، مَغْمُوسٍ فِي الرَّبِيقِ، وَمَلْفُوفٍ بَعْدَ ذَلِكَ حَوْلَ الرَّقْبَةِ!!

حِينَ تَهْوِي الْمَصَانِبُ عَلَى الرَّؤُوسِ فَإِنَّهَا لَا تَأْتِي وَحْدَهَا، بَلْ تَجْلِبُ مَعَهَا مَصَانِبٌ مِنْ أَنْوَاعٍ أُخْرَى، فَمَا إِنْ انْتَشَرَ الْخَوْفُ وَالذُّعْرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى انْتَشَرَ مَعَهُ بِيَاعُ الْوَهْمِ، وَبِيَاعُ وَصْفَاتِ الْقَضَاءِ عَلَى الْخَوْفِ، كَانَتْ التَّمَانِمُ الَّتِي سَخِرَ مِنْهَا الْمَجْتَمَعُ مِنْ قَبْلُ قَدْ صَارَتْ الْيَوْمَ ثُبَاعًا، وَصَارَ فِيهَا مُتَخَصِّصُونَ، وَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تُبَاعَ بِأَسْعَارٍ مُخْتَلِفَةٍ حَسَبَ مَا يَرِيدُ الْمُشْتَرِي، فَإِنَّ سِعْرَ التَّمِيمَةِ الَّتِي تَقْضِي عَلَى الطَّاعُونَ تَمَامًا، غَيْرُ سِعْرِ التَّمِيمَةِ الَّتِي تَحْمِي مِنْ تَفَاقُمِهِ، غَيْرُ سِعْرِ التَّمِيمَةِ الَّتِي تَوْفِّرُ لِلْإِنْسَانِ مَوْتًا مُرِيحًا دُونَ أَوْجَاعٍ كَبِيرَةٍ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَجِدِ الْفُقَرَاءُ مَا يُعِينُهُمْ عَلَى الشَّرَاءِ، فَظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقِفُ إِلَّا مَعَ الْأَغْنِيَاءِ!!

” (٢)

الضَّفَادِعُ

«ابْتَعِدُوا مِنْ هُنَا، أَيُّهَا الْمَلَاعِينُ، أَرِيدُ أَنْ أَرَاهُ». كَانَ هَذَا صَوْتًا أَنْثَوِيًّا حَادًّا، أَعْرَفُهُ، لَكِنِّي كُنْتُ مُحْتَاجًا أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَيْهَا. كَانَتْ تُبْعِدُ الْمَرْضَى وَالْأَطْبَاءَ وَالنَّاسَ مِنْ طَرِيقِهَا. حَتَّى وَافْتَنَيْتُ: «أَيْنَ كُنْتَ يَا حَكِيمٌ؟ أَهَكَذَا نَسِينَتْنَا؟». تَرَكْتُ مَا كُنْتُ أَعْمَلُ عَلَى تَحْضِيرِهِ مِنَ الدَّوَاءِ وَتَوَجَّهْتُ نَحْوَهَا، وَقَدْ شَعِرْتُ بِالْحَنِينِ إِلَيْهَا فِعْلًا، وَهَمَسْتُ فِي دَاخِلِي: «أَنْتِ الَّتِي دَفَعْتِنِي إِلَى ذَلِكَ». كَانَتْ تَبْدُو أَنَّهَا اسْتَعَادَتْ عَاقِبَتَهَا بَعْدَ عَامِ الزَّلْزَالِ، وَبَدَتْ فَاتِنَةً، رَكَزَتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلَ جَذْعِهَا الْمُمْتَلِيٍّ عَلَى عَادَتِهَا: «قَلْتُ إِنَّ لَمْ تَسْأَلْ عَنَّا فِي هَذِهِ الْمَصِيبَةِ فَإِنَّا سَنَفْعَلُ». وَأَشَارَتْ بِإصْبَعِهَا خَلْفَهَا دُونَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْوَرَاءِ، كَانَتْ قَدْ وَصَلَتْ مَارِيَّةً وَهِيَ تَحْمِلُ الصَّغِيرَ كَرَمَ، هَشَشْتُ لَهُمْ أَكْثَرَ، سَأَلْتُ: «هَلْ أَنْتُمْ بِخَيْرٍ؟». «نَحْنُ بِخَيْرٍ، وَجِئْنَا لِنَقْفَ

إلى جانبك. قبل أن تبدأ بإلقاء مواظك عليّ من أجل أن أهتم بصحتي وصحة ابني، أنا أقول لك ما سنفعله». هزرت رأسي وسُمت مني ضحكة خفيفة: «ماذا يا ذريّة؟». «أستطيع أن أفعل أشياء كثيرة، أعدّ الطّعام في مطبخ البيمارستان، أو العقاقير، أو أقوم على تطبيب المرضى، لديّ فُدرة سحرية على شفاء الأوجاع». ضحكت هذه المرّة بصوت عالٍ، وقلت: «لا يمكنك إلا أن تطبخي يا ذريّة، أعرف أن جسّ التطوّع عندك عالٍ، ولكن لكلّ شيء اختصاصه». اقتربت مني، ونظرت في عينيّ مباشرةً، ورأيت الذّنب على الظلّ ينهضُ فيهما، وقالت: «لماذا تُصرّ على أن تكون ساذجًا؟ أنا لا أريد أن أرفع صوتي كي لا يسمعي هؤلاء الحمقى الذين حولك، ولكن تأكّد يا حكيم أنني أفهم في معالجة المرضى أكثر من نصف أطبائك الممسوسين». أطلقت زفرةً حرّى، تصنّعت عدم الاكثيرات، ونظرتُ إلى ماريّة: «وأنت يا ماريّة؟». يُمكنني أن أركب حصانًا أو أقودَ عربة؟». «والصّغير؟». «يكون هنا في منامات البيمارستان وساحة العشب يلعبُ فيها إلى آخر النَّهار، وأعود به أنا وأمّي إلى القرافة بعد ذلك». فكّرتُ وقلتُ بصوتٍ واثقٍ: «أمّا أنت يا ذريّة فمكانك المطبخ، وأمّا أنت يا ماريّة، فيمكن لشريف أن يصلح لكِ العربة الثّانية في مُنشأة القاضي الفاضل من أجل أن تحملي فيها المحتاجين للعلاج، وهذا الصّغير...». وهبطتُ إليه على رُكبتيّ، وقرصتُ خدّه النَّاعم، ومسحتُ على شعره الأشقر، فكركر فبانث غمّازته، وسألته: «هل تريّدُ عصافير لثعنتها؟». فضحك وهزّ رأسه.

أعلنَ ديوان مصر في أوّل أيام الطّاعون عن موتِ خمسين، دُفِنوا بكرامة، أخذهم أهلهم في توابيت مُنفصلة. بدأت الأرقام تزيد مع الأيام بشكلٍ غير مُتوقّع، في اليوم الثّاني أعلنَ عن موتِ مئة، في اليوم الثّالث عن ثلاثمئة، وفي نهاية الأسبوع كان قد رحلَ بدُملٍ ينفجر في أسفل العنق وفي الأربيّة أكثر من ألفٍ.

لم تعد الفئران وحدها سيّدة الشّوارع في أسواق القاهرة وأحيائها، ظهرت الضّفادع، لا أحد يدرى على وجه الدقّة كيف ظهرت، قالوا إنّ النّيل لما شحّ ماؤه، وجفّت عيونه، أدى ذلك إلى جفاف الثّرّع والرّوافد التي تستقي منه، فخرجت من ذلك الجفاف تلك الضّفادع الخضراء، وراحت تبحثُ هي والفئران عن غداء، كانت تُخرجُ لسانها كأنها أفعى، وتلعقُ أيّ جزءٍ من أيّ كائن يتحرّك، وكانت تُصيبه بالرّعاش، حتّى الرّعاش لا أحد يستطيع التّأكيد من أنّ سببه لعقة الضّفادع الغريبة هذه، أم أنّه الخوف!! بعضُ المُتفائلين، قالوا: إنّ البرد أخرجها من مياه الثّرّع والسّبّخات إلى الشّوارع، عندما يأتي الصّيف سوف تعود إلى المياه لأنّها لا تُطيق الحرارة المُرتفعة إلا إذا لجأت إلى البرك، قد يكون ذلك صحيحًا، ولكنّ بيننا وبين الصّيف ثلاثة أشهرٍ على الأقلّ، وإذ بدأ النَّاس يُصدّقون هذه الفرضيّة، فإنّ الضّفادع بدأت تملأ الشّوارع بالفعل حتّى نافست الفئران في العدد، والغريب أنّ الفئران لم تقاوم مزاحمة الضّفادع لها على الوجود، بل بدا أنّها تستسلم طوعًا أو كرهًا لهذا السّيّد الجديد الذي بدأ يُسيطر على كلّ مكان!

كانت الضّفادع خضراء الأطراف والرّأس، حمراء الظّهر والبطن، وكان ظهرها يشفّ بجمرته عما في داخله من سائلٍ يتحرّك بصورةٍ دائمة، وكانت قادرةً على القفز إلى مسافاتٍ بعيدةٍ تطير فيها أعلى من الرّجل رُبّع القامة، وكان بعضُها إذ ذاك يعلق في جذوع الأشجار، أو يهبطُ على أكتاف النَّاس فيزيدُ من هلعهم!!

وإذ بدأت الدّولة حملةً جديدةً لمُحاربة الضّفادع، فإنّها واجهتُ عددًا لا يُتخيّل، وكانت الضّفادع إذا دبستُ بالأقدام يسيل ما في بطنها من سائلٍ أحمر، فيصبغ الأرجل والأرض بصبغةٍ لا تزول إلا إذا رششتُ فوقها التّراب، وكانت تُصدر رائحةً تُشبه رائحة السّمك العفن، لكنّ بقوّة أشدّ، وإذا عبقّت في الأنف، فإنّها تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ حتّى تخرج من هناك، حتّى لو ابتعدت مسافةً عن الموضع الذي انبثقتُ منه الرّائحة، وسادَ

اعتقادٌ جديدٌ بين النَّاس أنّ هذه الرّائحة تُصيب بعدوى الطّاعون كذلك.

ولكثرة الفرضيات في سبب الطاعون، فإن جماعة من الحكماء نَعوا على أولئك الذين يقولون إنها بسبب الفئران أو الضفادع، واتهموا عقولهم بالضعف أو الجنون، وقالوا: «إنها عقابٌ من الله بسبب الفسق والفجور الذي شاع في أهل القاهرة، وابتعادهم عن الله، فإن الله أمهل حتى لم تعد للفسقة مهلة، وإن الهلاك لن يستثني أحدًا، وسوف يُهلك الله الصالح بالطّالغ لأنه لم يأخذ على يده». ولقد تجرأ أحد أئمة المساجد فأقيمت الصلاة في مسجده بعد أن دعا إليه الناس، وقام فيهم فقال: «إن الله الذي جاء بالمرض هو الذي يستطيع أن يذهب به، فما حاجة الناس إلى الطّبِ إدا؟ وإذا أراد أن يرفعه عن عباده المُذنبين، فإنه سيرفعه عنهم بأمرٍ منه لا بمُساعدةٍ من الأطباء، ولذا فأنا أدعوكم إلى أن تصبروا على أوجاعه حتى يقضي الله فيه أمرًا كان مفعولاً، وأدعوكم إلى أن تخرجوا رجالاً ونساءً، صغارًا وكبارًا، مُتذللين إلى ربّ العزة، تلبسون الأسمال البالية، وتقلبون الثياب، حاسري الرؤوس، باكين خاشعين، إلى الصحراء، أو إلى ظاهر القاهرة، وتجاروا إلى الله حتى يرفع عنا هذا البلاء». وضجّ المُصلّون بالبكاء والندم، وكان أكثرهم يهزّ رأسه مؤمنًا بما سمع.

ثم إن كنائس الأقباط حذت الحذو نفسه، فاجتمع في الكنيسة كلّ مؤمنٍ بالرّب، وقد امتلأت مقاعدها حتى لم يعد فيها موضع لمؤمن، ووقف الأب في المذبح، وقال: «إن الطاعون سئم، وإن الرّب إذا بعثه فلكي يبتلينا كما ابتلى ابنه أيوب، وإنه ينتشر مثل الخميرة في الخماير لكي يُنصّج العاصين، ويقبل منهم تطهيرهم عن معاصيهم، وإن الرّب ربّما يُشهر السيف بقدرته ومشيئته، أو يُطلق سهام الموت، وفي هذا الطاعون الذي أمامنا تتجلى يدُ القدير بوضوح. فأحنوا رقابكم للرّب كي يقبل منكم». وضجت الكنيسة مثلما ضجّ الجامع بالبكاء والصّراعة.

ولكن فريقيًا ثالثًا من الناس رأى أنّ سببه هو تأمرٌ من الصليبيين على المسلمين من أجل القضاء عليهم، بعد أن عجزوا عن القضاء عليهم في ساحات القتال، وأنّ الأمر يتلخّص في أنّ أحد الصليبيين المُكلفين من الرّب أو من قائد الجيوش النصرانية قد تزيا بزّي المسلمين، ولبس لباسهم وحضر مشاهدتهم، وصلّى في مساجدهم، مُتخفيًا، فانتقل المرض منه إلى المسلمين. وذهب فريقٌ رابعٌ إلى أنّه يهوديٌّ حملهُ بُغضه لنبّي الرّحمة أن ينقل المرض، فاليهود وسخون، قذرو الملابس والأفنية، لا تعيش مثل هذه الأمراض إلا في ديارهم... ولقد كان يبدو أنّه من السهل جدًّا في الجوائح أن تُلقى باللوم على تأمرٍ من الخارج، أو على الأديان الأخرى، أو على عدوّ تصنعه في عقلك!!

غير أنّ الجدل حول الطاعون لم يتوقّف، ولم يستطع فريقٌ أن يُفنع الفريق الآخر، وإن كان كلّ فريقٍ يكسبُ إلى جانبه في كلّ يوم عددًا جديدًا من المؤمنين بنظرية، لكنّه مع طول بقائه، وفَتكه بالأرواح أخرج العقول عن مدارها، فراح قومٌ يحكمون في سببه أحكامًا غريبة، فزعم قومٌ أنّه من الجنّ، وأنّ الجنّ تريدُ أن تعيش وحدها على الأرض، وأنّه يتمّ بوخزٍ سامّ، وزعم آخرون أنّها الكواكب والنجوم والسّماء، وأنّ هذا المرض صورةٌ غضبها.

وأقبل الناس على النصوص الدينيّة، فانكبّ المسلمون يترتلون القرآن، وانقطع النصارى في كنائسهم يقرؤون الإنجيل، وانبت اليهود في صوامعهم وكُنسهم يلوذون بالنّوراة، ورأى المُنتفعون من المصائب إقبال الناس على هذه النصوص، فراحوا ينسخون أدعيةً مأخوذةً من هذه الكتب في أوراقٍ، ويُرَيّنونها بضراعاتٍ وأدعيةٍ من الأنبياء، ويبيعون تلك النسخ لمن أراد النّجاة، ووجدت الأدعية المنسوخة والصلوات والابتهالات سواقًا رائجةً، ودفع الخوف من الموت وطلب العفو من الله، كثيرًا من الناس إلى شرائها، ووضّعها في مخدّاتهم تحت رؤوسهم، أو تعليقها على الحوائط فوق أسرتهم!!

ونجح أحدُ الأئمة في إقناع رئيس الديوان بأن يدفع النَّاسَ إلى الخروج إلى السَّاحات المفتوحة، وظواهر مصر، وبقاعها الممتدة من أجل رفع الأَكْفِ إلى الله، والتَّوَسُّل إلى رحمته، وقَبِلَ رئيس الديوان على أن يكون ذلك في يومٍ واحدٍ، واقترح عليه الإمام أن يكونَ يومَ الجمعة من أجل أن يجمع أكبرَ عددٍ من النَّاسِ، وكان له ما أراد، ليس هذا فحسب، بل إنَّ عددًا من النَّصارى واليهود وغيرهم، قد اقتنع بالفكرة فخرج مع المسلمين يتصرَّع مثلهم، فهل وحَدَّ الوباءُ أهلَ الأديان معًا ليتعرَّضوا لنفحات الله، أم ليقعوا في مخالب الطَّاعون!!

” (٣)

يَوْمُ العَدْوَى

كنتُ نائمًا في غرفتي في البيمارستان، عندما سمعتُ طَرَقًا على النَّافذة، تجاهلتُ الصَّوتَ أوَّلَ الأمرِ ظنًّا مِنِّي بأنني أحلم، ففكرتُ: لو كانَ طَرَقًا حَقِيقًا لكان على الباب لا على النَّافذة. مددتُ رجليّ، ورفعتُ واحدةً فوقَ الأخرى وأنا أسحبُ بها الغطاءَ لأتقي البرد. لكنَّ الطَّرْقَ عادَ مرَّةً أخرى، فانتبهتُ، كنتُ أنام بجانب الجدار المُقابل للنَّافذة وظهري إليها، التفتُّ نحوها فرأيتُ شبَّاحًا، ولأنتي مُتَعَبٌ جدًّا، فقد كذبتُ أنتي أرى ما أرى طمعًا في أن أستمِرَّ في النَّوم، ولكنَّ الطَّرْقَ عادَ مرَّةً ثالثةً، ورأيتُ الشَّبَّاحَ يقتربُ برأسه إلى رُجاج النَّافذة، ويضع يديه عليها، وهو يُحاول أن يرى في الظَّلام ما في الغرفة... نهضتُ مُتَاقِلًا، فتحتُ البابَ فرأيتها؛ إنها ذرَّية. هتفتُ بصوتٍ خفيضٍ لكته غاضب: «ماذا تريدان يا ذرَّية؟ لماذا تُوقظيني من وسط النَّوم؟». «إنَّ هناك أمرًا هامًا عليَّ أن أخبرك به». سألتُ بشيءٍ من الاستهزاء: «نبوءات جديدة؟». ردَّتْ بشيءٍ من الحنق: «لا تُعجبني نبرة الاستهزاء التي في صوتك، أنت تعرف أن ما أخبرتك به في السابق وقع». تدمرتُ: «صحيح، ولكن...». أمسكتُ بيدي، وسحبتُني نحوها: «يُمكننا أن نشرب شيئًا في السَّاحة، إنها مكانٌ مُناسب». تبعنَّها مثلَ طفلٍ. جالسنا على العُشب، تَلَقَّتْ حولها كأنها تخشى أن يرانا أحدٌ، كان القمرُ مُحاقًا في السَّماءِ الدَّاكنة، وكانت بعضُ الغيوم تُغطِّيها، فيبدو عُرْجونه شاحبًا يبعثُ بأضواء أشدَّ هُزالًا، نظرتُ في عينيّ، من الطَّبيعيّ في هذا الظَّلام أن أرى الذَّنْبَ مُتَجَلِّيًا فيهما بأبهى صورة، قالتُ: «سوف يسكنُ العدمُ كلَّ جسدٍ». نظرتُ إلى الجهة الأخرى، لأشعرها بأنني لا أريدُ أن أسمع مزيدًا من هذه الألغاز، فأردفتُ: «وسيسكنُ جسدك». فأرعبتني العبارة، فالنفتُ إليها: «جسدي؟». «ينتشر فيه كما ينتشر الضَّبَاب من رؤوس الجبال هابطًا إلى قيعان الشَّعاب». ضيقتُ عينيّ. قالتُ: «لست أنتَ المعنيّ بهذه المخالب». ضيقتُ عينيّ أكثر: «سوف يتسلَّل دخانُ هذا الضَّبَاب إلى أنوف أهل القاهرة، فيرحلُ بهم، من كلِّ عشر أنفسٍ تسعٌ، تنجو واحدةٌ ولا تنجو. وستنوحُ كلُّ ناكلةٍ». وقفتُ على قدمي: «أشعرُ بالبرد». «لن تُصدَّقني؛ أليس كذلك؟». «وأشعر بالثَّعب». «ستري». «أريدُ أن أرتاح». «لك ما سمعتُ وللاحمق الحجر». «هل يُمكن أن تتركيني لأرتاح؟ مَهْمَاتنا لا تنتهي».

عدتُ إلى غرفتي، بينما ظلَّتْ جالسةً في مكانها تُحدِّقُ فيّ، وأنا أعبرُ من باب قسم الجراحة حيثُ موضعُ عُرْفِ نومنا نحن الأطباء. كانتُ كلماتها تسيل على ظهري، حطَّ من العَرَقِ المُنْدَى في هذا البرد الجارح. ليس من الحكمة تصديقُ كلِّ شيءٍ؛ لكنني أعتزُّفُ أنَّها تُرعبني. دخلتُ غرفتي، أغلقتُ البابَ خلفي وأنا لا أزال أفكرُ بما قالتُ، تساءلتُ: «لماذا أيقظتني في هذه السَّاعة من اللَّيل؟ أما كان يُمكنها أن تنتظرَ حتَّى الصَّبَاح؟ ثمَّ لماذا هي مُستيقظة إلى الآن، أليس من المفترض أن تكون قد نامتْ منذ وقتٍ طويلٍ؛ لكي تستيقظَ باكراً، وتُعدَّ مع الآخرين الطَّعامَ للمرضى؟». مددتُ جسدي المُتَعَبَ على السرير، وسرعان ما نمتُ.

في متاهة اللَّيل، سمعتُ وَقَعَ أقدامٍ كثيرةٍ وسريعةٍ فوقَ رأسي، تبدو كأنَّها وحوشٌ أسطوريَّة تعبرُ جسرًا يمتدُّ فوقَ وإِدٍ مُشتعل، وَقَعَ الأقدامُ يزدادُ قربًا، أسمعُه بوضوح، إنَّه فوقَ رأسي تمامًا، يكادُ يسحقُني، إنها مخلوقاتٌ غريبةٌ، ليستُ بشريَّة

ولا حيوانية، مزيجٌ منهما، لكنّها مذعورة، تهربُ من وحوشٍ أخرى أكبر وأقوى تُلاحقها، الأقدام تتسابق، وأنفاسي تختنق، شيءٌ ما ثقيلٌ يضغطُ على صدري، يجب أن أخذ جرعةً من الهواء حتى لا أختنق، عليّ أن أستيقظ، نثرث النَّفس المُنحبس في صدري دُفعةً واحدةً بعد أن كادت رئتاي تنفجران، واستيقظتُ مذعورًا... كان وَقَع الأقدام ما يزال مسموعًا، ليس حُلْمًا إداً، أصواتٌ أخرى في الممرات، وأقدام أكثر أسمعها تمضي في كلِّ اتجاه، هُرعت إلى الباب أستطلع ما يحدث، التقيتُ أوّل ما فتحتُ الباب بأحد المُسعفين، جذبتهُ من يده: «ما الذي يجري؟». توقفتُ وهو يلهث، التقطتُ أنفاسه: «إنهم يهربون؟». «يهربون؟». «نعم، المُصابون بالطّاعون يهربون». أفلتتُ يده، وخرجتُ أركضُ إلى البهو الذي يُطلّ على السّاحة التي تنتهي إليها البوّابة الرّئيسية، كان المنظر عجيبيًا بالفعل، مئاثٌ من المرضى يهربون، كان بعضهم يعرج، وبعضهم يزحف، وبعضهم يتوكأ على أعمدة من الحديد يتخذ منها عكازًا، وبعضهم كان يهرشُ رأسه، ويضربُ عنقه، ويصيح بكلماتٍ غير مفهومة، وآخرون كانوا يسقطون ثم يقومون وهم يلوّحون بقبضاتٍ أيديهم مُتوعدّين!!

كانت البوّابة قد غصّت بهم، المسؤولون عن أمن الليمارستان أبلغوا الشرطية، فجاؤوا على خيولهم، يضربون بالعصيّ والهراوات والسّيوف أحيانًا وجوه المرضى، وهم يصرخون: «عودوا أيها المجانين». ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، أحد هؤلاء الذين أصيبوا في عقله بسبب الطّاعون، استطاع أن يستحوذ على سيفٍ شرطيّ، وراح يضربُ به يمينًا وشمالاً دون وعي، يضرب النَّاس من الأطباء والشرطية والمرضى معه، يهوي على كلِّ مَنْ يليه، حينها انتعبت الجروح وراحت الأجساد تتوشح بالدم، وسقط بعض القتلى، فيما استطاع ثانٍ أن يأخذ نَشابًا، وراح يضع السهم فيه ويرمي، ولم تستطع الشرطية السيطرة على المرضى إلا بعد أن وقعت أكثر من عشرين ضحية، وكانت مذبحه!!

استطاع - بالطّبع - بعض هؤلاء المطاعين الهرب، وانتشروا في الحواري، قليلٌ منهم كان يدري كيف يصل إلى بيته، الأغلبية دخلت بيوتًا غير بيوتها، أو أوت إلى خراباتٍ أو شوارعٍ مُطفأة، وانتظرت مصيرها غير عابئة!

لم تمنع تلك الحادثة الفظيعة رئيس ديوان مصر من أن يُقيم صلاة التضرّع إلى الله بعدَ يومين من وقوعها. كان النَّاس يسيلون في الشوارع مثل الطوفان وانضم إليهم كلُّ الهاربين ممّن لم يلقَ عليهم القبض أو يُعادوا إلى الليمارستانات، وكان يوم الفرار إلى الله. «إلى ظاهر مصر». كانت هذه دعوات المُلبّين للجموع: «إلى ظاهر مصر يا إخوتي». وتوجّه النَّاس بعشرات الألوف إلى تلك البقاع. فنة قليلة لا يمكن أن تُذكر بالقياس إلى الكثرة الكاثرة أثرت البقاء في بيوتها: «إن الله موجودٌ في ظاهر مصر، وهنا، فلماذا علينا أن نخرج لنجدّه هناك؟!». فنة أقلّ من هذه الفنة القليلة، وقفت على الشرفات مُشفقةً ممّا يحدث، وصرخت: «لا تخرجوا إلى ظاهر مصر، ولا تتجمّعوا، الموت سيحصدكم، الله لم يأمر بذلك». فكانت تُرمي باللبن والحجارة وبجنوع الشجر، بعض هذه الحجارة أسالت خطوطًا من الدماء على الوجوه. وكان المُنداحون في الشوارع يصرخون في وجوه أهل الشرفات: «كفّرة، إن الله لن يرحمكم، سوف ترون عذاب الله قريبًا لأنكم لم تخرجوا معنا إليه».

كانوا شعنًا غبرًا، أسماهم بالية، ثيابهم أخلاق، وجوههم صفيقة، بطونهم ضامرة، قد أنحلهم الجوع والمرض، وكان أكثرهم يرتدي الثياب - كما قال الإمام - مقلوبة، وبعضهم كانوا يتركون الأكمات تتدلّى على جوانبهم من دون أذرع تملؤها. وقفوا بعد أن غصّ بهم ظاهر مصر، وضاق بهم القضاء، وكان عددٌ من الوزراء والأمراء ورؤساء التّواوين يُشاركونهم الصلّاة، قال الإمام: «قد أتينا إلى الله خالين إلا منه، فأحنوا رؤوسكم، وعفروا جباهكم بقدر الأرض، ومرّغوا أنوفكم بالتراب، تذلًا إليه، وتضرّعوا إليه يرفع عنكم البلوى، ولا تكونوا فُساء القلوب، فإن الله يغفر للعاصي لئن القلب، ولا يغفر للعابد قاسي القلب، وتلا قوله تعالى: «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قسّ قلوبهم». وإن هذا الطّاعون إن أصاب مُسلمًا وهو صابِرٌ فهو شهادةٌ وأجر، وإذا أصاب كافرًا فهو عذابٌ ووزر، وإن النَّبي قال: «لا عدوى ولا طيرة، فإن قال جاهلٌ إنّه يُعدي، فقل له: فَمَنْ أَعْدَى الأوّل؟ وإن الطّاعون من عمَل الله، والله رحيمٌ بعباده، عادلٌ فيما يُنزله بهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط...». ثمّ إنّه بكى، وأبكى النَّاس، وظلّ النَّاس يرفعون أيديهم، وتلهج ألسنتهم بالدعاء، وتكاد ثيابهم تنحلّ من فوق أجسادهم لطول رفع أيديهم، حتى أدنت الشمس بالمغيب، آنذ راحوا ينسلون من أمكنتهم، ويعودون إلى بيوتهم، وكانت الشرطية تحنّهم وهي على ظهور الخيل وتُفرّقهم.

وأنا بكيت. بكيت طوال يومين، لأنني لم أستطع أن أمنع ما حدث، بكيت لأنّ رئيس ديوان مصر سمع موعظةً من جاهل ولم يسمع رأيًا من طبيب، بكيت لأنّه غلب العاطفة ولم يُحكّم العقل. كانت الشمس في اليوم الثالث تقول كلّ شيء؛ صبغت الأفق بلونٍ قرمزيّ لا يُنسى، كان اللون يسيل في الفضاء البعيد، ويمتدّ على مساحاتٍ لا يُمكن أن تُرى لاتساعها ولُبُعدها، وكان الأرجوان يُخضّب بالحرقة قلوب البائسين، كنتُ أعرفُ أنّه آخر مساءٍ في عافيةٍ مرجوةٍ لمصر ولأهلها، وكنتُ أدركُ أنّ الليل لن ينتصف قبل أن أرى ضراعاتٍ مختلفةً من ذات الأفواه تتوجّه لي ولكلّ طبيبٍ ومُسعفٍ في كلّ بيمارستان.

قفزَ (شريف) في وجهي: «أتيتُ بخمسةٍ من المرضى يا سيّدي، وجدتهم مُلقين في الشّارع». «متى هذا يا شريف؟». «قبل الغروب بقليل». «أين وجدتهم؟». «كنتُ أتجوّل بعربتي، تعرف؛ العربات لا يسري عليها منع التّجوّل، فرأيتُ بعضهم في درب الملوخية، وبعضهم قريبًا من تربة الشّافعي». «أدخلتهم إلى البيمارستان؟». «بالطبع، تولاهم سالم». «وأين ماريّة؟ هل أصلحت لها العربّة؟». «نعم يا سيّدي، كانت تطوف في مكانٍ آخر، أعتقد أنّها ست...».

لم يُنه جُمَلته، كانت الفتاة الجميلة ذات الأعوام الخمسة عشر تلهث: «لقد أصعدتُ إلى عربتي عشرة مُصابين...» التقطت أنفاسها، وتابعت وهي تُنزل أخاها كرم من بين ذراعيها: «لو ترى الشّوارع يا سيّدي، النَّاس بدأت تتساقط فيها...». «اشربي ماءً، وارتاحي قليلاً يا ماريّة، وأنت كذلك يا شريف». «كلّا» قالت ماريّة، وتابعت: «النّاس في الشّوارع بانتظارنا». هتفَ شريف: «وأنا سأخرج يا سيّدي، كثيرون من أصحاب العربات يُطالبون المرضى بأجورٍ مُرتفعة لإيصالهم إلى البيمارستانات». سألتُ ماريّة قبل أن تُغادر: «أين أمي؟». «إنّها في مطبخ قسم الجراحة». «هل تُعدّ الطّعام كما طلبتُ منها؟». «إنّها تقومُ بعملٍ جيّد، غير أنّ أفكارها يُمكن أن تُسمم من يعمل معها». «ماذا تقصد؟». «إنّها تُلح عليّ أنّ أعلمها كيفية استخدام المحاقن». «ولم؟». «لكي تُساعد في استخدام المُهدّئات من أجل الموجهين». نظرتُ ماريّة إلى الجهة الأخرى بعيدًا عني، كانت تريد أن تتوسّل إليّ ألاّ أعلمها شيئًا، حولت مجرى الحوار إلى جهةٍ بعيدة، وسألت: «أين أضغ كرم؟». «هناك مكانٌ مُخصّصٌ لأطفال المُمرّضات أو الأطبّاء، يُمكنه أن ينضمّ إليهم». حدّرتُهما: «ماريّة، وشريف، عليكما أن تلبسا اللثام الذي يُغطّي الأنف والوجه، وحاذروا من أنفاس المُصاب حين تحمونه».

كانت العربات تصل إلى البيمارستان تبعًا، لا يُمكن عدّ المُصابين الذين دخلوا إلى البيمارستان بعد غروب اليوم الثالث من صلاة الصّراة إلى مُنتصف الليل، لقد ملؤوا الأسيرة كلّها، والأقسام كلّها، وشغلوا العُرف، والأروقة، وحتى ساحة العشب التي كانت مُتنقّسًا للمُتعبين.

الأدبال أو الدّمامل في المواضع الثلاثة كانت موجودةً عند أكثر المُصابين، بعضهم كان الدّمّل لديه أصغر في منطقة العنق من الأربيّة، وبعضهم لم تكن لديه إلاّ بثورٌ في البطن، مررتُ على كثيرٍ من المُصابين؛ كانوا تبدو عليهم حالات القيء، واضطراب العقل، واللّهات المُستمرّ، وضيق التنّفس، واليكاء، والتأوه الشّديد، والهدّيان، والإسهال، وفقد الشّهية، وكانت بثور أجسادهم سوداء، وأخرى أقلّ سوءًا لكنّها أوسع نطفًا، وكانت أرجل بعضهم مُتورّمة.

ظلّ شريف وماريّة يجمعون المُصابين من الطّرقات حتّى انبلج الفجر، كانوا أشدّ إرهافًا ممّا أنا وسالم وخليل، ونحن لم نكفّ لحظةً عن معاينة كلّ من نستطيع معاينته، لكنّ الأمر لم يعدّ مُحتملاً، لقد امتلأ البيمارستان الرّئيس، وامتألت كلّ البيمارستانات والمصحّات الأخرى. رفعنُ الأمر إلى ديوان مصر، لم يردّ في اليوم التّالي، اقترح عليّ شريف أن يحمل

بعرَبته المُصابين إلى مُنشأة القاضي الفاضل: «يُمكنني أنْ آخذَ الفائضَ إلى هناكَ يا سيدي». فَكَّرْتُ قليلاً قبلَ أنْ أقولَ له: «إذا جَهِزْتَ المكانَ الَّذي كانتَ فيه المكتبةُ سيكونَ الأمرُ جيِّداً». «كيفَ أجهِّزُها؟». «سأبعثُ معكَ ماريَّةَ وسالمَ، سيتولَّيانَ أمورَ التَّجهيزِ الطَّبيِّ، وسنكتري بعضَ الخادِماتِ لتنظيفِ المكانِ وتهويته، على أيِّ حالِ المكتبةُ أكثرُ مكانٍ مُلائِمٍ للاستِشفاءِ، سنقومُ بعزلِ النَّاسِ فيها».

استغرقَ تجهيزُ المكانِ يومينَ، فيما كانَ قد ماتَ في البيمارستانِ الرَّئيسِ خلالَ هذينَ اليَومينِ أكثرُ من مئةِ مُصابٍ. في أسبوعِ يومِ الصَّلَاةِ ماتَ أكثرُ من عشرةِ آلافَ، قد لا يكونونَ من أولئك الَّذينَ رفعوا أكفَّهُم إلى الله في ذلكَ اليومِ المشهودِ، بل قد يكونونَ من الَّذينَ لم يعرفوا الله، ولم يتوجَّهوا إليه بطلبِ الرَّحمةِ، ذلكَ أنَّ الطَّاعونَ كانَ يُعاملُ النَّاسَ بعدلٍ من غيرِ تمييزٍ، ولذا حَصَدَ أرواحَ كلِّ من التقاه في طريقه دونَ أنْ يسأله عن دينه أو عمره أو مُعتقدِه، ثُمَّ عدالةً في الطَّاعونِ تعرَّ في غيره من الأمراضِ.

صارَ الحُصولُ على كَفَنٍ أمنيَّةٍ، لم يكنْ لأيِّ ميِّتٍ بالطَّاعونِ أنْ يتمتَّعَ بهذا الامتيازِ، الأمراءُ والوزراءُ وبعضُ التَّجارِ حصلوا عليه، كانتَ الأكفانُ في الموتِ تعملُ بطريقةٍ مختلفةٍ عن الطَّاعونِ؛ لقد اختارت أجسادَها الَّذينَ سئمَكتهم من أنْ يلتقوا بها!!

” (٤)

الموتُ المُريحُ!

فيما كانَ الطَّاعونُ يُطلقُ سهامه دونَ توقُّفٍ وبشكلٍ عشوائيٍّ، فتصيبُ تلكَ السَّهامُ كلَّ مَنْ تجده في طريقها دونَ أنْ تفرَّقَ بينهم، كانَ المطعونونَ لا يزالونَ يتوافدونَ على البيمارستاناتِ بلا انقطاعٍ؛ إنَّ سهامَ الطَّاعونِ المسمومةِ تنطلقُ في كلِّ اتِّجاهٍ، ويبدو أنْ كِنانتها مليئةٌ، وأنها تحتاجُ إلى زمنٍ طويلٍ جدًّا حتَّى تفرَّغَ!

في أحدِ الأيَّامِ، رأيتُ أنَّ مرضىَ قسمِ الجراحةِ يتقيَّونَ طَوالَ اليومِ. ليسَ من أعراضِ الطَّاعونِ أنْ يستمرَّ القيءُ، ربَّما يحدثُ، لكنْ ليسَ بهذهِ الطَّريقةِ المُستمرةِ، كانتُ تنتشرُ مع القيءِ وُصفرةُ الوجهِ عروقٌ سوداءٌ تنفرُ بالدمِ في وجوههم، وفي شرايينِ أيديهم، وكانتُ تُصيبهم تشنَّجاتُ في منطقةِ العنقِ، ويُعانونَ وجعًا لا يُطاقُ في معدِّهم. قدَّرتُ أنَّ هناكَ مرضًا آخرَ غيرَ الطَّاعونِ قد ألمَّ بهم. نسييتُ الأمرَ في غمرةِ الانشغالِ، ولكنَّ المرضى الَّذينَ يتقيَّونَ بشكلٍ مُستمرٍّ عادوا إلى الظَّهورِ، طلبتُ من سالمٍ وخليلٍ أنْ يأخذا عيْنَهُ من القيءِ ويقوموا بفحصه، عادا إليَّ في صباحِ اليومِ التَّاليِّ، ليُخبراني: «إنَّه السَّمُّ». ضيقتُ عينيَّ مُستغربًا، وسألتُ: «السَّمُّ؟». ردَّ خليلُ: «نعني أنَّ الطَّعامَ الَّذي يأكلونه قد دُسَّ فيه السَّمُّ». «غيرَ معقولٍ؟ نحنُ في مَشقى، ونُقَدِّمُ طعامًا صحِّيًا، وفيه دواءٌ». هزرتُ رأسي، وتناسيتُ الموضوعَ حتَّى لا أثيرَ الفزعَ في المرضى قبلَ الأطبَّاءِ. بعدَ يومينِ ازدادتْ حالاتُ التَّسَمِّ، وماتَ منهم عددٌ كبيرٌ، طلبتُ هذه المرَّةَ من سالمٍ وخليلٍ تشريحَ جُثَّةِ أحدِ الموتى.

كان واضحاً أنّ هؤلاء الضّحايا ماتوا مسمومين! والسؤال: هل انتحروا؟ لو كان الأمر انتحاراً لكان حادثه واحدة أو اثنتين، أما أن يموت خلال هذا الأسبوع بطريقة السّم نفسها أكثر من ثلاثين، فهذا يعني أنّ في الأمر تدبيراً، وتساءلت من يكون قد فعلها؟ وفقرت ذريّة إلى ذهني مباشرة، فتركت الجثة وتشريحها، وأمرتهم بإجراءات الدفن السريعة، ونزلت إلى المطبخ حيث ذريّة، في الطريق فكرت بألف طريقة حتى أجعلها تعترف بأنّها فعلتها إن كانت بالفعل قد فعلتها، كنت أعرف أنّ لديها في المقابل أكثر من ألف طريقة أخرى لخداعي، وإبعاد التهمة عن نفسها. عندما وصلت إلى باب المطبخ، كانت تعقد شعرها خلف رأسها تحت شالها الأخضر المشهور، وهي ترفع في وجهها دورقاً صغيراً، ذا سائل أبيض، ولو كان في كأس لكان ماءً، ولكن ما يفعل الماء في الدورق؟! عندما صرّحت بجانبها، كانت قد أتمتت سكّب ما في الدورق كاملاً في قدر الطّعام الكبير، حانت منها التفاتة نحوي، ولكنها لم تقل شيئاً، ولم يظهر عليها أيّ اهتمام أو اضطراب، رفعت في تلك اللحظة الدورق أمام ناظرَيها وصار بين وجهي ووجهها لتتأكد من أنّه أفرغ كاملاً في القدر، وعادت إلى إتمام مهمّتها في الطبخ، ولم تقل كلمة واحدة، راحت تعمل كأنني غير موجود، اقتربت أكثر وأخذت الدورق الفارغ، وقربته من أنفي، وصعقت عندما شممت رائحته، ثمّ إنني لمست في فم الدورق ما ظلّ على أحفاه من سائل لاتأكد، وبالفعل كان ما توقعت؛ إنّه السّم، هذه السّاحة تضع السّم في طعام المرضى إذًا!! وضعت يدي على صدري لأسكن قلبي الذي كان يخفق بشدة، واستعدت رباطة جأشي، وأطلقت زفرة من صدري لكي أستطيع أن أقول: «هل يمكننا أن نجلس معاً لبعض الوقت في السّاحة إياها؟!». ردّت دون أن تلتفت إليّ: «إنني مشغولة يا عبد اللطيف كما ترى، والمرضى الجوعى ينتظرون طعامي». «لن أؤخر كثيراً فقط بضع كلمات». حينها تركت ما كان في يدها، والتفتت إليّ واقتربت مني، وكان الذّنب ينهض في الظلال داخل عينيها، لكنها عندما ضيقتهما عاد فجمت فيهما، قالت بصوت واثق: «تريد أن تسألني عن هذا الذي سكبته من الدورق في الطّعام، أليس كذلك؟». أجبت وأنا أتصنّع الثقة والقوة: «بلى، فما هذا الذي سكبته يا ذريّة؟». مسحت عن يديها ما كان قد علّق فوقهما من طعام، ووضعت أحد مرفقيها على خصرها، واتكأت بالأخر على الطاولة وقالت بكلّ هدوء: «إنّه السّم». بلغت ريقى بصعوبة، لأسأل وأنا مذهول: «السّم؟ تقولين السّم؟». «نعم يا عبد اللطيف إنّه السّم. أنا أضع السّم في الطّعام من أجل أن أقطع حبل الحياة الواهن في أرواح هؤلاء المساكين». «وتقتلينهم؟». «إن أصواتهم في الليل تُزعجني، إنهم يُقلقون راحتي، إنني لا أنام جيّداً بسببهم». «ويكون الحلّ بقتلهم يا مجرمة؟». «هون عليك أيها الطيب الرّحيم، أنا أرحم منك ومن نويهم بهم؛ إنني أوفر لهم موتاً سريعاً، أنت لا تُحس بهم مثلي، إن صرّخاتهم من الألم لا يمكن معرفة ما يختبئ خلفها من مُعاناة، إلا إذا مررت بحالتهم، أنا عشت هذه الحالة مع أبي، أنت لا تعرفها، أنت طبيبٌ مرهف الحسّ والقلب، ولكنه ساذجٌ، لا يعرف من عالم المألومين شيئاً».

«أنت قاتلة». «بل أنا أسدي لهم خدمة لا يمكنك أنت أن تُسديها لهم مع كلّ علمك في الطبّ وأدواتك وخدعك في علاجهم». تراجع إلى الورا، وضعت يدي على صدري، لوهلة تخيلت أنّها دسّت لي السّم مثلهم في طعامي، تذكرت أنّها ليست الطباخة التي تُعدّ الطّعام للأطباء، كانت عيناها في تلك اللحظة تقرأ أفكارى، ابتسمت عن شفتين مكتنزتين وقالت: «لا تخف، لم أضع لك السّم، أريد أن أشاركك في خداع الناس عن طريق أمّهم الكاذب بك في مداواتهم، أنا لن أقتل الأمل في الناس، أنا أقتل - فقط - الشيطان في المرضى، هذا الشيطان المُسمّى بالطاعون يتلذذ بتعذيبهم، أنا أخلصهم من هذا العذاب». اقتربت مني أكثر، فنفرت، قالت: «لا تخف». فتسمرت مكاني، همست في وجهي، كان همسها أقرب إلى فحيح أفعى مُعمّرة: «أهلهم يعرفون ذلك، لقد شكروني كثيراً، إنهم يرفعون اسمي إلى الله بالدعاء لأنني خلصتهم من هذه الأجساد الرّميمة، وأرختهم من هذا العبء الثقيل. لا أحد يريد أن يعيش مع الموت فترة طويلة، فكرّ بالأمر على هذا النحو يا حكيم؛ من يُتاح له موت سريع سيُفضّله على موتٍ بطيء؛ موت المرّة خيرٌ من موت المرّات، الموت الجميل والأنيق هو الموت الذي يجب أن يجيء بضربة واحدة، وهذا السّم من النوع الذي لا يدع الشمس تُشرق على وجه صاحبه». «سأفدّمك إلى القضاء، يجب أن تُحاسبني على هذا الجنون». «لن يُثبت القضاء عليّ شيئاً». أنت اعترفت!». «أنا اعترفت لك، تلك ميزة تُحسد عليها، أما أمام مجلس القضاء، فأنا مُستعدة أن أُخدع مئة قاضٍ دون أن يدينوني بشيء». كان ألف ذنب في تلك اللحظات تنهض من مجامعها، وتمضي في الدروب البعيدة. تراجع إلى الورا خُطوتين، وأنا لا أزال أضغ يدي على الطاولة خشية أن أسقط ممّا رأيت وسمعت، وخرجت من المطبخ مُسرّعاً وأنا أشعر أنّ ذنابها تعوي خلفي.

لم تعد ذريّة تعمل في المطبخ، خرجت من البيمارستان بطلبٍ من رئيسه، وشدّد الأمر على أدوية السّم حتى لا يمكن لأحد أن يصل إليها، لكنني بالبحث عرفت أنّها لم تأخذ من سموم الأدوية التي تعود ملكيتها إلى البيمارستان شيئاً، لقد صنعت ذلك السّم بنفسها!!

لم أقل لماريّة عن أمها شيئاً، أعرف أنّها تعرف، كان يمكن لنهر الكلام أن يجرفنا بعيداً لو نحن ناقشنا أمر دريّة، ربّما تعرف ماريّة منها ما لا أعرفه، بالطبع تعرف لكنّها لا تقول، هل هي مُتواطئة مع أمها؟! هل هي التي علّمتها صناعة السّم يوم علّمتها أنا وهي تنام في بيتي قبل سنتين صناعة الأدوية من الأعشاب؟! أم أنّ كلا المرأتين تعيشان في عالمين مُتوازئين، وإنّ كانت إحداهما تدّعي أمومتها للأخرى؟!!

سقطتُ جُنُتٌ تلو أخرى، أجسادٌ تدلّت من تحت حبل الموت، كان الموت زائراً مُقيماً في البيمارستان، كانت الأجساد مجرد ساحة يدوس فوقها، أو ينام بجانبها، أو ينظر في وجوها قبل أن يصطحب بعضها معه إذا خرج من هنا لبعض حاجته، ثمّ يعود من جديد.

كان في البيمارستان موضعٌ مُخصّصٌ لغسل الموتى، كان أهل الميّت يحضرون، أريدُ أن أُشير إلى أنّ هذا كان في البدايات الأولى للموت الأسود، نعم كانوا يحضرون، الجسدُ الجُتةُ مُسجّى على طاولةٍ خشبيّةٍ مُستوية، ترتفع عن الأرض ذراعاً ونصف الذراع، بأرجلٍ أربعة، وكانت مُستطيلة بحيث يُمدد الجسدُ فوقها كاملاً، غالباً يحضر الأب إذا كان الابنُ هو المُتوفّى، أو الابن إذا كان الأب هو المُتوفّى، لم تكن تسمح للنساء بحضور تغسيل الموتى، كان على المُغسِل أن يلبس ما يُشبه اللثام الكامل يُغطّي وجهه وشعر رأسه ولا تظهر منه إلا عيناه، ويلبسُ في يديه بعض الخيش والليف، وكان هناك ابنٌ آخر، يملأ الإبريق من طستٍ بالماء ويسكبه على جسد أبيه، والآخر يقوم بفرك الجسد بالماء، من هنا يُمكنك أن ترى الدّمامل في العنق تحت الأذن، وعلى الأربية أسفل البطن، وتحت الإبطين، عندما يُقلب الميّت على حرفه من أجل أن يصل الماء إلى جسده بالكامل. كان الابن الأصغر الذي يملأ الإبريق بالماء مُتأثراً أكثر من أخيه، من هنا كذلك يُمكنك أن تسمع صوت البكاء المكتوم يصعد من حنجرة الولدين، كانت يد الصّغير ترتجف وهي تمدّ الإبريق إلى الكبير، أحياناً يتراشق الماء في هذا الارتجاج، فيؤثّر ذلك بالإيحاء على الأكبر، فيرتجف جسده هو الآخر، وفي أثناء ذلك يُمكنك أن ترى الدّموع وهي تنساب من عينيّه الحمرّاوين وهما تُبللان اللثام، وفي لحظةٍ ضعيفٍ يهبط الصّغير على الأرض آخذاً جلسة القرفصاء، وهو يضع رأسه عند قدمي أبيه وينشج!

يحدث أن يدخل واعظٌ مكان الغسل، ليس من أهل الميّت، ولا يعرف من هو الميّت من الأساس، كان هذا تطوّعاً منه، كنتُ أسمع لهم أحياناً بذلك إذا تأكّدت من أنّ لديهم علماً شرعياً وليسوا من أولئك المُشعوذين، كان الواعظ يقف عند رأس الميّت، ويدعو له بالدعاء: «اللهم اغسله بالماء والتّلج والبرّد، وجاف الأرض عن جنّبيه. اللهم أبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله». كان صوت الواعظ المسموع بالدعاء يُثير شجن الولدين، فتأخذ أجسادهما بالارتجاج تحت وطأة البكاء.

” (٥)

من يختار الموتى؛ نحن أم الطّاعون؟!!

العربات قدّر الله الماخر عُباب القاهرة، تنقل الأحياء، وتنقل الأموات، وتنقل الأموات الأحياء. تلك التي يقودها شريف أو ماريّة، عزبة الرّوح المُذهبة، عزبة الفراغة الذين ما زالوا ينظرون مع الموتى إلى الأجساد المُتأرجحة في سُكون الرّحيل، وعزبة الرّومان التي تجرّها الخيول الجامحة تُقاتل الوحوش الضّارية عن الفرسان الأشداء، عزبة الرّوح الآمنة، المُسافرة إلى حتفها مُطمئنة، صوت وقع العجلات على الأرض صوت النداءات الأخيرة، صوت صهيل الخيول الجامحة صوت التّرع الأليم، يختلطان، يذوب أحدهما في الآخر، وهما هُما شكل الحياة، وجهها الأصدق، ذلك الذي يسكنه الموت

في كلِّ قَسَماته، عربةٌ ماريّة لا تتوقّف، تلتقطُ الدّاهيين في الرّحلة إلى الأبدية، أو أولئك الذين يُعلّقون على الأمل خيطَ نجاتهم، ويربطون بلجام الخيل خيطَ حياتهم، وماريّة؟ تحاول أن تجعلهم يعبرون، ترسمُ على وجْههم بسمة الأمل، تقول لهم: ما زال في العُمُر بقيّة!! ما زال في الرّوح رَمق!! لو أنتَ أمنتَ بوجوده في جسدك الواهن لربّما تنجو، أنا معك، سأذهبُ بك في الدّروب الموصلة إلى وَهَجِ العُمُر لا إلى انطفاءاته، تُشعلُ قنديلكَ بجمالها الأخاذ، تملؤه بزيت الإصرار على الحياة، تُضيئك قبل أن تنطفئ، تقول: إنّ هذا الظلام المُنداح في روجك تهزمه ومضّة واحدة تلمع في أغوار روحك العميقة!!

كانت مُنشأة القاضي الفاضل قد تمّ تجهيزها لاستقبال المُصابين بالطّاعون، القصر المُنيف، ذو الرّدهات الفاخرة، والأبهاء الفسيحة، والعُرف الأنيقة، والثّريات الفضيّة، والأطباق الذهبيّة، والأدراج اللؤلؤيّة، تحوّل إلى بيمارستانٍ مُؤقتٍ لمجدورين، ومجانين، ومطعونين، وبائسين، ويائسين، كأنّ كلّ الذين شغلوه عندما كان قصراً لم يُغنوا عنه لحظة امتلائه بهؤلاء المساكين، لم يكن أحدٌ من الطّرفين يحلم أنّه سيسكن في موضع الآخر، لا القاضي الفاضل ولا الأمراء ولا أصحاب الأكمام الطويلة توقّعوا أنّ هؤلاء الجوعى المهزولين والمملوئين بالبيثور سيحلّون في أرقى المواضع التي كان ينزل فيها الملوك، ولا هؤلاء الفقراء المُعدّبون كانوا يحلمون أنّ يعيشوا في ردهات هذا القصر المشيد الذي لم يكونوا يرون في السّابق أكثرَ من سوره الشّاهق يُخفي خلقه عالمًا تدور حوله الحكايات الأسطوريّة. إنّها الحياة، تأخذ بقدر ما تُعطي، وإنّها الحياة تنقص بقدر ما تُكمل، وإنّهُ الموت، يبيّشُ بقدر ما يعدل!!

عُرف المكتبة العِملاقة هي أوّل ما نزله المُصابون، يُمكنك أن تميّز هذه العُرف بالعقود العاليية ذات الأقواس المتقاطعة في المركز لتصنع قُبّة سداسيّة في منتصف كلّ غرفة، وذات الأعمدة الأسطوانيّة التي كانت مَطليةً بالذهب في السّابق ثمّ صارت اليوم مُتقشّرةً يأكلها الصّدأ والعفن، مثلما تأكل البثور جلود مرضاها. وكانت العُرف مُتصلةً ببعضها ببعض بأبوابٍ وسيعةٍ مُقنطرة، وتمتدّ بشكلٍ طوليٍّ في أربعة صفوفٍ لأكثر من مئة غرفة، في كلّ صفٍّ خمسٌ وعشرون، وكان القليل ممّا تبقى من الكُتُب بعد الزّلال والحريق وما بيع وما أخذته أنا قد رُفِعَ على أرففٍ مُتواضعةٍ في بعض العُرف، وجمّع أكثره في آخر ثلاثٍ منها من الصّفّ الرّابع من هذه الصّفوف.

كان في جدار كلّ غرفةٍ من جهة حدائق القصر نافذةٌ طولها ذراعان وكذلك ارتفاعها، وكانت هذه النّوافذ تُطلّ جهة الشّرق، فإذا أرسلتِ الشمس أشعتها في الصّباح بعثت شيئاً من الحياة في العُرف، وإذا غربت حَيَم الظلام على المكان فرأيت الموت في كلّ شيءٍ وسمعتَه. كان المرضى يتناثرون في العُرف دون انتظام، لم يكن لهم أسيرة، كان عددهم أكثر من عشرين ألفاً يتوزّعون على مئة غرفةٍ تقريباً، لم يكن في هذه العُرف جميعها أكثر من عشرة أسرة، أُعطيَتْ في البداية طوعاً لكبار السّن، ثمّ تقاتل الوارثون عليها بعد رحيل الكبار حتّى ماتت في سبيلها أكثر من ثلاثين، قبل أن يستولي عليها الأقلّ مرضاً والأقوى والأفتى من المطعونين، ولسوف يخترمُ الطّاعون قوّة هؤلاء المُتسيدين بعد بضعة أيّام، ويطغى عليهم آخرون يرثون منهم بالقوّة أو بالحيلة تلك الأسيرة العشرة، ولقد وعدّ ديوان مصر أن يأتي بألف سرير كدفعةٍ أولى منذ ما يزيد عن شهر، ولكنّ لم يصل منها سريراً واحداً إلى اليوم. ما تبقى من المرضى يُمكنك أن تُشاهدَهم بوضوح، يرتمون في الرّوايا ينتظرون لحظّتهم في الرّحيل، أو ينفثون آخر الأنفاس من صدورهم، أو يعدّون أيّامهم وأوقاتهم عدّ التّاكل لحبّات الرّوح. أولئك الذين كانوا يجدون جداراً يُسندون عليه ظُهورهم المُتقرّحة كانوا - بلا شكّ - أوفر حظّاً من أولئك الذين اضطّرهم أن لا قوّة عندهم ولا عُصبة إلى الارتيماء في وسط الغرفة.

ولعلّه ليس من الصّعب تخيل أنّه لم يكن لهم ترتيبٌ، فقد حاولنا بما نستطيع في البداية أن نجعل عُرفاً للنساء والأطفال، وأخرى للرّجال، وقد نجحنا شيئاً ما، ولكننا وجدنا من تطلب من النساء أن نضمّ إليها ابنتها أو قريبتها فلائلاً ليتكفل ولو قليلاً بالقيام برعايتها، ووجدنا من المُسنّين من يطلب ابنته الوحيدة فلانة أن تكون معه لتقوم ببعض شؤونه قبل أن يدركهما الموت ويرحلا معاً. وهكذا خلط الطّاعون الناس، وألغى بينهم الحدود! كما أنّه ليس من الصّعب أن تتخيل أنّ النّاس كانت تتمدّد مكشوفة الصّدور والأذرع والبطون وحاسرة الرأس، كانت العورات مكشوفة، إلا من خرقةٍ باليةٍ أو ثوبٍ مُهترئ يُعطى العورة المُعظّمة، لم تكن هناك ثياب يُمكن بها ستر هذه الأجساد العارية، وانشغل النّاس بأمراضهم عن النّظر إلى

العورات، وصرّفهم المرضُ القاتل عن شهوتهم فلم تجذّ لها منفذاً، غير أنّ هذه الشهوة النَّائمة اضطراباً لا يدري أحدٌ متى تستيقظ اضطراباً أيضاً، فتسمع همهمات اللّذة تنطلق من هنا أو هناك، أو آهات الشّبِق الّتي تنفثي من بين الأفخاذ كما تنفثي الدّمامل من الأربيّة تماماً.

وهكذا، وحدث نفسي أضطر إلى مُغادرة البيمارستان يومين على الأقلّ في الأسبوع وآتي إلى هذه المنشأة لأقوم مع عشرات من المُمرّضين والأطباء والمُساعدين المُسعفين على الإشراف على أحوال المرضى هنا. كان يتبعني خليل وسالم، ومع كلّ واحدٍ منهما صندوقٌ خشبيّ صغير، فيه دوائر لاستقرار الدّوارق المملوءة بالأدوية والمُطهّرات والمُهذّبات، كانت العيون تفيض بالرجاء وهي تنظر إلينا، لقد كانت تقول كلاماً لا يُمكن للغة أن تقوله، كانت العيون ترى فينا أملها الوحيد في النّجاة، كانوا لشدّة تعلّقهم بهذا الأمل، يشتطّ بهم الأمر إلى الظنّ بأنّ أمر الحياة بين أيدينا، وأنّه مُعلّق بالقاروة الّتي تحوي سائل الكافور أو شراب الخلّ، أو منقوع الزّعفران أو زيت الحنظل، أو غيره من العقاقير، ولم يكن أحدٌ ليلومهم في ذلك، فإنّ الميّت يبحث عن قشّة الحياة في لُجّ اليمّ الهادر.

لم أكن أدري أنا ولا أيّ من أطبائي أو الأطباء الآخرين من نُعالج ممّن نترك، لقد وضعنا الطّاعون مع هذا العدد الهائل من المُصابين أمام مُعضلة أخلاقيّة، وكانت امتحاناً عسيراً، فإذا كان يُمكننا أن نُنقذ عشرةً في اليوم - مثلاً - من الموت، فلماذا لا نختارهم من الشّبّاب أو أولئك الّذين كان الطّاعون في مراحلهِ الأولى ولم يتمكّن من الرّثتين، فإنّ فرصة شفاء هذا النوع من النَّاس أكبر بكثيرٍ من أولئك الكبار الّذين استطاع الطّاعون في خلال يومٍ أو يومين من الانتشار في رثتيهِ الضّعيفتين، وصارت فرصته في النّجاة شبيبة مُستحيلة، لقد كان اختياراً حقيقيّاً، وُضعنا أمامه نحن أطباء مصر يومئذٍ، من نختار لكي يعيش؟ وكُنّا نعرف أنّنا لن نستطيع أن ننقذ الجميع، وإذا فالسؤال الّذي يتبع السؤال الأوّل: من نترك لكي يموت؟ ولقد دارت في أذهاننا جميعاً خواطر يخجل المرء أن يبوح بها، من مثل: إذا كان هؤلاء المُستنون قد أخذوا فرصتهم في الحياة فلماذا لا نتجاوزهم إلى الّذين لم يأخذوها بعد؟ ولنفترض أنّنا أنقذنا عشرةً من المُستنين فما الفائدة من بقائهم أحياء بعد أن تستعيد البلاد عافيتها؟ هل بإمكان هؤلاء العجزة أن يعملوا في الأسواق، أو أن يُعيلوا أسرهم، أو أن يُقاتلوا في الجيوش؟ وعليه فلنذهب إلى من تعود فائدته على الدّولة بعد البرء. وكُنّا نحسّ أنّنا نضع أنفسنا موضع الإله القدير، نختار من يعيش، ونختار من يموت!!

لم يتوقّف توافد المُصابين إلى المنشأة طوَال سنّة أشهر، حتّى صار المُصابون ينامون في الأروقة، وفي الغرف الأخرى، وفي الحدائق، وكان يُمكن لمن يمرّ من جانب سور المنشأة أن يسمع الصّجيج النَّاجم عن ثلاثين ألفاً على الأقلّ ممّن ملؤوا كلّ ناحية في المنشأة وزاوية، كنتُ أمرّ على من استطاع من المُصابين، خلفي سالم و خليل بالدّوارق، نفحص درجات الحرارة، كان يُمكن لو كانت لدينا إمكانيات أن نعزل المُتماثلين للشفاء وإنّ كانت نسبتهم لا تزيد عن واحدٍ في الألف، نعزلهم في مكانٍ بعيدٍ عن هنا، حتّى يتعافوا، ويعودوا إلى الحياة عندما تعود الحياة إلى طبيعتها. بعد فحص حرارة المريض كُنّا نسقيه بعض الدّواء، وكان يطوف معنا واعظاً أحياناً يقرأ عليه بعض الأدعية، ويُذكره بأجر الصّابرين.

ولقد كان ليلُ المنشأة غير أيّ ليلٍ، كان ليلاً أطول من ليل النَّابغة الدّيباني، وسُمّه أشدّ نقيعاً من سُمّ رُبدِه، وكان ليلاً مليئاً بالحشرات والاختلاجات والارتخاء والانذواء والهذيان والخوف والرّعب. ولم يكن في المرض أشدّ على المريض من خوف ما سينزل بالمُصاب به من الأذى، فلقد كان أدّى فوق الأذى!

غير أنّ للطّاعون بعض المزايا، فلقد جمّع من كان شتيتاً، وقرب من كان بعيداً، فكم من أبٍ لم ير ابنه إلا في هذه المُصيبة، وكم من هاربٍ لم يجد أهله إلا تحت سقّف الطّاعون، وكم من عاقٍ لم يتذكر أنّ يبرّ أمّه إلا بين جدران المرض، فكأنّ النَّاس كانت تنتظر قدراً إلهياً مثل هذا ليجمعها، تذاكر النَّاس في الطّاعون ما لم يكن لظرفٍ آخر أن يدفعهم إلى

تذآكره، تذكروا النشأة، والطفولة، والصباحات الجميلة، والأيام الطرية، والضحكات، وسعدوا كما لم يسعدوا من قبل وهم يسترجعونها، لقد قرروا أن يضحكوا ملء أفواههم فيما تبقى لهم من حياة قبل أن يذهبوا في طريق اللأعودة، ولقد فكروا لأول مرة بأسلوب صحيح، لقد كانوا يقولون: إذا كان العمر لحظات فلماذا لا نقضيه طيبتي الأنفوس، مُنشرحي الصدور، وإذا كانت هذه اللحظات سوف ترحل بنا جميعاً فلم الحسد والبغض والحقد والكيد، إن كان أمداً وأجلنا فيها قصيراً، وإذا فعليه: اضحكْ فما من لحظة أحلى من لحظة السعادة التي تتوهج في القلوب الزاحلة... غير أن هذا كان ديدن قوم ولم يكن ديدن آخرين، فإن مرضاً كالتاعون يُخرج أفضل ما فيك وأسوأه على حدٍ سواء، إذ إن من كان يرى من الحماسة أن تُنازع جارك على شبر من الأرض قبل أن يدخل إلى هنا، صار يذب عن هذا الشبر بروحه، و صار مُستعداً أن يُقاتل عنه ولو لآخر رمق!!

ولم يعرف أحد في الغُرف البعيدة في الليالي المُظلمة أحداً، كان الطاعون يُوحّد بينهم في الجهل بالآخرين عندما يحل الظلام، إلا أن امرأة واحدة كانت تعرف ما يجهله سواها، وكانت تعتقد نفسها ملك الرحمة مُرسلة من رب السموات إلى أهل الأرض البائسين، وأن واجبها المقدس في أن تفتح الباب لهذه الأرواح المُتعبة كي تُغادر أجسادها بهدوء، ذاهبة إلى الأبدية، لقد صارت خبيرة بصناعة الحُقن القاتلة، الزرنِيخ أو الزنْبِق أو الرصاص،... ولذلك كانت لا تطوف على مرضاها - الذين تُسميهم هي كذلك - إلا في الليل، وتحت جُح الظلام، تفتح أفواههم، وتقول: «شرب الرّاحة... لا ألم بعد اليوم»، ثم تُفرغ السائل فيها، وتبعث بالمريض في لحظات إلى الضقة الأخرى!!

” (٦)

مُواجهة الموت

لم يكن لاجتماع أن يضم كل هؤلاء من أصحاب السيادة لو لم يكونوا يُدركون مدى خطورة الأمر، إن البلاد كلها تتردى بالموت الأسود. كان السامان - عن يمين رئيس الديوان المُبلغ عن الملك وعن شماله - يضمّان أكثر أصحاب السُلطة في مصر. قال رئيس الديوان: «إن تفاقم الأمور إلى هذا الحد يُنذر بكارثة لم تعرفها البلاد من قبل، فكيف استطاع الموت أن يخطف منا شعبنا وأهل ديارنا بهذه الأعداد المهولة؟». لم يتكلم أحد من الحاضرين، إذ ليس في العبارات التي نطق بها أي سُوال حقيقي، لقد كانت تنقل إلينا مُستوى ذهوله ممّا وصل إليه فحسب، ولو كان في الميدان مع الأطباء وسواهم لكان قال كلاماً غير هذا يصف حجم المأساة التي نغرق فيها. تابع رئيس الديوان: «أريد أن أعرف كيف استطاع الطاعون أن يتسلل إلى الديار المصرية الآمنة العامرة؟ أهو غضب إلهي؟» استأذنته بالكلام: «لقد فات الأمر على سُوال كهذا، حرب الطاعون المسمومة بدأت عملها في الناس منذ أشهر، ونحن لسنا في موضع البحث عن أسبابه، فقد صار واقعاً أكيداً وأليماً، ولكننا في معرض مُواجهته، والتخفيف من ضحاياه ما أمكن. إنه عدو. لكنّه ليس عدواً تقليدياً، إذ لو كان عدواً من النوع الأخير، لتكفل بمُواجهته جنودنا الأشداء، ولشنتنا عليه حرباً شعواء، وخلصنا البلاد والعباد منه، ولكنّه عدو خفي، لا يرى لكنّه موجود، يمشي إلى جانبك، ويعيش معك، ويتفاسم معك كل شيء، السرير، والغرفة، والحدار، وبيت الخلاء، والطعام، والثياب، والأمل، والنظرة إلى الأفق... وحين أقول كل شيء، أعني ما أقول، إنه يُشاركنا الآن هواء هذه الغرفة، وبالتالي فقد يُصيب بعضنا أو يُصيبنا جميعاً. إنه يطعن بلا رمح، ويضرب بلا سيف، ويهوي بلا فأس، ولكنّه يملك ما هو أشد من الرمح والسيف والفأس، إن ضربته إذا ضرب لا ثاني لها، وإنه إن حل في جسد لا يخرج منه إلا أن يُخرجه الله، ولذا...». قاطعني في استرساله رئيس الجُند، وقال بصوت خشنٍ غليظٍ لكنّه مهزوز تبدو فيه نبرة القلق: «لم نجئ إلى هنا، ولم نجتمع هذا الاجتماع من أجل أن نُخيفنا بهذه الطريقة... نحن قادرون على أن نهزم كل من نُجابهه، ومصر ما زالت بخير، وتهويل الأمور ليس من مصلحة بلادنا ولا شعبنا». ابتسمتُ ابتسامة ساخرة قبل أن أقول: «أنا لا أريد أن أُخدع أحداً سيدي، مصر ليست بخير، وأنا لا أخيف أحداً، الوضع مُخيف ومُرعبٌ ومجنون، وأنا أفعل ما يُمليه عليّ واجبي، وأدرك أن هذا المرض لا ينفع معه تهديد، ولا ينصرف بوعيد، ولا يُفرق بين سادة وعبيد، إنه يُنشب مخالبه في عنق العتال الجعدة في الأسواق، كما يُنشب مخالبه في عنق الأمير البضة في القصور، نحتاج إلى رأيٍ لنواجهه لا إلى صوت، ونحتاج إلى حكمة لا إلى صُراخ، وإلى شجاعة لا إلى عنتريات». أغضب قولِي رئيس الجُند، فصاح مُهتاجاً: «هل تقصدني أيها النكرة؟». لم أرد، فاستشاط غضباً: «من تقصد؟». رددتُ بهدوء: «لقد قلتُ ما سمعت، ومن ظن أنه المقصود فذلك ظنه...». قاطعنا رئيس الديوان، وهتف مُحنقاً: «نحن نريدُ مجابهته على طريقتك يا حكيم، فماذا ترى؟» تنحنحتُ هذه المرة، وعدلتُ من أمر ثيابي، وقلتُ له: «سيدي، قد تكون الحرب قد غاصت مُبتدئة من البطن صاعدة إلى

الأعلى، لكنها لم تصل إلى القلب، ولذا يُمكن أن نستدرك هذا القلب قبل أن يتهاوى هو الآخر...». فسأل: «فماذا ترى؟». «سأقول لكنتي لا أريد لكلماتي ألا تُجاوز هذه الجدران، قد يكون بعضها فيه غرابة، ولكنك استشرتني، والمستشار مُؤمن». «فُل، ولا تتردد». «سيدي، يُمكن بالنسبة للأجساد أن نوقد على الطين...». «الطين؟». «الطين الأرمني، فإنه يُفيد مع الدمام، ويُطري التشققات، ويُعيد للجسد أملاحه ومعادنه التي فقدتها. أما البيوت فيمكن تبخيرها». «تبخيرها؟ هل نحن مُشعوذون يا حكيم؟». ضحكك: «أكل تبخير شعوذة يا سيدي، تُبخر البيوت لتنقية الهواء الفاسد، يُمكن أن يكون التبخير بالعنبر والكافور والصندل، أظن أن كميات من هذه موجودة في الفُصور والحدائق العامة وبيوت الأثرياء، على الدولة أن تجمعها من تلك الأماكن وتوزعها بالمجان على الناس ليُبخروا بها بيوتهم... ثم...». قاطعني رئيس الجند هازئاً: «هل سنحوّل جنودنا المُقاتلين إلى حَمالي دلاء الورد والعنبر كالنساء، ألهدا آخرناهم». رددتُ بهدوء، وبحزم: «الطاعون تُقاتله الورد خيراً من ألف ربح، والعنبر خيراً من ألف سيف، لكل عدو سلاحه القاتل، أنت لا تريد أن تفهم ما أعني، إنك تريد أن تظلّ عصاً في الدُولاب، دَعك من مُقاطعتي، وأن لك أن تترك استهزاءك جانِباً وتسمع لي، لأنني لا أريد أن أقطع بعد الآن، ولا أريد أن أُعيد من أجل أن أتحمّل هُراءك،

ضغ علك في رأسك مرّة واحدة بدل أن تضعه في جِذائك...». كانت عيناه تتطايران شرراً، سحب سيفه وهَجَم نحوي، فسحب سيفي وهجمتُ نحوه ونحن نصيح، استدرك الموقف رئيس ديوان القضاء، فوقفتُ حائلاً بيننا قبل أن تبدأ المُبارزة، صرخ رئيس الديوان: «كفا أيها الديكان الأحمقان، من العار أن تسحبا سيفيكما في حضرتي». أعدتُ سيفي إلى قرابه، وتراجعتُ إلى مكاني في السِباط، وهتفتُ وأنا لا أزال في غضبتي: «أريد أن أقول كل ما لدي دفعة واحدة وأخرج من وجه هذا الأخرق، إن أخذتُ مصر بقولتي نجت، وإن لم تأخذُ فعلى نفسها جنت براقش، وقد أذرتُ إلى الله فيما أعلم». كنتُ قد بدأتُ أهدأ تدريجياً، فيما كانت أنفاسُ رئيس الجند تخرجُ من منخريه الواسعين كأنه حصانٌ هائج، أما رئيس ديوان القضاء، فاسترضاني بقوله: «نريد أن نسمع منك يا حكيم، لعل الخير فيما تقول، وليكن ذلك على وجهه الذي يرضاه الله، ويخلق الله بعد ذلك ما لا تعلمون». عدلتُ ثيابي على صدري، وأثبتتُ العِمامة فوق رأسي، وهزئتُ رأسي مرتين قبل أن أقول: «على الذي يستطيع من الناس أن يتختم بالياقوت فليُفعل، أقول ذلك لمن يستطيع، أعلم أن أكثر الناس فقراء، ولكن الياقوت والجواهر والأحجار الكريمة تُساعد في الحماية، وعلى رئاسة الدواوين أن تُصدر وصفاً بالأغذية التي تُساعد كذلك، يُمكن أكل البقل وخبث السمّاق والليمون، والطحينة، وعليهم الإقلال من المرق والفواكه، واستنظاف الماء، إمّا بغليه، أو بالتأكد من مصدره، فإن النيل هذه الأيام طين، وإن أكثر أمراض أهل مصر منه، فلا تشربوا من مائه إن لم يُغَل. وأما المأكولات؛ فيؤكل اللحم الأبيض من الطيور، ومربى العنب قبل أن ينضج، أي مربى الحصرم، كل هذا يُمكن أن يُؤن من خلفي، كتبة الدواوين يفعلون ذلك، والنسّاخ ينسخون منها ما استطاعوا لتكون بيانات إرشادية لأهل مصر، هذا في البيوت. وأما خارج البيوت فإنّ هواء الطاعون هو هواء القاهرة والبلاد كلها، فيمكن استصلاحه بقطع تلك الأبخرة الفاسدة عن طريق حرق أشجار المرّ والمُصطكى والسندروس والكندر والميعة في الأجواء الباردة والصباحات. أما في الحرّ والجنوب والأماكن الجافة؛ فيمكن تبخير الورد والصندل والكافور والعود الهندي. وأما على مستوى المُمرّضين والأطباء والمُساعدين والمُستدربين، ومن أراد أن يخدم في هذه المهنة، فيمكن تخفيف المرض أو علاجه بالفصد، وتقوية القلب بالأغذية أو بالتبخير أو بالتعرّض للهواء النقي أو بالتعطير أو بالتبريد، ومن كان من هؤلاء في المناطق المُرتفعة فلا ينزلن إلى المُنخفضات؛ فإنّ الهواء فيها مثل الماء أسنّ فاسد، وعلى المرضي أن يعلموا أن هذا المرض يُستثار بالحركة، وأن خير ما يُمكن تهدنته به أو إنامته بملازمة السكون والدعة لتسكين هيجان الأخطاط.»

وتوقفتُ عن سيل الكلام، وزفرتُ زفرةً طويلةً، ثم أطرقتُ إلى الأرض قبل أن أرفع رأسي لأقول: «أظن أن هذا ما كنتُ أريدُ قوله». سادتُ لحظات صمتٍ مُطبّق، قبل أن يقطعها صوتُ رئيس الدواوين: «هل هذا كل شيء يا حكيم؟». ضيق عيني، وتنقستُ بهدوء، لأقول: «أريد أن أشرح معنى تسكين المرض أو إنامته». أشار إليّ رئيس الدواوين مُشجعاً: «تفضل يا عبد اللطيف». «على الناس المطعونين وغير المطعونين أن يلزموا أماكنهم التي هم فيها، فمن كان في بيته فلا يخرج منه، ومن كان في البيمارستان أو في السّاحات أو في المنشآت فلا يُغادرها، وعلينا ألا نسمح مرّة أخرى بإقامة الصلوات الجماعية في ظواهر البلاد مهما كانت الدوافع، وعلى أهل القصور أن يحبسوا أنفسهم فيها؛ فقد ولّى زمن الصّوق في الأسواق والإنعام على المُتسولين بالدراهم، وعلى أهل القرى ألا يخرجوا من قراهم، وعلى أهل القاهرة من حُبس خارجها أن يبقى خارجها، ومن حُبس داخلها أن يبقى فيها، وعلى الدولة ألا تسمح على الثغور بدخول أيّ قادم من الشّام أو العراق أو بلاد التّرك أو بلاد الفرس، أو بلاد المغرب...». قاطعني رئيس الجند، ولكن بأدب هذه المرّة: «تريدنا أن نحبس الناس؟». «هو كذلك، نحبسهم فنحسب الطاعون عنهم، إن الحركة والتجمعات تفتح شهيتته، فيضربُ ضربته التي لا نجاء منها». ردّ بأسى هذه المرّة: «إنّ هذا يستلزم استنفار كل جندي في الجيش أو مُنتسب للشرطة ودواوين الأمن؟». «تماماً، فهذه معركتهم الكبرى، فإن انتظم عقدهم نجحوا وكان ذلك أدعى لإنقاذ أكبر عددٍ من الأرواح». سأل رئيس ديوان القضاء: «وإذا لم يلتزم المعزولون بالبقاء حيث هم، سواء في البيت أو أماكنهم أو البيمارستانات، فلقد سمعتُ

عن فرار المطعونين من البيمارستان الرّئيس؟». ردّ رئيس الجند: «سنوزع خراساً من أجل أن يقفوا على أبواب هذه المنشآت».

ردّ عليه رئيس ديوان القضاء: «يُمكن أن تحرس المنشآت كلّها، ولكن لا يُمكن أن تحرس البيوت كلّها، إنك لن تملك عددًا من الجنود لكلّ المُصابين بالطّاعون». «سنحرس مُفترقات الطّرق، وقوارع الشّوارع، ونواصي الأزقة، وأوساط الأحياء، وعلينا أن نكون جادّين في تطبيق القانون إذا ختمت بخاتم المَلِك». تدخلت: «لدينا أكثر من عشرين ألفًا معزولين في منشأة القاضي الفاضل، نحن بحاجة إلى حماية لهم، لأنّه إذا فرّ منهم من يريد الفرار فسيكون بؤرةً لانتشار المرض». ردّ رئيس ديوان الجند بحزم: «سنؤمّن لهم حراسة، وسأشنع كلّ من يهربُ باعتباره قاتلاً، وإذا كان الهرب - حسب ما قلتُ - يقتل النّاس، فسأقتل من يهرب، الذين يظنون بأنّ الهرب يؤمّن لهم النّجاة، فسأجعله يؤمّن لهم الموت». قلتُ: «من الحسّن الخزم في أمور تهمة الدّولة بأكملها، ولكنّ عليكم في ديوان الجند أن تنتهبوا إلى أن هناك من سيخرج مُضطرباً، وهذا يرجع تقديره لكم، لأننا لا نريد أن نحاسب كلّ خارج، فيكون معه عذر، فيجتمع عليه موتان».

وسألني أحد رؤساء الدّواوين: «والريّح؟». فقلتُ له: «وما شأن الرّيح؟». «يقولون إنّها إن هبّت نقلت الطّاعون معها». «ربّما هي كذلك. إنّ الرّيح لا يُمكن إيقافها ولا تغيير مجراها، ولكنّ يُمكن أن نجعلها تهبّ على شوارع فارغة وجهات خالية، وتلك هي الوقاية».

ثمّ إنني طلبتُ من رئيس الدّيوان أن يوقف البريد، لمُحاصرة العدوى، وأن لا يكتب إلى أيّ بلدٍ رسالةً ولا أن يستلم منها مثلها. فتساءل رئيس الجند مُستنكراً: «تريد أن تعزلنا عن العالم؟! البريد لا يحمله إلا عددٌ محدودٌ جدّاً من الأشخاص، إنّنا بذلك سنموت محبوبين ولن يسمع من كان خارج مصر بنا؟ إنّ هذا الوباء يستعبدنا». رددتُ: «أنّ يستعبدنا خيرٌ من أن يقتلنا، ثمّ إنّ البريد يُوصله إلى الدّيوان عددٌ محدودٌ من الأشخاص، ولكنّه يُوزّع بعد ذلك على عددٍ غير محدودٍ منهم، وهنا تكون الطّامة». سكّتُ قليلاً، فيما راح الكتّبة يُسجلون كلّ ما دار من أجل أن يرفعوه إلى رئاسة الدّواوين كلّها لصياغة قوانين الدّفاع، ورحتُ أستطرد: «إنني لا أطلب فقط إيقاف البريد، ولا حظر التّجوال فحسب، بل أطلب إيقاف حركة السفن الكبيرة في الإسكندرية، وإيقاف حركة المراكب التي تعبر النّيل قادمةً من هناك، إنّها تحمل الموت، وعلينا اليوم قبل غدٍ أن نمنعها من الإبحار». اكفهرتُ وجوه رؤساء الدّواوين كلّهم، كانوا قد بدؤوا يستسلمون للفكرة، ويُدركون فداحة الخطب، فيما استثمرتُ أنا ذلك، وتابعتُ وهم صامتون مُطرقون: «طلبٌ أخير، سينتشر المُحتكرون، والمُنتهزون لهذه الجائحة، فعليكم أن تسنّوا قانوناً يمنع الاحتكار، ويوقع أشدّ العقوبات بالمُحتكرين، فإنني أعرفُ بقالاً احتجز في دكانه بضاعته من الأغذية والبقول حتّى يبيعهما بسعرٍ مُرتفع، وستجدون أمثلةً كثيرةً لهذا البقال في كلّ مكان، وهناك من ينتظر من الأطباء نوع الأغذية التي يستلزم أكلها في مثل هذه الجائحة ليرفعوا سعرها، إنني أعلم - وأنا خبيرٌ بهذا - أنّ أسعار الفِئاء والبطيخ والدجاج والخلّ وغيره ممّا ننصح بأخذه سوف ترتفع، كما سترتفع موادّ التّعطير والتّطيب مثل الكافور والسدر والقطن المُستخدمة في تحنيط الموتى. فعلينا أن نكون حازمين إزاء هذه الفئّة من الانتهازيين».

وسرى قانون الحجر بين النّاس، وتمرد عليه في البداية عددٌ لا يُعجبهم أن تحشر الدّولة أنفها في أمورهم الخاصّة، فهرب أولئك من بيوتهم، وحملوا معهم أموالهم، وغادروا خارج مصر، وطرقوا الأبواب فلم يفتح لهم أحدٌ، ودفعوا الأموال فلم يأخذها أحدٌ، وكان لديهم من المال ما يُمكنهم من شراء القُرى التي هربوا إليها بكلّ ما فيها، فلجؤوا إلى الحظائر والرّائب، وعانوا مع الطّاعون قلةً اللّطافة وفساد الهواء والرّوائح الكريهة والرّوث، فماتوا ولم تنفعهم أموالهم بشيءٍ! «

انظرُ إلى الطّاعون، إنّه شيطان، جَنِّيّ أسود، يقفز فوق الأسقف، يتجول في الطّرق، يُحبّ الاكتنظاظات، يرى فيها صيداً ثميناً، يحمل حرباً تقطر سُمّاً، يسير بين النَّاسِ، ينظر في الوجوه، ويطعن السّاهين، إنّ نظرتَه في الوجوه لم تكن ذات معنى إلا لكي يرى وجه ضحيّته، ويستمتع بنظرات الرّعب التي تسيل من عينيها، لا يعرف الرّحمة، ولا يرق قلبه لامرأةٍ وحيدة، ولا لطفلٍ رضيع، يغرز حربته في الأحشاء، ثمّ يدور بها داخل تلك الأحشاء حتّى يمزّقها تمزيقاً، ثمّ يخرجها من هناك تقطر لحماً ودمًا، وينتقل إلى الضّحيّة التي تليها، وهكذا... لكنّه كان يجد صعوبةً في أن يدخل الأبواب، إنّ يده مشغولةً بالطّعن لا بفتح المغاليق، ومع ذلك يجد أحياناً الأبواب نفسها تُفَتّح له فيدخل، وهدم الذين لا ذوا بعزلةٍ بعيدةٍ عن الأماكن العامّة الضّاحجة بالنّاس كانوا بمنأى عن طعنة نافذة من حربته مسمومة يحملها شيطانٌ أسود، ليس في قاموسه موضعٌ للرّحمة!

«لن أموت وحدي. لسْتُ فاسقاً حتّى يختارني الموت دون سواي، ولم أقترف ذنباً عظيماً، ولم أخطئ بحق أحدٍ حتّى أتحمّل أنا هذه الجريمة، لن أرحل إلاّ بأكبر عددٍ مُمكنٍ معي، إذا كان ما يقوله الأطباء صحيحاً - وأنا أميل إلى هذا الاعتقاد - فسوف أجعل العدوى تنتشر بين الذين لم يلتفت إليهم الطّاعون، ما ذنبي أن أكون أنا من دونهم قد استوفقته، سأجعلهم أيضاً يستوفقونه، ويطلبون منه أن يدخل إلى أجسادهم، ألم يقولوا: الموت مع الجماعة رحمة، فموتوا معنا أيّها الأصحاء حتّى لا تُعانوا الفقد بعدنا، ولا تُعاني نحن الموت به من دونكم». هكذا يقول واحدٌ من الذين تقموا على الدّولة إجماعاً، ومن الذين غاصت فيهم حربته الطّاعون، كان هؤلاء الصّنف من النَّاسِ يتبعون الجنائز باكين على أنّهم من ذوي الميّت، ويقفون عند رأس القبر حين يجتمع عنده أهله، ويصافحونهم مُعزّين، ويقولون في سرهم: «مرحباً بكم معنا إلى الموت».

كانوا ينزعون عن أفواههم اللّثام، ويغمسون أيديهم بالطّعام، ويُقدّمون كأس الماء للآخرين بدعوى المساعدة، وكانوا يزورون البيمارستانات مُتظاهرين بأنّهم أصحاء جاؤوا ليسألوا عن أقربائهم، ويختلطون بالأطباء والممرّضين والمُسعفين، ويقولون لهم في أنفسهم قولتهم الشهيرة: «مرحباً بكم معنا إلى الموت». كان الحقد الأسود يُعشّش في قلوبهم مثل الموت الأسود، وكان أكثر سؤال ينتصب كرمح في حلقهم ويدفعهم إلى هذه الجرائم، هو: «لماذا نحن وحدنا؟ وعليّ وعلى أعدائي». ولكنّ لسان فعلهم كان يقول: «عليّ وعلى أحبائي». وكانوا يرمون الألثمة التي تنقّسوا فيها ولطّخواها بصديد دماهم إلى الشّرفات، أو أمام الأبواب: «لنمُت جميعاً أيّها النَّاسِ، إنّ يوم القيامة قريبٌ، وإنّه لا فائدة من الحياة، لماذا عليكم أن تعيشوا بعدنا؟!».

كانوا يتزوّجون، يصنعون كلاماً معسولاً لزوجاتهم المُستقبليّات: «نحنُ أصحاء، ولا بُدّ من زواج بين صحيّين من أجل أن ننجب أصحاء، إنّها الطّريقة الوحيدة لتعويض خسارات الموتى؛ الإنجاب، الإتيان بأطفالٍ جُدّد لم يمَسّهم الطّاعون إلى هذا العالم الذي يتداعى». وكانوا يُعدّون من ظننّ أنّهم عثرن في وسط هذا الموت كلّهُ على فارس الأحلام... لقد كان فارس الحمام.

كانوا يخرجون إلى الشّوارع مُتحدّين الحَجْر ومنع التّجوال: «إنّنا ميّتون على أيّة حال، فلنقم بمهمتنا الشّريفة قبل أن تحين السّاعة»، يطوفون على البيوت يُلطّخون بدمهم أو بصديدهم أو بنخامهم أو حتّى ببرازهم مقابض الأبواب، وعتبات المداخل، وأطراف التّوافذ، وكانوا يهمسون من جديد: «نحيا معاً، أو نموت معاً!!!».

أدى الحظر إلى بروز مُشكلةٍ جديدة، إنَّ عددًا من المرضى بأمراضٍ أخرى لم يكونوا قادرين للوصول إلى البيمارستانات، ولم نكنْ نحنُ قادرين على زيارتهم، هذا إلى إصابة بعضهم كذلك بالطاعون في أوّل مراحلهِ دون أن يجد وسيلةً للخروج من البيت، ولذلك عملنا بالتّجاهل لحلّ هذه المُشكلة: وجَّهنا العرَبات بالطَّرُق العشوائي على البيوت من أجل نقل المُصابين، وقُمتُ أنا ومجموعةٌ من الأطباء - كتنبنا في ذلك ميثاقًا - بالذهاب إلى البيوت التي يُشتبه بوجود إصابةٍ فيها، أو نعرفُ من ديوان التّسمات أنّ فيها مرضى أو مُستئين.

أخذتُ (سالم) معي إلى أحد البيوت، صعَدنا الدَّرجات إلى الطابق الثَّالث، كان ذلك سببًا في عدم قدرة أهل المريض على إيصالهِ إلى البيمارستان أو إحدى المصحَّات، كان المريضُ رجلاً في العَقْد الخامس من عمرهِ، وكان يُعاني الحُمى لارتفاع درجة حرارة جسمهِ بشكلٍ أدّى إلى دخوله في نوباتٍ مُتتالية من الهدْيان، كان مُمدِّدًا على السرير، ومن تحت رأسهِ تجلسُ زوجته باكية، وكان رأسهُ مُغطّى بقمّاشٍ مبلولٍ بماءٍ باردٍ لتخفيف أثر الحرارة، وكان جسده يرشّح مع ذلك عرقًا.

تراجعتِ المرأة الباكية إلى الورا لتسمح لي أنا وسالم بمحاولة العلاج، طلبتُ منها أن تأتينا بدلًا مملوءةً بالماء البارد، ورُحّتُ أبلل القماشة بالماء وأمسحُ بها وجهه وجبهته وصدره وذراعيه، كان مُغمَض العينين، يفتحهما أحيانًا ثم يعاود إغلاقهما وهو يشدّ على أسنانه من الوجع، وصدره يعلو ويهبطُ ببطء، كان واضحًا أنّ نبضه ضعيفٌ، وأنّ تبريد القلب يُمكن أن يُساعد في تنشيطهِ، كانت اثنتان من بناته تُشاهدان أباهما وهما تقفان في زاوية الغرفة بجانب الباب، وتضعان أصابعهما الصَّغيرة في أفواههما وتبكيان بصمت، فيما كان ابنهُ على ما يبدو ينظر إلى أبيه وهو يقف خلف سالم بعينين زائغتين، حُزنٌ مُعتق؛ كان كلّ شيء في الغرفة يبكي حتى إنني تخيلتُ أن قطراتٍ من الدموع كانت تسيل على الجدار فوق رأسهِ، وشعرتُ أن المِخدة المُنذاة التي يُريح عليها رأسهُ المُتعب قالت: لو كان لي ذراعان لاحتضنتُك!

قلتُ لسالم: «إنّ وجعه شديد، فماذا تقترح أن نعطيهِ من المُهدئات». ردّ وهو ينظر إلى الصنّدوق الخشبيّ الذي يتكون من ثماني دوائر عميقة تستقرّ فيها العقاقير والأدوية: «سائل الخشخاش يا حكيم». وافقته، لم نكنْ نعطي هذا المُخدّر إلا في الحالات الصَّعبة أو الألام الشديدة، إذ كان من أقوى المُهدئات، وكان الخطأ في الجرعة قد يُؤدّي إلى نوم صاحبه دون أن يستيقظ أبدًا. أعطيتُهُ في الفم نُغبةً منه، بعد أن قدرنا أنا وسالم الكميّة المناسبة، وراح نبضهُ يتباطأ وينتظم، يبدو أنّه يخلدُ إلى الرّاحة، لم يكن بأيدينا الكثير لنفعله، ربّما كان من يملك الكلمة الطّيبة الحلوة خيرًا منّا في شفاء هذه النفوس المكدودة.

قلتُ للزوجة: «هذه نصائح عامّة، لن تكون دواءً سحريًا، لكنّها قد تُفيد، الأظعمة التي يُفضّل أن يأكلها في هذه الحال الخلّ وقليلًا من اللحم الأبيض، ولا تطبخي إلا بأوانٍ مغسولة بالماء المغلي. بالنسبة لتغيير الملابس أو شراشف الأسيّة، فيجب أن تغسلها جميعًا في ماءٍ مغليّ، وتجفّفها في شمس الضّحى، بعد أن يسكنّ الهواء الفاسد، وقبل أن يثور بعد الظّهر من جديد، ويُمكن تجفيفها بالنّار إذا أمكن، إذا لم تفعل هذا من قبل، فعليك أن تفتحي فرشته التي ينام عليها وتغلي الملاءات في الماء، وتعرّضي الحشوة إلى الهواء أو الطَّرُق بعضًا، ثم بعد أن تجفّت الملاءات، تعيدنها إلى الفرشة مع تغليفها. عليك أن تغسلي قوائم السرير وتبخّريها بالصنّدل أو الرّعفران، ولا تدعيهِ يمسخها، أمّا الفضلات والأوساخ التي تكون بعد الطّعام أو في أنحاء البيت فعليك أن تجمعها في مكانٍ واحدٍ وتقومي بحرقها... كانتُ تسمع وقد أثقل الحُزن رأسها فلم ترفعه من إطراقة طويلة.

لم يكن هناك فعلٌ خارقٌ يقضي على المرض، لكنّ (سالم) أعدّ لها بعض الأدوية، سكبها في بعض المحاقن، وعلمها طريقة إعطائها لزوجها، خرجنا من الباب، وكنتُ أعرفُ أنّ الرّيارة لم تفعل شيئاً سوى إبقاء الأمل على قيد الحياة، فإنّ الجزع والخوف قد استبدّتا بالنّاس حتّى كان يقضي على عددٍ أكثر من ذلك الذي قضى عليه الطّاعون!

غير أنّ الأسر لم تكن كلّها سواء، لا في البقاء ولا في الهرب، ولا في القدرة على استقدام طبيبٍ أو الموت بصمتٍ. كان على ربّ الأسرة التي يُصاب أحد أفرادها بالطّاعون أن يحجر على عائلته، ويُغلق على نفسه وعليهم الأبواب، بعد أن يكون قد أمّن لهم كمّيّة من الطّعام والشّراب قادرةً على أن تصمد أسبوعاً على الأقلّ، حتّى تكون هناك فُسحة للخروج من أجل الحصول على بعض الطّعام مرّة ثانية. لقد كان هذا الحصول حتّى من المرّة الأولى على الطّعام في هذا الحَجْر ترفاً بالنسبة لأسرٍ أخرى وحُلماً صعب التّحقّق، إذ لم يكن لدى بعض الفقراء خبزٌ يومهم عوضاً عن أن يحبسوا في بيوتهم التي تفتقر إلى النّظافة أسبوعاً دون كسرة خبزٍ واحدة، ولذلك حدث هذا: يقف الأب أمام أبنائه، والدّمعة تترقرق في مُقلّتيه ليقول: «لقد كتب الله علينا ذلك، إنّنا إن خرجنا مُتّنا، ولكننا أمّتنا معنا النّاس، وإن بقينا فلعلّ الله يجد لنا مخرجاً. والموت هنا خيرٌ من أن نكون اقترفنا ذنباً بالتّسبب بالعدوى للأخريين». وكان الأب يُنحي من جسمه ليضع لُقمة ولو واحدة في فم أبنائه، أمّا ابنته المريضة، فلقد كان هو وأمها يبكيانها بصمتٍ دون أن يكونا قادرين على أن يفعلوا لها شيئاً. وكان من الفطيع حقّاً أن ترى ابنتك تموتُ أمامك وأنت تنتظر، لقد مات الآلاف بهذه الطّريقة. أجسادٌ حين طُعت عليها شمسُ الصّباح لم تكن قادرةً على أن تتحرّك في سريرها، لقد رحلت أخيراً. أمّا المُستون فقد كانوا يقولون: «إنّنا نطلبُ من الله ألا نكون عبناً عليكم أكثر من هذا، فيا موتُ رُز إن الحياة نميّة».»

” (٨)

يوماً ما سينتهي كلّ هذا

مشى الطّاعون ففضى بين النّاس وحكم ما أراد الله له أن يقضي ويحكم، ففرّق مثلما قتلَ وزيادة، كان الرّعب من العدوى عند بعض النّاس قد ألجأ الأخ إلى أن يهجر أخاه، والابن أن يترك أمّه مع مصيرها غير عابئ بتوسّلاتها، والأب أن يرحل في اللّيل إلى قريةٍ نائيةٍ دون أن يُعلم أبنائه... كانوا يفرّون من الموت، وما كانوا يدرون أن الموت إمّا أن يلاقيهم في القرى التي فرّوا إليها، وإمّا أن يحملوه معهم، فيفتحوا له أبواباً جديدةً لم يكن يحلم بها ليدخل منها إلى البشر الذين لم يتمكّن من الدّخول إليهم فيما مضى.

أفسد الطّاعون الأخلاق عند كثيرين، أو لنقل اضطرّهم إلى ذلك؛ لم تعد الأمّ تهتمّ بصغارها، كأنّها ما أنجبتهم يوماً، ولا عانت في حملهم تسعة أشهر، ولا أعطتهم من لحمها ودمها حين أرضعتهم، ثمّ حين اعتنت بهم حتّى صاروا أطفالاً يديّون على الأرض، وهكذا لما أنّ للزّهرة أن يكتمل تفتحها، ويعبق شذاها، تخلّت الأمّ عنها وفرّت بعيداً، ولم يكن حال الآباء بأحسن من ذلك، فلقد طلبوا من فِرَق النّطّوع أن يأخذوا أبنائهم إلى تجمّعات الحجر أو العزل حتّى لا ينقلوا العدوى إليهم!!

ولقد دخلتُ بيتاً في القاهرة قريباً من المشهد أُحاول مع أهله، فلم أجذ في البيت إلاّ الأب، وقد نخر الطّاعون جسده نخرًا، وكان لا تتحرّك فيه إلاّ عيناه وشفتاه، وكانت رائحة البول والأوساخ تفوح من الشّقة، فسارعتُ إلى تهويتها، وطلبتُ من المُساعدين أن يبدؤوا بتنظيفها، وحرق كلّ ما يظنون أنّه ملوّث، واقتربتُ من المريض، قدّرتُ عُمره في السّتين، كان حاسِر الرأس، ليس في رأسه شعرة سوداء واحدة، وكان جسده قد تصلّب فلم يعدّ قادراً على تحريكه، وكان وجهه قد تجعّد وبدتْ غضونه، وهو ينظر كأنّه لا يراني، وسألته: «هل لك زوجة؟». فلم يُجب، «وهل لك أبناء؟». فظلّ صامتاً إلاّ أن دمّوعه راحت تنهمر على خديّه. هدأتُ من حزنه، قلتُ له: «يوماً ما سينتهي كلّ هذا». فازدادتْ دمّوعه، لا أدري إن كانت فرحاً أم يأساً. طلبتُ من سالم: «حقنة الكافور». كانت صفراء، لكنّها لم تكن تسرّ أيّ طبيبٍ، إنّ فيها مُخدرًا جيّدًا،

لكنها ليست متوافرة، ولا يمكن أن نُعطيها لكل من يموت. صرّت قوائم سريره لما تحرك مُمتناً للجرعة، ولليد التي مسحت على الجرح، جلست عند رأسه أحدثته أحاديث شتى اخترعها من عندي، أو من تاريخ مصر أو من ذكريات الماضي، الحديث الحلو يطردُ الخوف من الموت، أو يشغل المستمع عنه إلى حين. حدّثته كيف كانت القاهرة أول ما جنّتها، وكيف كان الناس يملؤونها بالبهجة، وقلّت له إنّها ستعودُ أجملَ ممّا كانت عليه، وستعودُ إلى وجهها الضحكة ويذهبُ هذا العبوس، فافترتُ شفّته عن بسمه، وشجّعته على أن يفتح جرة ذكرياته، فبدأ يتكلّم، وكان يضحك ضحكة خفيفة بين فينةٍ وأخرى، لقد وجد سلواناً بوجودنا إلى جانبه.

لم يكن من الممكن أن نبقي عنده أطول من ذلك، إنّ في القاهرة وحدها آلاف النماذج الشبيهة، ولن نستطيع حتى لو أردنا أن نمرّ على كلّ مريضٍ على هذا النحو، إنّنا نحاول، الآخرون يُحاولون، لن نكفّ عن محاولتنا حتى لو بدتُ ضرباً من العتب. قلتُ له: «إننا سنمضي». بدا التأثير في وجهه الشمعي. أراد أن يقول شيئاً لكنّه توقّف. كانت عيناه تقولان بدل كلماته. وقفتُ، فبدأ الرجاء في تلك العينين الضيّقتين المُتعبتين أكثر، قال بصوتٍ خفيض: «لا تتركني. أنا وحيد». كدث أبكي، قلتُ له: «نحن معك». «أنا خائف». «لا تخف، سوف أبعثُ من يطمئنُ عليك كلَّ يومين أو ثلاثة». خفض رأسه وأسبل جذعه الذي كان مُرتفعاً قليلاً، فيما وضع سالم له على الطاولة القريبة منه بعض الطعام الذي أحضرناه من اليمارستان. كانت شفّته تتحرّكان، لم أسمع ما كان يهسُّ به، اقتربْتُ منه لأسمع: «ماذا قلتُ يا عمّ؟». «ابنتي...». «لك ابنة؟». «نعم». «ما بالها؟». «هربتُ وتركتني مع الموت وحدي». وسالتُ دمعته من طرفِ عينيّه، وانحدرتُ بسرعةٍ لتدوب في المخدة. «نحن أبناؤك». «لا تتركوني. خذوني معكم. أنا ميّتٌ هذا المساء أو صباح غدٍ». نظرتُ بعيداً لأداري دموعي أنا الآخر، تابع: «أنا مُمتنٌ لك يا حكيم، أنا لا أعرف اسمك، ولكنني أطلبُ منك أن تدعو لي وأن تدعو لابنتي. أرى الصلاح في وجهك يا بُني». سألتُه: «أدعو لابنتك؟! ألم تقل إنّها تركتكَ وهربتُ؟». «أنا سامحُها يا بُني، إنّها على حقّ، رأنتني ميّتاً على أيّ حال، وكانت لها فرصة في النجاة، فلماذا ألومها، أنا فقط قلقٌ عليها، أخاف ألا تنجو».

خرجنا مُتقلّبين بالهمّ، كان عليّ أن أنتهي من بعض البيوت هنا، وأعود مع سالم إلى المنشأة لأرى كيف يجري العمل فيها. كانت تبدو قطعة لا تنتمي إلى الأرض، ربّما تنتمي إلى الجحيم أكثر. المرضى مُلقون في كلّ مكان، لم يكن هناك اهتمامٌ كبيرٌ بهم، لا تُوجد فرقٌ كافية من الأطباء أو المُمرّضين أو حتى المُتطوّعين للعمل معهم. كلّ شيء هنا كان بائساً، ومُضجراً، وغير مُجدٍ، وكئيّباً. حتى إنّ الموت تأثّر بأجواء هذا المكان فلم يعد يكثر كثيراً؛ كان مُلقى مثلهم على الأرض، يُمدّد جسده الهشّ إلى جانبهم غير عابئٍ فيما إذا انكشفت عورته أم لا. حتى النّظر في وجه الذين سيختارهم كلّ ليلة لم يعد مُثيراً بالنسبة له أو عملاً يتطلّب الجديّة والالتزام، في السابق كان يقول لنفسه: «إنّ حصّتي من منشأة القاضي الفاضل هو مئة في اليوم، عليّ أن أنتزع أرواحهم بانتظام وبدون كلل، لأنّه ليس لديّ النهار بطوله، فهناك مئة تنتظرني أن أنتزع أرواحها في اليمارستان الرّئيس، وخمسون في كلّ مصحةٍ أخرى، ومئتان في الشوارع، ثلاثون في حي باب زويلة وحدها، إنّ لديّ عملاً شاقاً، ولذا عليّ أن أقوم به على أكمل وجه، لا وقت للدّلال ولا للاسترخاء، وإنّ الأمانة تتطلّب مني أن أحسن ما أعمل...» كان هذا فيما مضى، اليوم لم تعد للموت تلك الجديّة ولا ذلك الشغف بعمله، اليوم تراه يمشي مُتكاسلاً، مُتتافلاً بين الأجساد، يتجاوز بعضها دون أن ينظر في عينيّه، يُحدّث نفسه بأن بعض ضحاياه يُمكن تأجيلهم إلى الغد أو إلى نهاية الأسبوع، لم العجلة؟ إذا كان مُحتمّاً عليهم أن يموتوا فسيموتون، لكنّ العجلة غير مُحبّبة، وتورث النّدامة، الإنسان هو الذي خُلِقَ عَجولاً؛ أنا لم أخلُق كذلك!! ماذا لو منحّتهم بضعة أيّام أو بضعة ساعاتٍ أخرى ريثما تكون لديّ الرّغبة القويّة في عملٍ كاملٍ...؟! بهذا كنتُ أرى الموت في المنشأة، موجودٌ ولكنّه كسول، الأجساد تُخرّنه فيها ولكنها لا تخرج معه، يقول له الجسد: يُمكنك أن ترتاح قليلاً أيّها الموت، لا جدوى من العمل المُستمر، في النهاية لا مناص من الرّحيل معك، لكنّ فليكن رحيلاً لايقاً!

المُصابون المُتكشّفون كانوا صورة وجود الموت أكثر من أولئك الذين غطّوا سوءاتهم ببعض الملاءات. في الأجساد المكشوفة يُمكنك أن تعدّ أضلاع المرء في قفصه الصّدريّ ضلعاً ضلعاً، ويُمكن أن ترى عظام تُرقوته بوضوح، ويُمكن أن ترى عظمة السّاق الطويلة بادية كأنّها خُلقت دون مزعة لحم، ويُمكنك أن ترى العُسقول أشدّ ما يكون هُزالاً... يُمكن لمشهدٍ مُخيفٍ ومُحزنٍ مثل هذا أن يحرمك من النّوم أسبوعاً. الأذرع نحيلة جدّاً، هي عظمٌ مُعطى بجلدٍ رقيقٍ، ولا تكاد تقوى على أن تحرك نفسها عن أن تكون عوناً لصاحبها. العيون الغائرة. الأشداق المفتوحة، الفُكوك النّاتئة، والجفون الدّابلة، والشّعْر المُتساقط، والآهات المكتومة، والموت... كسولٌ مثلهم، يتحرك ببلادة، ويمشي بثوّدة، وينظر مُتأقفاً إلى

ضحايه، لقد بدا أن الموت أصابه الضجر أكثر منهم، ولذا استبطأه عددٌ غير قليلٍ من المُصابين، وتأخر هو عنهم حتى صار خُلماً بالنسبة لهم، وصاروا يهتفون به: «عَجَلْ، وأرخنا... فلم تعد بنا طاقةً لنتعب أكثر».

في المنشأة مُفعمون بالأمل مثل أولئك اليائسين، أولئك الذين ظلوا يطلبون من الله ألا يبعث عليهم الموت، كانت أحاديثهم بعيداً عن خوفهم المُختر في نفوسهم تدور حول مدة الطّاعون، متى سيرتفع؟ ومتى ستحلّ رحمة الله على الأرض؟ ومتى سيمسح الله بيده على المخلوقات المطعونة فيعيد إليها الحياة؟ لم يفقدوا الأمل، لا لأنهم أقوياء، بل لأنهم وجدوا في الأمل درعاً من الجنون، وقايةً من السقوط في قيعان الكآبة، وطريقاً إلى مُقاومة الموت، لا يهزم الموت أكثر من الأمل بالحياة.

في المنشأة حدائق كثيرة، كانت تمتلئ بالورود والرياحين وكل ما هو مُثمرٌ وزكيّ، ولقد شهدتها قبل ثلاثة أعوام ما فيها إلا الجمال، واليوم عدت عليها عوادي الزّمن فأحالتها بلقعا، وبدلت أخضرارها اصفراراً، وأنسها وحشةً، وبهجتها أسي. غير أن البكاء على الماضي لا يُعيده، فطلبت من سالم وخليل وشريف ومارية أن يزرعوا الحدائق بالخشخاش، كُنّا محتاجين إلى كميات كبيرة منه من أجل صناعة المُخدرات والمُهذّئات. وبالفعل بدأنا بذلك، وساعدنا عمال آخرون، وبرزت ذرية فجأة في جوهنا، وعرضت المساعدة، كنت قد تمنيت لو أنّها محبوسة، أو على الأقل بعيدة عنّا، قالت لي وهي تنظر في وجهي دون أن يظهر عليها أنّها خجلي ممّا فعلت أو نائمة: «إيش يا طبيب الأرواح المُعدّبة...؟! ماذا فعلنا حتى تُعرض عنّا هذا الإعراض...؟! نحن بخدمة الأفعى التي تهب السمّ الشافي في كأس الحياة... أنسيت؟ وعلى أيّ حالٍ فإنتي اعتقد أنه ليس في مصر

كلها من يعرف الخشخاش وكيف يُزرع ولا كيف يُجنّى ولا كيف يُقطر لكي يكون جاهراً مثلي... أنا أقدم خدمتي بالمجان، من أجل روح القاضي الفاضل ومن أجل مصر ومن أجل الله...».

تعلم القائمون على أمر الخشخاش كيف يُقطر، وماذا يُضاف له من محاليل، وكيف يُصنّع ويُعبأ في الدوّارق، وبدأنا ننتج منه - بعد شهر - كميات تكفي لحقن نصف سگان مصر. كان دواءً جيّداً، وسيلةً للتخفيف من وخز الحربة التي يحملها الطّاعون، ولكنه استُخدم بعد ذلك لأغراضٍ شخصيّة، بعضهم تناوله ليغيب عن هذا الوجود، بعضهم أخذه دون أن ننصحه به، وآخرون استخدموه لكي يُنهبوا به حياتهم، وبعضهم انتحر بعد أن أدمن عليه، فشنق نفسه، أو تردى من فوق المنشأة، أو طعن صدره بالسيف، أو اتكأ ببطنه على الرّمح وجعله يغوص في بطنه حتى نفذ من الجهة الأخرى أو كاد!!

هكذا هو الخشخاش، تريد أن يكون دواءً فيُصبح سماً، تريد أن تُعالج به فيُصبح مرضاً، تريد أن تُحيي به فيصير طريقاً إلى الموت. نعم، ليس هذا للخشخاش فحسب؛ بل إنّ كلّ دواءٍ هو سُمّ قاتلٌ إن لم يُؤخذ في الموعد والمقدار والمكان المُناسِبين!

لم يعد أيّ فعلٍ هنا غريباً، كلّ شيءٍ قابلٌ للتفسير، ويُمكن تأويله، الغرائب مع الطّاعون ليس لها مكان، لأنّ الأغرب إذا حلّ أبهت ما قبله، ولقد رأيت أحدهم طلب من أخيه أن يحفر له قبراً، وحدد له مكانه: «تحت تلك الزهرة». وكان يعني الخشخاش. لكن لم يكن هناك من أدواتٍ للحفر، ولو كانت موجودةً فإنّه لا أحد يقدر على استخدامها، فما من قوّة في مريضٍ لا يُغادر سريره أو أرضه إلا زحفاً، لكنّ هذا الأخ أراد أن يُحقّق لأخيه أمنيته، فحفر بيديه، وبعوض جذوع الأشجار اليابسة الأرض طوال أسابيع، ثمّ كسا قاع القبر بالقشّ، ثمّ اتكأ أخوه على جذعه، ومثباً إلى الحفرة، ونزل فيها أخوه، وتمدّد في الأسفل على القشّ، وأمر أخاه أن يملأ صدره بالأوراق الصّفرة لزهرة الخشخاش، وصلب ذراعيه فوقها،

وراحت شفتاه تُنمّتان ببعض التعاويذ... ثمّ أغمضَ عينيّه، ورحل، كأنّه كان يُوقّت موته، أو كأنّ الموت لبي له النداء أن يأتيه في الحفرة رغم انشغاله الشديد... ثمّ أהל عليه أخوه التراب، ورجع وهو يرجف من البكاء!!

” (٩)

قائمة الموتى

نَفَقَتِ الجواميس، بعد أن شَحَّ النَّيْلُ حَتَّى كَادَ يُرَى الطَّيْنُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ، وَهَلَكَ بِهَلَاكِ الْجَوَامِيسِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ، كُلُّ عَائِلَةٍ كَانَتْ تَعِيشُ مَعَ جَامُوسَةٍ هَلَكَتْ بِهَلَاكِهَا، وَرَحَلَتْ بِرَحِيلِهَا، أُلْقِيَتِ الْجَامُوسَةُ فِي النَّيْلِ، أَلْفَاهَا الْأَبُ الَّذِي لَمْ يَمِتْ، ثُمَّ مَاتَ اثْنَانِ مِنْ أَبْنَائِهِ جُوعًا، فَأَلْفَاهُمْ خَلْفَهَا فِي النَّيْلِ، وَابْتَلَعَ النَّيْلُ فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرِ آلَافِ الْجُنُثِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي أُلْقِيَتْ فِيهَا لِأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ كَفًّا لِنُتْفِ بِهِ، وَلَا مَوْضِعًا مِنَ الْأَرْضِ لِثَوَارِي فِيهِ.

تحوّل الناس بعد أن قَلَّتِ الجواميس إلى أكل الدّواب، أكلوا في البداية الخيول، كان لدى بعضهم فتوى صادرة من مجلس الإفتاء بجواز أكلها، وإذا لم تكن الحال التي نحن فيها تدعو إلى ذلك فأَيّ حَالٍ سِوَاهَا؟ عُقِرَتِ الْقَوَائِمُ، وَدُبِحَتِ الْأَعْنَاقُ، وَشَخِبَتِ الدِّمَاءُ، وَاجْتَمَعَ عَلَى الْحِصَانِ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةِ تَنَاهَبُوا لِحَمِّهِ فِي لِحْظَاتٍ، كَانَ الْحِصَانُ قَدْ سَرَقَهُ أَحَدُهُمْ مِنْ إِحْدَى الْإِصْطِبَلَاتِ الْخَاصَّةِ. لَمْ يَكُنْ سَهْلًا سَرَقَةُ حِصَانٍ، لَكِنَّ الْجُوعَ يُسَهِّلُ كُلَّ مَهْمَةٍ، وَمَحَاوِلَةُ الْبِقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فِي طُوفَانِ الْمَوْتِ يُدَلِّلُ كُلَّ عَسِيرٍ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ يُحَلِّلُ كُلَّ حَرَامٍ!

في المُنشأة كان يأتي ذوو المرضى أحيانًا يسألون عن آباءهم: «هل ماتوا...؟ هل هم أحياء...؟ إذا ماتوا فأين دُفِنُوا...؟» قلتُ لأحدهم: «لا نعرف عنهم شيئًا، أمامك خياران: أن تنتظر حتى تنكشف هذه العُمة، أو تبحث بنفسك». ردّ: «ومتى تنكشف؟». أجبتُه: «علمها عند ربّي». «أهي الساعة؟». «بل أدهى وأمر». «هل سأصاب إذا بحثتُ بنفسِي؟». «مُحْتَمَلٌ جَدًّا، هَذَا إِذَا لَمْ تَكُنْ مُصَابًا بِالْأَسَاسِ». حَدِّثْ فِي عُنُقِهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَلْتَفَّ لِأَنْظُرَ خَلْفَ أُذُنِهِ، ارْتَعَبْتُ، سَأَلْتُهُ: «مَنْ لَكَ هُنَا؟». «أبي». لماذا جئتَ تسأل عنه؟. «لكي نورِّع الميراث إذا تأكَّدنا من موته». أَرَدْتُ أَنْ أَصْفَعَهُ، أَنْ أَصْبِقَ فِي وَجْهِهِ، وَلَكِنِّي تَرَاوَعْتُ وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي: «الموتُ الأسودُ يُعيدُ تشكيل النَّاسِ؛ مَنْ يَدْرِي مَاذَا سَيَفْعَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا؟».

أعلن ديوان مصر منذ يومين، عن وفاة عشرة آلاف بالطاعون، كان الرِّقْمُ سَيَكُونُ مُرْعِبًا لَوْ كَانَ عَشْرُ هَذَا الرِّقْمِ وَأَعْلَنَ قَبْلَ شَهْرَيْنِ فِي الْبِدَايَاتِ، النَّاسُ الْآنَ تَسْمَعُ بِالْأَرْقَامِ كَأَنَّهَا تَسْمَعُ بِخَبَرِ خُرُوجِ السُّلْطَانِ إِلَى الصَّيْدِ، لَمْ تَعُدْ تَهْتَمُ كَثِيرًا، الْأَنْكِي أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَسْأَلْ عَمَّنْ مَاتَ مِنْ أَقَارِبِهَا لَكِي تَتَّبِعَ جَنَازَتَهُ، بَلْ إِنَّ الْجُنُثَ صَارَتْ تَتَفَسَّخُ وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ لِيَسْأَلَ عَنْهَا، وَهَذَا بَرَزَتْ أَكْبَرُ مُشْكَلَةٍ صَنَعَهَا الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ لَنَا، لَقَدْ صَارَتْ الْحَاجَّةُ مُلْحَةً جَدًّا لِلْبَحْثِ عَنِ حَقَارِي الْقُبُورِ، وَبَدَتْ هَذِهِ الْمِهْنَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي نَعِيشُهُ الْيَوْمَ أَهَمُّ مِنْ مِهْنَةِ الطَّبِيبِ، وَإِنَّ النَّاسَ لَنُجِّلَ حَقَارَ الْقُبُورِ أَكْثَرَ مِمَّا نُجِّلُ الْمَلِكَ نَفْسَهُ!!

صارت القطط هدفًا؛ رأيتهم يركضون خلفها في الشوارع. القطط تستطيع الإفلات، لا يمكن لمطعمون أن يلحق بها، لكنّ المطاعين اخترعوا طريقةً لصيدها، يبحثون عن فأرٍ ميتٍ ليُجعله طعمًا لها، لكنّ الفئران فُقدت هي الأخرى، لقد أكلت جميعها، وصارت في بطون الجوعى. لا بُدَّ مِنْ حُطَّةٍ أُخْرَى، صَارَ ثَلَاثَةٌ يَتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ، أَحَدُهُمْ يَصْعَدُ فَوْقَ الْأَسْطَحِ، لِيَرَى الْمَشْهَدَ مِنْ فَوْقِ كَامِلًا، وَيَبْقَى رِبَّمَا سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يَتَرَبَّصُ بِقِطَّةٍ تَمُرُّ فِي الشَّوَارِعِ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اثْنَانِ عَلَى قَوَارِعِ

الطَّرق ينتظرون إشارته، إذا لآخ خيال قِطَّة يُسرِع الذي فوق الأسطح إلى صاحبيّه، يُشير لهم نحو الشارع الذي ظهرت فيه، على أحدهما أن يركض خلفها ليدفعها باتجاه صاحبه الآخر الذي يكون كامناً لها وهي هاربة من صاحبه الأول خلف جدار بيتٍ مُتوجّهة إليه، يُطلّ هذا الثّاني فقط من الزاوية بطرف رأسه، وينظر بإحدى عينيه على القِطَّة الهاربة من الأوّل إليه، ويتحيّن اللحظة التي ستمرّ بها من عنده، ويكتم أنفاسه وهي تقتربُ بسرعة، وفي لحظة الصّفر؛ لحظة تقاطعها مع زاويته؛ يرمي نفسه فوقها ويحضنها بين ذراعيه، ويتدحرج على الأرض جرّاء سرعتها وقفزته، وهو يشدّ عليها وسط مؤانها كي لا تهرب، ثمّ يصيح صيحة ابتهاج كبيرة، ويجتمع الثّلاثة على الغنيمة الكبيرة، يذبحون القِطَّة، يُصقّون دماها، ويسلخون جلدها، وينزعون أحشاءها، ثمّ يقيمون عليها وليمة شهية، يشؤونها، ويأكلونها بتلذذ!

انتقل أمرُ صيد القِطط إلى كلّ من في مصر، هنا في المنشأة رأيتهم كذلك يركضون خلفها، ويُعدّون لها الكمان والفأخ، وإذا ظفروا ببعضها، أكلوها نيئة دون طبخ، ولقد عاش من كان يأكل القِطط في المنشأة شهراً أو اثنتين إضافيين قبل أن يفتكّ بهم الموت الأسود من جديد، وإذا كان أكل القِطط يُوجّل الموت شهرين فستقرض القِطط بمصر في أقلّ من شهرين.

طبّقنا فكرة عرّض أسماء المُتوفّين في البيمارستانات بعد التّشاور مع الأطباء، اخترنا طبيباً نضع بين يديه أسماء الموتى كاملةً لكي نقوم بالإحصاء، إن مصر تموت دون أن نعرف أسماء من ماتوا، ثمّ وكلّنا به نساءً تُملئ عليه تلك الأسماء.

اقترحنا أن نضع القوائم على سور الباب الرّئيس في البيمارستان، السور يمتدّ مسافةً طويلةً، يُمكننا أن نضع عليه القوائم حتّى ولو كثرت، ثمّ إنّه يُبقي المُراجعين الذين يعرفون أسماء ذويهم الرّاحلين بعيداً عن الدّخول إلى البيمارستان والاختلاط بالمطعنين، وبذلك يُقلّل نسبة العدوى.

كان النّسّاخ يعمل طوال اليوم، لقد كنتُ إلى جانبه في اليوم الأوّل بعد تنفيذ الفكرة، يبدو أنّها كانت فكرةً مُتعبَةً بالفعل، لأنّه عمل على كتابة الأسماء في القوائم الجديّة بخطّ واضح كلّ الوقت، وكانت الأسماء تأتي تباغاً في كلّ لحظة، حتّى خيل لي أنّ كلّ الآلاف التي في البيمارستان قد ماتت اليوم. وذلك أمرٌ عَجَبٌ، كان الموتُ اسماً، حين ينزل هذا الاسم في الرّق تكون الروح قد ارتفعت في السّماء، كان على ذوي الميّت الذين يقرؤون اسم ابنهم أو أخيهم أو أمهم الميّتة أن يأتوا ليستلموا الجُثّة، ويحثّوا لهم عن حفار قبور، إذ إنّ حفاري القبور الذين تستخدمهم الدّولة لم يعودوا يكفون لحفر قبور بضع مئآت، لقد كان بعض هؤلاء الحفارين يواصل النّهار بالليل، وهو يُعمل فأسه في الأرض، لكي يجد الجسد الميّت راحته الأبدية في تلك الحفرة!

يُمكنك إذا وقفت مع الواقفين من المُستفهمين هنا، أن ترى تلك المئآت من النّاس الوالهة التي تنظر بعيونٍ موصوفة إلى القوائم، كان هناك حرسٌ مُوكّلون بمنع أيّ من هؤلاء من الدّخول إلى البيمارسان والبقاء خلف السور الخارجيّ ما لم يكن يحمل إثباتاً بأنّ أحد أقاربه قد تُوفّي في الدّاخل... وكان على من يقرأ اسم قريبه في قائمة الموتى أن يكتري عربةً لنقل الجُثمان، وحقّاراً من حفاري القبور، وبعد أن يتأكّد الحارس الذي على الباب من أنّه اكتري هذين الأمرين، يسمح له بالدخول من أجل استلام الجُثّة، أمّا من لم يستطع ذلك فكان عليه أن يعودَ غداً أو بعد غدٍ وقد استطاع تدبّر أمره بالعربة والحقّار. شريف ومارية كانا يقفان على البوابة يحملان في عربتيهما كلّ من لا يستطيع دفع أجره العربية، ويتركان له أمر تدبّر الحفّار، بعضهم كان شاباً يُمكن أن يحفر قبر أبيه أو أمّه بيده، فكان يمضي مع مارية أو شريف بالجُثّة وهو يرى أنّ الدّنيا قد جيزت له بحذافيرها لأنّه تمكّن من ذلك. آخرون كانوا لا يعودون إلّا بعد أسبوع أو اثنين، حينها تكون الجُثّة قد تعفّنت، الجُثث التي يمرّ عليها في غرفة التبريد أكثر من ثلاثة أيّام كُنّا نضعها في عربةٍ كبيرةٍ يجرها أربعة أحصنة، ويذهب بها إلى مكانٍ قريب من الرّوضة على النّيل، وتكون هناك قوارب تنتظر لكي تأخذ الجُثث، وتسير بها إلى منتصف النّيل ثمّ تلقّوها في الماء جُثّةً جُثّةً، يُدلى الرأس أولاً في الماء حتّى يكون مركزٌ يُقلّ لجذب الجسد، ثمّ تُدفع رجلاها من

الخلف بسهولة، فتغوص في الماء تاركَةً خلفها دوائر تمتدّ إلى المُطلق من الحُزن والأسى... أعرِف أنّ هذا العمل من الفُطاعة بحيث لا يُمكن أن يكون مقبولاً، ولكنّه في زمن الطّاعون لم يكن منه مناص، بل إنّ دائرة الفتوى لم ترَ به بأساً إنّ لم يكن هناك وسيلةٌ سواه. كان ديوان القُضاء ومجلس الإفتاء في تلك الفترة يُصدر كلّ يوم فتوى بسبب ما يستجدّ من ظروفٍ وحالاتٍ في تلك الجائحة!

بعضُ القادمين من نواحٍ بعيدةٍ إلى السّور ليقرؤوا أسماء الموتى، كانوا يريدون أن يتأكّدوا فقط من أنّهم تخلّصوا من هذا العيب الذي كان يُثقلهم، وينخر ضمائرهم في مسؤوليتهم عن ذوبهم، لم يكن ضميرُهم محتاجاً من أجل أن يرتاح إلا إلى اسم يتأكّدون من أنّهم قرؤوه في قائمة الموتى على ذلك السور الكئيب!

خرجتُ إلى ساحة البيمارستان، رائحة الموت في كلّ مكان، لا يوجد أشدّ منها وطأةً على القلب، ولا أشدّ منها سواداً على الرّوح، شيءٌ ثقيلٌ جدّاً يسقط قلبي في هذه الرّائحة التي تنفلك إلى قاع الأرض في هبةٍ ريح واحدة... رائحة العقاقير هي الأخرى مُؤذبة، تختلطُ بها روائح الطّعام، وروائح العرق الذي يفوح من أجساد المرضى والقادمين من أمكنةٍ بعيدةٍ لأجلهم، مع روائح الدُخان، مع روائح صيحات الغضب أو الوجع أو التّجّع التي لا تتوقّف من المطعونين أو مَنْ يعودونهم، كلّ هذه الرّوائح لم تتغلّب عليها روائح الورد المزروعة في بستان البيمارستان، رائحة ميّتٍ مضى على موته يومان أو ثلاثة دون أن يأتي أحدٌ ليستلم جثته تتغلّب بالتّأكيد على كلّ روائح الورد في بساتين العالم كلّهُ... نعم؛ خرجتُ إلى السّاحة لأحاول أن أتملّص من هذه الرّوائح بعيداً عن البشر، صار البشر غُرباء، مُضجّرين على نحوٍ لا

يُطاق، لولا إنسانيّة الأطباء ما احتملهم أحدٌ، ولولا مخافة الله ما أقمّت بمصرَ بعدَ الجوائح يوماً، ولكنّه القلب لا يقدر على أن يتغيّر، مع أنّ الطّاعون قلبٌ كثيرينَ وغيرها... السّاحة أقلّ ازديحاً بالنّاس من تلك الغرف والأروقة، المكان الخالي من الناس خيرٌ من المُمتلئ بهم، إنّ النّاس لا يحضرون إلا ومعهم شياطينهم وأمراضهم وحكاياتهم الغريبة؛ ليست لديّ القدرة لأواجه كلّ هذه الشّياطين ولا تلك الحكايات المُملّة دفعةً واحدة!!

وإفاني شريف وقد انتصف اللّيل في ساحة الورد، كان شريف يعمل كلّ الوقت ولا ينام إلا قليلاً، كانت عربته تمتلئ بالخارجين من البيمارستان إلى القبور، أو القادمين إليه من المُصابين، في اللّيل يحمل الخارجين، وفي النّهار يطوف في شوارع القاهرة، وفي أحيانها، كلّ مرّة يذهب إلى حيّ مُختلف، ويُنادي في النّاس: «إذا كان لديك مريضٌ فأعلن عن نفسك بالوقوف على الشّرفة». وكان إذا رأى أحدهم يطلّع إلى الشّرفة، أو يُطلّ برأسه من خلف النّافذة، يوقِف عربته، وينزل طارفاً الأبواب، ويدخل العتبات، ويصعد الأدرج، ويحمل المُصابين، وأحياناً الموتى بين ذراعيه، لقد كان مَفتول العضلات، أسودّ البشرة، أزرق العيّنين، جَهْمًا، طوّالاً، كأنّه جنّي، وينزل بالمريض ليضعه في عربته برفق، ويمضي باجئاً عن آخريّن حتّى تمتلئ، ويقودها إلى البيمارستان أو إلى منشأة القاضي الفاضل أو إلى مصحّات قريبةٍ أخرى، ويُسلّمها إلى الأطباء... لم يتوقّف يوماً واحداً طوال خمسة أشهر حتّى الآن، ولم يَشكُ مرّةً واحدةً، كان دائم البسمة، كثير المرح، ولكنّه رقيق القلب، كانت دموعه تنسكب على وجنتيه كأنّها حبات لؤلؤٍ وهو يحمل المطعونين بين يديه، وكان لا يُزى إلا مُسرّعاً، يمشي بخطواتٍ واسعة، وهو ينثر ذراعيه الصّخمتين عن يمينه ويساره... واليوم جاء وقد شَحَب لونه، ففزع من أمره، هل يُمكن أن يكون قد أصيب هو الآخر؟ أجبث عن تساؤلي: ولم لا؟ لقد نقل الآف المُصابين أفلاً يُمكن أن تكون العدوى قد انتقلت من أحدهم إليه؟ إنّنا لا نُصدّق أنّ مَنْ نحبّهم قد يمرضون؟ أو أنّ مَنْ نعدّهم أبطالاً قد ينهزمون! لقد كان ضعيفاً على غير عادته في تلك اللّيلة، وكانت ذراعاها مُسبلتين على جانبيه بخلاف عادته في تحريكهما بقوةٍ كلّما مشى، ولقد رأيتُ انحناءةً في آخر ظهره، كأنّه قد تقوس من هَرَمٍ وهو لا يزال شاباً... فلما جلس إلى جانبي، نظرتُ في عينيّه الرّقاوين ووجهه الأسود، فبدأ ديك الجنّ على الحقيقة، لكنّ عينيّه قد اختلطت البياضُ فيهما بحُمرة، فسألته: «هل أنت مريض؟». ردّ بهزّ رأسه: «كلا». «وعيناك؟». «متعبٌ قليلاً فقط، أنا بخير». «ولماذا لا تُحرّك ذراعيك كما كنتَ تحركها من قبل؟». فهمّ إشارتي، ردّ: «تقصد أنّ شيئاً ما تحت إبطي يمنعني من ذلك؟». رمشتُ بعينيّ أنّ نعم، فضحك، وألقى نظرته بعيداً: «لا، أنا بخير»

تحدَّثنا في تلك اللَّيلة عن القاهرة، عن مصر، عن البلاد كلِّها، كيف كانت وكيف أصبحت، كان لا يزال يتذكَّر سيِّده القاضي الفاضل، وتدمع عيناه كلِّما قَصَّ شيئاً من قِصصه، نَبَّشنا ذكرياتٍ كثيرةً، كلُّها سكبَتْ دُموعنا، الذِّكريات أنانيَّة في استنثارها بأحزاننا، هل كانت هذه الذِّكريات وتلك القصص هي سبب دموعنا بالفعل؟! أم أننا نبكي على ما نرى؟! نبكي على هؤلاء الرّاحلين لا يجدون مأوى ولا طعاماً، ولا حتّى كفناً أو حفرةً في الأرض تووِّبهم، نبكي على هؤلاء الذين تبرأ منهم أقرب النَّاس إليهم، وجفاهم أعزُّ أهلهم... لم يكن لنا أنْ نلومَ أحداً، كانت المصائب أكبر من أنْ تجعلنا نُلقي باللائمة على أحدٍ، كُنَّا نبكي على ما فعلته المِحَن بالنَّاس، على ما فعله مَنْ استغلَّ هذه الأوبئة فأكل بها وشرب، قال لي شريف: «لقد رأيتُ من سائقي العرَبات المُستأجرين مَنْ كان يُعْتِي والجُنث المُلَطَّخة بالصِّديد مُلقاةً بإهمال في الصَّنَدوق الخلفي، ورأيتهُم يضحكون بصوتٍ عالٍ، ويلعنون كلَّ شيء، ويسبِّون سباباً بذيئاً، ويُدخِّنون الحشيش، والموت في العربة يقبع في جسد كلِّ جُنَّةٍ محمولةٍ في الخلف!!

كانتُ صفحة السَّماء في تلك اللَّيلة صافيةً، نجومٌ تلمع على صفيحٍ داكن، وقرمٌ يزوب على قبة سوداء، وليلاً غائراً، يغزل الحكايا كما تغزل المرأة ثوب الصَّوف بكبة مُتدرجَةٍ من خيوط لا تنتهي!!

” (١٠)

هل تخافين الموت؟

إنها مدينة الموت؛ يملأ كلَّ شيءٍ فيها، بأشكالٍ مُتعدِّدة، لكنّه ليس مرئياً، وليس سهلاً، ولا يمكن قتاله، أو حتّى طلب الرّحمة منه... لو كان الموت رجلاً لتصدّى له ألف فارس؛ كلٌّ واحدٍ يريدُ أنْ يكونَ صاحب السِّيق في قتله، ولو كان كبشاً أمْلح في الدُّنيا لتصدّى له ألف جزار؛ كلٌّ واحدٍ يريدُ أنْ يكونَ صاحب السِّيق في جَزِّ رَقَبته، ولكنّه لا يرى، كيف تُقاتل ما لا يرى؟ كيف تدفعه عنك؟ كيف تحمي نفسك منه؟ إنّه يمشي بلا أرجل، ويطير بلا أجنحة، ويدخل دون استئذان، ويحملُ حربةً لا تُخطئ هدفها؛ لا زماناً ولا مكاناً!! مَنْ له قدرةٌ على مجابهة شيءٍ مُرعبٍ مثل هذا؟! قال أحدهم: «هَبْ أنني لا أستطيع إيقاف الموت، ولكن أألا يُمكنني أنْ أختار الطَّريقة التي أموت بها؟!».

والطَّاعون يستدعي الحُمى دائماً، والحُمى تستدعي الهدَّيان، والهدَّيان يكشف عن عجائب وغرائب لولا هذا الموت الأسود ما كانت لتكون. كان السَّمان ذا العين الحولاء، قد وفدَ إلى هنا؛ إلى مُنشأة القاضي الفاضل منذُ زمنٍ، ماتتُ أسرته كلُّها؛ زوجُه العاقر وأبواه وإخوته، بيئتهُ نُهب، ودُكانه سُرق منذُ الجائحة الأولى، ولم يجدْ من أقربائه مَنْ يُعيِّله، فكلَّ واحدٍ مشغولٌ بمُصيبته، فأتى به (شريف) إلى المنشأة، كان يعرفه جيِّداً، وحينَ حَمَلَه بالعرَبة حَمَله وحده، ولم يضع معه في الصَّنَدوق أحداً إكراماً لمعرفته به، لكنّه تمنى لو أنّه لم يأتِ إلى هذه المنشأة، كان قد فقد كثيراً من وزنه، كرشه تهذلتُ، وحَدَّاه المُمْتلئان ضَمراً فكشفا عن وجهٍ صفيق، وعيناه مع ضمور لحم وجهه برزتا، وازداد حَوْلُه وبياضُ عينيّه، وكان ينام على الأرض مع ثلاثين في غرفةٍ واحدةٍ بائساً وحيداً، زرتهُ أكثر من مرّة، وسقيتهُ بعض المُهدئات، وكنتُ أتية بطعامٍ من البيمارستان، لكن ذلك مع الجوع والطَّاعون لم يُؤثر في جسده، هذا غير أن الأمر يحتاج إلى نظامٍ غذائيٍّ بشكلٍ دوريٍّ في هذه المنشأة حتّى تكون فرصة الشفاء كبيرة، أمّا مع الهَبات والهبات فالأمر لا يعدو كونه مُجاملة لطيفة، طلبتُ مني مرّةً أنْ أجلسَ معه قليلاً. جلستُ. كان يبدو أنّه لن يعيشَ طويلاً، يعرفُ المرء ذلك، حتّى ولو لم يكن مُصاباً بأيِّ مرضٍ، سألتني فيما إذا كنتُ قد غضبتُ منه قبل ما يقربُ من أربع سنواتٍ عندما لمَح لي بأنني أنامُ مع دُرِّيَّة، رددتُ: «لا، لستُ غاضباً». وسأل: «هل تُسامحني؟». «أنا سامحتُك من يومها، عليك أنْ تسأل دُرِّيَّة». «دُرِّيَّة شيطانة يا حكيم، أنا لا أريدُ منها أنْ تُسامحني، أمّا أنت، فشيءٌ مُختلف». «الرَّمن تغيّر يا صديقي». «إنّها ما تزال إبليسة، أنا أُحدِّرك منها اليوم أكثر

مِمَّا حَدَّرْتُكَ مِنْهَا قَبْلَ أَرْبَعِ سِنَوَاتٍ... أَنَا سَامُوتُ، لَكِنِّي تَمَنِّيْتُ أَنْ أَرَى لِي ابْنًا يَكْبُرُ أَمَامِي، وَقَدْ صَارَ طَبِيبًا مِثْلَكَ.»
«الْأَطْبَاءُ الْيَوْمَ لَا يُحْسَدُونَ عَلَى وِطَانِهِمْ يَا صَدِيقِي.» «يُحْسَدُونَ عَلَى قُلُوبِهِمْ يَا حَكِيمَ، انظُر... أَنْتَ أَمَلُ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْيَانَسِينَ.» أَعْطَيْتُهُ جُرْعَةً مُهَدَّئَةً، وَأَرَدْتُ أَنْ أَمْضِي، سَأَلَنِي: «إِذَا مِتُّ، فَهَلْ سَتَجِدُونَ لِي قَبْرًا لِأَدْفِنَ فِيهِ؟». قُلْتُ: «إِنَّهُ صَعْبٌ يَا صَدِيقِي، الْمُلُوكُ الْيَوْمَ لَا يَجِدُونَ هَذِهِ الْحَفْرَةَ، وَلَكِنْ لَصُحْبَتِنَا الْقَدِيمَةَ بَكَ سَأَجْعَلُ شَرِيفَ يَتَوَلَّى الْأَمْرَ.» بَكَى، نَزَلَتْ دُمُوعُهُ: «أَوْووه شَرِيف... هُوَ الْآخِرُ قَلْبُهُ أَبْيَضٌ مِثْلَ اللَّدَى، كَمْ اسْتَهْزَأْتُ بِهِ، وَتَنَدَّرْتُ عَلَى لَوْنِهِ الْأَسْوَدَ.» نَظَرْتُ إِلَيْهِ، قُلْتُ: «عَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَ مُسَامَحَتَهُ؟». «عِنْدَمَا يَحْمِلُنِي بَيْنَ يَدَيْهِ جُنَّةً هَامِدَةً، سَيَسَامِحُنِي بِالتَّأَكِيدِ، أَنْتَ وَهُوَ، أَمَّا لَكُمْ لَا يَحْمِلُونَ إِلَّا قُلُوبًا نَفِيَّةً، لَوْ كَانَ الْعَالَمُ فِيهِ مِثْلُ هَذِهِ الْقُلُوبِ، لَمَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْغَضْبَةَ الْكَبِيرَةَ.»

انتشر الوُعَاظُ الْمُتَطَوِّعُونَ يَجُوسُونَ الْعُرْفَ فِي الْبِيْمَارِسْتَانَاتِ: «أَكْثَرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... إِنَّ الْمَوْتَ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ... لَنْ تَكُنْ قَوْلَتُكُمْ الْآخِرَةَ... إِنَّهَا ضَمَانَةٌ الدَّخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ... اطْلُبُوا رَحْمَتَهُ... لَنْ يَرْفَعَ عَنَّا هَذَا الْبِلَاءَ أَحَدٌ سِوَاهُ... إِنَّهُ يَرَى، وَإِنَّهُ يَسْمَعُ، وَإِنَّهُ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ...». الصَّرَخَاتُ الَّتِي تَشَقُّ سَكُونَ كُلَّ شَيْءٍ لَا تَنْتَهِي... الْغُرُغُرَاتُ... التَّأَوُّهَاتُ... التَّوَسُّلَاتُ... الضَّرَاعَاتُ... الْهَدْيَانَاتُ... الْكَطُّ عَلَى الْأَسْنَانِ... الْعَضُّ عَلَى الْمَلَأَاتِ... ضَرْبُ الرَّؤُوسِ فِي الْجُدْرَانِ... التَّلْوِيحُ فِي الْهَوَاءِ... التَّارِجِحُ فِي الْخَطُوطِ... الْاسْتِسْلَامُ لِكُلِّ شَيْءٍ... الْبُكَاءُ بِصَوْتٍ مَفْجُوعٍ... الْحَفْرُ فِي التُّرَابِ... النَّعْثُ عَلَى الرَّؤُوسِ... التَّحَسُّرَاتُ... وَاحْسِرَاتُهُ... وَاحْسِرَاتُهُ... لَمْ تَتَوَقَّفْ لِحِظَةٍ!!

وَسَأَلْتُ مَارِيَّةَ: «لِمَ تُعَرِّضِينَ نَفْسَكَ لِلْخَطَرِ؟ إِنَّ نَقْلَ الْمَوْتَى سَيَجْعَلُ النَّاقِلَ مَنقُولًا ذَاتَ يَوْمٍ.» ابْتَسَمْتُ مِنْ خَلْفِ عَيْنَيْهَا الْجَمِيلَتَيْنِ: «تُخَوِّفُنِي يَا حَكِيمَ؟». «أَنَا فَقَطْ أُرِيدُ أَنْ أَفْهَمَ الدَّافِعَ إِلَى ذَلِكَ؟.»

«لَقَدْ رَأَيْتُ شَرًّا كَثِيرًا، مِنْذُ أَنْ كُنْتُ طِفْلَةً فِي الرَّابِعَةِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ الْكُونَ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ الشَّرِّ، عِنْدَمَا كَبُرْتُ قَلِيلًا اتَّسَعَتْ لَدَيَّ الْمَعْرِفَةُ، فَاتَّسَعَتْ زَاوِيَةُ النَّظَرِ، فَاتَّسَعَتْ دَائِرَةُ الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ مَعْدُومَةً قَبْلَ ذَلِكَ... أَنْتَ عَلَّمْتَنِي أَنَّ الْخَيْرَ يُمَكِّنُ أَنْ يَوْجَدَ فِي أَسْوَطِ الْأَشْيَاءِ، حَتَّى فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ الَّتِي نَظَرْتُ بِهَا إِلَيَّ يَوْمَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ دُورِ الْبَغَايَا، وَأَخَذْتَنِي إِلَى بَيْتِكَ... تَعَامَلْتُ... كَلِمَاتُكَ... كَانَتْ تَزِيدُ مَسَاحَةَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْرَفُهُ فِي الْعَالَمِ... يَوْمَهَا قَرَّرْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا مُسَاهِمَةً فِي زِيَادَةِ تِلْكَ الْمَسَاحَةِ؛ الْمَشْكَلَةُ يَا حَكِيمَ لَيْسَ فِي وَجُودِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ، فَهُمَا مَوْجُودَانِ، لَكِنْ الْمَشْكَلَةُ فِي قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ الْعَجِيبَةِ عَلَى زِيَادَةِ وَجُودِ أَحَدِهِمَا عَلَى حِسَابِ الْآخَرِ، مَعَ أَنَّ الْخَيْرَ أَمْرٌ هَيِّنٌ لَوْ أَرَادَ النَّاسُ...». ابْتَسَمْتُ: «لَقَدْ أَصْبَحْتُ فِيلَسُوفَةً يَا مَارِيَّةَ؟». «صُحْبَتُكَ يَا سَيِّدِي... ثُمَّ هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، إِنَّهُ يَجْعَلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنَّا فِيلَسُوفًا، إِنَّنَا إِذْ نَتَسَاوَى أَمَامَ الْمَوْتِ تَصْغُرُ فِي عَيُونِنَا كُلِّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كُنَّا نَرَاهَا عَظِيمَةً، الْمَوْتُ يَضَعُكَ أَمَامَ نَفْسِكَ، أَمَامَ حَقِيقَةِ فَاعِلِيَّتِكَ، إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَقْصِمَ الْجَبَّارِينَ، وَيَشَقَّ بِالْقُدْرَةِ نَفْسَهَا حَنَاجِرَ الصَّغَارِ النَّاعِغِينَ أَسْمَاءَ أُمَّهَاتِهِمْ...». «هَلْ تَخَافِينَ الْمَوْتَ؟». «لَوْ كُنْتُ أَخَافُهُ لَمَا حَمَلْتُهُ مَعِي فِي عَرَبَتِي كُلِّ يَوْمٍ... الْمَوْتُ لَيْسَ وَحْشًا... لَيْسَ عَدُوًّا... قَدْ يَضَعُ نَهَائَةً صَادِمَةً وَمُفَاجِئَةً لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَمَلِ وَالطَّمُوحَاتِ، لَكِنَّهُ عَادِلٌ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَضَعُ فِيهِ النَّهَائِيَّاتِ نَفْسَهَا بِالنَّسْبَةِ لِلْأَوْجَاعِ وَالْخَسَارَاتِ... لَعَلَّ الْعَدَالَةَ الْأَوْضَحَ، وَالْأَشَدَّ يَقِينًا هِيَ عَدَالَةُ الْمَوْتِ يَا سَيِّدِي.» صَمْتُ، كُنْتُ أَبْكِ مِنَ الدَّخَالِ إِنَّهَا فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ تَقْرِيبًا، فَهَمَّتِ الْحَيَاةُ الَّتِي اسْتَعْرِقْتَنِي فَهَمُّهَا أَرْبَعِينَ عَامًا، لَكِنَّهَا مَا زَالَتْ صَغِيرَةً، أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَارَسَ الْمَوْتُ مَعَهَا عَدَالَتَهُ فَيُقْبِعُهَا حَتَّى تَفْرَحَ بِرَفِيقٍ دَرَبٍ، حَتَّى تَرَى الْوَجْهَ الْأَجْمَلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، حَتَّى تَعْتَرَّ عَلَى نَفْسِهَا بَعْدَ أَنْ عَانَتْ مَا عَانَتْ. «بِمَ تُفَكِّرُ يَا سَيِّدِي؟». سَأَلْتَنِي وَقَدْ رَأَتْ شَرُودِي. أَجَبْتُهَا: «بِكِ؟». «يَا لَسَعَادَتِي يَا سَيِّدِي، هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ مَوْضِعَ تَفْكِيرٍ فِي خَاطِرِ أَحَدِهِمْ، وَمَنْ؟ سَيِّدِي عَبْدُ اللَّطِيفِ... إِنَّ هَذَا لَشَرَفٌ كَبِيرٌ يَا سَيِّدِي.» بَقِيْتُ صَامِتًا، وَقَفْتُ، كَأَنَّمَا وَقَفَ الْحَبُّ كُلُّهُ، وَالْجَمَالَ، وَالرَّقَّةَ، وَالْأَنْوَتَةَ، وَالْجَوَانِبَ السَّعِيدَةَ الْمُبْهَجَةَ الَّتِي لَا تَجُودُ بِهَا الْأَوْقَاتُ أَبَدًا، قَالَتْ: «عَلَيَّ أَنْ أُوَاصِلَ عَمَلِي فِي الْبَحْثِ عَنِ...» وَتَوَقَّفْتُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ رِبْقَهَا، وَتُكْمَلَ: «مَوْتِي جُدُدٌ.»

فِي الْغُرْفَةِ الَّتِي تَمْتَلِي بِالْيَانَسِينَ رَاحُوا يَضْرِبُونَهُ، أَلْبَهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ بَعْدَ أَنْ أَلْجَأْتُهُ الْحُمَى إِلَى هَدْيَانٍ مُتَوَاصِلٍ، كَانَ يَصِيحُ: «إِنَّهُ الْأَعُورُ الدَّجَالُ... إِنَّهُ الْأَعُورُ الدَّجَالُ...». صَدَّقَهُ الْمَخْبُولُ الْأَوَّلُ، وَالثَّانِي، فَرَاحُوا يَضْرِبُونَهُ، وَلَمَّا اسْتَوْعَبَ الْآخَرُونَ الْأَمْرَ كَانُوا قَدْ بَدَّوْا يُصَدِّقُونَهُ هُمُ الْآخَرُونَ مِنْ أَنَّهُ الْأَعُورُ الدَّجَالُ، وَانْهَالُوا عَلَيْهِ بِالضَّرْبِ، وَهُوَ يَحَاوِلُ أَنْ يَنْقِي

الضربات بوضع أذرعها الضامرة فوق رأسه، ويقول: «أنا جازكم... أنا ناجي السّمان... والله أنا ناجي السّمان...». لكنّ الطّاعون والحُمى يُعْميان، كان اثنان قد خرجا خارج الغرفة، وراحا يبحثان عن جذوع صلبة أو حجارة أو قُضبانٍ من الحديد، وعادوا وهم يحملون شيئًا منها، وتورّعوها، وراحوا يضربونه من جديد، كان يصيح من الألم، وأحدهم يقول: «انظر إلى عينه الحولاء كأنها عنبَةٌ طافية». والآخر يُؤمّن على قولته: «صحيح... إنّه هو». والثالث يسأل وهو مُنهمكٌ في ضربه: «انظروا إلى عينيه، هل تجدون بينهما كلمة كافر مكتوبة؟». رابعٌ يجيب دون أن ينظر: «بلى، إنّه مكتوبٌ بينَ عينيه كافر». والخامس مُهتاجًا، ومُستجمعًا ما استطاع من فُواه الواهنة: «إدًا علينا أن نُخلص العالم من شروره». والسادس مبتهجًا: «لن تكون كرامة القضاء على الأعرور الدّجال إلّا لنا، لا تتركوه من أيديكم حتّى يموت».

لم تعدُ لديه القدرة على المقاومة، استسلم، كان الرّيد يسيل من زوايا فمه، ابتسم: «أستحقّ هذا، فليكنّ يا موت، لتأتِ بحريتكِ أيّها الطّاعون، ولتُنهِ هذه الحياة البائسة، لتقطع ذلك الخيط يا سيّدي ويا مولاي، ليكنّ هذا العذاب في هذه اللّحظات من أجل التّطهير، التّطهير من تلك الخطايا والدنوب التي ارتكبتها وأنا أخوضُ في أعراض النّاس... لتكنّ مشيتك يا ربّ... ليأتِ قدرك... وليصحبني الموت مع هذه الأليّة إلى راحتي الأبدية». “

” القسم السادس

لُحومُ البَشَرِ على المائدة



دَهَنَتِي اللَّيَالِي بِالَّذِي لَوْ كَتَبْتُهُ

خَشِيْتُ عَلَى الْقِرطاسِ أَنْ يَتَضَرَّ مَا

فَصَرْتُ غَرِيبًا وَاعْتَدَى الْبَيْنُ قَاطِنًا

وَرَحْتُ وَحِيدًا وَاعْتَدَى الْحُزْنَ تَوَامًا

حُطُوبٌ تَمْنَى الْقَلْبُ لَوْ كَانَ عِنْدَهَا

لِسَانًا، فَأَدَى مَا بِهِ وَتَكَلَّمَ

ولم أن مثلَ الدهرِ أو عَظَّ لامرئٍ

وأكرمَ صنَعًا بالرجالِ والأما

وأكذبَ في يومٍ وأصدقَ في غدٍ

وأحسنَ أعراسًا وأقبَحَ مائتًا

“ (أبو بكر الخوارزمي) ”



” (١)

لو كنتَ مكاني يا حكيمَ لَبِعتَ أباك!!

ومررتُ ببيتٍ من بيوت تربة الشافعي، تاركًا خلفي درب الملوخيّة، لقد وَجَدْتُني أسيرُ إلى هذا الحيّ الأشدَّ فقرًا في القاهرة بدعوى أنني أريدُ أن أنقذَ المرضى الذين لا يجدون أجرَةَ عربيّةٍ يكترونها لمرةٍ واحدةٍ من أجل أن تنقلَ مرضاهم إلى أحد البيمارستانات، ولكنّ شيئًا ما في داخلي يقول: إنّما جئتَ إلى هذا الحيّ، من أجل مَنْ يسكنه، فكألكَ والمجنون تردّد:

وما حُبّ الدّيارِ شَعَفَنَ قلبي

ولكنّ حُبّ مَنْ سَكَنَ الدّيارا

فلا تخدع نفسك، فإنّك تستطيع أن تخدع كلّ أحدٍ غيرَها. ولا تكذب، فإنّ كذبَ الخاطرِ شيءٌ وصدقَ القلبِ شيءٌ آخر!!

كان معي سالم على العادة، تركنا (خليل) في المنشأة، نحن نتنقل بين البيمارستان والبيوت والمنشأة، نحاول مع الطاعون أن لا تغوص حربته في الأجساد عميقاً، أو نُطمئن الرّاحلين بأنّ السّماء التي سينتقلون إليها أرحب من الأرض، وأنّ عدالة الله في الأعالي سنُسنسهم ظلّم البشر.

دخلنا إلى بيتٍ مُتهالك، كان الأبُ مُمدّداً على السرير، زوجته تحت السرير على الأرض ميّته، قدّرت من النظرة الأولى أنّها ماتت قبل ثلاثة أيام، «علينا أن نُسارع بدفنها». قلت لسالم، زَم شفّتيه: «نحتاج إلى حقّار قبور». «ابحث عن أحدهم». «ليس سهلاً أن تجد مَنْ يفعل ذلك، ثمّ إنهم يطلبون أجرًا لا يُمكن تصديقه». «لا عليك من الأجر، سأتكفل به، تكفّل أنت بايجاد الحقّار». «الآن؟». «نعم، سأتولّى الأمور الأخرى هنا ريثما تعود».

وضعتُ الفُقازات في يديّ ولبستُ لِثامي، وحاولتُ أن أحملَ الجُثة، كانتُ مُتصلّبة، تبدو لوحًا خشبيًّا جامدًا، جهدتُ في أن أنقلها إلى غرفةٍ أخرى. كانت الغرفة الأخرى فارغةً تمامًا، ليس بها سرير، ولا فراش، ولا مناع، ولا أيّ شيء... فقط الفراغ. وضعتها هناك، وعدتُ إلى الرّجل. كانتُ عيناها تتوسان، ما زال حيا، غمرتني موجة فرح: «هل يُمكن أن ننقذ نفسًا؟». كان في الثّلاثين، مأسوفًا على شبابه، كدتُ أبكي. زوجته في مثل عمره أو أقلّ قليلاً، ماتت إلى جانبه، واضح أنّها لم تُغادره، وأنها آثرته بالسرير الوحيد الذي بقي لهما، الأمر لا يحتاج إلى تفسير كبير: «هذه المرأة قدّمت زوجها على نفسها». تساءلتُ: «نوعٌ من الوفاء؟». أجبتُ: «أين يوجد مثل هذا الوفاء؟ حين يصل الأمر إلى الموت لا يُمكن أن يكون وفاءً، مَنْ يُقدّم روحه من أجل الآخر؟». «فماذا يُمكن أن نُسمّيه؟». «هو نوعٌ من التّضحية؟». «ربّما. تضحية كهذه تحتاج إلى إيمان الأنبياء وطهارة القديسين وقلوب الأولياء».



اقتربتُ من الأب، تحسّستُ نبضه، ضعيفٌ جدًّا. أنشؤته بعض المنشطات، فتسارع نبضه، وتفصد عرقه، قمتُ إلى المطبخ، لم يكن فيه شيء هو الآخر، باستثناء بعض الصّحون الصّدئة والملاعق القديمة، يبدو أنّ أحدهم قد سرق ما فيه، بحثت عن طعام فلم أجد، أيّ شيء يُؤكل ولو كان حشيشًا، لكنني لم أجد، كنتُ أريدُ أن أصنع له شرابًا مُليّنًا... من المؤكّد أنّ معدته فارغة، وعليّ أن أليّنها قبل أن أعطيه شيئًا ليأكله ممّا معنا، أدرتُ الموقد، ليس هناك حطب كافٍ، ليس في البيت شيء!!

عدتُ إلى الرّجل، كنتُ قد تدبّرتُ أمر الشّراب، كان السرير الذي ينام عليه من الحديد، ليس في قوائمه أيّ غطاء أو شرف، لم يكن تحته إلا فراشٌ قد تعقّن، عليّ أن أحمله من أجل أن أقوم بتطهير الفراش قبل أن أعيده إليه. نظرتُ حولي فوجدتني وحيدًا، تمنيتُ للحظة من أنني لم أبعثُ (سالم) ليأتي بالحقّار، أو أنني أحرّته قليلاً ريثما نتمّ عملنا هنا. لكنّ الأمر على ما أنا عليه، وعليّ أن أكسب الوقت. حملته بين ذراعيّ، تأوه آهة خفيفة، فرحتُ! هل يُمكن أن يفرح المرء لسماعة آهة من رجلٍ مألوم؟ نعم؛ إذا كانتُ دليلًا على أنّه حيّ. الحياة أتمن من الآهات، ولذلك تُغتفر الثّانية من أجل الأولى. كان جسده ليّنًا نوعًا ما بخلاف زوجته، رأيتُ شفاهاه تتحرّك، لكنني لم أسمع ما فاه به، كان قد فتح عينيه، وراح ينظر فيّ كأنني هبطتُ عليه من السّماء، كانتا تُشعّان بفرح وطمأنينة مع أنّ الجسد كان يهوي إلى وادي الموت، كأنّ الموت تخفت وطأته إذا جاءك إلى جانبك مَنْ ينظر في عينيك كأنّ مَنْ كان هذا الناظر... مشيبتُ به وأنا أحمله إلى الغرفة الفارغة، مددته إلى جانب زوجته، ازدادتُ عيناها اتّساعًا، واغرورقتا حين رأتاها... مددته على ظهره بمسافة ذراع بينهما، رأيتُه يزحف إليها، ثمّ يميل على جانبه الأيمن ويحتضنها، وراح جسده يرتجّ... أردتُ أن أقول له: لا تفعل، إنك تُعجل بذلك موتك... لكنّ مَنْ يُقنع مُحبًّا بمقولة فارغة كهذه، ثمّ مَنْ قال لك إنّّه لا يُعجل بموته كي يلحق بها إلى عالمها الذي غادرتُ إليه قبل ثلاثة أيام! تركته يرتجّ وينتحب بما فيه من دموع أو قوّة، ثمّ أرحته

برفقٍ عنها، كانت ذراعاه مُمتسكتين بها لا تريدان تركها، برفقٍ مرّة ثانية أبعده، وتركتُ بينهما تلك المسافة الفاصلة، أعرِفُ أَنَّهُ مطعون، وأنّ العدوى قد انتقلت إليه، وأنّ الأمر في نهايته، ولكن أن أزيدَ أنا بوصفي طبيباً الأمر السيئ ليصبح أسوأ؛ فهذا ليس من أخلاقيات مهنتنا.

عدتُ إلى الغرفة التي فيها السرير، أخذتُ الفراش، خرجتُ به إلى الشارع، فرطتُ خيوطه، وأخرجتُ ما به من قطن، وعرضتُها للشمس بعد أن طرفتها طرقاتٍ قويّةً بالعصا، ثمّ عدتُ بالغطاء والملاءات، فغسلتها بما في البيت من ماء، وعرضتها للشمس والهواء لكي تجفّ بأسرع وقتٍ ممكن.

عدتُ إلى الأب، أو الزوج، كانت عيناه تُحدقان في السقف، ويمينه تمتد كجسرٍ إلى جسد زوجته، وهو غائبٌ عن المكان، حملته من جديد، وهمستُ في أذنيه: «هل تسمعني؟». ردّ بصوتٍ واضح وإن كان واهناً: «أسمعك وأعرفك». «تعرفني؟». «أنت الطبيب عبد اللطيف البغدادي، لقد كنت تشتري من دُكّاني بعض الأغراض عندما كنت تزور دريّة في تربة الشافعي». خفق قلبي، لا أدري هل خفق لأتّه نطق باسم دريّة أمامي، أم لتذكّر ذلك العهد البعيد الذي كان يُمكن أن يكون جميلاً؟ أم لأنني أخاف أن أفنّصح أمام مطعونٍ ينتظر الموت؟ لا أدري، غير أنني تماسكتُ، وسألته: «وهل تعرف دريّة؟». «أكثر منك يا حكيم، إنك لا تعرف منها شيئاً». وتعجبتُ من جديد، وهممتُ أن أسأله عنها، غير أنني أثرتُ الصمت، فمعرفة مزيدٍ من أسرارها كان دائماً يُشبه تلك الرّيح التي تهبّ على شُعلة الحبّ في قلبي فتحاول إطفاءها.

طرق (سالم) علينا الباب، ودخل، كان يبدو عليه التعب، قال: «لم أجد حَقَّاراً واحداً». تدمرتُ، وقلتُ بصوتٍ حانق: «تعال ساعدني في إطعامه». سألتني: «هل لديه طعام؟». «ليس لديه شيءٌ، نُطعمه ممّا أحضرناه من الليمارستان». جهّز سالم الطّعام، كُنّا قد أعدنا الفرشة التي تعرّضتُ للشمس، فمددناه فوقها، وأنهضناه قليلاً ليكون قادراً على بلع الطّعام، كنتُ أضغ الطّعام في فمه كأنه طفل، مكثنا حتّى الآن عنده وقتاً أطول ممّا مكثناه عند سيواه، كان جليدُ الأسرار فيها قد تكسّر، وصار ممكناً طرح بعض الأسئلة: «هل هذه زوجتك؟». «نعم». «ماتت؟». «اليوم بعد أن أتيتُما عرفت». «كيف ماتت؟». «أراد أن يشتم أو يلعن، ولكنه اكتفى ببسمةٍ ساخرة، وبمقولةٍ أشدّ سخرية: «ما رأيك أنت يا دكتور؛ ماتت من الضحك؟». «أعني، لم تطلب لها إسعافاً، أو لم تخرج هي لتبحث عن النجاة؟». «لم تقبل». «لم تقبل؟». «بلى، أثرتُ أن تبقى إلى جانبي، أخوها في القرية طلب منها أن تأتي إليهم، فالطّاعون في الجنوب أخفت منه في مصر، لكنّها رفضت». «ولكنك لم تفعل لها شيئاً، وتركتها تموت بجانبك». دمعتُ عيناه، وغضب في الوقت نفسه: «بل فعلت ما لم يكن في حُسابك يا حكيم؟». «ماذا فعلت؟». «بعث ابنتي الوحيدة». وقفتُ على قدمي، صرختُ مُستنكرةً: «بعث ابنتك؟». نظر إليّ نظراتٍ احتقار، وهتف: «لو كنت مكاني يا حكيم لبعثت أباك». أطلقتُ شهيقاً مسموعاً، ونظرتُ حولي: «كيف طاوعك قلبك على أن تبيع ابنتك؟!». «هدّئي من روعك قليلاً يا حكيم، يبدو أن الحياة لم تُعلمك الكثير؛ لم يكن الخيار شديد الصّعوبة، إمّا أن نموت جميعاً من الجوع، أو نبيع ابنتنا ونحيا جميعاً، هي تعيش عند رجلٍ ولو كانت جاريتته، وأنا وأمها نعيش ما تبقى لنا من حياة». «وأمها قُبلت؟!». «لم يكن الأمر سهلاً عليها بالطّبع، لكنّها في النهاية قُبلت». «من أجلك؟». «نعم». «أنت لا تستحق». «يُمكنك أن تقول ما تريد يا حكيم، الفلاسفة الذين تحدّثوا عن النار لم يُلْسعوا بشواظها يوماً». قمتُ أروح وأجىء في الغرفة، وأضغ يدي على رأسي، وأفرك ذقني، وأشدّ على أسناني، توقفتُ عن حركتي الدّائبة، واقتربتُ من السرير، وسألته: «لمن بعثها؟». «لمأذا؟». «لأنني يُمكن أن أشتريها مرّة أخرى وأعيدها إليك». «لن تستطيع». «لمأذا؟». «لأنني بعثها لدريّة وهي لا...» قاطعته: «دريّة؟». «أجابني بهدوء وثقة: «نعم دريّة، إنّها منذ عشر سنواتٍ تبيع النساء، لا تقل لي إنك لا تعرف، مع الجائحة التي أصابتنا جميعاً ازدهرت تجارته، بعضُ المُشترين يعتقدون أن دماء الصّغيرات أحسن دواءٍ للطّاعون». سألتُه وأنا مُضطرب: «كم عمر ابنتك عندما بعثها؟». «ست سنوات». صرختُ: «مُجرم... كلّم مُجرمون...» ورحتُ أضع دموعاً تصعد من أعماقي إلى عيني، كان هو صامتاً، ينظر إليّ بعينين زجاجيتين دون أن يقول شيئاً، هدأت قليلاً، وعدتُ أسأله: «لمأذا لا أستطيع أن أستعيدها من دريّة؟». «لأن البضاعة لا تمكثُ عندها شيئاً، هناك طلبٌ كثيرٌ على تجارته، ولديها زبائن كثيرون، ومنهم عليّة القوم».

هممتُ بأن أحكم قبضتي على عنقه وأخنقه، وأقضي على ما تبقى فيها من حياة... نظرتُ إلى (سالم) كان ذاهلاً هو الآخر، يُمسك بصندوق الأدوية، ولا يُحرّك ساكنًا كأنه تمثال، سألتُه السؤال الاعتيادي: «ماذا تُعطيه؟». ردّ دون أن ينظر نحوي: «جرعةٌ مُميّنةٌ من الخشخاش». وافقته... غير أنّ صوتَ العقل لن ينتهي بمجرد مريضٍ في عقله وروحه، نحنُ نعيشُ في وسط هذا النوع من المرضى: «أعطيه ما يُمكن أن يعيشَ به ما تبقى له من أيام».

حملنا الزوجة، نظرتُ في وجهها المُزرق، تساءلتُ إذا كانت في الأرض كلها أم يطاوعها قلبها أن تبيع ابنتها. ردّت عليّ عيناها الغائرتان: «ها أنذا أمامك».

أمام البيت، عن يمين عتبه، حفرنا قبرًا للزوجة، لم يكن عندنا واعظٌ يقرأ على روحها بعض الأدعية، ولم يكن لدينا ماء لنغسلها، ولا كفنٌ لنغطيها به، دفناها بثيابها البالية، التي يبدو أنها منذ الجائحة لم تُغيرها، وبشالها الذي تنسربُ من تحته خصلاتٍ من الشعر كانت حيةً فيما مضى من زمن، واليوم ألّقت للتراب!!

” (٢)

هلموا إليّ



كنا نركبُ حصانينا، مُتجهين إلى المنشأة، كل شيءٍ تغيّر في هذه المُصيبة، الأبلق تغيّر هو الآخر، لم يعد مُبتهجًا كما كان فيما مضى، لم يعد يُهملج، ولا يصلح بتلك الصخلة اللذيذة، صار صوته خافتًا، ليس من جوع، فأنا أوّمن له طعامًا جيّدًا، ولكن ربّما لما يراه من أفعال البشر، وما يحلّ بهم.

من بعيدٍ رأينا عربة (شريف)، نعرفها من قفزته، يقفز برشاقةٍ من خلف الحصان، وينزل بهمةٍ من أجل أن يُنزل المُصابين، كان مُهمكًا في عمله، كان يحمل المرضى بين يديه كأطفال، ينظر في وجوههم بحنوٍ وأسى، ويودّ لو يُقبلهم، وقد تظفر بعضُ الدّمعات من عينيه... لم يلتفت إلينا عندما صرنا بقربه، وقفّت أنظر إليه وهو يحمل مرضاه، يعبر بالواحد البوابة، ويظلّ يحمله حتّى يصل إلى غرفة التّطبيب البسيطة التي أنشأناها قرب المدخل، ويعود ليحمل الثانية، لم يسترخ، وقفّت أعدّ له المرضى الذين حملهم دون أن يعرف أنني موجودٌ، كان قد عبرَ بِثمانية عشرَ مريضًا، تنهّد بعد أن سلّم مريضه الأخير، وهو يهّم بركوب العربة ليذهب فيحمل فيها غيرهم، صحتُ به: «يا شريف...» انتبه، كُنّا على مقربةٍ لكنّه التفت إلى غير جهتنا، صحتُ من جديد: «شريف... أيها البطل...». نظر جهتي هذه المرّة، وعندما عرفني، هتف: «سيدي عبد اللطيف...». وحنى رأسه، وددت لو أقبل رأسه، هذا الفتى الأسود ذو العينين الزرقاوين لم يرتخ طوال سنّة أشهر من نقل المرضى والموتى، لم يقل مرّة واحدة: «أخ...». اقترب منّي، صافحته: «عليك أن تهتمّ بأمور سلامتك أكثر... المرضى يُشبهون أبناءنا أو إخواننا، وقد نُحبّهم، ولكننا لا نريدُ أن يقتلونا، وهم لا يريدون ذلك لنا أيضًا». فهمّ ما أرمي إليه، فحنى رأسه من جديد، وهتف: «سأفعل يا سيدي»، ثمّ قفز خلف حصانه، وغاب في الدروب التي أطلّعتها!

أصبحتُ منشأة العزل صورةً عن القاهرة قبل أن يحلّ بها الطّاعون. كانت فيها أسواقٌ غير مرثية تُقام للبيع والشراء، وعلاقاتٌ عابرة، وأخرى دائمة، وثالثةٌ على الوعد بالزّواج: «لن أتركك حتّى لو نخر الطّاعون عظامي». فتردّ: «إذا متنا، فلنكنّ نهائيّنا ونحن نضع أيدينا مُتشابكين، سنطلبُ أن يدفوننا في قبرٍ واحدٍ». كانت الوعود في المنشأة - شأنها شأن

الوعود في المحن – أصدق الوعود وأوفاهها، كان الموت المرئي في كل شيء يجعل من فكرة الوفاء المستحيلة أمرًا ممكنًا، ويجعل من الصديق النادر أمرًا مشاعًا.

هنا في المنشأة كانت الحياة تتحدى الموت على طريقتها، حفلت بعددٍ من النساء الحوامل، طلبتُ مُمرّضتين من الـبيمارستان الرئيس على وجه السرعة، أنقذتِ المُمرّضتان امرأةً كانت على وشك أن تموت، كان اختيارًا لمواجهة الموت بالحياة، حين خرج من رحمها وهو يصرخ صرخة الحياة الأولى، كانت أمه تُطلقُ صرخة الحياة الأخيرة، وحين رحبتِ الحياة بالطفل على أحسن ما يكون الترحيب، كان الموت يرحب هو الآخر بالأم فيحملها عن ابنها بعيدًا. قلتُ للمُمرّضتين: «عليكما أن تُعلّما قابلاتٍ يَكُنَّ عونًا لَكُنَّ مع الأمهات الحوامل، وتُدربُنهنَّ على العناية بالأم وبابنها». ردت مُمرّضة: «هذا إذا ظلت حية». أردفت الثانية وهي تزعم شفيتها غير راضية: «العناية بالأم وابنها؟ إن الطاعون لا يعرف أمًا ولا ابنها». سألت الأولى: «هل ينتقل الطاعون من الأم إلى الولد بالدم؟». «ربما ينتقل، لكن الفرصة في حياته مُمكنة. هل نبحت نحن الأطباء عن فرص الموت أم الحياة؟ هل نترك المرضى لأقدارهم أم نُجابه معهم تلك الأقدار؟ هل نترك أقدامهم تهوي في وديان الموت، أم نأخذ بأيديهم إلى سهول الحياة؟ هل نحن مُستأمنون على هذه الأرواح أيتها المُمرّضتان، أم لا نلقي لها بالاً؟». سكتنا عندما رأنا نبرة الغضب في صوتي. في الحقيقة كان الغضب على إخفاقنا في الإبقاء على حياة الأم، لا على عملها، فقد قاما به كما ينبغي. لكن الموت أكبر من الطب وأبيه!

في المنشأة يحمل الأبناء آباءهم من أجل أن يُساعدوهم على قضاء الحاجة، كان يُمكن أن يكون هذا المشهد في غير هذا المكان وغير هذا الزمان غريبًا، لكنه اليوم مع كل هذا الوباء صار مألوفًا، ابنٌ في العشرين يحمل أباه الذي في الستين بين يديه، ويتهدى به في الطريق ليقضي حاجته في الحمامات، وكانوا كذلك يحملونهم في الليالي المُقمرة على ظهورهم، ويمضون بهم إلى الحدائق المُقفرة، مقفرة نعم، لكنها تعشوشب بالرحمة، بالكلمة الدافئة، وبالحدِيثِ الحلو بين الأب وابنه، قال له: «لم أصدق أننا سنعيش أيامًا كهذه يا أبي؟».

يرد أبوه: «لو نجوت منها، وأرجو أن تنجو، فستتعلم منها ما لم نتعلمه نحن في خمسين عامًا ماضية، ومع أن بلادنا خاضت عشرات الحروب، وحدث فيها انهيار دول، وقيام أخرى، وسيادة قوم، وانهيار آخرين، وذهاب الفاطميين، ومجيء الأيوبيين، وضياح القدس، ثم استردادها، ثم ضياعها من جديد، وخسوف بالشام ومحن لا تُعد، ولكنها كلها تبدو ضئيلة أمام ما يحدث اليوم يا بُني. لو قلتُ كما يقول الكثيرون: إنه غضب الله، فماذا يُخبئ الله من اختباراتٍ أخرى لكي نقول إن ما مضى كان جزءًا من غضبه وليس غضبه، وإنه كان تمرينًا عليه ولم يكن هو. ثم يا بُني، إن ربك ذو رحمة واسعة، فلا يُمكن أن ينزل بنا ما ترى مما لا يُصدقه العقل، ومما لا يكون إلا في الأحلام، أو لا يكون فيها لشدة غرابته، إنما هو عمل الشيطان في الإنسان، وعمل الإنسان في الإنسان، فنحن من جلب الطاعون بفسادنا، ونحن من قتلنا إخواننا بأيدينا، دَعْنَا نُنقذ أنفسنا باللجوء إلى الله، لكن ليس برمي الأشياء كلها على تدبيره، قد يكون علمه أسبق من علمنا، ولكنه يترك لنا حُرِيَّة الفعل، وليس ما ترى إلا من صنع أيدينا...». وسكت، فقال الابن: «تلوم نفسك يا أبي؟». «فمن ألوم يا بُني...؟ نحن صنَعْنَا...». كانا يتحدثان فيما كان كل شيء حولهم يُصغي لكنه لا يستطيع أن يُغيّر شيئًا مما قد جرى عليه القلم، كان القمر يود ذلك، والأشجار تود، والأطيار تود، والتراب يود، والسما تود، والسحب تود... وكانا يودان أن يعيشا، ولكن الأب سقط بهدوء بجانب ابنه ورحل، أين يُمكن أن ندفن كل هؤلاء الموتى!؟

كان يُمكن أن تحزنَ لفقد عزيزٍ عليك فيما مضى، وتبكي عليه بكاءً مُرًا، لكن الحزن على الزاحلين لم يعد يعني شيئًا كثيرًا، لم يعد أحد يسأل عنك، ولا يُعزبك بموت عزيزك، ولا يعرف إن كان قد مات أبوك الذي كنت تحمله على أكتافك ليقضي حاجته، ولا إن عاش، ولا متى، ولا... وهكذا لم يجد الابن حتى من يحفر لأبيه القبر، حفره بنفسه، وكان دمه يختلط مع التراب الذي يعقر وجهه ويديه، فيحول إلى شيء من الطين، وكانت الشمس تزيد من صعوبة الحفر لشدةها، والعطش، والجوع، والوهن، ولذا استمر الابن ليلتين كاملتين حتى استطاع أن يهب أباه حفرة لائقة، كان أجْر ما تبقى له من أسرته، أمه، وأخوه، وثلاث أخوات له ماتوا قبل خمسة أشهر، لكنه لم يحزن عليهم كلهم حزنه على أبيه؛ فلقد كان بمقدور أسرته الترية أنذ أن تشتري أكفانًا جيدة من الكتان لهم، وأن تُغسل أجسادهم على الطريقة الإسلامية، وأن يُدعى

لهم، وأن يُحمَلوا وخلفهم بعضُ المُشيعين، وأن يُدفنوا في المقبرة التي امتلأت الآن، وأن يحطوا بقبورٍ عميقةٍ محفورةٍ بشكلٍ طوليٍّ جيّد، وتتسع لأجسادهم بسهولة، أمّا الآن، فقد بدا أنّ أباه صاحب هذه الثروة الرّائجة ليس لايقًا بموتٍ مثل هذا أو قريبٍ منه!!

غير أنّ اعتياد الموت فاقم في أعداد الموتى، لقد جعل الطّاعون الأجساد ساحةً اشتباه، لم يتأكّد كثيرٌ من العوام أنّ قريبه هذا مات أو أنّه ما زال على قيد الحياة، كان يُقدّر أنّ عدم حركته يومين في سريره هو بمثابة إعلان أنّه ميّت، في اليوم الثالث يكون قد دبّر له عربةً وحقار قبورٍ ليدفنه، لكنّ الميّت يستيقظ على اهتزاز العربة به في منتصف الطريق، فإذا كانت لديه قدرة على القفز من العربة، أو على الصّياح، أو على النّطق: «إنني حيٌّ ولم أمت»، فسينجو، أمّا في غير هذا فقد كان الحقار يحمله مثل خرقةٍ باليةٍ، ويُلقى به في الحفرة كما تُلقَى القواذير، ويبدأ بإهالة التّراب عليه من غير انتظام، فإذا بدأ برجليه فإنّه يهبه لحظاتٍ أخرى من أجل أن يأخذ من هواء الحياة ما تبقى له، من خلال التّراب يرى الحياة تهرب منه مع كلّ حفنةٍ تُلقى فوقه، يُحاول أن ينطق بكلمةٍ، أن يستغيث، أن يقول للحقار لا تُتابع عمليّك أن تُنقذني، إنني حيٌّ... لكنّ الحقار لا يرى ذلك ولا يسمعه، إنّه منهمكٌ في عمله ليُنهيه بأسرع وقتٍ من أجل أن يبحث عن جُثةٍ أخرى يردمُ فوقها التّراب لقاء أجرٍ جيّد... كانت عينا المسكين تنوسان، دُبالته تنطفئ تدريجيًّا... يُقلب ناظره في السّماء الصّافية في اللّحظات الأخيرة، ويرى ذلك العصفور الذي يحطّ على فرع الشّجرة التي تحتها حفرتُه، ويُشغفُ أذنيه بصوته الجميل، وفجأةً يسقط التّراب على فمه فيملوه، وعلى أنفه فيخنقه، وعلى عينيه، فيسود الظلام... إنّه الظلام، ولا شيء سوى الظلام، ماذا يُمكن أن يكون الموت غير ظلامٍ أبديٍّ!!؟

في نهاية الشّهر السّابع لهذه الجائحة المُستمرة التي لم تتوقّف كان ديوان مصر يُعلن أنّ عدد الوفيات بلغ أكثر من أربعمئة ألفٍ نفْس، حين استطاع الديوان قبل أسبوعين أن تصله سفينةٌ إلى الإسكندريةٍ مُحمّلةً بالتّوابيت والأكفان، استطاع أن يدفن فيها في يومٍ واحدٍ أكثر من خمسةٍ وعشرين ألفًا، كانت مواكب الجنازات لا تتوقّف، كانت تُحمّل على أكتاف الجنود والمُتطوّعين وذوي الموتى، حتّى إنّه لو قُدّر لك أن تقف على قنطرة باب زويلة على سبيل المثال وتتنظر إلى الجنائز فإنّك سترى بياضًا يُغطّي الأرض كلّها لا يكاد يُظهر منها شيئًا لكثرة الأكفان المحمّولة!!

كانت القبور يومها تلتهم كلّ ما يُلقى فيها، ولم تأنف من ميّتٍ واحدٍ، كانت تصيح: «هلمّوا إليّ أيّها النّاس... فإنّ هذه غايَةُ أمالكم... هلمّوا إليّ أيّها الأحياء، فإنّ في حفرتي هذه نهايةُ مآربكم... هلمّوا أيّها العناة وأيّها الهداة... أيّها العصاة وأيّها الثّقاة... أيّها الفجار وأيّها الأبرار... أيّها السّادة وأيّها العبيد، فإنّ نهايتكم هنا في جوفي... هلمّوا فإنّه لن ينجو من هذا الموضع أحدٌ».

” (٣)

زَمَنُ الحَمِيرِ الجَمِيلِ!!

صار كلّ ما يمشي على الأرض يُصَاد، ويُذبح ويؤكل، الفئران والجراد والقطط بسبب التّركيز على صيدها في بادئ الأمر، صار لا بُدّ من البحث عن مصدرٍ غذاءٍ آخر، فلجأت النّاس إلى الحمير، دُبخت الحمير، وشويّت وأكلت، ثمّ إنّ الحمير شحّت مثل كلّ حيوانٍ لجأ النّاس لأكله، ثمّ مضى زمنٌ، فصارت النّاس تتذكّر عهد الحمير بالحنين والشّوق، إذ كانت الفترة التي أكلت فيها الحمير من أكثر فترات الطّاعون رفاهية، صحيح أنّ الحمير لم تكن سمينّة، بل كانت عجفاء ضامرة، ولكن في النّهاية

كان النَّاسُ يأكلون لحمًا طيِّبًا، ولم يكنْ يَفْقُ بين ذبح الحِمَارِ وأكله إلا لحظَاتٍ قلائل... أمَّا اليوم فالنَّاسُ - ويا للأسى - تضطَّرُّ إلى أنْ تَأْكُلَ السَّحَالِي والحشرات، وهذا - لَعَمْرِي - مدعاة إلى الحنين إلى ذلك الزمن الجميل؛ زمن الحمير!!

في مصر، كان لا يركبُ على الخيول في هذه الجائحة إلا المَلِكُ أو الأمراء أو الوزراء، فكانوا يتصيِّدون خروجهم إذا خرج أحدهم لحاجته، فيُنزلون الأمير عن حصانه، ويذبحون الحصان، ويتناهشون لحمه، فانقطع مسير الأمراء بالخيول انقطاعًا تامًّا، وخاف كلُّ أميرٍ على نفسه، وعانى في قصره من الجوع ما عانى النَّاسُ بعد أنْ نَفِدَ الطَّعامُ أو شَخَّ، ولقد كان الأمير ينتظر من ديوان مصر أنْ يأتيه بالطَّعام ما يكفيه أنْ يُقيم به الأود كلَّ أسبوع، فإذا انقضى الأسبوع، جلسَ ساهمًا هو وأهل بيته، ينتظرون آيسين أنْ يطرقَ بابهم وافدٌ من الديوان يجودُ عليهم ببعض الطَّعام، يقيهم من الموت أيَّامًا آخر!!

الحاجة إلى الطَّعام أطلعت أفكارًا مذهلةً للصَّيد، صار اللحم يُباع، أعني لحم الكلاب بأسعارٍ عالية، حُطَّافات تُنصَب في الأحياء المهجورة والتي تتجوَّل فيها الكلاب الضَّالة، أو الصَّياع البعيدة، إذ انقطعت الكلاب من وسط مصر ومن القاهرة وما حولها، بسبب اصطيادها في فترة قصيرة، فلجأ الصَّيادون إلى تلك الكلاب في المناطق البعيدة، وكانوا إذا أرادوا بيعها طلبوا سعرًا مُرتفعًا، مُتعلِّين: «لقد مشينا إلى أماكن خَطيِّرة، وقطعنا مسافاتٍ بعيدة، وتربَّصنا بها أيَّامًا طويلة، وكذنا نهلك حتَّى استطعنا أنْ نصيِّدَ بعد أسبوعٍ كلبين أو ثلاثة، هل تظنُّون الحصول على كلبٍ أمرًا سهلًا؟!».

وبدأ عهد الكلاب... تُصَاد، تُدَبَّح، تُشَوَّى، وتؤكل... غير أنْ عهد الكلاب الذي جاء بعد عهد القِطط والحمير - هنا يُمكن أنْ نفقز عن عهد الحشرات لأنَّه لم يكنْ ذا بال - كان عهدًا خطيِّرًا وقاسيًّا، إنَّه العهد الأخير ربَّما في خيال القاصرين عن أنْ يُوسَّعوا خيالهم من عهود اللحم، ولذا نشبت من أجله نزاعاتٌ وحروب، وأنا شهدتُ بعضها؛ رأيتُ أناسًا في تربيةٍ يتقاتلون على كلبٍ ميِّت، أحدهم يقول: «أنا اصطدته، ولن أسمح لأحدٍ أنْ يحصلَ حتَّى على نابٍ أو مخلبٍ منه». الآخر يردُّ: «كذبت»، لقد كان ميِّتًا، ووجدته بين هذه القبور، وأنا أتربَّصُ به منذ ثلاثة أيَّام، وأعرفه من ذنبه الأقطش، فلا تحاولِ خداعي». الثالث الذي ظلَّ صامئًا أثناء نزاعهما، يتدخَّل بلطفٍ قائلاً: «يُمكننا اقتسامه، وهكذا يحظى كلُّ واحدٍ مِنَّا بوجبةٍ مُمتازة». ينفعل الأول من تدخُّل هذا الأحمق، ويصرخ: «اسكتْ أيُّها الملعون، ما دخلك أنت، أم أنك ستقول إنَّك كنتُ تتربَّصُ به لتصطاده...» يبدأ بجرِّ ذيل الكلب، الكلب الذي يسيل الرِّيد الأبيض من زاوية فمه، والذي يبدو أنَّه جُنَّة مُتعفِّنة، ويتهدى رأسه بين صخور القرافة، تظهر أسنانه البيضاء اللامعة وأنيابه التي لم تستطع أنْ تحصل على أيِّ شيءٍ يُؤكل من أجل أنْ يظلَّ حيًّا... يستمرُّ صاحبه الأول في جرِّه وهو يصيح: «لن يأكل منه مُضغَّةً واحدةً سِوَاي». ينفذ صبر الثاني، فيتناول حجرًا كبيرًا من الأرض فيهشَّم بها رأسه، يتهاوى على الأرض يُرفرطُ مثل فرخٍ مذبوح، ينظران إليه دون أنْ يفعلوا شيئًا، يقول الثالث: «هل تُعطيني شيئًا من لحم هذا الكلب؟». يردُّ عليه الأول: «إذا دفنْتَ ذلك الكلب فسأعطيك فخذةً من هذا الكلب».

كان الموتى ينتشرون في الشوارع، من أولئك الذين خرجوا يطلبون الحياة فطلبهم الموت، فسقطوا في قوارع الطَّرق، لكنَّ أحدًا لم يأت لنقلهم أو لدفعهم، كانوا يتزايدون في الشَّهر الثَّامن من الجائحة تزايدًا مُرعبًا، مئاتٌ منهم يملؤون الرِّوايا والأحياء، مُلقينَ عرايا، قد سرق اللصوص ثيابهم، وممتلكاتهم التي كانوا يحملونها، لكنَّ الميت لا يعنيه ما أخذ منه، كلُّ ما يعنيه أنْ يُورَى في الثرى قبل أنْ تأتي صقورٌ من السماء فتنهش ما تبقى من لحمه... تشبَّطت في هذه الأوضاع عرَبات الدولة، كانوا قد نجحوا في زيادة عددٍ آخر منها، ورثوها عن مُلاكها الذين اخترعهم الموت الأسود، وأضافوها إلى عرباتهم، وراحوا يطلبون من جنودهم أو متطوِّعين أنْ يرفعوا

الجُثث من الطَّرقات. كان هذا يتمُّ بصورةٍ أبشعَ من الموت نفسه، إذ كان يتعاون اثنان لرفع الجُثث من الشوارع، يقفُ الأول في مُؤخرة العربة وقد حنى جذعه ليتناول من زميله رأس الجُثة، يسحبُ رأسها على الحافة الحديدية للعربة، ثمَّ

يتمكّن من وضع ذراعِيه تحت إبطها، بينما يقوم زميله الأوّل في الأسفل، بالإمساك بقدمي الجُثّة ومُساعدة زميله في إتمام سَحْبِها. ثمّ جرّها في صندوق العربة إلى الطّرف الأعمق، ويقوم بوضعها على حرفها، لكي يكون قادرًا على تصفيط الجُثث، وتحشيرها، ولزّها أقصى ما يُمكن حتّى تتسع العربة لأكبر عددٍ منها!!

في الأماكن التي كانت الجُثث تُغطّي فيها الأرض، ولا يُوجد مُتسع لوقوف العربة في الوسط لبدء عملية النّقل، فإنّ السائق كان يُضطرّ إلى همز الحصان الذي يجرّ العربة بقوةٍ ليدوس بحوافرة على بطون تلك الجثث وسيقانها ورؤوسها أولاً، ثمّ تُكمل بعده العجالات الحديدية المهمة، فتهرس العظام، وتهشم الرّؤوس، وتسحق العورات... وتظلّ ماشيةً ببطءٍ تتهاوى بين الجثث صاعدةً وهابطةً، إلى أن تقف في وسطها، حينها يصيح صاحب العربة، صارخًا في وجه مُعاونه: «هيا أيّها الأخرق، علينا أن نملأ العربة بالجُثث خمس مرّاتٍ على الأقلّ كما طلبَ منا ديوان مصر». وفيما هم يملؤون عربتهم بالجُثث التي كان بعضها يستقرّ تحت بطن العربة وبيّن عجالاتها، كانت هناك عشرات العرّبات الأخرى في هذه السّاحة وحدها تقوم بالمهمة ذاتها!!

غير أنّ العرّبات لو نطقت لجاغت بأحكام قولٍ يُمكن أن تسمعه أدن، ولعلّها نطقت ونحن البشر المتعاليين المتعجرفين لم يكن بمقدورنا أن نسمعها؛ كانت العرّبات تنقل السيّد والعبد، المعروف والمُنكر، الأثمين والطّاهرين، الكبار والصّغار، النّبلاء والوُضعاء، التّجار والعُمال، الأغنياء والفقراء، الرّضع وأمّهاتهم، الآباء وأبناءهم وبناتهم... لم تكن هناك أيّ حرمة، كانت الأجساد العارية كلّها تتلاصق، ولعلّ ذراع عاملٍ أو عتالٍ في السّوق ما زال أثر الجبال فيها ظاهرًا كانت تتشابك في هذه العربة مع ذراع أميرٍ كانت فيما مضى مُطوّقة بالذهب، ورأس وزيرٍ تعلوها نعلٌ شحاذٍ لم يشبع من الخبز في حياته. وعينٍ لصٍ تنتظر في وجه قاضٍ كان مجرد النّظر في وجهه يجلبُ الدّعر. وشفتا بائعٍ وردٍ تلتصقان في الرّمي العشوائي بجسد أميرةٍ كان مجرد أن يراها خلّمًا لم يخطر في خياله ولو للحظة... ثمّ ماذا؟ إنهم جميعًا يستلقون في بطن هذه العربة، ويمضون إلى بطنٍ أعمق لا يرون فيه الشّمس أبدًا حتّى يأذن ربّ الشّمس!

كانت عرّبات الدّولة ذات دولابين، ليس من أجل أنّها فقيرة ولا يُمكن أن توقّف عربةً ذات أربعة دواليب، ولكنّ السّبب يكمن في أنّ العربة ذات الدّولابين هي أسهل من أجل إمالتها إلى الخلف وإفراغ حمولتها دفعةً واحدةً في الخنادق المحفورة كقبورٍ جماعية، والتي تنتظر مزيدًا من الجُثث في أسرع وقتٍ.

كانت الجُثث في البداية تحظى وهي تُكدّس باحترام النّاقلين، إذ لم تكن جُثّة لتوضع فوق الأخرى، وإنّ كان صاحب العربة يعمل بوضعها على حرفها ويكبسها حتّى لا يكون بين جُثّة وأخرى فراغٌ، إلاّ أنّه لم يكن يفعل خطيئةً أكبر من ذلك، لكنّ هذا الاحترام الضئيل عالي التّقدير لم يستمرّ أكثر من بضعة أيّام، إذ لم يكن هناك وقتٌ كافٍ لتكبيس الجُثث، فصارت الجُثث تلقى اعتيابًا، مُفرجة السّاقين، أو مَفْغورة الأفواه، أو مكشوفة العورات، وكانت تُراكم بعضها فوق بعضٍ في طبقاتٍ قد تصل إلى أربع طبقاتٍ أو خمسٍ، وكان يُلقى عليها فُماشٌ أسودٌ يُغطّيها من الأعلى كلّها، ويُثبّت في أطراف العربة، وتمضي بالحمولة إلى القبور، ولكنها مع سرعتها قد تُوقع في اهتزازاتها المُتكرّرة جُثّة هنا أو هناك، ولعلّ لسان الجُثّة التي تقع كان يصيح: «خُدوني معكم، لا تتركوني للغربان.. أرجو وكم...». فهل كان سائق العربة يتوقّف؟ لا. وهل كان يعرف أنّ جُثّة من جُثثه الخمسين التي يحملها قد وقعت؟ نعم. فلماذا يمضي؟ لأنّ القبر الجماعي لا ينتظر أكثر من ذلك، والعرّبات التي تجوب شوارع القاهرة هنا وهناك سيكون على متنها سائقٌ ولو واحدٌ رحيماً يلتقطها فيما بعد!!

لقد استغرق نقل الجُثث بالعرّبات من القاهرة وحدها شهرًا دون أن تنظف السّاحات تمامًا، إذ مع أنّه صار هناك موطىٍ قدمٍ للعابرين، أو راكبي الخيول أو سائقي العرّبات، إلاّ أنّ الجُثث لم تنته، وكان يُمكن أن تراها في البدايات مع بعض

الجوارح وخاصة الغربان والعقبان التي تتقاذف فوقها، وتُغطّيها بالسّواد، ولم يكن مُستغرباً أن ترى غراباً مُنهمكاً باستئلال أحشاء جُثّة هنا أو هناك بمنقاره الحادّ.

غير أنّ الكلاب نفسها التي كانت تنهش هذه الجثث لم تسلم من الاضطهاد، ولذا انتهت، بينما ظلّت الطيور الجارحة تحوم حول الجثث، وإن كانت تخشى في أحيان كثيرة الايقضاض عليها، لما ينتظرها من الصّيد على أيدي البشر الذين يمكنون ليلاً كاملة على أمل أن يفوزوا بغرابٍ واحدٍ ولو كان مننوف الرّيش!!

أعلن ديوان مصر أنّ الوفيات بالطّاعون بلغت ستمئة ألفٍ نفسٍ. صاروا يفكّرون بجذوى الإعلان عن ذلك. الأطباء يهّمهم؟ نعم. المؤرّخون يهّمهم؟ نعم. من سواهما؟ لا أحد؛ فلنتوقّف إذاً عن إعلان أعداد الموتى قليلاً ريثما نلتقط أنفاسنا من الجزي وراء أعداد يبدو أنّها لن تنتهي! “

” (٤)

وسام الطّاعون

ليس بعد الطّاعون مرضٌ، إذا وقع الإنسان فريسةً له، فلا يُمكن تخيّل ما هو أسوأ منه، وإذا فإنّ مرضاً مثل الجدري أو الحمّى أو الفالج يبدو مهزلةً أمامه، وعليه فإنّ هذا يُمكن أن يكون بارقة طمأنينة للمطعون؛ يقول لنفسه: «أنا في مأمنٍ من أيّ مرضٍ ما دمتُ مطعوناً!». غير أنّ هذا الاعتقاد لم يكن صحيحاً البتّة، إذ إنّ الطّاعون هو جماغٌ أمراضٍ لا يُمكن التنبؤ بها، أفلها الحمّى والإسهال والطفح والمِرّة الصّفراء، وغيرها... وعليه فإنّنا كُنّا نبقى بارقة الأمل تلك في نفوس المرضى، وإنّ كُنّا نعلم أنّها مُطفأة وما من أملٍ في أن تكون حقيقيّة مهما كانت حرارة الاعتقاد بها، لكنّ مصارحة المريض بخطأ اعتقاده خطأ آخر في هذه الظروف؛ وسيكون بمثابة قتلٍ نفسٍ حيّة أن تقتل أملاً بيرعم مثل نبتة صغيرة في نفس مريضٍ ما.

استمرّ ديوان مصر الرّئيس في هذه الجائحة يُبخر مصر وأهلها، بدأ ذلك منذ عشرة أشهرٍ ولا يزال يفعلها؛ كانت المساجد الموجودة في المرتفعات مثل جبل المُقطم تُبخر، وكانت يُوقد عليها بالطّرفاء واللّبان والمندروس والصنّدل والكافور، من أجل طرد روائح الموت على الأقلّ، إذ لم يكن نافِعاً في محاولتنا لدفع الوباء عن أهل مصر إلّا قيامنا بذلك.

لكنّ التّبخير وحرق المُعطّرات والمُطهّرات لم تُفد شيئاً؛ كأنّها كانت دفعاً لوسواسٍ تشكّل عند النّاس لا لدفع وباءٍ جائئ على كلّ حجرٍ في هذه المدينة، أما الطّاعون فقد ظلّ يغوصُ بحربته حتّى أخرج أحشاء أهل مصر كلّها!!

أين من يقرأ على أرواح الرّاحلين، لقد شحوا هم الآخرون مع من شحوا، ومع ندرة الفراء ارتفعت أجور المُمتهين لهذه القراءة، ولم يكن بإمكانني أنا ولا الأطباء ولا الأهل أن يوقفوا تدفقهم، وهم يتقاضون أجوراً عالية، ويعتاشون من وراء الكلمات التي يتلقظون بها على الأرواح المُسافرة، كأنّ عزاء الرّاحلين الوحيد في هذا الموت الفجائي، لم يكن أكثر من كلماتٍ يتلوها فمٍ واعظٍ مجهول رجاء رحمة مأمولة من ربِّ موفودٍ عليه.

ولم تقف هذه المهنة المُستحدثة على الدخول إلى البيوت والوقوف على رأس المطعونين وتلاوة ما تيسر، بل انتعشت مهنة القراءة على الجنائز كذلك، وصار القارئ يأخذ عشرة دراهم عن كل ميث؛ محظوظون أولئك الذين وجدوا لأنفسهم قراءً على أرواحهم المُتعطشة إلى الخلاص؛ إذ بينما كان هذا الواعظ يتلو هذه الكلمات القلائل كانت هناك مئات أخرى على سرير مُشابه في بيوت أخرى تلفظ أنفاسها دون أن تحظى بقارئ يقرأ عليها أي شيء لأنها لا تملك المال، فيما كانت هناك مئات الجثث الأخرى تتساقط في الطرقات، ربّما في هذا الحي الذي ينتهي شارعُه بهذا الباب المفتوح على التلاوة، لأنهم خرجوا كذلك يطلبون مَنْ يقرأ على أرواحهم لكنهم لم يُوقفوا، فسقطوا.

صحيحٌ أنّ الطّاعون قد أفقر النَّاس، وأماتهم من دون أن يجدوا مَنْ يُداويهم، ولكنّه على الطّرف الآخر أغنى فئةً أخرى من هؤلاء النَّاس، النَّاس الذين سكنوا القصور وبيوت الدّولة ولم يتعظوا بما يحدث، إذ استغلّ السلاطين الطّاعون، للاستيلاء على أموال الموتى الذين لا وارث لهم، وإيداعها في صندوق ماليّ خاصّ بهم، لا يتصرّف بها سواهم!

مُنح (شريف) هذه اللّيلة بعد كِفاح سنةٍ كاملةٍ مع الطّاعون وسامًا، حضرتُ حفلَ تتويجه، كان الحفل كئيبًا، ووجه شريف أشدّ كآبة، لكنني هنأته، لا أدري إن كانت هذه سابقة، أم أنّها حدثت من قبل؛ أن يُعطى وسامُ الشّجاعة أو نيشانُ البسالة للذين يخوضون حروبًا طاحنة، وهل هناك حربٌ أشدّ طحنا من الطّاعون؟!

قال لي: «إنّ عددًا من المُتنفذين في الدّولة ممّن كان يعرفهم عن طريق سيّده القديم القاضي الفاضل، منحوه وسامًا، وأعطوه مبلغًا من المال»، وضحك. سألتُه: «لم تضحك؟». «من شرّ البليّة كما يقولون يا سيّدي، أعطوني وسام الشّجاعة وكان الأحرى بهم أن يُعطوني وسام الطّاعون، أليس الطّاعون هو السّبب في هذه المنحة السّخية؟ ثمّ ماذا أفعل بالوسام في الموت إذا كان في عرّيتي يتساوى كلّ شيءٍ مع الموت؟ وماذا أفيدُ من المال في زمنٍ تكونُ فيه سلامةُ البدن وصحّةُ العقل خيرًا من الدّنيا وما فيها». كان يتحدث بهدوء، ويبدو أنّه يُخفي خلف كلماته أشياء لا يبوح بها، سألتُه: «على سيرة سلامة البدن، كيف هي صحّتك؟ إنّ عمالك الدّؤوب مع المرضى يجعل الطّاعون أقرب إليك من شرّائك نعلك». ضحك من جديد، فبانَتْ أسنانه البيضاء نهارًا في ليلٍ وجهه البريء، هتف مع بقايا ضحكته: «لا تقلق؛ المرضُ لن يُصيبني.

إنّه لا يعرفني! أنا أعرفه؟ نعم، أعرفه جيّدًا، أمّا هو فلا يعرفُ متّي غير أصواتِ دولاليبِ عرّيتي على الأرصفة الباكية، ليست بيننا أيّ عداوة، نحن صديقان فكيف يُنشبُ مخالفةٌ في روعي؟ سيظلّ إلى جانبي يحرسني حتّى من الأمراض الأخرى. أنا في عافية يا سيّدي، لا تقلق...». لكنّ كلماته الأخيرة كانت مهزوزةً إلى الحدّ الذي بدا فيها أثرُ البُكاء!

نقّصُ الأطباء جعل من الحمقى أطباء!! نُدرتهم جعلتُ كلّ مَنْ يملك مشرطًا طبييًّا، كان كلّ مَنْ يأتي إلى البيمارستانات عارضًا خدماته على أنّه طبيب مُقابل أن يأكل ويبيت في المشفى يُصدّق، كانت هناك حاجةٌ مُلحةٌ إليهم، ولم تكن نملك وفرةً في الوقت حتّى نتأكّد من صدق دعواهم. بعضهم كنتُ أعرفُ من النّظر إلى يديه أنّه ليس طبيب، وإنّما هو جزار أو لحام، ومع ذلك، كنتُ أدربهم لفترةٍ وجيزةٍ وأوكل إليهم مهمّاتٍ بسيطة، مثل قُصد الدّمامل، وتنظيف القروح، وإزالة الصّديد. ومع ذلك بعيدًا عن البيمارستانات، فقد كان يفدُ إلى البيوت الحداون واللّحامون والحداؤون الذين كانوا يدقّون حذوات الخيول، ويُقدّمون أنفسهم لأهل البيت على أنّهم أطباء، ولم يكن أحدٌ ليتأكّد من دعواهم تلك، حتّى لو أراد ذلك فاتّه لا يملك الوسيلة الصّحيحة التي تُمكنه من ذلك، وكانوا موضعَ ترحيب من النَّاس، لأنّ النَّاس كانت تحلم بأن يزورها طبيبٌ يحمل حقيبةً جلديةً، يضع فيها مطارق ومشارط وخلاعات، ويسأل بكلّ ثقة: «أين مريضُكم عافاكم الله؟»

زادَ عددُ الموتى، كأنَّ الطَّاعونَ كانتْ تنقصه تلكَ الزَّيادة؛ بسببِ فصدِ المطعونين على أيدي الجَهْلَةِ المُدْعِينِ بذاتِ الأدواتِ الَّتِي كانوا يُقَطِّعونَ بها أشلاءَ الأنعامِ والدَّوابِّ عندما كانوا يعملون في الجِزارة!! كان ذلكَ عامًّا طامًّا، غيرَ أنَّنا يُمكنُ أنْ نستنتجَ من ذلكَ صديقنا القديمِ صدقي اللَّحَامِ، ذا الشَّارِبِينَ الغليظين، بالمُناسبةِ لم يعودا يهتَزَّانِ مع حركتهِ أو حينَ يتحدَّثُ كما كانا في السابقِ، علَّمَتْهُ الطَّرِيقَةُ الصَّحِيحَةُ في الفصدِ، وصارَ يتولَّى بعضَ الأمورِ المُساعدَةِ، وقد هلكَتْ عائلتهُ كُلُّها، ولم ينجُ سِواه هو وابْنُه، وقال لي: «جِنْتُ لأعيشَ ما تبقى لي معك!».

الجوعُ رقيقُ الموتِ، لم يُبقِ الموتُ لِلَّذِينَ تركهم خَلْفَه شيئًا، لقد حرَّ الجوعُ أرواحَ الناسِ حتى تجرَّدوا من كلِ فضيلةٍ واستسهلوا كلَ رذيلةٍ. بدأتْ بعدَ مرورِ سنةٍ على الطَّاعونِ تظهرُ مُشكلةٌ جديدةٌ، صارَ النَّاسُ من الجوعِ الشَّدِيدِ ينتظرونَ خارجَ القبورِ حتَّى يحلَّ الظَّلامُ، وكانوا يعرفونَ القبورَ الجديدةَ، فيأتونها، وينبشونها تحتِ جُنحِ الظَّلامِ، ويستخرجونَ الجُثَّةَ، ويأتونَ بالمناشيرَ والمطارقَ، ويبدؤونَ بنشرِ القفصِ الصَّدرِي، ويخلعونَ العظامَ بالمطارقِ ويُفتتونها، حتَّى يصلوا إلى الكبدِ لأنَّه يكونُ لا يزالُ طريًّا، فيستخلصونه من بينِ الأحشاءِ، ويشوُّونه عندَ القبرِ نفسه، ويأكلونه!! ولقد كانتْ تمرُّ أيامٌ تُنبشُ فيه أكثرُ من عشرةِ قبورٍ من هؤلاءِ، ثُمَّ تنبَّهتِ الدَّولةُ إلى ذلكِ فصارتْ تضعُ حُرَّاسًا على تلكِ المقابرِ، ولكنَّ صيادي الجُثثِ لم تكنْ تُعوزهمُ الحيلةُ، فقد كانتْ لهمُ طرائقهمُ في إقناعِ هؤلاءِ الحُرَّاسِ؛ إمَّا بقليلٍ من المالِ، أو بإغرائهمُ بوجباتٍ لا يُمكنُ تخيُّلَ لذتها، يقولُ أحدهمُ له: «إِنَّكَ جائعٌ مثلي، وإنَّكَ لن تدركَ كم هو الكبدُ طريٌّ، وكم هو القلبُ شهِيٌّ، وكم هو البلعومُ لذيذٌ، حتَّى تُجرَّبَ مِنلنا، وإنَّكَ إنْ سمحتَ لنا بنبشِ القبورِ، قاسمُناك ما نستخرجُه منها كأثكَّ واحدٌ مِنَّا». وكان يقبلُ تحتَ تلكِ الإغراءاتِ، وأحيانًا تحتَ التَّهديدِ، وأحيانًا يقولونَ له: «إنَّ هذا الَّذي سنمضغُ كبدَه المشويَّةَ ميَّت لا يُجسِّنُ، وبعدَ أيَّامٍ لن يبقى منه شيءٌ، سيأكله الدَّودُ، فلماذا نتركه للترابِ والدَّودِ ليأكله ولا نأكله نحن؟! الترابُ لا يجوعُ ونحنُ نجوعُ، الترابُ لا يموتُ من الجوعِ ونحنُ مُتتا من الجوعِ ألفَ مرَّةٍ». وصارَ الحَرَسُ بعدَ ذلكِ ينتظرونَ أَكلي أكبادِ الموتى حتَّى يُقاسمونيهمُ وجباتهمُ اللذيذةَ، حتَّى إذا وصلَ خبرُهمُ إلى الدَّولةِ، أعدتْ لهمُ السِّيفَ والتَّطع، فأعدمتْ منهم في يومٍ واحدٍ ثلاثينَ حارسًا ونَباشًا، ومع ذلكِ لم يتوقَّفَ أكلُ أكبادِ الموتى يومًا واحدًا!!

نعم، حدثَ هذا؛ اشتدَّ الصراعُ على خطفِ جُثثِ الموتى ونبشِ قبورهم، وصارَ المُتعبُ ليس دَفنَها فحسبَ، بل حمايتها من النَّهبِ، وصارتْ حِرَّاسَةُ الموتى أصعبَ من موتهمُ ذاته، ثُمَّ في فترةٍ ارتخاءِ قبضةِ الدَّولةِ الَّتِي أصابها الطَّاعونُ كما أصاب النَّاسَ لم تعدَ حمايةُ تلكِ الجُثثِ مُهمَّةً، إذ لم تعدَ لها حُرمة!

ثُمَّ عَرَضَ النَّاسُ في طوفانِ الجوعِ أمتعتهمُ للبيعِ، فلم يجدوا من يشتريها، وعَرَضُوا أبناءهمُ للبيعِ لِقَاءِ رطلٍ من القمحِ فلم يجدوا مَنْ يشترونهم؟! وعَرَضَتْ كثيرٌ من الفَنَيَاتِ أجسادهنَّ مُقابلَ رغيْفِ خُبزٍ واحدٍ، ولم تحصلِ على ذلكِ الرَّغيْفِ المُشْتَهَى، إلَّا من كانتْ ذاتَ حَظٍّ عظيمٍ!!

كان الدَّمَل يكبر تحت إبطيه فلا يرفعهما حتى لا آراه، وكان يتظاهر بالسَّعادة وهو حزين، ويبدو قويًّا وهو ينهار من الدَّاخل، ويضحك وقلبه بالك، ويصطنع التَّفاؤل وهو يائسٌ أشدَّ ما يكون اليأس؛ لم يكن من قبلُ كذلك، ولكنَّ المرضَ صنَّع فيه كلَّ ذلك!!

كان مُنهمكًا في نقل المرضى من البيوت إلى البيمارستان بأقصى ما يستطيع دون أن يتوقَّف يوماً أو يأخذ استراحةً أو إجازةً، كأنه يُسابق الموت، وكأنه يريد أن يُريح أكبرَ عددٍ من الأجساد في محتنها الصَّعبة مع المرض قبل أن يرتاح هو. وكان يبكي مع كلِّ جُثَّة يضعها في صندوق عرَبته، كأنه يعلم أنه يوماً ما، وربَّما يكون قريباً سوف يضعه أحدهم في ذلك الصندوق... استمرَّ في هذه الدَّوامة كأنه الشَّمس لا يُغيَّر حركتها مرَّ الأيام، من البيوت إلى البيمارستان، ومن البيمارستان إلى مُنشاء الحجر، ومن المُنشاء إلى القبور، ثمَّ تحوَّلت المُنشاء نفسها إلى قبرٍ كبير.

سقط أُمامي فجأةً ونحن في البيمارستان، قال لي وهو بين الصَّحو والإغماءة: «تعبتُ يا سيدي». كانت عيناه تنطفئان، ويداه مرثخيتين، وجسده ذائباً على الأرض، دُعرتُ، لقد كُنَّا نتحدَّث عن تحسين ظروف نقل الجُثث قبل قليل، وكان يتحدث بعفويةٍ وابتهاج، فما الذي حدَّث له فجأةً؟ في الحقيقة لم يكن هذا فجأةً، لقد كان ساكناً عن مرضه طوال الشَّهرين الأخيرين، كان جسده الفتى والقوي قد قاوم المرض كثيراً، لكنَّ الطَّاعون لم يرحمه، ظلَّ ينخر في لحمه وعظمه، وهو يُكابِر على فعله فيه حتَّى وقع أُمامي... حملناه إلى الدَّاخل، كان يلفظُ فيما يبدو أنفاسه الأخيرة، كان صدره يعلو ويهبط ببطء شديد، كأنَّ ما تبقى فيه من أنفاسٍ معدودة، كانت شفتاه تتحرَّكان، اقتربتُ منه وهو مُسجى على سرير النُّطبيب لأسمع، هتف بصوتٍ خفيضٍ جداً: «لا تنسني من دُعائك يا سيدي، يشهدُ الله أنني أحببتُك... ويشهدُ الله أنني أحببتُ مصر، وأهل مصر، وأنتي سعيث من أجل أن أنقذ ما أستطيع إنقاذه.. إذا...» وتوقَّف عن الكلام، وراح في غيبوبة... ارتخى جسده تماماً، وسقطتُ ذراعاه على جانبه. «لم يمضُ» صرختُ في المُسعفين دون وعي. «هيا... تحرَّكوا... هاتوا أيَّ شيءٍ لإنعاش قلبه». أنشفتاه بعضُ المُنبهات، فصحا شيئاً فشيئاً، راح يفتحُ عينيه بالتدريج، وحين وقعتُ عيناه عليّ ابتسم، كانت عيناه سماءً بعيدة، زرقاء كأنها تريد أن تحتضنَّ العالم، لكنَّهما كانتا مُتعبتين جداً، ووجهه ليلٌ كأنه يريد أن يحنو على أهل الأرض كلَّهم، هتفتُ به وأنا أقترُب منه: «لن تموت... أنت قوي... وستتعافى بسرعة...». ازدادتُ ابتسامته اتساعاً هذه المرَّة: «لم يبقَ الكثير يا سيدي... كنتُ أتمنى أن أحيأ حتَّى أرى بعينيَّ انتهاء هذا الوباء، وأشاهدَ رحمة الله تنتشر على ربوع مصر... لكن يبدو أنني لن أعيش حتَّى تلك اللحظة...». «لا تقل ذلك، الآن سننشط لك القلب، علينا أن نُخفِّض درجة حرارتك... وعليك أن ترتاح... ترتاح كثيراً». «سأرتاح... سأرتاح اليوم يا سيدي... أرى السَّماء تُناديني... كنتُ أتمنى أن...». وغاب عن الوعي مرَّة ثانية... سارعتُ بالضَّغط جهةً قلبه لكي يفيق، سكبتُ الماء على وجهه، وضربنا عليه ضرباتٍ خفيفة، وقربنا من أنفه رائحةً مُنشّطة، فصحا... «ها قد عُدتُ يا شريف... لن تموت حتَّى تفرَّح بانجلاء البلاء عن مصر وأهلها بإذن الله...». وابتسمتُ، وتابعتُ: «جُمَلتان لم تُكلمهما يا شريف...». «لا أدري ماذا كنتُ أقول يا سيدي». «كنتُ تقول في الأولى إذا...». «نعم، كنتُ أريد أن أقول إذا ميتٌ فسامحني... حاولتُ أن أنقذ معك أكبر قدرٍ مُمكنٍ من الأرواح، لكن ما باليد حيلة». بكيتُ. انحدرتُ دموعٌ بصمتٍ على خدي: «أسامحك؟ بل أنت من يجبُ عليه أن يُسامحني، لقد أحممتُك في هذا العمل حتَّى أهلكك». شدتُ على يده، كانت يده قد وهنت، كلَّ شيءٍ يتغيَّر يا ربِّ في هذا الوباء، الطَّاعون لم يدع شيئاً على حاله، مسحْتُ دموعي، وأردفتُ: «والثَّانية؟». «ماذا قلتُ يا سيدي؟». «كنتُ تقول: كنتُ أتمنى أن...». ابتسم وخفضتُ طرفيه، وهتفتُ: «لا أحتي عليك يا سيدي؛ كنتُ أتمنى أن أتزوَّج ماريَّة...». هتفتُ: «ماريَّة؟». «نعم يا سيدي، ماريَّة». «ولكنها صغيرة في السَّادسة عشرة!». «وهل هذه السنُّ صغيرة يا سيدي؟ يبدو أنك تتذكَّرها وهي ما تزال طفلة، لم تكبر في ذاكرتك أبداً، ثمَّ إذا كانت صغيرة هل أنا عجوز؟ أنا في أواخر العشرين من عمري يا سيدي». «ولماذا ماريَّة يا شريف؟». «لا أدري، لقد أحببتُها يا سيدي... أنت تدري؛ الحبُّ ليس له تفسير... تخيل أن كلَّ الجوارى الذين رأيتُهم في مُنشاء القاضي الفاضل أيام الهناءة لم يُحرَّكُن في قلبي ما حرَّكته ماريَّة... إنها...» عادَ إلى جُمَله المبتورة، وسقطَ في غيبوبةٍ ثالثة.

أيقظناه، كانت عيناه تتحرَّكان في محجريهما ببطء، كان يشدُّ على أسنانه من الوجع، ويقبضُ بأصابعه الواهنة على ملاءة السرير من الألم: «لو كان بيدي يا شريف، لزوجتها لك اليوم قبل غدٍ». «الآن يا سيدي؟ لقد فات كلُّ هذا، لقد أكل المرضُ عافيتي، أنا راحلٌ اليوم، أعرفُ ذلك وأحسن به، كلَّ ما أريده هو أن تُزوَّجها أنت لمن يستحقُّ، دَعك من أمِّها، دريَّة...». وسقطَ في إغماءٍ رابعة، تاركاً جملته الأخيرة مفتوحةً على عادته.

عبرت طيورُ فُسحةَ السَّماءِ، كانت تُحلقُ على ارتفاعٍ مُنخفضٍ، حَطَّ عددٌ منها على نوافذ البيمارستان من جهاته الأربع، كانت تُغني، تُنظر إليها المرضى من فوق أسرّتهم، لم يسمعوا صوتًا جميلًا كهذا منذُ عهدٍ طويلٍ، ابتسموا، لقد عرفوا أنَّ السَّعادة تتحقَّق في أبسط الأشياء، تمَّنوا لو أنَّهم كانوا طيورًا، الطيور تُغني بالطبيعة، ولديها سماءٌ لتحلق فيها دائمًا.

كنتُ لا أزال أسمعُ غناء الشَّحور الذي وقفَ على شباكنا، أيقظُ الصَّوتُ العذب (شريف) ففتحَ عينيه، كان يريدُ أن ينهضَ بجذعه ليرى مصدرَ الصَّوت، لكنَّ الألمَ منعه. «لا عليك يا شريف». «صوته جميل، سيرافقني هذا المساء». «كيف تشعر يا شريف؟». «ماذا تقصد يا سيدي؟». «المرض، كيف تشعر به؟». «أشعرُ يا سيدي كأنَّ رُمحًا طويلًا غاصَّ في أحشائي... تلكَ الطَّعنةُ المُفاجئةُ، ضربتُ ضربتها القويَّة، فأصابني اختناقٌ شديدٌ، انحبستُ أنفاسي رغماً عنِّي، رحَّتُ أرتجفُ وما زلتُ أشعرُ بالاختناق، ثُمَّ لَمَّا أردتُ أن أتَنفَّسَ وأخرَجَ الهواءَ المحبوسَ في أعماقي جرَّاءَ الطَّعنةِ تفلَّتْ دَمًا، ثُمَّ هَبَّتْ في أحشائي النَّارُ، وفي مفاصلي، فلا أنا أقوى على الحَرَاكِ ولا على الكلام... هل الحُمَّى تفعل ذلك كُلُّه؟! مرَّتْ فترةٌ لم أكنُ أستطيعُ الكلامَ، ثُمَّ لم أعدُ أحسَّ بما يجري حولي، ثُمَّ بدوتُ أنني أميلُ إلى النَّومِ، ثُمَّ صرَّتُ بالفعلُ أغرقُ في نومٍ عميقٍ جدًّا، فإذا استيقظتُ منه اكتشفتُ أنني لم أنمُ إلا ساعةً أو بعضَها، ثُمَّ صارَ لساني يتبيَّسُ في فمي كأنَّه قطعة خشبٍ، وصارَ تحرُّكُه صعبًا، ثُمَّ جفَّ حلقي، ونشفَ ريقِي فلم أعدُ أستطيعُ ابتلاعَ شيءٍ، ثُمَّ هذا القلبُ، هذه الأوجاعُ الكامنةُ فيه، هذه الأعصابُ التي أشعرُ أنها أفاجئ تنهشُ رأسي، ثُمَّ هذه الألامُ في السَّاقينِ، ثُمَّ هذا الدَّمَلُ الذي يكبرُ تحتَ الإبطينِ، ثُمَّ هذه الحَكَّةُ التي لا تتوقَّفُ في أسفلِ البطنِ، وهذه الهرشةُ التي تُسيلُ الدَّمَّ، ثُمَّ هذا الدَّمُ الذي ينفجرُ من فمي بين فترةٍ وأخرى في دُفقاتٍ شديدةٍ، ثُمَّ... هل الطَّاعونُ يفعل ذلك كُلُّه؟». «سأفصد لك الدَّماملَ، عليك أن تترتاحَ الآنَ ريثما يُعدُّونَ المشارطَ ويُعمِّقونها». «لا يا سيدي، لا أريدُ أن تفصدوا لي شيئًا؛ إنني هامةٌ عن قريبٍ، لم تعدْ لي رغبةٌ في الحياة، أشعرُ أنَّ النهاياتَ تأتي سريعةً دائمًا، وها هي نهايتي أراها في نهايةِ هذا النَّفقِ الطَّويلِ الذي مشيَّته، إذا متَّ اللَّيلةَ فادفني إلى الموضعِ الذي كان يُصلِّي فيه سيدي القاضي الفاضل في المُنشأة. الأرواحُ تعودُ إلى موضعِ سُجودِها».

يرى الموتى موتهم، لم يمرَّ عليه المساءُ، لم يُبقَ له الطَّاعونُ شيئًا لم يطعنه بذلك الرَّمحُ الذي وصَّفه لي، لكنَّه كان مُطمئنًّا، كأنما كان يريدُ أن يسيرَ بخطواتِه الأخيرةِ إلى حتفه، كان بطلًا من أبطال هذه الجائحة، لكنَّ الأبطال يموتون أيضًا، والجوائح تموت، لم يكنْ عليه أن يعيشَ حتَّى يرى انتصارَ العافية على الدَّاءِ، والحياة على الموت، والتَّضحية على الأنانيَّة.

شيعه أطباء البيمارستان جميعهم، لقد كانوا هم الطيور التي غنَّتْ له على النوافذ، نوافذ الروح العتيقة، كان يحلم أن يطير، وها هو قد فعل، بعض الأحلام تتحقَّق بالموت.

دفنَّه تحتَ شجرة النَّخلِ العالية، النَّخلة التي كان تحتها موضعُ السُّجودِ، وكانتُ خلقها المكتبة الضَّخمة، أيام كان القاضي الفاضل يستريح أحيانًا عندها من عمله الدَّووب في كتابة التاريخ. “

لم يعد بإمكاننا أن نحفر مزيداً من القبور، الإفتاء يقول: «ألقوا موتاكم في النَّيل». النَّيل يقول: «لم أعد أحتمل مزيداً من الموتى». حَقَّارو القبور يقولون: «ادفعوا ونحن جاهزون. الرِّفش على الأكتاف دائماً!».

هربَ الأمراء وتركوا النَّاسَ أو ما تبقى منهم يُواجهون الطَّاعون وحدثهم، دبَّتِ الفوضى، لم يكن الطَّاعون ينقصه فوضى جديدة، الطَّاعون فوضى. ونهشَ وحشُ الجوع كلَّ حيٍّ. أكلهم وطحنهم وأحرقهم ودَّرَ رمادهم في الفضاء. ثمَّ جعلهم زبداً يسيلُ فوق الماء. جُنَّ النَّاسُ. الطَّاعون جنون، الجوع جنونٌ أشدُّ! الطَّاعون فسحةُ الموت، الجوع هو الموت!

كانت العَرَبات تنقل في اليوم ما بين ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف جُثة، ليسَ بمقدور دولةٍ حتَّى ولو كانت بحجم مصر أن تدفنَ كلَّ هؤلاء في يومٍ واحدٍ، الموتى يُؤكلون، تُنبَشُ قُبورهم، ولا يُمكن أن تُعيَّن الدولة خُراساً للموتى في حين أن الأحياء لا يجدون مَنْ يحرسهم من الموت!

مَنْ عاشَ في القاهرة مثلي لا يُصدِّق أن هذه هي القاهرة، كانت القاهرة تنعشُ بالنَّاسِ نعثاً، لم تكن أسواقها تخلو من الحياة في نهارٍ أو ليل، كانت الأزقة مملوءة بالصَّغيرات اللواتي يُطلنَّ من الشرفات مُتھامسات، والحواري مملوءة بالأولاد الذين يتراكمون ويتصايحون، والمساجد ضاحجة بالمُصلِّين والعلماء والدُّروس، وحتَّى المناظرات والمُنافرات، والجسور التي تربطُ ضيقتي النَّيل عامرةٌ بالعَرَبات التي لا تتوقَّف عجلاتها عن الدَّوران بالخيول الصَّاهلات والنِّساء البائعات والشباب المُتسكِّعين، كان أهل القاهرة يقضون حياتهم في الشَّوارع والأسواق أكثرَ ممَّا يقضونه في بيوتهم، وكانت الجدران تُردِّد صدَى حوافر الخيل الناقرة على الأرصفة، ونداء الباعة، وتكبيرات الأذان، وصياح المُتقاضين، وهتاف الدَّلالين، ونهيق، وزعيق، ونقيق، وصفيق الدَّوابِّ والأبواب... واليوم؟ انقطعَ شريان الحياة من القاهرة، وأقفرَ كلُّ هذا، وحلَّ السُّكون الرَّهيب، والصَّمم الطَّويل، كأنَّ الضَّجيج سقطَ في جُبِّ عميق، وذاب في أغواره ولم يخرج من هناك أبداً!! لم تعد الأقدام تعبر شيئاً، لا شيء هنا غير الجُثث أو ما تبقى منها، فقد بدأ النَّاس بعدَ الجوع عهداً لا يُمكن التكهّن به، ولم يكن وصفه في الاستِطاعة!

الجوع الآن يزحفُ على الطَّرقات، وحشاً يلتقم كلَّ شيءٍ، ودُخاناً مسموماً يدخل في كلِّ أنف. والبوابات لم يعد يعبرها أحدٌ لا داخلاً إليها ولا خارجاً منها، كان الجوع يقفُ على أوَّل البوابات، مَنْ دخلها اختفى، وكان بعضُ الذين لا زالت في أجسادهم بقيةُ قُوَّة من الأثرياء والموسيرين يهربون من هذا الوحش الفاجر فاه في كلِّ اتجاه كأنهم فئرانٌ مذعورة، هربَ الأمراء، وتبعهم الأعيان، ثمَّ الثُّجَّار والأثرياء، هربوا من الموت إلى القرى البعيدة، لا يريدون أن يسقطوا في فخِّ الجوع، كان فخُّ الجوع أقسى بكثيرٍ من فخِّ الطَّاعون، ولئن كانت نسبة النِّجاة من الطَّاعون ضئيلةً جدًّا إنَّ نسبة النِّجاة من الجوع كانت مُستحيلةً كلَّ الاستِطاعة.

الجميع يهربون، مَنْ كان قادراً على الهرب، الجنود، الفُضاة، النِّساء، اللُّصوص، المُجرمون، البرَّاء... آخرون... كان الصَّوت قد انكتم في الأحياء، كأنما سُجِبَ منه الهواء تماماً فلم يُصدر أيَّ نامة، وكان النَّاسُ القادرون على الهرب يركضون في وسطِ هذا الصَّمم وهم لا يسمعون شيئاً ممَّا حولهم، فقط يسمعون ذلك الصَّوت في داخلهم الذي يحثُّهم على الجري بالروح بعيداً... وممَّ يهربون؟ من الجوع. لقد بدأ اصطيادُ النَّاسِ لأشباههم من أجل أكلهم حتَّى لا يموتوا من الجوع!!

ولقد أتى زمنٌ من الخوف لم تَدْرُجْ فيه قِطَاةٌ على الأرض، ولم تحجلْ فيه حَجَلَةٌ على الطَّرِيقِ، ولم تمش فيه رجلٌ على السَّبِيلِ، وانقطع صوتُ الأذان من المساجد، بعد أن كان وحده الصَّوت في آبار الصَّمْتِ المرדومة.

ولقد دبَّ الخوفُ في سائقي العَرَبَاتِ، ولم يبقَ منهم إلا مَنْ كان ذا قلبٍ شُجاع، فراح يجوبُ الدِّيارَ يبحثُ عن الموتى لينقل رُفاتهم إلى مئاويهم الأخيرة، غير أن ماريّة لم يلتفت قلبُها إلى النُّطُورِ الَّذِي أدخله الطَّاعون، أصبح موتى الطَّاعون يلقون، وصار يرتفع عدد الموتى من المأكولين، ماريّة لم تخف، لم تتراجع، ولم يُننِّها الأمر عن مواصلة عملها، لقد كانت فارسةً تليقُ بفارسٍ مثل شريف. الآن أتذكُّره وتدمع عيناها على رحيله.

ومع انتشار صيادي الأدميين في الطَّرقات إلا أن الدولة ألزمت سائقي عَرَبَاتِها بمواصلة النُّجُوال في شوارع القاهرة المُفْجَرة للبحث عن الموتى ونقلهم، ولذا لم يُراعوا بعد إخبارهم على هذا حُرمةً لميِّت، فقد كانوا يحملون الجُثث على ظهورهم كأنها حقيبةٌ أو جُوال من الشَّعير العَفِن، ويرمونها في قعر الصَّنَدُوقِ رمياً دون مراعاةٍ لرأسٍ ترتطم بحافة الصَّنَدُوقِ، أو كتفٍ تنخلع من شدة السَّحب، وكان سائقُ العربة يرمي

الكتف المخلوعة بعيداً، ويحمل معه الجُثة الثقيلة، وكان ربّما يُجهز على رأس ضحيةٍ فيتمَّ إزالتها عن العنق حتّى لا تتعبه في الجرّ أو الرمي. غير أن هؤلاء مع قلة أدبهم مع الموتى انقطعوا بعد فترةٍ وجيزة، فقد تمَّ اصطيادهم جميعاً، كانت أصوات العَجَلات، وصهيل الأحصنة، وشتائمهم المُتكررة المُتطائرة في الفُضاء هي التي دلَّت الأفواه الجائعة عليهم.

ينطبقُ هذا علينا نحن الأطباء، بل كُنّا نحن المُستهدفين في هذا بالدَّرَجَةِ الأولى، وسأحدثكم في هذا الشَّان بالذَّات بما لا يُمكن أن يُصدِّقه عقلٌ مهما اشتطَّ به الخيال.

غير أن الجُثث كانت تهزأ بناقليها المُعربدين، وبحقَّاريها المُحشَّشين، وبحامليها الأصحاء، تقول لذلك الجسد الَّذي لم يسكنه الموتُ بعد: «لقد كُنّا مثلك، ويوماً ما ستكونُ مثلاً. ما تفعله بنا الآن، سيفعله أحدهم بك عمّا قريب». وكانت الجُثث الأخرى التي تسمع هذه العبارات تغرقُ في الضحك حتّى تستلقي على ظهورها! لكن من يسمع صوتَ الجُثث؟!!

كان الطَّاعون قد بدأ يتخلّى عن دوره بالتدريج، ولكن ليس لصالح العافية، بل لصالح موتٍ من نوع آخر، أشدَّ وأنكى، ولئن كان الطَّاعون يحمل حرباً وينظر في الوجوه ثم يُعمد تلك الحربة في الصِّدور، إنَّ الجوع كان مخلوقاً خُرافياً ضخم الجُثة، أعمى البصر، يحمل بُلْطَةً ويمشي بقدميه العاريين فوق الجُثث ويُقطعها إرباً إرباً، لكن لم يفعل ذلك؟ هل يموت الميِّت؟

لم يترك الموت لي صاجبًا. قضى أكثرهم بالطاعون، أفاضل الناس كانوا أغراضًا لهذا الموت فاجتاحهم، كُنَّا مُجتمعين في ليلٍ هنيءٍ، نتجاذب أطراف الحديث، ونضحك، ونسمر، ونتذاكر المعارف، ونشرب، ونلهو، ثم سقطت علينا سهامٌ من السماء، فتوزعتنا، فأصابت أكثرنا فقضى، وما نجا إلا القليل.

ولما رأى بعض أهل الذِّكر ما حلَّ بأقرب الناس إليهم، عرفوا أنَّ ما أصاب النَّاس سيُصيبهم، فكتب في ذيل يومياته: «كنتُ فتىً قويًّا، أذرع الأرض، وأجوس الدِّيار، وأحملُ المتاع، وأنتهي النساء، ثمَّ ها أنا أعيشُ أيامي الأخيرة ضعيفًا، لا أستطيع أن أخطو خطوةً أو اثنتين، ولا تقوى ذراعي على حمل نعلي، ولم تعد لي رغبةٌ في النساء، ولا لهن رغبةٌ بي، كأنني لا شيء، كأنَّ ما كنتُ فيه لم يكن».

واشتدَّ عجز النَّاس وعجزنا نحنُ عن دفن الموتى، وبات أهل الميت مع الميت في المقبرة ينتظرون دورهم ليُحفر قبر ميتهم، ولم يتوقَّف الحقَّارون عن حفر القبور حتَّى في الليل، ولم تسلم الجُنث من أنياب الكلاب الضالَّة التي لم يتمكَّن الجوعى من اصطيادها، فراحت تنهش تحت مرأى أهل الميت أطراف الموتى، ولا يستطيعون لها دفعًا ولا معها جيلة لشدة ضعفهم، وخوار فواهم، كانت عنق الميت تتقطع تحت أنياب الكلاب أمام النَّاس الخائرة على الأرض ولا أحد يقوى على القيام لِنهْرِها، ولقد عرفت الكلاب ذلك، فكانت تأكل باطمئنان، وتمزق أفضال الميت دون أن تخشى أهله ولا نظراته البائسة.

ومع الجوع وضعف القوة وكثرة الجُنث، راح المُقيمون في القبور يرون أشياء غريبة، أقسم كثير من ممَّن وفدوا إلى البيمارستان أنَّهم رأوا شياطين تأكل الجُنث، ومخلوقات غريبة تحاول انتزاع حناجرهم بمذراة من حديد في أيديها، ووحوشًا بلا عيون تبتلع الأدميين بلقمةً أو اثنتين، وأنهم باتوا ليلتهم تلك مذعورين، يرتجفون من الرعب، وأنَّ بعضهم هرب وترك جثةً قريبه للشياطين تفعل بها ما تشاء!!

أما النِّيل، فصار سيره بطيئًا لكثرة ما ألقى فيه من جُنثٍ لموتى لم يسأل عنهم أحدٌ، ولانتفاخ تلك الجُنث مع وجود مُستنقعات القصب، ازداد بُطء النِّيل، وكثر حوله الصَّيادون، وكانوا يرون في هذه الجُنث النَّافقة المُنتفخة فرائسهم المُشتهاة!

بلغ عددُ الموتى الذين أعلن عنهم ديوان مصر ثمانمئة ألفٍ نسمةً، إبه رقمٌ ربِّما يزيد عن نصفِ عدد سُكَّان البلاد كلِّها. هل ينزل بمصر ما نزل بقوم عادٍ، فنهلك حتَّى لا تبقى مِنَّا باقية؟! يا ربَّ ما الذي أوصلنا إلى هذا!؟

أنا باقي في مصر، لن أتركها حتَّى يرتفع عنها هذا الوباء، كثيرون يسوا من رحمة الله، يقولون: طال علينا الأمد، أما من رحمةٍ بعدَ نعمةٍ؟! أنا أرى أنَّ رحمة الله قد حلتْ مذ تزلزلت الأرض، وأنها قريبةٌ، وأنَّ مصر ستعود كأيام الفتح الأولى، أشدَّ ما تكون بهجةً ورونقًا.

مع آلاف الموتى الذين رأيتهم، لم أجد معنىً حقيقياً للحبِّ إلا في نظرات المُودِّعين الأخيرة، كأنَّ الأحياء لا يُدركون قيمة الرّاحلين إلا حينَ تحلَّ المحن بهم، أيها النَّاس؛ أن تهبوا أحبّاءكم أضماميم الورد في حياتهم خيرٌ من أن تضعوها على قبورهم بعد أن يرحلوا!!“

” (٧)

بائعة الورد

لقد انضمتُ إلى صفوف صبيّادي البشر، تحوّلتُ إلى امرأةٍ أخرى، ليس لها وجهها القديم، لم تعد تنهضُ في عينيها العميقتين غيرُ آلافِ الدُّناب التي لا تعرفُ الرّحمة، نحتاجُ إلى آلافِ القرون لنفهمَ الإنسان!!

كانتُ تصيدُ البشر، صيّدُ البشر جاء في أعقابِ رحيلِ وحش الطّاعون، كان الطّاعون في تلك الأيّام يُلمِّمُ أذياه، وينسحبُ من السّاحات رويداً، لا أحدٌ يعرفُ بالضبطِ كيف جاء، ولا كيف يرحل الآن!! أمّا الجوع الذي أعقبه فكان طاعوناً أشدّ، ولم أدر أنّ الجوع يفعل هذا كلّهُ إلا بعد أن عاينته.

كانتُ مُنشأةً القاضي الفاضل قد تحوّلتُ إلى مقبرةٍ جماعيّة، عشرات الألوّف دُفِنوا في حدائقها، لم يكن أحدٌ من هؤلاء الموتى المرّمين في حُفَرٍ كبيرة يدري أنّه فوقَ هذه الحُفرة العملاقة التي رُموا فيها كانتُ تُدار الكؤوس وترتفع الضّحكات، وتُمدّ الموائد، وتُغني المُعَنيات، وتصدح بالألحان ألف حنجره!! مَنْ يستطيع أن يُخبر هذه العيون المُطفأة التي عميبت من الطّاعون في آخر حياتها، والتي فقدت السّمع، أنّها الآن تملأ أفواهها من ترابٍ كان يمشي فوقه قبل أربع سنواتٍ فقط أصحُّ النَّاس، يلبسون أزهى الثّياب، وينظرون إلى أجمل الزّهور، ويستمعون إلى أعذب الألحان، ويملؤون أفواههم بأشهى المأكولات وأطيبها!!

بدأتُ أبحثُ مع رئيس دواوين مصر أمرَ إغلاقِ المُنشأة أو رَدِّها، أو تسويرها وجعلها قرافة، فاستمهلني حتّى ينظر في أمرها، وكان لا يزال فيها عددٌ من المُتطوّعين، وقد فرّ عددٌ آخر، ولم يكن أحدٌ بعد اليوم ليقف في وجه فرارهم، فإنّ الشّرطة والوالي ورؤساء الدّواوين وأمير الجند كلّهم قد باتوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً. أمّا الهاربون فقد اصطادهم صيادو البشر، ودبّحُوهم وأكلوهم. ولَمّا وصل الخبر إلى مَنْ تبقى في المُنشأة أثر أن يموت فيها جائعاً عاجزاً مريضاً بالطّاعون على أن يقع في أيدي هؤلاء المُتوحّشين، ولكنهم لو علموا ما يُخبئه لهم الغيب لفرّوا من لحظتهم لا يلوون على شيء!!

ولَمّا لم يجد النَّاس ما يأكلون أكلوا ورق الشّجر، ثمّ عزّ ذلك على بعضهم فأكل روث الدّواب وشرب بولها، ولَمّا عزّ ذلك عليهم أكلوا التّراب، ولَمّا عزّ عليهم التّراب، تركوا أنفسهم تموت بين يدي خالقها، ولقد بدأ النَّاس في المُنشأة يموتون من الجوع والطّاعون، ولم نعد ندري - نحن الأطباء الذين عجزنا عن أن نُعالج هذه الأعداد كلّها، بعد أن مات أكثر من نصفنا أيضاً - إن كان مَنْ يموت، مات جوعاً أم مات مطعوناً!!

شيء من المجهول، من القدر الغامض كُتب على الناس أن يعيشوه... المرض جزء من هذا القدر، لكنه لم يكن كل شيء، المرض وجه من وجوه الموت، الموت الذي هو اليد التي تحرك تلك الحياة وشخصها في كل مكان؛ ساحات البيوت، وساحات الحرب، وساحات الجامع، وساحات دور البغايا على حد سواء!!

لقد صارت تُسمع أصوات تقول: «من يشتري جسد ابنتي مقابل كسرة خبز؟»، بل صارت الصبية تقول: «من يستحل جسدي مقابل نصف رغيف ولو كان يابساً...؟». ولم يجذ رب الأسرة من يشتري منه أبناءه، فاعتذر إليهم بالموت، وقضى معهم في مكان واحد. ولقد دخلت بيوتاً رأيت فيها أسراً بأكملها قد ماتت، وبدا من إحدى هذه الموات أن رب الأسرة طلب منهم أن يستلقوا جنباً إلى جنب، ويمسك كل واحد بيد أخيه أو أخته، كي يُعطي من فيه بقية من حياة جزءاً من هذه البقية للشخص الذي يُمسك بيده إلى جانبه. ولربما عاشوا بعضاً من النهار زيادةً على ما كانوا يتوقعون، لكنهم حين ماتوا، ماتوا مُتماسكين على هذه الهيئة... ولقد رأيت جثثاً أخرى قد مرّ عليها أكثر من شهرين أو ثلاثة، لم يطرق بابها أحد، وقد بلي اللحم ولم تبق إلا ثياب رثة على كومة من العظام!!

وعرفت في حينها، حي زويلة، فتاة كانت تبيع الورود في الساحات، وقد كانت يتيممة ولكنها ذكية، وعاشت بما كانت تبيعه من تلك الورود جلب لها القليل من المال مع الكثير من السعادة، وكانت ورودها تهب البسمة للقلوب العاشقة، ولربما تُولف بين حبيبين، وهذا ما كانت تتخيله، بل ما كانت تود حدوثه. واليوم رأيتها مُلقاة في الشارع لا يكثر لها أحد، ويبدو أنها لم تُؤكل حتى الآن لأن صيادي البشر لم يهتدوا إليها بعد، وخفت بالفعل أن تتناهبها أفواههم، فترجلت عن الأبلق، وحملتها بين يدي، وكانت لا تزال طرية الجسد، ويبدو أنها ماتت الليلة الفائتة، وأردفتها على ظهر الحصان، وسرت به وبها وأنا أتلفت حولي في كل خطوة خشية أن يُعثر علينا، إلى أن دخلت بها بيتي، ولقد أفرّ هو الآخر، وصار مُوجشاً، فوضعها على الأرض في ساحة الزهور، وتاملتها مُلقاة بلا جراك، وتخلّتها مُفعمة بالحيوية أيام كانت تصبح في

السوق: «يا ورد مين يشتريك؟». وكننت أراها وردة تبيع الورود، واليوم لم تعد تحمل في يدها التي اسودت بالموت غير العدم.

أيها الورود الذي مات صغيراً وهو لما يفتح... طعنة في القلب تجرح... لا تبيعي الورود فالورد مع الموت هو الموت... وهذا جسد غاض بهاء وتقرح... كيف تقرح؟ كانت العينان فيها بهجة البائس والخلم المجنح... وهما الآن ظلام حالك.. ليس فيها لبقايا الثور ملتح... ونداك العذب هذا سكتت أوتاره اليوم فما عادت لتصدح...

لم يُعني أحد في الحفر، كنت وحدي وجسدها المُسجى قريباً مني. شريف مات، ومارية ما زالت تُقاتل بعربيتها رغم أكلي لحوم البشر، وسالم ما زال يُقاتل هو في البيمارستان الرئيس، وخليل اختفى، لا ندري... فجأة لم يعد يأتي إلى البيمارستان، قال سالم أمس: إنني لم أراه منذ أسبوعين، ربّما مع أبيه اللحام يُجري بعض العمليات الجراحية، أو يقوم بقصد الدامل، أو بإعطاء الدواء لمن يحتاج... ولذا حفر القبر وحدي، استغرقتني ذلك عصر اليوم إلى أن غربت الشمس، لم تكن لنتظر هذا الوقت كله إلا لكي تحظى بكرامة دفنها في تلك الحفرة حتى لا تتناهش الوحوش الأدمية جسدها البريء. دفنتها تحت شجرة البان، هي الأخرى لا تدري وهي تستقر في القاع أننا أنا ودرية جلسنا أماسي هنا نتحدث، وهي لا تدري كذلك أن مارية تعلمت عند هذه الشجرة بالذات كيف تصنع الأدوية من الأعشاب، الأعشاب التي زرعت هي مُعظمها في هذه الساحة قبل أكثر من عام... الآن انظروا إلى هذا الثرى، لكم أن تتخيلوا أن هذا الذي ترونه من الجذب كان يوماً ما قريباً لا ترى منه ذرة واحدة لكثرة ما فيه من الورود والزهر والأعشاب والنباتات الطبية، وذوات الشذى والعبق!

حينَ أهْلَتْ آخرَ رَفْسٍ من التُّرابِ على جِسدِها المَطعون، ورجعتُ إلى الوراءِ حُطوتَين، نظرتُ إلى القبرِ، شيءٌ ما تخيلتهُ يتحرَّك، أعرفُ أنه ليسَ حقيقيًّا، وعلَيَّ الانصرافَ من هنا بسرعةٍ قبلَ أنْ تزدادَ هذه التَّهَيُّواتُ حتَّى يخلتطَ الوهمُ فيها بالحقيقة، بالفعل تركتُ الرَفْسَ من يدي، وأدرتُ ظهري، ومضيتُ باتجاهِ الدَّرجاتِ المُفضَّياتِ إلى الطَّابقِ العلويِّ، غيرَ أنَّني سمعْتُها من تحتِ التُّرابِ تقول: «قد كنتُ أخرجُ إلى الشَّارعِ أبيعُ الوردَ ليسَ من أجلِ أنْ أوْلَفَ بينَ قلوبِ العاشقينِ يا سيِّدي، بل من أجلِ أنْ أمنعَ دمعاً ألاَّ تسقطَ على خَدِّ أخي الصَّغيرِ في المساءِ إذا قال لي: أنا جائعٌ».

كان الموتُ إذا نهشَ أرواحَ البشرِ لم يسألَ عن أسمائهم، ولا عن أعمارهم، ولا عن طبقتهم في المُجتمع، ولم يكنْ يعنيه من هذا الذي سينهشُ روحه إنْ كان يحملُ وسامًا على صدره في حربٍ خاضها أو نُدوبًا في الظهرِ من جرَّةِ ماءٍ حملها سقاءً في السَّوقِ، لم يكنْ ليُفكِّرَ قبلَ أنْ يقضمَ ثُقاعةَ هذا الإنسانِ ما إذا كان أبيضَ أو أسود، له أبناءٌ سيُصبحون أيتامًا من بعده أو ليسَ له. ولم يكنْ ليستجيبَ لطلبِ هذا المنهوشةِ روحه أنْ يُمهلهَ قليلاً لكي يتوبَ من آثامه، أو يُمهلهَ ليشربَ آخرَ الكأسِ حتَّى لا يموتَ عطشًا!!

صرتُ أسيرُ في الطُّرقاتِ حذرًا، كان الأبلقُ صديقي الوفيِّ، يسمعُ من مسافةٍ بعيدةٍ، وكان يُحدِّرنِي بأنْ يُسمِّرَ رجليه في الأرضِ ويلفَ عنقه، فإذا لَفَّها جهةَ اليمينِ عرفتُ أنه يُريدُنِي أنْ ألتفتَ إلى تلكِ الجهةِ، أو العكس، وذلكَ حتَّى لا أقعَ لقمَةً سهلةً في أيدي صَيَّادي البشرِ. وكان الأبلقُ من الذِّكاءِ بحيثُ لا يسهلُ في شارعٍ مهجورٍ، ولا يُصدرُ أيَّ صوتٍ في حيِّ ليسَ فيه أحدٌ، وإذا مشى على أرضٍ مرصوفةٍ بالحجارةِ مشى مُتمهلاً حتَّى لا يُسمعَ وقعَ أقدامه، فيدلُّ ذلكَ الصَيَّادينَ علينا، وصرتُ فيما بعدُ أضغُ في حوافره بعضَ القماشِ حتَّى لا يكونَ لوقعها صوت. وكان إذا رأى خطرًا يسبقني إلى ذلكَ بزمنٍ كبيرٍ، فعيناه حادثًا البصرِ، وكان يُغيِّرُ وحده الطَّرِيقَ، ولا أدري كيفَ كان يراهم من هذه المسافةِ البعيدةِ، ولا كيفَ يعرفُ أشكالهم، ويُميِّزُ بينَ من كان منهم صَيَّادًا بشريًّا، ومَنْ كان منهم إنسانًا عاديًّا، ألجأتهُ الظُّروفُ إلى الخروجِ من بيته في هذه الأوقاتِ الخطيرةِ! “

” (٨)

أكلو لحوم البشر

أشباح، كائناتٌ بينَ البشرِ والوحوشِ. ليسوا بشرًا خالصين، إنَّهم أنصافُ بشرٍ أو أشباه، وجوههم آخرُ ما تراه إذا رماكُ القَدْرُ بينَ أيديهم؛ لأنكَ لن تبقىَ بعدها حيًّا. ينتقلون كالرَّيحِ، يُبصرون في الظَّلامِ كما يُبصرون في النَّهارِ، يظهرون فجأةً. ويختفون فجأةً. يبدو الحيِّ خاليًا منهم، فإنْ عبرتَ زاويةً من زواياه انقضُّوا عليكِ، ليسَ لهم صوتٌ، إلاَّ ذلكَ الصَّوتَ الذي يُطلقونه فرحًا عندما يظفرون بلحمك.

كان الطَّاعونُ سريعًا وحَفِيًّا ولا يُبقي من جسدِ مَنْ حلَّ فيه باقية، وكذلك كانوا، إنَّهم طاعونٌ أشدُّ، أخرجهم الجوعُ من جُحورهم، واضطَّرَّهم إلى أنْ ينزعوا من أرواحهم بعضَ الصِّفاتِ الأدميةِ، وُبرِّكَبوا بدلًا منها صِفاتٍ أخرى بهيميةٍ أو حيوانيةٍ. لا يظهرون في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ مصرٍ، بل لهم أوقاتٌ لظهوراتٍ مُحدَّدة. هم شياطين، ألبسوا أنفسهم قامةَ الأدميينَ وانتشروا في الشُّوراعِ، أو هم صورةُ لظهوراتِ يأجوجٍ ومأجوجٍ، ولذا اعتقدُ أنا، أنا أعني عبد اللطيف البغداديِّ، أنَّهم يحتاجون إلى ألفِ سنةٍ حتَّى يظهروا مرَّةً أخرى لأسبابٍ مُشابهةٍ، نحن الآن في عام ٦٠٠ للهجرة، سيظهرون إذا قدرَ الله لهم ذلكَ في عام ١٦٠٠ للهجرة، قبلَ ذلكَ بسنةٍ أو بعدها بسنة. إنَّ الظُّروفَ التي تُطلعهم لا يبعثها الله على البشرِ إلاَّ كلَّ ألفِ سنةٍ أو ألفي مرَّة. على البشرِ أنْ ينتظروا طويلاً حتَّى يروا هذا الصِّنفَ من المخلوقاتِ.

سيأخذون بالتشكّل في بعض الأوقات، سيتشكّلون في هيئة أبيض أو أخيك أو أمك، هذه التي تفعل ما تراه وتظنّه من الخوارق، إنها تفعله على الحقيقة، وهي أمك، ولكنها ليست كذلك تمامًا؛ إنها من الخارج أمك ومن الداخل شيطان لعين!!

لا يشبعون، يأكلون كلّ شيءٍ حتّى مَخّ الرأس وماء العظم وكُبة الشّعْر، ولا يشبعون، أجسادهم نحيلة، وبطنهم ضامرة، وشعورهم تتدلى من فوق فروات رؤوسهم مُتهذلة على أكتافهم، ولهم نظرةٌ مُرعبة، تراها كما قلت لك من قِبل مرّة واحدة، لأنها المرّة التي تسبقُ النهاية، لم يُفَلِّتْ من قبضتهم أحد، إلّا في النّادر جدًّا من الحالات. يستخدمون الخطاطيف والكلاليب لاصطياد فرائسهم، فرائسهم كلّها من البشر، لأنّ الكلاب والقِطط والفِئران وسائر الحيوانات كانت قد ماتت منذ زمنٍ بعيدٍ. يحفرون حُفْرًا في الشّارع، ويُعيدون ردمها فتظهر كما لو أنّها سليمةٌ لم تُمسّ، فإذا مشى فوقها الصّيد وقَع فيها، فتمسكُ بذراعه أو تنشبُ في عنقه كلاليب، تُعلّق عليه، وتنغرز في جسده، فلا يستطيع فرارًا، فيهرعون إليه، يحملون سكاكينهم المشحودة فيقطنونه وهو حيّ، ويشوونه وما زال فيه رَمَق في الحفرة نفسها، ويأكلونه. ثمّ يستعدّون لصيدٍ آخر!!

ولقد تعاطم عدّهم، حتّى صار كلّ مَنْ لا يجدُ طعامًا يسعى إلى أن يصيدَ إنسانًا، فإذا كان رجلًا قادرًا على الحفر في الطّرق، والتّربص في الزّوايا فعَل ذلك، وإن لم يكن قادرًا لجأ إلى الحيلة، واستدراج ضحيّته بالقول المعسول ودفع الأموال، وكان أكثر من يلجأ إلى الحيلة هُنّ النّساء.

ولقد شاع أمر صيّادي البشر وأكلي لحومهم في القاهرة، حتّى صار بعضهم يصيدُ بعضه إن لم يجد ما يأكله.

صار الوصول بالأبلق إلى البيمارستان خطيرًا، وكان يُمكن أن أقع فريسة هؤلاء في أيّ لحظة، ولذا صرّحتُ أخرج في الصّباح الباكر قبيل طلوع الشّمس، فأكثرهم يكون نائمًا في هذا الوقت، وأبيّث تلك اللّيلة أو اللّيلي في البيمارستان ولا أعودُ إلى بيتي إلّا قبيل شروق الشّمس حتّى أتجنّب بقدر ما أستطيع الوقوع في أيديهم. وقالت لي ماريّة ونحن في البيمارستان مرّة: «إذا شئت يا سيّدي رافقتك في ذهابك وإيابك حتّى أحافظ على حياتك، وإنّي أقطع بالسّيف وأطعن بالرمح مثل أيّ فارس». فضحك من قلبي: «امرأة تحمي رجلًا!». «وما الغريب في الأمر؟ لا تستقلّ بي يا سيّدي، وأنا أعرف بالدرّوب منك». فضحك أكثر هذه المرّة وسألته: «وانتِ ألا تخافين على حياتك منهم؟». فردت بثقة تستقرّ مثل ماء صافٍ في عينيها الوادعتين: «إنّ حياتك أهمّ من حياتي يا سيّدي، يُمكنك أن تجد ألف امرأة مثلي، لكننا لا يُمكن أن نجد في مصر كلّها مثلك». ودخلني الرّهو قليلاً، فشعرتُ بالغبطة في زمن الموت، وبالفرح في طوفان البؤس: «ولكننا إذا فقدناك فقدنا فارسةً يعزّ نظيرها». «سيّدي، أنا أعرفهم، أعرف هياتهم، وأعرف أساليبهم». سألتها مُستغربًا: «حقًا؟ متى عرفت ذلك كلّها؟». «أمّي واحدة منهم». «درّية؟». «كما تدعي». «كما تدعي أنّها واحدة منهم؟». «لا، كما تدعي أنّها أمّي». «أليست أمك؟». «ليس هذا وقت التفتيش عن الماضي، لكنني أقول إنّها صيّادة بشرٍ مثلهم، وإن كانت تعمل بأسلوبها الخاص، إنّها تصيدُ لتبيع، وهم يصيدون ليأكلوا». «ولمّ تبيعهم؟». «لئولكوا يا سيّدي».

«أهي بحاجة إلى المال؟». «كلّا يا سيّدي، يُمكنها أن تعيشَ بقليلٍ منه». «فلمّ إذا تفعل ذلك؟». «إنّها تُسمّي نفسها ملاك الرّحمة». «ماذا تعني بهذه التسمية؟». «تعني أنّها تُخلّص النّاس من آثامهم بأكلهم أو بموتهم والقضاء عليهم». «لكنّها تُشبع آثام الأكلين». «شهوئها أنّ ترى النّاس يموتون، تقول دائمًا: الموتُ أرحمٌ بالإنسان وبالارض، أمّا الإنسان فيتخلّص من حياته البائسة، وأمّا الارضُ فتتخلّص من شرور هؤلاء النّاس، وتزداد حُفّة بموتهم فلا يعودون يشغلون فراغًا ولا يعودون يضغطون عليها بأقدامهم، ويُثقلونها بأجسامهم المترهّلة». «إنّها على هذا مريضة». «المريض من هذا النوع لا

يعترفُ بأنّه مريضٌ، إنّه يرى نفسه منقذَ العالمِ، وأنّه أصحّ هؤلاء البشرِ البُلْهَاءِ، بل هو يعتبر نفسه نبيهم الذي سينقذهم من ضلالتهم، ويخلصهم من شرورهم!!».

أصدرَ مجلسُ الإفتاء في مصر أمرًا بقطع رأس كلِّ صَيَّادٍ من آكلي لحوم البشر، أو إحراقهم إذا قُبِضَ على عددٍ منهم، ولقد أدّى هذا إلى فتنةٍ عظيمةٍ، إذ إنّ أصدقاء المقبوض عليهم كانوا يتسلّون خلفهم إلى السجّ قبل تنفيذ الحكم فيهم، لا لينقذوهم، بل ليشهدوا القضاء عليهم، فإذا قُطِعَتْ أعناقهم تناهبوا الجسد والرأس، وخطفوها وهربوا بهما إلى مأمنٍ لكي يأكلوه على مهلٍ، وإذا أحرق أصحابهم، فَرَحُوا لأنّهم كُفُوا مؤونة شبيهم بعد ذبحهم، فكانوا يهجمون على أجسادهم المُحترقة قبل أن تتفحم، ويتخطّفونها، ويتلدّدون بأكل أعضائهم المشويّة!!

كان بإمكان الرّجال أن يُدافعوا عن أنفسهم إذا ما هاجمهم الصيَّادون، وقد تكون لديهم فرصة للهرب، ولكنّ المأساة كانت تحدث مع الأطفال، أولئك الذين لم يكن لهم حولٌ ولا قوّة، ولذلك خاف كلُّ رب أسرة على أولاده، وألزمهم أن يبقوا في البيت لا يُغادرونه ولو ماتوا من الجوع.

وظلّ التّيل على حاله، لم يرتفع مقياس الماء فيه لثلاث سنواتٍ مُتتالياتٍ، فضرب ذلك الرّزوع والرّزوع، ومات الخلق من الجوع، ولم يجدوا ماءً ليشرّبوا، فشقق العطشُ حلوقهم، وبيس بلاعيمهم، فكانوا في بلاءٍ وجهدٍ لا يُطاقان. وعلم الجوع أكثر النّاس الأثرة، ولم يكن فيهم من الإيثار إلا من أراد أن يموت دون أهله أو صحبه، وكانت الرّوح غالية، ووقع التفاضل بين الابن وأبيه، وبين الرّوج وزوجته، فمن حصّ نفسه نجا، ومن حصّ غيره هلك.

ولقد ضرب الجوعُ القصور، فلا ماء في التّيل، ولا زرع في الغيطان، ولا تجارة في الميناء، والسفن واقفة قد تمرّقت أشرعتها، وانكسرت صواريخها، فلم تُبحر من زمنٍ طويلٍ، وخاف السلطان من أن يدخل الموت مع السفن القادمة فأوقفها، فلما فعل وقفت معها الحياة، وتقدّم الموت أخذًا أشكالاً مُتعدّدة، فكان الطّاعون بادئ الأمر، ثمّ الجوع، ثمّ الصّيد، ثمّ المُكث في البيوت. ولقد كان الرّجل يكون إلى جانبك حيًّا، تنتظر عيناه في الفراغ لا تقولان شيئًا، ثمّ تنطفئان فجأةً ويسقط صاحبها على جنبه فإذا هو جنة هامة.

ولما اشتدّ الجوعُ بأهل القصور، خرجت نساء الأمراء والوزراء أشباه عرايا من القصور هارباتٍ، دون أن يعرفن إلى أين، وهنّ يصحن: الجوع... الجوع... العوث... العوث... يرفعن أيديهنّ قد كشفن عن بؤسٍ وألم... وما يدرين أنّهنّ خرجن إلى حتفنّ، خرجن يبعين من يطعمهنّ وكُنّ المنعمات المُترفات، فتلقاهنّ الصيَّادون، فقنصوهنّ، فلمّ تنتج إلا أواخرهنّ، وقليل ما هنّ. ولما وقعن بين أيدي هؤلاء الوحوش، اقتطعت أعناقهنّ، وسلخت جلودهنّ، وأكلن، فمنهن من شويّت، ومنهن من أكلت نيئة!!

حرّم مجلسُ الإفتاء - بعد هذه الكارثة - خروج النّساء من القصور أو البيوت، وترك أمر القصور للوالي، والبيوت للرّجال. ثمّ قبض الجنّد على بعض هؤلاء الصيَّادين، وحرّقوهم في ميدانٍ عامٍّ، فما أدّى ذلك إلى تخويفهم، بل جعل شهوتهم إلى لحوم البشر تتعاضم وتشتدّ ضرارها.

وأعلن ديوان مصر اليوم عن أن عدد الموتى في الجوائح منذ بدئها إلى اليوم ألف ألف نفس. وأظن أنه سيتوقف عن إعلان المزيد بعد اليوم، إذ لو قُلت إنه هلك من كل أربعة ثلاثة فلن تكون جانبت الصواب. القاهرة صارت خالية، خالية تماماً!!“

” (٩)

هل تريدنا أن نموت!؟

قلّ جُنْدُ مصر بالموت، وخلع بعضُ الشُرطة زيّهم، فتابعهم على ذلك جنودٌ كثيرون، ولم يكن هناك عددٌ كافٍ منهم كي يحرسَ المواضع الحيويّة التابعة الدّولة، فاكتفى رئيس الجُنْد بتوزيع مَنْ تبقى من جنوده على البيمارستانات الرّئيسيّة لِحمايتها من الصّيّادين. وكان هؤلاء يشمّون الأخبار شمّاً، فلمّا علّموا أنّ الحِماية رُفعت عن المنشأة خطّوا للهجوم عليها.

تسلّوا في الظّلام، كنتُ حينها في المنشأة، لا أدري ما الذي دفعني أن أبقى فيها حتّى اللّيل، كان يُمكن أن أغادرها، جنّت من أجل أن أقرأ الكلمات الأخيرة الطّيبية التي تُرافق الأرواح المُسافرة، كُنّا قد أعلنّا العجز التّام عن إنقاذ هذه الأرواح، وكانت هذه البقيّة من المرضى تمنعني من التّفكير بمغادرة مصر لأعود إلى مسقط رأسي ومهد نشأتي، وإنّ ظلّت الفكرة في الأونة الأخيرة تحومُ في رأسي. لكنّ الواجب الذي يحمله كلّ طبيبٍ في قلبه ويُقسِم عليه أبقاني إلى اليوم، وإنّ كان الأطباء الرّملاء قد قُتلوا أو ماتوا بالطّاعون أو بالجوع، أو دُبحوا على أيدي هؤلاء؛ ويبدو أنّه جاء اليوم دوري، وساموتٌ وحيداً دون أن يقف أحدٌ إلى جانبي.

كنتُ جالساً في غرفة التّطبيب، أفكّر فيما حلّ بمصر حتّى اليوم، وأفكّر في أنّ كلّ داءٍ لا بُدّ له من دواء، فلمّ لم يُعثر على دواء للطّاعون حتّى اليوم؟ في غمرة تساؤلاتي وشرودي، سمعتُ صهيلَ أحصنة جامحة في الخارج، ووقّع حوافر مُسرعة ثمّ وقع أقدام تنهب المسافة الفاصلة بيننا، ويبدو أنّ هناك مَنْ ترجل عنها اللّتو، وكان صوتٌ يصيح: «سيدي عبد اللّطيف... سيدي...». دخل الغرفة يلهث، عرفته على الفور، كان (خليل)، ومن خلفه أبوه صدقي اللّحام. هتف خليل: «إنهم خلفنا...». سألتُه مُضطرباً: «مَنْ؟» ردّ وهو لا يزال يلهث: «صيّادو البشر». «ولماذا يُهاجموننا؟». قال وهو يسحبني من يدي: «ليس هذا وقتٌ مثل هذه الأسئلة، هيّا يا سيدي، علينا أن نهرب». حين صرنا في مُوازاة النّافذة رأيناهم؛ كانوا بالعشرات، وكانوا يحملون المشاعل في أيديهم، ويندفعون باتّجاهنا، أصابنا الدّعر، همس خليل: «لم يعدّ مُمكنًا الهرب». سألتُ: «فهل سنواجههم؟». ردّ: «لا نستطيع ذلك، علينا أن نخنّب في مكانٍ ما هنا في المنشأة». تدخل الأب، قال صدقي وشارباه اللّدان وحطهما الشيب يتهدّلان على شفّتيه: «سأشاعلهم أنا ريثما تجدون مكاناً تختبئون فيه». جذبته من يده، ونظر في عينيّه: «كلّاً يا أبي... ستكون لقمةً سانعة لهم». «نُضحّي بواحدٍ من أجل اثنين». صرخ ابنه هذه المرّة بقوّة: «كلا، لن نُضحّي بأحدٍ، هيّا... هل تعرفُ سيدي مكاناً للاختباء؟». رددتُ وأنا أشير بيدي: «اتبعوني». تبعني خليل، فيما تلكأ صدقي، تظاهر بأنّه تعثر، سقط على الأرض، وراح يقفّ ببطءٍ ويضع يده على رُكبته، ويطلق تآوهاً مصنوعاً. كان الصّيّادون قد صاروا على البوابة، وبدؤوا ينهمرون منها كالموج، أوّل ما هجموا همجوا على حصّاني خليل وأبيه، فبقروا بطنيهما، وبدؤوا ينهشون اللحم النّوي، صرخ صدقي في تلك اللّحظة عندما رأى جرابهم تغوصُ في بطن حصّانه، وهو هاجمٌ عليهم: «يا قتلّة... تريدون المُواجهة؟ ها أنذا». كُنّا نبتعدُ أنا وخليل باحثين عن مخبأ، كان الابن يبكي، ويتوسّل بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «يا أبي... لماذا فعلت ذلك...؟».

كان صدقي قد استلَّ حُرْبَتَهُ وانقضَّ عليهم صارخًا، عندما رأوه استبشروا؛ لحم البشر أطيبُّ من لحم الخيول، ولحم البشر الأحياء أطيبُّ من لحم الأموات. طاعنَ يمينهً وشمالاً، وراوغَ، وأصابته طَعَنَاتٌ، حتَّى قضتْ عليه واحدةٌ غاصتْ في عنقه، فخرَّ على الأرض، فتكاثروا عليه وأكلوه وهو ينظر إليهم.

كُنَّا قد قَطَعْنَا مسافةً بعيدةً عنهم، كنتُ أعرِفُ أنَّ أحسنَ مكانٍ للاختباء، هو الأسطح التي يُوصَل إليها عبر درَجٍ سرِّي لا يعرفه سِوَاي. في كلِّ خطوةٍ كان صوتُ نَشَقَاتِ خليلٍ وهو يسير إلى جانبي مسموعةً، أرَادَ أكثرَ من مرَّةٍ أن يعودَ إلى أبيه، وأنا كنتُ أجذبه من يده، وأقول: «لقد مات... ستموتُ أنتِ بدوركِ إذا عُدتِ». «لا أستطيع أن أتركه بين أيديهم يأكلونه حَيًّا». «لقد مات... عليك أن تُفكِّرَ بنفسك الآن، العودة إليهم يعني أن تُعِدِمَ نفسك، عودتُك هذه لن تُرجِعَ إليك أباك». «ما يُعذِّبني يا سيدي أنه أرَادَ ذلك، كان يُمكن أن يأتي معنا، ولكنه مشى إلى الموت برجليه... لماذا فعلَ ذلك؟ لماذا أرَادَ أن يموت؟». «لقد فعلَ ذلك من أجلك، من أجل أن نظلَّ حَيًّا». «أنا لا أفهم شيئاً كهذا». «لقد ضحَى بنفسه من أجل ألا تموت أنتِ». «أنا لا أؤمن بهذا النوع من التضحية، كان يُمكن أن ينجو كلانا». «ربَّما كانتُ لديه مُعادلة مُختلفة، كان يرى أننا أمام خيارين: نموتُ جميعاً، أو يموتُ واحدٌ منا من أجل الآخرين، اختار الخيار الثاني وبدأ بنفسه».

كُنَّا نمرُّ في طريقنا على مَنْ تبقَّى في المنشأة، لم يكونوا كثيرين، كانوا عشرات يتوزعون على عُرفِ المكتبة، أو العُرفِ التي كانتُ فيها كُتُبُ القاضي الفاضل، الذين بقوا على قيد الحياة هم أولئك الذين قاوموا الطَّاعون لأجسادهم القويَّة وأعمارهم الفتية، بعضهم هَرَمَ الطَّاعون بالفعل، لكنَّه لم يستطع أن يهزم الجوع... كانوا ينظرون إلينا بعيونٍ ملؤها الرِّجاء أن نساعدهم، كانوا ينتظرون الموت وكُنَّا نهربُ من الموت، كان بودنا أن نفعل، كم يشعر المرء بالعجز حين يرى يداً تستغيثُ به ولا يستطيع المساعدة، اجتزنا عُرفِ المكتبة، كان صوتُ الصيَّادين في الأسفل وهم يتناهبون الحصانين وجسد صدقي يصل إلينا عابراً كلَّ هذه الطَّوابق والممرَّات، بعضُ الباقين هنا كانوا قد سَمِعوا عن انتشار آكلي لحوم البشر في الفترة الأخيرة، فزاد دُعرهم مع هذه الأصوات، وراح من استطاع منهم أن يتكلَّم، يهتفُ بصوتٍ واهن: «لا تتركونا وحدنا، خُدونا معكم». آخرُ قال: «لقد استعجلتُ الموت، وها هو قد جاء إليك... ألم تكن تريدُ ذلك؟». ثالثٌ كان يهمس: «أخيراً سينتهي كلُّ هذا، لقد انتظرتُ هذه اللحظة طويلاً».

كُنَّا أنا و خليل قد بدأنا نصدُّ أولى الدَّرجات السريَّة المُفضية إلى الأسطح، في وسط الصَّعود كُنَّا نرى كتباً مُتناثرة، يبدو أنها سلَّمتْ من الحرق ومن الزَّلزال ومن بيِّع شريف لها، ومن المجموعة التي أخذتها، إنها بقايا، لكن لا أدري ما الذي أوصلها إلى هنا، كُنَّا نتكي على الجدار الذي بدأتْ عتمته تزداد كلما واصلنا الصَّعود، حين انهارتْ علينا خزانة لم نلاحظها، فشجبتْ رأس خليل، وانفتحَ بابها فاندلقتْ منها كتُبٌ كثيرةٌ، غشتْ ألوانها المذهبة عيوننا، الضوء الشَّحيح القادم من إحدى التوافذ العالية سقطَ عليها فلمعَ دَهْنُهَا، كدثُ أصرخُ من الرُّوعة، إنها خطفةُ الكتبِ أوَّلَ ما تراها! كانتُ - فيما يبدو - خزانة الكتب الخاصة للقاضي الفاضل، إنها الكتب التي لم يطلَّع عليها أحدٌ سِوَاه، ويبدو كذلك أنَّ (شريف) لم يكن يعلم بأمرها، وإلا لباعها بأثمانٍ مُرتفعة في ذلك اليوم الذي رأيتُه يبيعُ فيها الصَّنَدوق بدرهم!! توقفتُ قليلاً، وانحنيتُ ألتقطُ كتاباً، كان لجودته كأنَّ النُّسَاح قد انتهى منه اللبلة، فتحتُ صَفحاته، كانتُ رقوقاً مُلساءً، والخطُّ مكتوباً بماء الذهب، لا بدَّ أن هذه النُّسخ كانتُ أثيرةً جدًّا لدى القاضي الفاضل ليعتني بها هذه العناية، قرَّبتُ الكتاب من شفتي، وهممتُ بتقبيله، لولا أنَّ (خليل) جذبني من يدي: «علينا أن نُتِمَّ صعودنا ونختبئ... لن يمرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يكتشفوا مكاننا، وحينها لن يُبقوا حتَّى على عظامنا». أجبته وأنا أنظرُ في وجهه نظرة عتاب: «قليلٌ من الوقتِ مع كتابٍ يساوي حياةً بأكملها». رَمَّ شفتيه. واثكأ بظهره المُتعب على الجدار، وقال: «كما ترى يا سيدي، لكن لو أسرعنا قليلاً... الكتابُ لن يدفع الحربة الرَّاکضة خلف ظهورنا»، «بل يدفعها يا خليل، ويدفع الحربة الرَّاکضة خلف ظهر الأمة كلها، الكتاب هو النِّجاة». «هل هذا وقتُ الفلسفة يا سيدي؟ تبدو مناقشة هذا الأمر عمميَّة في ظلِّ الموت الذي يتصَّى أثرنا». «ليأتِ الموت... الموت آتٍ لا محالة، لكن أن يأتي الموتُ وأنت تحملُ الكتاب، وتقرأ الكتاب، وتنتظر في صفحات الكتاب خبيراً ألف مرَّة من أن يأتي وأنت تنتظر في الفراغ، وتحدِّق في الظلام». تأقَّف: «أنا معك... لكن ما اسمُ هذا الكتاب الذي جعلَ نهر الفلسفة يتدفَّق إلى عقلك في هذه اللحظة الحرجة يا سيدي؟». «ليس المهمُّ اسمُ الكتاب يا خليل... المهمُّ أن يُعيدَ ما في الكتاب صياغتك... الكلمة تُحدِّدُ صورنا، وتُعيدُ تشكيل حيواتنا». هَرَّ رأسه مرَّاتٍ مُتتابعاتٍ، ورجاني هذه المرَّة: «أتوسلُّ إليك يا سيدي...»

هل تريدنا أن نموت؟!». تجاهلتُ تساؤله الأخير، وأجبتُه عن سؤاله السابق: «ما دُمتُ مُصِرًّا على معرفة اسم الكتاب، فهو الطبقاتُ الكُبرى لابن سَعد». «هيا يا سيدي... ستنهار الطبقاتُ الكُبرى على رؤوسنا إن لم نُسرع!». «

من هنا فوق الأسطح، بدت السماء وادعةً، اللَّيل ساجٍ، النُّجوم تضحك، كان يبدو أنَّها لا تُبالي بما تُشاهده على هذه البُقعة من هذا الكوكب، على هذا الجزء من هذه البُقعة، القاهرة كلها بكلِّ ما يحدثُ فيها من أهوال لم تكنُ في حساب هذه النُّجوم الضَّاحكة، تمنيتُ لحظتها لو أنني نجمة، أحسنُ ما يُمكن أن يعيشَ به المرء في الحياة هو قلبُ خالٍ كالنُّجوم تمامًا، يعيشُ راضيًا، ويموتُ هانئًا، يعرفُ أنَّ قدره لن يُغيِّره جِرسُه، وأنَّ رزقه لن يجلبه طمَعُه، وأنَّ الكون يتسع للجميع.

مشيتُ أنا و خليل على أطرافِ أصابعنا، كُنَّا بمحاذاة الطَّفِّ في الأعلى، ظللنا نمشي مُتجهين غربًا حتَّى نصل إلى موضع فوقَ غرفة التَّطبيب. من هنا كان يُمكن أن تُشاهدَ هذه الفُطائع، كان جسدُ صِدقي قد تقطَّع إلى أشلاء، يداه في جهة، ورجلاه في جهة، ورأسُه في جهةٍ أخرى، وقد أخذَ كلَّ واحدٍ من أكلي لحوم البشر قطعةً من أطرافه وراحَ ينهشُها، فيما كانتُ وجوههم تلمعُ على ضوء الشُّعل التي أحضروها معهم، وكانتُ أشداقُهم تسيلُ بالدماء وتنفبُ اللحم، كان منظرًا فوق الاحتمال، غطيْتُ بكفي على عيني خليل، كي لا يرى أباه في هذه الهيئة، وتراجعتُ به إلى الورااء قليلاً واحتضنتُه، وبكى هو على صدري، حتَّى إذا استعادَ رباطةَ جأشيه، سألتني: «هل يُمكن أن يحصلَ أبي بعدَ أن يشبعوا منه على قبرٍ لائق». بكيتُ أنا الآخر: «لم يعدْ لأبيك منه شيءٌ حتَّى يُدفنَ يا بُني، إنَّه في طريقه أن يصير حتَّى مُحَّ عظمه في أمعائهم!!».

ظللنا على السطح اللَّيل كله، لم نستطعُ أن نتحرَّك من هنا، الحصانان علَّقا من أطرافهما إلى جذع نخلةٍ مُعمَّرة، ويُقر ما في بطونها، وشرب... فلما أناخوا قليلاً، وارتاحوا من لهائهم المحموم، رأيناهم من هنا، يعبرون البوابة الرئيسيَّة إلى داخل المُنشاء، كانوا كالتمل ينسلون من كلِّ حدب، وأصابنا الدُّعر، وبدا ذلك في عيني خليل، حينَ سألتني: «هل يمكنُ أن يهتدوا إلى مكاننا؟». أجبتُه: «لندعو الله ألا يفعلوا، الدُّرج سِرِّي، والبابُ أغلقته بالمزلاج من جهة السطح، وأشكُّ أنَّهم سيكونون قادرين على معرفة مكاننا إلا إذا كانتُ لهم أنوف الكلاب، واهتدوا إلينا عن طريق الشم».

من هنا كان يُمكننا أن نسمع الصرخات الأخيرة للذين يُؤكلون ممَّن تبقَّوا على قيد الحياة في الأسفل، ومن هنا أيضًا كُنَّا نسمع صيحات الابتهاج والهباج بالحصول على كلِّ هذه اللحوم البشريَّة مُجمعةً في مكانٍ واحد!

كانوا يجزِّون الأحياء من أرجلهم، وقد أنشوا فيهم الكلابيب، يجمعونهم في الساحة، ثمَّ يُوقدون نارًا عظيمةً، ثمَّ يُعلِّقون الأجسادَ واحدًا واحدًا على عمودٍ من الحديد، وقد لَقوه عليه، وراحوا يُقلِّبونه، ويُديرونه، حتَّى يُشوى لحمُه من كلِّ جهة، ومن هنا شمَّنا رائحةَ شواءِ اللحوم البشريَّة، ومن هنا رأيناهم يأكلونها وسعادةً لا يُمكن وصفُها تُخدر أجسادهم!! «

” (١٠)

إنَّه الجوع!!

دعاني الوالي، أسرعتُ إليه: «هل تعرفُ دُرِّيَّة التي تسكنُ في تربة الشافعي؟». أجبتُه: «نعم، ما شأنها؟». «عليك أن تدلَّنَا عليها؟». «لماذا؟». «إنَّها تصطادُ الأطفال وتبيعهم». «أعرفُها، وأعرفُ ذلك، ولكنني لا أعرفُ أين هي... أعني

كنتُ أعرفها في السابق، هي امرأةٌ غريبةٌ منذ أن تعرّفتُ إليها، بدأتُ علاقتي بها منذُ أن كانتُ تطبخ لي أوّل قديمي بمصر، ثمّ... لم تعد لي بها اليوم أيّة علاقة». سألني الوالي مُتشككًا: «ماذا كانتُ تطبخ لك؟». أيقظني السّؤال على ما يقصدُ من ورائه، همستُ لنفسِي: «بالفعل أنتَ لم تكنُ تدري ماذا كانتُ تطبخ لك، لعلّها كانتُ توهمك بأنّها تطبخ البامية أو الملوخيّة بالأرانب، لكنّ هل كانتُ تضع أعضاء الأطفال مع المَرَق بدل الأرانب، أو لحمًا بشريًا مع البامية؟! المرء صار يشكُّ في هذا الرّمن بكلّ شيء». أخذتُ نفسًا عميقًا لأطرِدَ هذا الخاطر المُقرّز، وأقول: «كانتُ تطبخ لي ما أطلبه منها». حكّ الوالي ذقنه، ونهضَ من مكانه حتّى صارَ إلى جانبي: «إنّ القبضَ عليها يا حكيم، سوف يُنهي أكبر حركةٍ تجاريّةٍ بالأطفال، وبأكل لحومهم، إنّها سقّاحة، وأنتَ تعرّفها وتعرّف شكلها، وعليك أن تُساعِدنا في القبض عليها».

انتشرَ أكل لحم الصّغار إلى الحدّ المُذهل. قد لا تصدّق ذلك. أنا أعرفُ ما أقول، وأدركُ أنّ الأمر يفوق قدرة البشر على التّصديق، أعني البشر الأسياء، ولكن هل تعلمون بأنّ الكوكب يضجّ بالبشر المجانين، وأنّ الجوائح قميئةٌ بأنّ تخرج أسوأ ما فيهم؟! ما فيهم!!

كثُرَ ترُددي على مجلس القضاة أو دار الوالي، كان يطلبني إلى ذلك رئيس دواوين مصر، هو الآخر يكاد يفقد عقله، لم يُصدّق أنّ هذا يحدث حتّى رآه بأمّ عينيهِ، جلسْتُ أنا وهو مرّةً عند رئيس مجلس القضاة ومعنا صاحب الشّرطة، وكان قد طلبَ أن يُحضِرَ إلى هنا كلّ مَنْ يُلقَى عليه القبض من آكلي لحوم البشر، كان ذلك ظهرَ أحد الأيّام من صيفِ عام ٦٠٠ للهجرة، كنّا صامتين، قليلي الكلام، شعرتُ أنّ الكلام قد انتهى دورُهُ، في المصائب ينعقدُ اللسان، يُصبح الصّمْتُ الوسيلة الأقلّ بلاهةً من سواها في مواجهةٍ بشاعةٍ كهذه. لم يكن الصّمْتُ هنا عن حكمة، بل كان عن ذهولٍ تامّ، وعجزٍ أتمّ.

دخل شُرطيّ علينا وهو يحمل قُفّة، فإذا بها طفلٌ صغيرٌ لا يتجاوز عمره ثلاث سنواتٍ، وإذا هو مشويّ، قد قُلِعَتْ عيناه، وقُطِعَتْ أطرافه، ودخل من بعده رجلٌ وامرأة، فأما الرّجل حينَ سئل فقال: «أنا أبوه». وأما المرأة فقالت: «أنا أمّه». وسألتهما القاضي: «هل قُمتما بِشئيه؟». فقال الأب: «هي التي شوّته». وقالت الأمّ: «بل هو». وأرادا أن يتنازعا، فقالت الأمّ: «لستُ أنا الذي شوّيته، أنا أمّه، ولو كنتُ أريدُ أن أشويه لشويته دون أن أفقأ عينيهِ، أنا أمّ، وأنتَ تعرّف قلب الأمّ». وكان الأب يهزّ رأسه هازئًا. فسألتهما: «فما الذي دفعك أنتَ أو دفعك أنتَ إلى قتل ابنكما وشئيه؟». فأجابا بصوتٍ واحدٍ: «إنّه الجوع».

كتبَ القاضي إلى صاحب الشّرطة: «أحرقهما». فأحرقا، والرّجل ينظر إلى المرأة يشدّ على أسنانه من الألم، ثمّ ينفجر بالضحك، والمرأة تنظر إلى الرّجل وتنفجر بالضحك مثله!!

أرسل الوالي معي بعضَ رجال الشّرطة كي يكونوا في حمايتي بعدما شاع من أمر هؤلاء، فصرتُ لا أخرجُ إلى حاجيّةٍ إلا ومعني اثنان بكامل سلاحهما يُرافقاني في أموري كلّها. وحلّتُ وخمة الصيف، وكان الجوع قد بلغ مبلغًا أذهل النَّاس عن رُشدِهِم، وفتكّ بصوابهم، وأطاش عقولهم، واجتمع جوعٌ شديد في شهر عطشٍ أشدّ، وقلّ ذهابي إلى البيمارستان في تلك الأيّام، غير أنّني خرجتُ إلى السّوق، وكان خاليًا، وكان في طريقي إلى الديوان، ولو أنّك فُهِتَ بكلمةٍ في ذلك الخواء، لوجدتُ ألفَ جدارٍ يُردّد صدّي كلمتك، كيف يُمكن أن تكون القاهرة بهذا الهدوء؟ تلك من عجائب هذه الجائحة. لقد كان كلّ شيءٍ صامتًا حتّى كأنّ الرّمن توقّف فتوقّف معه قلبُ الحياة، كانتُ هناك حياةٌ ولكنّها ذاتُ قلبٍ لا ينبض، سكونٌ مُطلق.

كنت قد اجتزت آخر سوق زويلة، مررت بالموضع الذي كان فيه دُكَّانُ صِدْقِي اللَّحَامِ، وتذكَّرتُ كيف قضى فترَحَمْتُ عليه، وتذكَّرتُ ابنه الذي عادَ إلى غِيَابِهِ المُفَاجِئِ، ولم أعدُ أراه منذ موت أبيه. لقد كانت هنا حياة، كانت هنا آلاف الأفواه التي تمرُّ بالدُّكَّانِ في اليوم الواحد، بعضها يمرُّ ليس له في مروره من حَظٍّ سوى النَّظَرِ إلى اللَّحْمِ المُتَدَلِّي الذي ينتظر البائعين، وبعضهم لم يكن يعنيه من أمر الشراء شيءٌ، وبعضهم ممن كان يملك المال كان يقفُّ هنا، يتأمل اللحم المعروضة، ويدخل في تفاوض مع صِدْقِي على أسعارها، ويُدهش وهو يرى يَدَيْهِ الضَّخْمَتَيْنِ كيف تُجرِّدان اللحم عن العظم، وتُقطَّعانه بمهارةٍ كبيرة... .

اليوم كلُّ هذه الصُّور التي تتداعى مثل البرق إلى ذاكرتي، تُضيء وتنتفيء... . صارت من الماضي، لا أدري ما الجدوى من تذكُّرها؟ بينما الأجدى أن ينظر الإنسان كيف ينجو من الموت على أيدي أكلة لحوم البشر فيما تبقى له من عمر.

كنت بالأبلق قد تركتُ الدُّكَّانَ خلفَ ظهري، عندما سطعتِ الشَّمْسُ من جديدٍ، ونحن نخرج من نفق السُّوقِ، رأيتُ من بعيدٍ شيئاً مُعلِّقاً يتدلى من تحت سارية، قدَّرتُ على الفور أنها بقرةٌ أو ربما شاةٌ أو أي شيءٍ يُؤكل قد دُبِحَ وسلِّحَ في هذا الموضع، ومع أن وجودَ شاةٍ مسلوخةٍ في هذا المكان يُعدُّ شيئاً غريباً، إلا أنه لم يعد في زماننا هذا شيءٌ مُستغرباً!

واصلتُ السَّيرَ بحذرٍ ومن خلفي الحارسان، وهما يتلفتان حولنا ويتبعانني كظلي كما أمرا حتى لا يُصيبني أدنى. صرتُ على مقربةٍ من ذلك الشيء المتدلي، وصار بإمكانني تمييزه، كدتُ في اللحظة التي تبينتُ حقيقته أن أسقط مغشياً علي من فوق الحصان، إن هذا الشيء لا يعودُ لشاةٍ ولا لبقرةٍ ولا حتى لكلبٍ أو ضبع... بل يعود لجثة إنسان. كانوا قد علَّقوه من رجليه، ورأسه إلى الأسفل، وقد حُرَّتْ عنقه، وأبقي على شيءٍ من تلك العُنُقِ حتى لا تنفصل عن الجسد تماماً، وقد جُرد من الثياب، وسلِّحَ جلده، ثم قُطِعَ لحمه، وأزيل كلُّه، ولم يبق إلا العظم، ومن هنا يُمكن أن ترى القفص الصدري له بكامل ضلوعه وعظامه ليس عليها مُزعةٌ من لحمٍ، كأن الذي فعل ذلك جَزَّارٌ خبيرٌ، وكانت العظام بيضاء لا تكاد ترى عليها قطعة حمراء من اللحم ولو كانت نُتفة، كأن الأكلة لم يكتفوا بأكل اللحم المجروم بالسكاكين، بل مدوا أسنانهم إلى القفص الصدري وبقية العظام فتناهشوا ما عليها. كان شعْرُ رأسه قد أُحرق، وسلِّحَ لحمٌ وجهه عن عظمه، وبرز مكان العينين الجاحظتين على لحظة الموت، وأسنانٌ فكَّيه تلمعان على شمس الضحى... ولم يتحمل الحارسان اللذان معي المشهد بعدما عايناه عن قُربٍ ففقيًا، ونزلا عن جواديهما، وجلسا على الأرض يتجشَّان!

هتفتُ بهما غاضبًا: «هيا... هيا... هل تريدان أن نُعلِّقَ على حُطَّافٍ مثل هذا الذي ترونه أمامكم...؟ هيا... لا بُدَّ أنهم في مكانٍ قريبٍ هنا... إنهم يشمُّون رائحة ضحاياهم كما تشمُّها الكلاب... هيا...». وتباطأ، كانا لا يزالان تحت تأثير الصدمة، غير أنني صرختُ بهما من جديدٍ: «هل جئتما معي لكي تحمياني أم لكي أحميكما؟! إذا لم تركبا على جواديكما الآن فسوف أترككما هنا تتدبران أمركما...». ونفدتُ على الفور، فإن بين انغراز السهم في العنق والنجاة لحظة، ولا بُدَّ أن هؤلاء السَّقَّاحين يروننا من على ظهر أسطح البيوت المحيطة بالمكان، وسوف تكون نهايتنا كلمح البصر أو هي أقرب... وهمزتُ جوادِي وانطلقتُ، فركبا من فورهما وعدوا خلفي.

وصلتُ إلى البيمارستان والأبلق لم يقف في الطَّريق لحظةً واحدةً، ترجلتُ عنه، وأوكلته إلى السَّائِسِ، ودخلتُ إلى غرفة التَّطبيبِ الأولى، منذ زمنٍ لم أدخلها، كنتُ أنشغل طوال الوقت في غُرفِ الجراحة، هذه المرَّة أردتُ أن أعرف الحالات التي تُفدُّ هذه الأيام إلى البيمارستان... من خلال مُعابنة عشرة مرضى بوجهٍ سريع، تبين من الفحوص الأولى، أن الطَّاعون بالفعل قد نزع حربته من صدور النَّاسِ، ورحل، أو هو يكادُ يرحل... كانت أكثر الحالات تعودُ إلى هؤلاء المُتوجَّسين... كان المرضى الذين يُعالجون هنا قد فقدوا بعضَ أعضائهم، أكثرهم فقدوا ذراعًا أو قدمًا، وكانوا من فئة الشَّبَابِ أو صِغار السِّنِّ، أولئك الصَّنَفِ الذي استطاع أن يتخلَّص من الحُطَّافِ أو الكُلابِ النَّاشِبِ في ساقه بقطع ساقه أو

قدمه، أو جزء من ذراعه والإفلات بما تبقى منه حياً... بالطبع هذه نسبتهم قليلة جداً، لأن كلاب هؤلاء السقّاحين كانت لا تترك ضحيّتها إلا بين أنيابهم!!“

” القسم السابع

الخروج من مصر

أُوْمِلُ أَنْ أَحْيَا فِي كُلِّ سَاعَةٍ

تَمُرُّ بِي الْمَوْتَى تُهَزُّ نُعُوشُهَا

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلَهُمْ غَيْرَ أَنْ لِي

بِقَايَا لِيَالٍ فِي الزَّمَانِ أَعِيشُهَا

“ (ابن أبي عسرون)

” (١)

ما لم يشهده جالينوس!

لو أنّ جالينوس هنا لما وجد علم التشريح لديه سبقاً كهذا، إنّ أجساد البشر تُعرض كالدّبائح في الطّرقاات. لقد جنّ أهل القاهرة، أو السقّاحون منهم، أو هذا الصّنف من البشر الذي أعيا القاموس أنّ يجد لهم اسماً أو وصفاً. لقد كانوا يصيدون ليأكلوا اللحم البشريّ عن جوع، فلما قويت صحتهم، وعفيت أبدانهم، صاروا يصيدون البشر للتلذذ بأكلهم لا لسدّ جوعهم وإبعاد شبح الموت عنهم، فقد أشتدّ إلى اللحم قرّمهم، وإلى الدّم أوامهم، كأنّ تتابع النهش بعد النهش من اللحم البشريّ يصنع نوعاً من الإدمان عليه، فلم تعد المسألة مسألة دفع جوع، بل صارت مسألة إشباع شهوة. إنّني إذ أقول إنّ أكلي لحوم البشر في مصر قد اتخذوه معيشةً ومطيبةً ومدّخراً، وتفنّنوا فيه، وفشا عنهم، ووُجد في كلّ مكانٍ من ديار مصر لا أكون قد جانبّت الصّواب بكلمة، ولا جدت عن الحقيقة بحرف!!

ولقد كان يلقي أكلُ لحوم البشر في البداية استهجانًا واستفظاعًا واستنكارًا كبيرًا، ثم لما شاع الخبر وتُوقلت أحاديثهم، راح هذا الاستهجان مع الزمن يخفت، وذلك الاستفظاع يختفي، وتلك الاستنكارات تنتهي، حتى صار الخبر مألوفًا، ثم انتقل الأمر إلى المعاينة فصارت مشاهدة الذبائح البشرية والأجساد المسلوخة مألوفةً هي الأخرى. ولم أرَ في حياتي أفضح من ذلك، ولعمري إن كان في هذه الحياة ما هو أفضح مما رأيتُ فليأخذني الله إليه عاجلاً قبل أجل، وليشمئني برحمته قبل أن تقع عيناى على ما هو أُنكى وأضرى!

ولكنَّ الله إلى اليوم مدَّ في عمري، وأبقاني هذه السنوات العجاف في مصر أمَّ الدنيا وأمَّ العجائب لأرى الدنيا كما لم أرها في أيِّ بلدٍ آخر، ولكي أعين العجائب كما لم أعينها في أيِّ مصرٍ آخر.

ولقد مررتُ بسوق الشَّماعين، السوق التي ربّما تعطلَّ فيها كلُّ شيءٍ إلا دور البغايا، فإنّها ظلَّت تعمل وإن قلَّ مُرتادوها، ولم تُغلق تمامًا كما أغلقت دور الطعام والشراب! وفي حارةٍ مُتفرّعة عن تلك السوق، في زقاقٍ ترابيٍّ، رأيتُ امرأةً دون الثلاثين قد شجَّ رأسها فالدم يسيل منه رَعَقًا، وقد فُيِّدَتْ من أيديها، يسحبها الرَّعاع في الزُّقاق، ورأسها المُتعرِّع المُلطَّح بالدم يترجرج على الحجارة، وهي مُستسلمةٌ لا تأتي بحركة، ولا أدري إن كانت حَيَّةً أو ميّتة. ورأيتُ خلقها فتيناًا دون العشرين يتناهبون بينهم جسدَ صغيرٍ مشويٍّ يتناقلونه بين أفواههم، كلما فرغ منه نابٌ نهشه نابٌ آخر... فهممتُ أن أصرخ فيهم، ولكنني خفتُ أن أذبح وأشوي من فوري، فعدلتُ عن الفكرة، وكان الأبلق قد سمرَ قدميه في أول الزُّقاق وهو يُحاول معي أن تُغادر المكان قبل أن تُحيط بنا الخطاطيف والكلاليب، وأنا أستمله حتى أرى ما أرى، وأحدتُ به الوالي. فلما اختفوا في آخر الزُّقاق. طرثُ بالأبلق إلى دار الوالي، فاستقبلني وهو مُرهق لم ينم ليلته، فحدتُّه حديثي، فما استغرب منه شيئًا، وقال وهو يشير إلى رأسه: «إنني لم أنم من الليلة الفائتة ممَّا جاءني من مثل هذه الأمور وأنا أبعثُ بها إلى دار القضاء، وإن دار القضاء تنكِّم فيها الحالات التي يُنظر فيها تكوُّم المطعونين على أبواب البيمارستانات، وإننا يا حكيم لفي كربٍ شديد». ثم استأذني أن يدخل فيرتاح قليلاً، وطلبَ مني أن أسبقه إلى مجلس القضاء، وسوف يُوافيني هناك مع الظُّهر.

فاستجبتُ له، وطرثُ بالأبلق إلى مجلس القضاء، فلما دخلتُ من الباب العالي، ونظرْتُ عن يميني وعن يساري إلى مواضع سجن أهل الجرائم المعروضة على القضاء هألني أن الزنّازين في الدّريين تمتلئُ عن بكرة أبيها بالسقّاحين، وهم في لَعَطٍ وهرجٍ ومرجٍ.

فلما عاينني رئيسُ حرس المجلس وعرّفتني أفسح لي، وأخذ بخطام الأبلق، وقال لي: «إن رئيس المجلس ينتظرك». فلما دخلتُ عليه وجدته يقضي ومعه رجاله ومُساعدوه وهم في قلقٍ وضيقٍ ممَّا يرون، فسلمتُ عليهم، وأفسح لي رئيس المجلس فاتخذتُ موضعي عن يمينه، فلو حدتُّكم بكلِّ ما سمعتُ وشاهدتُ في ذلك المجلس سحابةً النهار وطرثًا من الليل لكذبتموني، ولكنني فاعلٌ وأمرى إلى الله!!

لقد جيء بصبيٍّ نحو الرّهاق في الثّانية عشرة من عمره أو الثّالثة وهو مشويٌّ وقد أخذه شابان أفرًا بقتله وشيّه وأكل بعضه، ولا أدري كيف قَدِرا عليه وهما في مثل سنّه أو يكبرانه بقليلٍ، وله من الجسم بسطةٌ كما لهم، فقلتُ في نفسي:

«إِنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْحِيلَةِ، أَوْ رَبَّمَا أَعْرَوْهُ بِالْمَالِ، أَوْ بِالنِّسَاءِ، أَوْ بِبَعْضِ الشَّهَوَاتِ، فَاسْأَلَمَ أَمْرَهُ لَهُمْ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ أَيًّا كَانَ وَجْهُ دَعْوَتِهَا تُغْرِي صَاحِبِهَا، وَتُورِدُهُ مَوَارِدَ الدَّلِّ».

فَأَمَرَ الْقَاضِي بِقَتْلِهِمَا بِالسَّيْفِ، وَأَمَرَ بِإِكْرَامِ الْجَسَدِ الْمَشْوِيِّ بِتَكْفِينِهِ، وَدَفَنِهِ فِي مَقْبَرَةِ الْمَجْلِسِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَقْبَرَةُ مُسْتَحْدَثَةً لَمْ تُفْتَحْ إِلَّا مِنْ شَهْرٍ أَوْ أَقَلٍّ، أَلْجَأَ إِلَيْهَا تَزَايِدُ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَصَارَ يُدْفَنُ فِيهَا الضَّحَايَا لِلِإِسْرَاعِ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَنَّ أَجْسَادُهُمْ، وَتَحْدِثَ الطَّوَامِ. وَلَقَدْ زَرَتْ هَذِهِ الْقِرَافَةَ، فَرَأَيْتُ رَئِيسَ الْمَجْلِسِ قَدْ أَمَرَ بِحَفْرِ عَشْرَةِ آلَافِ قَبْرِ فِيهَا، مُجَهَّزَةً لِلَّذِينَ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ أَكْلُو لَحْمَ الْبَشَرِ، وَكَانَ يُدْفَنُ فِيهَا فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةٍ!

ثُمَّ إِنَّهُمْ جَاؤُوا بِفَتَاةٍ هِيَ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ أَوْ نَحْوِهَا، مَلِيحَةُ الْوَجْهِ وَالْقَدِّ، يَبْدُو عَلَيْهَا الْوَقَارُ، وَالْهَدْوَاءُ، وَكَانَتْ مُطْرَقَةً فِي الْأَرْضِ لَا تَرْفَعُ إِلَيْنَا نَظْرَهَا، فَسَأَلَهَا الْقَاضِي أَنْ تَعْرِضَ مَسْأَلَتَهَا، فَقَالَتْ: «إِنَّ أُمَّا مِنْ أَهْلِ الْيَسَارِ خَرَجَتْ إِلَى بَعْضِ شَأْنِهَا، فَعَهَدْتُ إِلَيَّ بِرِعايَةِ ابْنِهَا الْفَطِيمِ دَاخِلَ بَيْتِهَا، وَكَانَ يَبْكِي فِي جِجْرِي، وَأَنَا الْأَعْبَهُ، فَطَرَقَ عَلَيَّ الْبَابَ وَقَتَّ الْغُرُوبِ طَارِقًا فَخَرَجْتُ فَإِذَا هِيَ امْرَأَةٌ لَمْ أَرَهَا مِنْ قَبْلِ، مُمْتَلِنَةٌ الْجِسْمِ غَلِيظَةُ الْعُنُقِ، فَدَفَعَتِ الْبَابَ، فَوَقَعْتُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ لَحْظَتِي لِشِدَّةِ دَفْعِهِ، فَرَكَضْتُ إِلَى الدَّاخِلِ، وَاهْتَدَيْتُ إِلَى الْفَطِيمِ مِنْ بُكَائِهِ، فَرَكَضْتُ خَلْفَهَا، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهَا كَانَتْ قَدْ بَقَرَتْ بَطْنَ الطَّفْلِ، وَجَعَلَتْ تَأْكُلُ مِنْهُ نَيْبًا». وَغَلَبَ الْبُكَاءُ الْفَتَاةَ وَهِيَ لَا تَزَالُ تَنْظُرُ فِي الْأَرْضِ، فَسَأَلْتُهَا أَوْصَافَ الْمَرْأَةِ الَّتِي بَقَرَتْ بَطْنَ الْفَطِيمِ، فَإِنَّنِي فَكَّرْتُ أَنْ تَكُونَ دَرِيَّةً، فَقَالَتْ مَا قَالَتْ مِنْ امْتِلَاءِ الْجِسْمِ، وَعِظَمِ الرَّقَبَةِ، وَقُوَّةِ الدَّرَاعِ، فَسَأَلْتُهَا عَنْ لَوْنِ عَيْنَيْهَا، فَمَا اهْتَدَيْتُ إِلَى وَصْفِهَا، لَكِنِّي قَالَتْ: «كَانَ الْمَوْتُ يَسِيلُ مِنْهُمَا». وَلَا أُدْرِي مَا تَعْنِي، وَلَكِنِّي أَحَاسِيسِي كُلَّهَا صَارَتْ تَقُولُ لِي: «إِنَّهَا دَرِيَّةٌ». وَلَمْ يَدِرِ الْقَاضِي مَا يَفْعَلُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُظْلَمَةِ، فَصَرَفَ الْمَرْأَةَ، وَدَفَعَ دِيَّةَ الدَّبِيحِ لِأَهْلِهِ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِ!

وَإِذَا عَنَّ بِاللَّكِّ فِي أَحَدِ الْأَمَاسِيِّ الْهَادِنَةِ الْطَّيْفَةَ أَنْ تَمْشِي عَلَى ضِيقَةِ النَّيْلِ فَاحْرَصْ أَلَّا يَكُونَ مَعَكَ أَوْ مَعَ زَوْجِكَ أَوْ أَيِّ أَحَدٍ فَطِيمًا، فَإِنِّي رَأَيْتُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ السَّخَّاحِينَ يَخْرُجُونَ فَجَاءَةً، كَأَنَّمَا انشَقَّتْ عَنْهُمْ الْأَرْضُ فَيَهْجَمُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ الرُّضَعِ فَيَخْتَطِفُونَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي ذَوِيهِمْ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ رَجُلًا أَمْسَكَ بِذِرَاعِ فَطِيمٍ يَرِيدُ اسْتِلاالَهُ مِنْ ذِرَاعِي أُمِّهِ، وَهِيَ تُجَاذِبُهُ، ثُمَّ ارْتَمَتْ عَلَى الرُّضِيعِ نَحْوَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يُفْلِتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا، وَالرَّجُلُ مُمَسِكٌ بِقُوَّةِ ذِرَاعِ الْفَطِيمِ، يَشُدُّهَا إِلَيْهِ حَتَّى انْخَلَعَتْ فِي يَدِهِ، فَطَارَ بِهَا وَهُوَ يَرْقِصُ مِنَ الْفَرَحِ، وَرَاحَ يَنْهَشُهَا وَيَمَضْغُهَا بَيْنَ أَنْيَابِهِ!!

وَأَصْدَرَ الْقَاضِي قَانُونًا غَرِيبًا حَتَّى يَقْضِي عَلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، كَانَ الْقَانُونُ يَأْمُرُ بِإِحْرَاقِ مَنْ يُقْبِضُ عَلَيْهِ فِي خَطْفِ كِهَذَا أَمَامَ الْعَامَّةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى سَاحَةِ كَبِيرَةٍ، يُنْصَبُ فِي وَسْطِهَا عَمُودٌ عَالٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَيُنْبِتُ فِيهِ جَسَدُ الْخَاطِفِ، وَيُعْرَى وَهُوَ حَيٌّ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، وَتَبْدَأُ النَّاسُ فِي جَمَايَةِ الشَّرْطَةِ بِالتَّوَافِدِ عَلَى السَّاحَةِ، حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهَا، تَقْدَمُ الْقَاضِي الَّذِي أَمَرَ بِإِعْدَامِهِ حَرَفًا فَيُرْتَقِي عَتَبَةً قَدْرَ ذِرَاعٍ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ الْمُتَجَمِّهُونَ، فَيَتَلَوْنَ عَلَيْهِ نَصَّ الْحُكْمِ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ: «وَمَنْ قَتَلَهَا فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا». وَلَا يَسْأَلُهُ رَغْبَتَهُ الْأَخِيرَةَ قَبْلَ الْحَرَقِ، بَلْ يَنْزِلُ عَنِ الْعَتَبَةِ، وَيَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الصُّتُوفِ، فَتَبْدَأُ صِيحَاتُ النَّاسِ: «قَاتِلْ... قَاتِلْ...». وَأَخْرُونَ: «إِلَى جَهَنَّمَ...». وَثَالِثُونَ: «وَلْيُشْفِ صَدْرَ قَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ». ثُمَّ يَتَقَدَّمُ شَرْطِيٌّ مُلْتَمِّمٌ فَيَسْكُبُ النِّقَطَ وَالزَّيْتَ وَالْقَطِرَانَ عَلَى جَسَدِ الْوَحْشِ، وَيُعْطِيهِ مِنْ رَأْسِهِ بِالنِّقَطِ وَالْقَطِرَانَ الْأَسْوَدَ حَتَّى أَحْمَصَ قَدَمَيْهِ حَتَّى تَبْدُو عَيْنَاهُ كَأَنَّهَا عَيْنَا شَيْطَانٍ تَدُورَانِ فِي الْمَحْجَرَيْنِ مَرْعُوبَتَيْنِ. فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ، أَلْقَى أَحَدَ الشَّرْطَةِ شُعْلَةً مُلْتَهَبَةً مِنَ النَّارِ عَلَى الْجَسَدِ الْمَطْلِيِّ بِالزَّيْتِ فَيَلْتَهَبُ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَيَهْبِجُ النَّاسَ، وَيَعْلُو هَيَاجُهُمْ، وَيُحِيطُ رِجَالُ مِنَ الْجُنْدِ وَالشَّرْطَةِ بِالْمُجْرِمِ فِي دَائِرَةٍ قُطْرُهَا سِتَّةُ أذْرَعٍ يَمْنَعُونَ النَّاسَ الْهَائِجَةَ مِنْ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْجَسَدِ الْمُشْتَعِلِ، لَكِنِّي لَا يَمْنَعُونَ الْأَحْذِيَّةَ الْمُتَطَايِرَةَ مِنْ فَوْقِهِمْ أَنْ تَهْوِي عَلَى رَأْسِ الْقَاتِلِ، وَكَذَلِكَ الْعَصِيَّ وَالْحِجَارَةَ.

ولقد أحمَدَ مثلُ هذا الإعدامِ الجماهيريِّ نوعًا ما حركةً هؤلاءِ السَّقَّاحينِ وأخملَ ذِكْرَها، وأخافَ آخرينَ، لكنَّه لم يكذُ يَمِرُّ على اليومِ المشهودِ أسبوعٌ أو عشرةُ أيَّامٍ حتَّى عادتْ حركةُ الخطفِ والدَّبْحِ والسَّلخِ تظهرُ من جديدٍ! «

” (٢)

لا دليلَ لديّ

قلتُ لرئيسِ مجلسِ القَضاءِ: «إنَّها هي، الطَّاعونُ الجديد، إنَّ لها أتباعًا وأشياءًا، وإنَّها تُعيشهم في الوَهمِ والخَيالِ حتَّى يتَّبِعوها، وإذا ما ظلَّتْ طليقةً فستقضي على ما تبقى من أهلِ مصر». سألني مُستغريًا: «مَنْ تعني يا حكيم؟». أجبتُ بلا تردّد: «دُرِّيَّة، لقد أنشأتُ جماعةً من الحشَّاشينِ من أتباعِ حسن الصَّبَّاح، ومَنْ تبقى من ذبولهم وأعادتْ بهم عهدَ القتلِ». ضَيَّقَ القاضي عينيَّ: «يا عبد اللطيف، هذا اتِّهامٌ خطيرٌ، انظر ما تقول!». «إنَّني مُتأكِّدٌ يا سيِّدي ممَّا أقول، هؤلاءِ المُتوحِّشون لا يأكلون لحمَ البشَرِ إلَّا إذا غُرِسَ في عقلمهم أنَّهم في الجنَّةِ، وأنَّ الله أمرهم بهذا، ولا بُدَّ أنَّها تفعلُ بأتباعها ما كان يفعله الصَّبَّاحُ بأتباعه، يسقيهم شرابًا مُخدِّرًا من زهرة الخشخاش ويُهَيِّئُ لهم أنَّهم في الجنَّةِ من حدائقِ وخمرِ وجوارِ وقيان، ثُمَّ يُعيدهم منها، ولا يُرجعهم إليها إلَّا إذا نَقَدُوا له طلبه». «الحشَّاشون مضى عهدهم يا حكيم». «لم يمضِ يا سيِّدي، إنَّهم باقون، ويتشكَّلون من جديد، ولا أظنُّ أنَّ عَصْرًا من العصورِ سيخلو منهم، في كلِّ زمنٍ هناك مَنْ يُقتلُ لأنَّ الحُورَ العينِ تنتظره في الجنَّةِ». حَكَّ القاضي ذقنه، كان يميلُ إلى رأيي، ولكنَّه يحتاجُ أكثرَ من ذلك، فسألني: «فما ترى؟». «ألقى القبضَ عليها بتهمةِ القتلِ والخطفِ والدَّبْحِ». «وهل لديك دليل؟». أجبتُ: «لا دليلَ لديّ، ولكنني أحسنُ». استنكرَ قولي، وهتف: «هل يمكننا إقامةَ الدليلِ على الأحاسيس؟ أنتُ حكيمٌ وتعرفُ أنَّ هذا غيرُ منطقيّ». رددتُ بثقة: «أعتقدُ أنَّ الأحاسيسَ تكونُ أحيانًا أقوى من ألفِ دليلٍ». «لا... لا يا حكيم، لن أفعل ذلك». «فأنا أقتَرُخُ عليك أمرًا فانظر فيه». «قُلْ». «ابعث مَنْ يُراقبها، فإذا تبَيَّنَ لك من خروجها ودخولها وحَرَكاتِها وأفعالها ما قلَّته لك فألقِ القبضَ عليها». «رأيي لا حرجَ فيه. سنفعلُ يا حكيم».

كانتُ دُرِّيَّةَ تخرجُ ليلاً، أوَّلَ مغيبِ الشَّمسِ ولا تعودُ إلَّا قُبيلَ بدايةِ شروقها في رحلتها الأزلِيَّة. بعثَ صاحبُ الشَّرْطَةِ اثْنينِ يراقبونها، اختفى أحدهم دون أثر، عادَ الحَيُّ منهما إلى صاحبِ الشَّرْطَةِ، حضرتُ شهادته: «كان صاحبي إلى جانبي في دُورنا في مراقبتها، نحنُ نُراقبها في الليلِ، الليلِ أعمى، ونحنُ بينَ القبورِ، وظلالُ الأشجارِ فوقها تبعثُ الرَّهبةَ في النفوسِ. بينما نحنُ كامنونُ اختفى صاحبي، كلُّ ما سمعتهُ هو حفيفُ أوراقِ الشَّجرِ لكنَّه كان قويًّا على غيرِ العادة، ارتعتُ تمامًا، إنَّهم أشباحُ، يتحرَّكونُ بسرعة، حينَ اختفى لم أسمع له صوتًا، ولا صرخةً استغاثةً، مجردَ صوتٍ مرَّ بجانبي كأنَّه تيارٌ أو ريحٌ سريعة. بعدها سَكَنَ كلُّ شيءٍ، بقيتُ جائمًا مكاني من الرَّعبِ. توقَّعتُ أنَّهم أكلوه، أو قطعوه إرْبًا، ما لم أتأكدَ منه: هل فعلوا ذلك على مقربةٍ منِّي أم أخذوه بعيدًا؟ لأنَّ صوتَ أنفاسِ لاهثةٍ أو مُختنقةٍ، كنتُ أسمعها من خلفي، فالتفتُ وأنا أرتعشُ من الخوفِ فلا أرى إلَّا الظَّلامَ، إنَّهم يرون في الظَّلامِ، وإلَّا فما كانوا ليعبثوا بي بهذه الطَّرِيقَةِ. قرَّرتُ أنَّ أتحرَّكُ من مكاني، لو بقيتُ - هكذا قدَّرتُ - لأكلتُ كصاحبي، إذا كان لا بُدَّ من الموتِ، فليأتِ وقد فعلتُ شيئًا. توجَّهتُ إلى غرفتها، الجدارِ عن يساري، والدرجاتُ النَّازلَاتُ إليها عن يميني، نظرتُ من النَّافذةِ، رأيتها، كانتُ تُقَطِّعُ طفلًا قدَّرتُ أنَّه في السادسةِ من عمره أو السَّابعةِ...» قاطعتهُ: «هل تستطيعُ أن تقولَ لي ما لونُ شعره؟». «أظنُّ أنَّه أشقر، كان الضَّوءُ الَّذي في الغرفةِ يقعُ على وجهه أكثرَ ممَّا يقعُ على شعره». تابعتُ أنا: «وله غَمَازَتان، وفي وسطِ ذقنه شامةٌ سوداء، وأُذنه اليسرى تحملُ في أعلى الصَّيوانِ حبةً حمراءَ صغيرةً». كانتُ عينا الشَّرْطِي تزدادان اتِّساعًا: «كيف عرفت؟». «إنَّه ابنها كرم». توجَّهتُ بالكلامِ إلى رئيسِ مجلسِ القَضاءِ: «لقد أكلتُ ابنها يا سيِّدي، يجبُ أن تُلقِيَ عليها القبضَ فورًا». أجابَ رئيسُ المجلسِ: «دَعُهُ يُكْمِلُ» ثُمَّ خاطبَ الشَّرْطِي: «وماذا بعد؟». «لقد بقرتُ بطنه، وأخرجتُ أحشاءه، وقطَّعتهُ بساطورٍ على وَصْمِ خشبيٍّ، ثُمَّ وضعتهُ في قَدْرٍ وأوقدتُ عليه النَّارَ». وهربتُ بعدها، كان هذا أمس، ومن الخوفِ لم أنمُ حتَّى هذه اللَّحظة.

ألقي القبض على دُرَيَّة وُجِيء بها إلى مجلس القضاء مُقَيَّدَةً بالجزازير، سألتها القاضي: «هل أنتِ دُرَيَّة؟». أجابت وهي ترفع رأسها وتنتظر إلي بفخر: «أنا هي، وقد علمتُ هذا القابع بينكم ما لم يعلم». وأشارت إلي. تَهَرَّها القاضي: «أجيبني على قَدْر السَّوَال». ردَّت وهي ترفع عقصة شعرها من فوق عينيها، فتبدو فيهما الذناب القديمة بأنيابٍ أشدَّ طولاً: «إنَّ السَّوَال يبعثُ الكلامَ سيدي القاضي». «أنتِ مُتَهمةٌ بذبح ابنك كرم، وطبخه، فهل هذا صحيح؟». «نعم صحيح».

شهقتُ بصوتٍ عالٍ وأنا في مكاني، نظرتُ إليّ وابتسمتُ؛ خلَّتها تقول: «ما زلتَ طفلاً، أعرفُ ذلك من اليوم الأوَّل الذي رأيتُكَ فيه، ولولا أنَّ ماريَّة أحبَّتكَ لكنتُ صيدي من زمان بعيدٍ». نفضتُ رأسي وأنا لا أصدِّق ما أسمع، وسألها القاضي وهو يبلع ريقه: «تقولين أنَّك ذبحتِه وطبختِه، هل أنتِ مُتأكِّدةٌ من ذلك؟!». «نعم أيُّها القاضي، لقد فصلتُ رأسه عن جسده، وقطعتُه إلى أجزاء، وطبختُه في القَدْر، وأكلتُ من ليلتي، ومَلَحْتُ ما زادَ عن حاجتي، وقَدَدْتُه، ووضعتُه في أكياسٍ ودفنتُه في غرقتي، لأعودَ فأكل منه وقت الحاجة؟». «هل أنتِ صحيحة العقل يا امرأة؟». «ليس في مصر كلُّها امرأةٌ أعقلُ مني». «فلماذا ذبحتِ ابنك وأكلتِه؟». «لقد حاولتُ أن أحميه، ولكنَّ القَرَم إلى اللحم البشريِّ أصابَ أفواه الأكلين، فراودوني عنه أكثر من مئة مرَّة وأنا أصدِّهم، وأتيهم بلحوم الصغار الآخرين دفاعاً عن ابني فلما أيستُ من ذلك، وزاد إلحاحهم وسعيهم إلى قنصه فعلتُ فيه ما فعلتُ». «وَتَأْكُلِينِه؟». «خيرٌ من أن يأكله الغرباء». «هل تعرفين عاقبة ما فعلتِ؟». «ليس أحسن من عاقبة ما فعلتُم؟». «وماذا فعلنا؟». «جَوَّعْتُم أهلَ مصر حتَّى أكل بعضهم بعضاً». صَجَّك القاضي: «تتَّهميننا إداً؟». «أنتم تتَّهمون أنفسكم، وليأتين عليكم زمانٌ تقولون فيه: كان بمصر ناس». «وثرعينا؟». «وليفين كلَّ جائع بطن كلَّ شيع، ولثقبين بيوت الأغنياء، وليموتن كلَّ الأصحاء، ولا تبقى إلا الخائئات من النساء». «من أين ما تقولين؟». «أنا عَرَافَةٌ، وهو يعرفُ ذلك عني، وما أخطأتُ في حرفٍ». لم يُمهِّلها القاضي كثيراً، كتبَ ونحنُ جلوسٌ حُكْمَه فيها: «تُصلَّب في ساحة المشهد، حيثُ يراها أكبر عددٍ من النَّاس». قالتُ للقاضي: «حقَّق لي أمنيةً واحدة». أجابها القاضي إلى ما طلبتُ: «لك ذلك». «أريدُ أن أقولَ شيئاً بيني وبين الطَّبيب عبد اللطيف». نظرَ إليّ عبد اللطيف، رأى الخوف في عيني، وسألني: «ها أنتِ تسمع، فهل تُجيبها؟». نظرتُ إليّ مباشرةً فرأيتُ ذلك القطيع من الذناب يعبرُ ثلوج بلاد النبروز من مجاثمه كأنه يبدأ عهداً جديداً من الدَّعر، فقلتُ وأنا لا أكادُ أنطقُ الكلمة: «نعم، أجيبها إلى ما طلبتُ يا سيدي». «فمِّمَّ إليها». قمتُ إليها، لما صارتُ أذني عند فمها، خُيِّل إليّ أنني أسمع أصوات استغاثات كلِّ الذين رحلوا وكانت آخر ما راوه في حياتهم هي عُيونها الذنبيَّة هذه. قالتُ لي بهمسٍ لا يسمعه سواي: «سأموت، لكنَّ موتي انبعثت. أنا لستُ دُرَيَّة. أنا فكرة. فكرةٌ تخمدُ زمناً لكنها تُعاود الظهور. أنا صورة الشيطان في الإنسان لما قال له: اكفُر. وصورته في قول قابيل لأخيه: لأقتلنك. وصورته في قول الحكيم الأوَّل: أنا خيرٌ منه. وصورته في قول الإخوة: اقتلوا يوسف. وصورته في قول أبي الحَكَم: لأقتلنَّه الساعة. وصورته في قول الحجاج: إنِّي لأرى رؤوساً قد أینعتُ... ثمَّ... إنني سأبعثُ من على الصَّليب كما بُعثَ عيسى، وسأعودُ كما عادَ السَّعَف، ثمَّ إنَّ دمي سيُتَمَّ اللعنة عليك وعلى مصر كلِّها... وأنتِ ستعيشُ عليلاً وستموثُ عليلاً، وسترتحل ولا جارحة في جسدك إلا وهي تئنُّ، ولن تُحقِّق ما تريد في رؤية من تُحبُّ». ثمَّ إنَّها رفعتُ رأسها، وخاطبتُ القاضي: «لقد بلغتُ غايتي فيما كنتُ أريدُ قوله للطَّبيب».

ورُفِعَتْ صَباح الجُمعة على الصَّليب، وجاء النَّاس ليشهدوا موتها، وكان فيهم كثيرٌ ممَّن يعرفُها ويحبُّها، وتوافدوا إلى المشهد حيثُ الحُسين، وحيثُ رأسه، وكان بعضهم بهمسٍ وهو في الطَّرِيق: «رأسُ برأس». وآخرون يهتفون بينهم وبين أشياءهم: «يا لثارات الحُسين!». حتَّى إذا جاء المصلِّبون، وفردوا ذراعها على الخشبة، طاوَعَتْهم دون أن تُبدي أيِّ مقاومةٍ، وهي تبتسمُ عن رضاٍ وراحة، فدقَّت المسامير في أكفها حتَّى سالَ الدَّم، وهي لا تننُّ ولا تتأوِّه، ثمَّ شدَّت ساقها إلى الخشبة، وتبَّتت قدمها بمسامير كبيرة، وبذل الدَّقاقون جُهداً، وعَرَقوا وهم يفعلون ذلك، وكانوا يشتمونها في سرِّهم بأقذع الشتائم، فيما استمرت هي في ابتسامتها مُتعاليةً على أيِّ أنةٍ تخرج منها، فلما أكمل المصلِّبون عملهم، ونزلوا من هناك، بدا منظرها وهي تمدُّ يديها كأنها ملاكٌ يُرحَّب بالَّذين قَدِموا ليشهدوا نَهايتها، أو كأنها عروسٌ تهَمُّ بأن تطير بثوبها الأبيض إلى السَّماء، وسمِعَ أحدهم، يقول: «عُلُوٌّ في الحياة وفي المَمَات».

وفيما كانتُ روحها تُغادر جسدها مع الوقت، لم تتخلَّ عن ابتسامتها لحظة، وكانت تُدير نظراتها في النَّاس، فلما وقعتُ نَظراتها عليَّ بكَّت! “

فرَّ مَنْ بقي إلى اليوم جهة بلاد الشام، كانوا يخرجون وهم ألوْفٌ من بيوتهم حَذَر الموت، ولم يكن من جسدِهم ما يُعينهم على أن يقطعوا الفياقي، ولكنهم جُعِلوا بين اضطرارين، وبين موتين، فاختروا موتاً في الهرب، على موتٍ في البقاء.

كان النَّاس يحملون أحمالهم وبعض ما سلَّم من متاعهم بحراسة بعض الرجال الذين استؤجروا لهذه المهمة خوفاً أن يقعوا في أيدي صيادي البشر، وساروا في اتجاهاتٍ شتَّى، أكثرهم ذهب شرقاً باتجاه بلاد الشام، فما كاد يخرج من مصر، حتى تلقته صحراء سيناء، وفيها ضلَّ قوم موسى أربعين عاماً، فما بال هؤلاء الفارين من كلاليب الوحوش، يقطعون الفياقي وفيهم الصغار والأطفال والرُّضع والنساء، وقليل من الرجال فإن أكثرهم ماتوا من قبل.

كانوا يسبِّرون في قوافلٍ مُتهاديةٍ على الرمال، ليس في وجوههم ماء، غير النظرات البائسات، والأمل المنقطع، والرجاء الميؤوس، وهم يؤملون ما استطاعوا أن يجدوا عند أحدٍ أيًّا كان هذا الأحد ملاًداً. وكان قد قيل لهم إن أرض الشام مباركة، وإن العذاب لا ينزل بأهلها، وإن فيها من الخيرات ما يكفي النَّاس كلَّهم، وإتهم ليرحبون بمن جاء من أهل المحن والمصائب فينزلونهم ضيفاناً حتى يجدوا سبيلهم إلى رزقهم. وعلى هذا ساروا... ولكن الشام بعيدة على الركابين فكيف بالزاجلين، والأمل أبعد، والصحراء لا ترحم، والعطش قاتل، والدرب طويلة، والرمال لاهية، ولُفح الشمس لا يكف في النهار، ولسع البرد لا ينثني في الليل، وهم يُعانون كل هذا من أجل أملٍ مصنوعٍ من القول، ولو كان القول يُغني لطلبوا الرحمة من القتل الأكلة في القاهرة.

سقط أول منتهك، كان رجلاً هَرماً، لم يحتمل، دُفِن في مكانه، سقط الثاني من لفحة الشمس، تعاونوا على دفنه حيث قضى، سبنا تتحول إلى قبورٍ على طول خط الرحلة، من قبل تحولت القاهرة كلها إلى قبر. مشوا، الأمل يدفعهم إلى مواصلة السير، والخوف من كلاليب الأكلة وجرابهم يدفعهم هو الآخر من ظهورهم إلى الأمام، الأمل حبلٌ غليظٌ يغل أيديهم ويشد أعناقهم، لكن أجسادهم لا تستجيب لأنها ضعيفة، وخائرة، وحزينة، ومُتفجعة، لكن حبل الأمل المُعلق هذا لا يزال له تأثيره في شد تلك الأيدي ولي تلك الأعناق لحت السير من أجل النجاة. هل يقطعون الصحراء؟ أي صحراء تقصد؟ صحراء اليأس، أم صحراء النفس، أم صحراء الموت، أم صحراء الخوف، أم صحراء الذكريات الموجهة... كل هذه صحارى، إذا كنت تقصد صحراء سيناء؛ فهي أقل هذه الصحارى أثراً، كان يُمكن أن تُقطع لولا بقية الصحارى المهلكة!

سقط الثالث، كانت امرأة، ليس لدينا ماء لغسلها، من يعرفها من أجل رشقاتٍ على الوجه على الأقل؟ لا أحد، إنها غريبة ووحيدة، ولا أحد يدري مع من خرجت. اسألوا هؤلاء المرتجلين كلهم؟ لا أحد يعرفها. تعاون ثلاثة رجال على حفر قبرها، ثم دفنوها في الموضع نفسه. سقط الرابع والخامس والسادس، وحفروا لهم قبوراً على عجل، ودفنوها في أماكنهم. بكى امرأة وهي تدفن السابع؛ كان طفلها الوحيد. كيف يُمكن أن تدفن من انتظرت عشره أعوامٍ لكي ترى بسمته؟! كيف يدفن الإنسان جزءاً منه في الثرى وهو يرى؟! مضت القافلة إلى مصيرها المجهول.

ضربت الشمس عقول بعضهم فذهلوا، وآخرين فجئوا، وغيرهم فأبوا أن يَتَمَوَّا السير مع القافلة، قال رجلٌ في السَّيِّيات: «لم أعد أقوى. لقد خرجتُ حذر الموت فوجدتُ أنني خرجتُ إليه». وقضى مُرتاحًا، هكذا قال عبارته الأخيرة، تلغًا القادرون في القافلة على حفر قبر له، إن حفر القبر يستنفذُ قُوَّانا، نحنُ بحاجةٍ إلى هذه القُوَّى من أجل أن نظلَّ قادرين على السير، عقَدَ مجلسٌ للتشاور في الأمر حول دفن الجَنَّةِ، قال أحدهم: «نؤفِّرُ قُوَّتنا من أجل أن يعيشَ مَنْ تبقَى». اعترضَ آخر: «ونتركه للوحوش وللطيور الجارحة؟!». «أمرُ الله، وماذا نستطيع أن نفعل؟! هل تريدُ أن نحفر له قبرًا لكي ندفن معه أحدَ الحَقَّارين؟! إننا لا نملك تلك القُوَّة للمشي حتَّى نُهلِكها في الحفر». «إنها حُرمةُ الجسد، كيف تتركونه عاريًا للهواء دون أن تُكرموه بالدفن، هل جُننتم؟». «سُيِّبينا الجنون بعدَ قليل». «لستم مُسلمين ولا مؤمنين إن طأوَعتكم أنفسكم بتركه دون مُواراة». «إدًا احفر قبره بيدك». «وأنتم؟». «سنواتل السير؟». «لا يُمكنني ذلك، هل ستتركونني وحدي هنا؟». «إدًا لا تتفلسف كثيرًا، الضَّرورة تقتضي أن نمضي، ولا تُرهق أنفسنا وقُوَّانا بحفر قبر له»....

وهكذا مضى الجِدال بين أهل الرأى، الذين جعلوا من أنفسهم بأنفسهم أهلاً للرأى، إذ كانت القافلة تسير وحسب من قبلُ دون أن يكون لها مَنْ يبيت في شؤونها، كان هذا في السابق أوَّل ما خرجت من مصر وهي أمنةٌ نسبيًا، أمَّا الآن وقد صارت في جوف الصَّحراء، فقد تحوَّلت إلى مجتمعٍ مُتعدِّدٍ مُتنوعٍ قائمٌ بذاته، وله تطلُّعاتٌ وأحكامٌ وضرورات، ويجب أن تضبط حركته وإبقاعه بعضُ القوانين أو التوافقات، ولهذا ظهر مجلسُ الرأى هذا... انبرى في نهاية الجِدال مَنْ رأى أنَّه توصلَ إلى رأى يُوقِّق بين الآراء كلها: «نُهيلُ فوقه التراب دون أن نحفر له حُفرة». استُحسن الرأى، وتابَع هو: «عشرةٌ يفعلون ذلك، كلٌّ واحدٌ يُهيلُ فوقه قبضتين أو ثلاثًا حتَّى نوزِّع الطَّاقة المُستنفَدة على الكلِّ فيقلَّ أثرها». ومَضوا.

لكنَّ أمدَ الصَّحراء طويلاً، ونَفَسها أطول، ودروبها غامضاتٌ يضلُّ فيها الدليلُ الخريِّت، وأسهل ما يكون الضياع فيها، وهي بابٌ مُشرِّعٌ على الجهات كُلِّها، تظنُّ البابُ يُفضي إلى الشَّرِّق فإذا هو يُفضي إلى الشَّمال، وحينَ تُدرِكُ ذلك لا تُدرِكُه إلا بعدَ قوَّات الأوان، وحيثُ يقتضي الأمر أن تُنفِقَ أيامًا أخرى لتعودَ إلى الجادةِ الصَّحيحة. لم يكن هناك دليلٌ حاذق، أحدهم أو همهم أنَّه كذلك، وثانٍ قال إنَّه يعرفُ بالتَّجوم، وقد مَضوا على سُنَّةِ الأوَّل، وعلى رأيه وهُدْيِهِ، لكنَّ الدليلُ تاه، فانظر كيف يكون الأمر حينئذٍ، وهمَّ به جماعةٌ لولا أنَّه حدَّرهم: «أنا لم أقلَّ لكم إنني خبيرٌ، قلتُ لكم إنني أعرف». وهَجَمَ عليه أحدهم يريدُ أن يُنشِبَ ذراعَيه ويضغَطَ على عنقه ليخنقه، فرَفَع في وجهه حربةً وصرخ: «مَنْ يقتربُ مِنِّي سأطعنه بهذه». ودَبَّ الدَّعر، لم يخرجوا ليقْتتلوا، خرجوا ليهربوا من القتل، فإذا به يلحقهم إلى هنا. باتوا عاجزين، انبرى مَنْ يُمكن أن يكون رئيسَ أهل الرأى: «لقد فعلَ جُهدَه، ويُمكن أن ننجو، وليس من الحكمة أن نُحمِّله المسؤولية وحده، نحنُ كُلُّنا صنعنا هذا». ولكنَّ أحدهم قال: «لقد وضعنا أرواحنا جميعًا في قبضةِ كَفِّه». ردَّ عليه ثالثٌ في المجلس: «لقد كان هذا من العَباء بِمكان. مَنْ يُسلمُ روحَه لاحتمالٍ كهذا؟!». قال رابعٌ: «إذا لم يكن من الموت بُدٌّ، فليكن الموتُ بشرفٍ، لا خصومة، لا نزاع، السلامُ الدَّاخليُّ يجعلُ قُدم الموتِ سهلاً، نحنُ بحاجةٌ إلى موتٍ مُريحٍ!».

ومَضوا. سقطَ الحادي عشر، والثَّاني عشر، والثَّالث عشر في يومٍ واحد، كان أحدهم عُضواً في مجلسِ الرأى، فحَفروا له قبرًا، ثُمَّ حَفروا للآخرين لموتهم بمعيتِهِ، كان ذلك تكريمًا لن يحصلَ عليه الآخرون فيما لو ماتوا وحيدين! أن تموتَ مع رجلٍ مُهمِّ قيمةً مُضافةً! لكنَّ مَنْ كان ذا حَظٍّ ليموتَ في اليومِ الَّذي يموثُّ فيه هذا النُّوع من الرِّجال؟!!

كان خبيطُ القافلة قد نقص، صار أقصر، من على جبلٍ في الصَّحراء إذا نظرتَ إليه، وجدتَ أنَّه خبيطٌ أسودٌ ينقطعُ في أجزاءٍ منه بسببِ أولئك المُتأخِّرين غير القادرين على الأحاق بالركب من الضَّعف أو الإشفاء على الموت، وبعدَ قليلٍ بالفعل سيقسطُ مَنْ في المُؤخِّرة ليلفِظَ أنفاسه الأخيرة، والقافلة؟! لن تنظرَ إلى الوَراء. ستسير؟ نعم!! كان هذا أوَّل ميِّتٍ يُترَكُ دون أن يُدفنَ، سيكون صيدًا سهلاً للوحوش بعدَ أقلَّ من نصفِ نهار، وللطيور الجارحة.

نظرةً أخرى إلى القافلة من الجبل الذي يليه، إنها تزدادُ قَصْرًا مع الوقت، الدليل طعنُ نفسه بحرَبته، لقد أشبعوه لومًا، لم تمرَّ ساعةٌ إلا ورَموه بأوجع العِبارت: «لولاكَ لَنَجونا... لقد وثَّقنا بكِ وأنتِ خُنْتنا... لو قلتَ لنا من البداية لعرَفنا كيف نتصرَّف...» أنهى حياته كما يليق، أمسكَ الحربةَ وحَزَّ بها عُنُقَه، فراح دمه يشخبُ وينفِرُ ويتدفَّق، لم يكذُ يُغْطِي صدره وثيابه حتَّى ترتجَّ وسقط. لم يمسه أحدٌ، القافلة مَضَتْ، غير أن بُعْةً سوداء من هنا تبدو لطحَّةً في مدى مَسوم!

القافلة تتناقصُ مع الدرب، تنبعج، تنفلت، تنشق، تترنَّح، تتباطأ، ينفِرُ عِقدُها، يتناثرُ أعضاؤها، يموتُ أهل الرأي فيها... الموتى لا يكثرُ لهم أحدٌ، سواءً أكانوا عاديين أم من أهل الرأى... الموت ساوى بين الجميع في هذه المرحلة، لم يعد أحدٌ يلتفتُ إلى الورا، أبدًا، يُمكن بالخطوات الأخيرة المُتَّجهة إلى الأمام أن تنتهي الرمال الصَفراء وتبدأ الرمال الحمراء، يُمكن أن ينجلي المدى عن واحةٍ، عن ماءٍ يروي الشفاه المُتشفِّقة، عن أناسٍ لديهم كِسرةُ خبز، أو نواةُ تمرٍ صالحة لأن تُمَصَّ... لكن لا شيءٍ من هذا يلوح في الأفق.

القافلة تتناقصُ حتَّى لا تكادُ ترى لها خيطًا من هنا من هذا الموقع المُرتفع الذي يُمكن أن تراها فيه... أصبحت مُجرَّد نُقْط مُبعثرة، تتحركُ في اتجاهات مُتباينة، ثم تسقط هذه النُقْط دون حراك!!

” (٤)

مع العُجبِ العِثار، ومع الاستيِّداد الزَّل

أيها الإنسان؛ هذا هو الموت، لا تترفعُ بحيثُ تُستَقَل، ولا تتنازل بحيثُ تُستَحسن وتُسْتَحقر. انتزحُ عن عادات الصِّبا، وتجرّدُ عن مألوفات الطَّبِيعَة، واجعلْ كلامك لاهوتيًا.

إنني أسعى إلى أن أكتبَ كلَّ ما رأيتُ، فهل يُعين العقل والوقتُ على ذلك؟ ينبغي للإنسان أن يقرأ التَّواريخ وأن يطَّلِع على السِّير وتجارِب الأُمم، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدركَ الأُمم الخالية وعاصَرَهم وعاشَرَهم وعرَف خيرَهم وشرَّهم. ولقد قرَّبتُ المحن في زماننا كلَّ هذا، فالطَّاعون خلطَ الأُمم والأخبار، والزلازل ضربتِ الأفكار والأمال، والجوع أخرجَ في الإنسان أحسنَ ما فيه وأسوأه. تثبَّت ولا تتعجَّل ولا تعجب؛ فمع العُجبِ العِثار، ومع الاستيِّداد الزَّل.

أيها الفاني؛ إذا حدثَ لك فرحٌ وسرورٌ ببعضِ أمور الدُّنيا فاذكر الموت، وسرعة الزَّوال، وأصناف المُنْعِصات. وإذا أحزنك أمرٌ فارحُ، وإذا اعترتكُ غفلةٌ فاستغفر، واجعل الموتُ نُصبَ عينيك.

أيها الفاني؛ اعلم أنّ النَّاسَ عيونُ الله على العبد يُريهم خيرَه وإنَّ أخفاه، وشَرّه وإنَّ سَتَره، فباطنه مكشوفٌ لله، والله يكشفه لعباده، فعليك أن تجعل باطنك خيراً من ظاهره، وسِرِّك خيراً من علانيتك. ولا تتألم إذا عرضتْ عنك الدنيا، ولو عرضتْ لك لشغلتك عن كسب الفضائل.

كنتُ قد نويْتُ بعدَ أن لملمَ الطّاعونُ أروانَه وأشلاءَ ضحاياَه، أن أكتبَ ما حدثَ في هذه السّنوات الأربعة الأخيرة، ولقد عزمْتُ على ذلك، فإنني بعدَ انتشارِ آكلي لحوم البشر في الطّرقات، أويثُ إلى بيتي، فلزمتُه أكثرَ الوقت، ولم أعد أخرج إلا قليلاً، إلى البيمارستان أحياناً، أو إذا دعاني أحدُهم إلى بيته لأعطينَ له مريضاً وأصفت له دواءً. وكان الدّهَاب إلى المرضى في البيوت ديدني من قبل، لكنّه اليوم كثرَ لفسحةٍ في الوقت. أمّا مُنشأة القاضي الفاضل فقد أصبحتُ بلقعا لا يُزار، وخراباً لا يُوم، وموتاً أسوداً! صارتُ غرف المكتبة تمتلئُ بعظام البشر المأكولين التي تحللت، والحدائق تعجّ بالقبور والخُمر التي ألقيَ فيها الموتى، ولو رُحِتْ تمشي في أنحاءها لدست في كلِّ شبرٍ على عظمةٍ في موضعٍ كانتُ تنبثُ فيه وردةٌ فواحةٌ أيام الرّخاء؛ فذلك أمرُ الإنسان كله!!

ولقد صدّرتُ كتاب الإفاضة والاعتبار الذي أروي فيه هذه الحكاية، وكتبْتُ هذه الكلمات: «اللهم أعذنا من جموح الطّبيعة، وشُموس النَّفس الرديّة، وسلّس لنا مقارّ التّوفيق، وخذُ بنا سواء الطّريق، يا هادي الغمي، يا مُرشِد الضّلال، يا مُحيي القلوب الميّتة بالإيمان، خذُ بأيدينا من مهواة الهلكة، ونجنا من رذغة الطّبيعة، وطهّرنا من دَرَن الدّنيا الدّنية بالإخلاص لك والتّقوى، إنك مالكُ الدّنيا والآخرة، سبحان مَنْ عمَّ بحكمته الوجود، واستحقَّ بكلِّ وجهٍ أن يكونَ هو المعبود، تلالُث بنور وجهك الآفاق، وأشرقَتْ شمسُ معرفتك على النَّفوس إشراقاً وأيِّ إشراق...!». ثمَّ شردتُ وأنا أعودُ إلى أيام نشأتِي في بغداد، أتذكّر فيها أيام الصّبا، ودرّب الفالودج، والحلوى التي كانتُ أمّي تشتريها لي، وأبي الذي كان يأخذني إلى الدرس، ويحرصُ على ذلك حتّى إنّه اِكترى لي بيتاً لكي أكون قريباً من المدرسة... فاستعيرتُ عينا، ورحتُ أمسحُ الدّموع بطرفِ كُمّي، فسمعتُ صوتَ طرق الباب، فخرجتُ فإذا هو أحدُ الحُجّاب، فذكّرني أنّ عليّ حُضورَ مجلسِ القضاء كما طلبَ مني رئيس المجلس ما استطعتُ من أيام الأسبوع، وكنتُ غالباً ما أختلفُ إليه يوماً بعدَ يوم.

وقد جلستُ أنظر في مجلس القاضي وأسمع، فجيءَ بامرأةٍ، وقد رَبَطتُ إلى عُقُها طفلاً مشويّاً، ويبدو أنّها فعلت ذلك حتّى لا يقع منها أو لا يُختطف، وكانتُ تأكلُ منه كلّما جاعتُ، كانتُ امرأةً في أواسط الثلاثينيات كما يبدو من هيئتها، كانتُ تُشبه دُرّيّة، ولا أدري إنَّ كانتُ تُشبهها حقّاً، أم أنّي صرْتُ أرى كلّ امرأةٍ تأكلُ البشر هي دُرّيّة، إنّها تُشبهها على الأقلّ في هذا الفعل الإجرامي الذي يُخالطُ الخيال. كانتُ رتّةً الهيئته، حاسرة الرأس، وشعرها قد تلبّدَ كأنّ الماء لم يمسه من شهورٍ، ووجهها تعلقه الأوساخ والسّواد والقروح، كأنّها لم تستحمّ في حياتها، وكانتُ عرجاء عرجاً خفيفاً، إذ إنّها لم تقف مُعتدلةً تماماً، وكانت تميلُ جهةً رجلها الأقصر، الجهة التي يتدلّى من عنقها الصّغير المشوي، وكانتُ تنظر بعينين فارغتين كأنّها عمياء، وهي ليست كذلك. وكانتُ في سكوتها تبيّن شفاهاً عن أسنانٍ عريضةٍ حمراء، لا أدري أهي حُمرةٌ تنعكس من لثتها، أم هي حمرةٌ التوحّش والدّم المسفوح؟ وكانتُ تتظاهر بأنّها لا تعرفُ لغتنا، فسألها القاضي: «مَنْ هذا الذي في عُقُك؟». فلم تُجب. فكرّر السّؤال فطلتُ صامتةً.

ثمَّ هدّدها: «إنّه دليلٌ على أنّك قتلتَه وشويتَه، وهذا كافٍ لإعدامك». فلم تنطقُ بكلمةٍ، غير أنّها تحرّكتُ في مكانها، فبان قصُرُ رجلها، واختلجتْ شفتاها فغطّتا على أسنانها العريضة، ثمَّ انفرجتا من جديد، كأنّها كانتُ تريدُ أن تقول شيئاً ثمَّ تراجعَتْ. فأمر القاضي أن تُضربَ بالسّوط، فضربتُ عشرَ سيّاطٍ، فلم تتكلّم، فسألها من جديد: «مَنْ هذا الذي في عُقُك؟». فلم تُجر جواباً. فقال لها مُغضباً: «هل أنتِ خرساء؟». فأجابتُ: «لا». ففرد يديه وازداد غضبه: «ما دمتِ غير خرساء فلم لا تُخبرينا مَنْ هذا؟». فطلتُ صامتةً. فأمر بضربها، فضربتُ عشرَ سيّاطٍ أخرى، فلم تتحرّك عن موقفها. فسألها القاضي، وهي تلهثُ، وقد غطّتُ بالدم: «أهو ابنُك؟». فنظرتُ بعيداً. «أهو ابنُ جيرانٍ لكم؟ أمّمتِ باختطافه من بين يدي أمّه؟ أم اختطفته من أحد البيوت وسرقته؟». فطلتُ على بكمها، ثمَّ أمر القاضي بجلدها من جديد، فجلدتُ حتّى تقطعَ نَفْسُها لا تنبِسُ بكلمةٍ، لكنّ صوتَ لهاثها وانقطاع نَفْسها كان مسموعاً. فوددتُ لو أنّ القاضي أمر بقتلها قتلاً سريعاً على أن

تُعَدَّبَ هذا التَّعْدِيبَ أَمَامِي. لَكِنَّ سِيَّاطَ الْجَلَادِ ظَلَّتْ تَهْوِي عَلَى جِسْدِهَا حَتَّى مَاتَتْ، ثُمَّ سَجِبَتْ، وَدُفِنَتْ دُونَ غُسْلِ وَلَا صَلَاةٍ فِي مَقْبَرَةِ الْمُجْرِمِينَ.

ثُمَّ عُرِضَ عَلَيْنَا رَجُلَانِ، فَسَأَلَ الْقَاضِي الْأَوَّلُ عَنِ الثَّانِي: «هَلْ تَعْرِفُهُ؟». فَأَجَابَ: «أَعْرِفُهُ، وَهُوَ أَعَزُّ أَوْصِدْقَائِي». فَلَمْ يُنْكِرِ الثَّانِي مَقُولَةَ الْأَوَّلِ، وَهَزَّ رَأْسَهُ بِالتَّصَدِيقِ، فَبَدَا التَّعَجُّبَ عَلَى مُحْيَا الْقَاضِي وَمُحْيَاي، فَجَلَسْنَا أَنَا وَالْمَجْلِسُ نَسْتَمِعُ إِلَى حِكَايَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ حِكَايَاتِ أَكْلِي لَحْمِ الْبِشْرِ، قَالَ الْأَوَّلُ: «إِنَّ صَدِيقِي هَذَا دَعَانِي فِي عَامِ الْجُوعِ وَالْجَدْبِ هَذَا إِلَى طَعَامٍ عِنْدِهِ، فَأَجِئْتُهُ إِلَى مَا طَلَبَ، وَمَنْ يَرِفُضُ دَعْوَةَ إِلَى اللَّحْمِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ؟ فَلَمَّا وَلَجْتُ الْبَابَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَجَدْتُ فِي السَّاحَةِ مَجْمُوعَةً مِنَ الْفُقَرَاءِ رَتَّيَ النَّيَابِ، لَمْ أَرَهُمْ مَعَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ أَرَهُمْ فِي حَيَاتِي كُلِّهَا، فَسَأَلْتُهُ: أَمُّهُم مَدْعَوُونَ إِلَى الْوَالِيمَةِ؟ فَقَالَ لِي: سَتَعْرِفُ عِنْدَمَا تَرَى. فَسَأَلْتُ: وَمَنْ أَيْنَ لَكَ بِهِمْ؟ لَمْ أَلْتَقِ بِهِمْ مَعَكَ مِنْ قَبْلُ؟ فَرَدَّ: سَتَعْرِفُ عِنْدَمَا تَرَى. فَاسْتَرَبْتُ قَلِيلًا، وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْأَهْوَالِ فِي هَذَا الشَّأْنِ مِمَّا يَتَدَاوَلُهُ النَّاسُ، فَمَضَيْتُ مَعَهُ إِلَى الدَّخْلِ تَارِكِينَ السَّاحَةَ وَأَنَا مُتَوَجِّسٌ أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّوَجُّسُ، فَلَمَّا صِرْنَا عَلَى الْبَابِ وَهَمَمْنَا بِالدَّخُولِ، رَأَيْتُ مَجْمُوعَةً أُخْرَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرَدِينَ الْمَرْتُوثِينَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ قُدُورًا فِيهَا طَبِيخٌ، وَلَحْمٌ كَبِيرٌ». فَقُلْتُ وَقَلْبِي يَرْتَعَشُ: «فَمَا هَذَا اللَّحْمِ يَا صَدِيقِي؟»، فَرَدَّ: «سَتَعْرِفُ عِنْدَمَا تَرَى». ثُمَّ إِنِّي تَوَقَّعْتُ بُرْهَةً عَلَى الْبَابِ أَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرَدِينَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ قُدُورَ الطَّبِيخِ يَدْخُلُونَ بِهَا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَامْعَنْتُ النَّظَرَ فِي اللَّحْمِ، فَوَجَدْتُهُ قِطْعًا كَبِيرَةً لَمْ أَعْهَدْهَا فِي اللَّحْمِ الَّذِي نَاكَلُهُ عَادَةً، وَلَيْسَ مَعَهُ خَبِزٌ وَلَا شَيْءٌ يُؤَكَلُ بِهِ، فَسَأَلْتُهُ: «سَنَاكَلُ اللَّحْمَ مِنْ دُونَ خَبِزٍ؟»، فَرَدَّ: «سَتَعْرِفُ عِنْدَمَا تَرَى». فَدَخَلْتُ وَسَاقَايَ لَا تَقْوِيَانِ عَلَى حَمْلِي، وَفَكَّرْتُ فِي أَنْ أُسْلِمَهُمَا لِلْفِرَارِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي: «إِنَّهُ صَدِيقِي، وَإِنَّهُ لَنْ يَغْدِرَ بِي، وَإِنَّ بَعْضَ الْأَخْبَارِ الَّتِي سَمِعْتُهَا فِي شَأْنِ أَكْلِ لَحْمِ الْبِشْرِ فِيهَا تَهْوِيلٌ، وَلَوْ حَدَّثْتُ مَعَ أَنَا تَجَرَّدُوا مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَنْ تَحْدِثَ مَعِ صَدِيقِي هَذَا الَّذِي أَعْرِفُهُ وَأَلْزَمُ صُحْبَتَهُ مِنْذُ أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا...». فَدَخَلْتُ مَعَهُ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَمَا عَنَّمْنَا أَنْ جَلَسْنَا، وَالْقُدُورُ تَهْوِي تَلُو الْقُدُورَ مَمْلُوءَةً بِاللَّحْمِ الدَّسِيمِ، وَلَوْ كَانَ صَدِيقِي كَرِيمًا فَلَنْ يَكُونَ بِهَذَا الْكِرَامِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقُدُورِ الْمُنتَفِخَةِ بِاللَّحْمِ فِي زَمَنِ الْجَدْبِ هَذَا، فَزَادَ ذَلِكَ مِنْ شَكِّي، وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا شَعْرَةٌ رَفِيعَةٌ مِنْ أَجْلِ أَنْ أُصَدِّقَ الْفِكْرَةَ الْمُرْعِبَةَ فِي أَنَّ هَذَا الصَّدِيقَ الْوَفِيَّ يُقَدِّمُ لِي عَلَى الْمَائِدَةِ لَحْمًا بَشْرِيًّا، وَأَنَّ الَّذِينَ صَادَوْهُ لَهُ وَبَاعُوهُ هُمْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرَدُونَ الْقَدْرُونَ. فَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ قَبْلَ أَنْ أُشْرَعَ بِالْأَكْلِ، فَأَجَابَنِي، وَهُوَ يَنْظُرُ فِي عَيْنِي وَيَرَى خَوْفِي وَيَبْتَسِمُ، فَفَمِتُّ إِلَى الْحَمَّامِ، فَوَجَدْتُ فِيهَا خِزَانَةً مُعَلَّقَةً، تَقَطَّرُ مِنْ جَوَانِبِهَا عَلَى الْأَرْضِ دَمًا، فَتَشَجَّعْتُ فَفَتَحْتُهَا، فَكَانَتْ الصَّدْمَةَ الَّتِي كَادَتْ تَطْرَحُنِي أَرْضًا، لَقَدْ كَانَتْ الْخِزَانَةُ مَلْبِيئَةً بِرُؤُوسِ أَدْمِيَّةٍ مَقْطُوعَةٍ، وَبِلَحْمِ الْبِشْرِ وَقَدْ جَهَّزَ قِطْعًا، فَاتَّكَأْتُ عَلَى جِدَارِ الْحَمَّامِ لَمَّا أَحْسَسْتُ بِدُوخَةٍ، وَاسْتَعَدْتُ قَدْرَتِي عَلَى الْوُقُوفِ، وَفَتَحْتُ بَابَ الْحَمَّامِ، وَهَرَبْتُ بِأَسْرَعٍ مَا يُمَكِّنُنِي الْهَرَبِ، وَأَنَا أَصِيحُ مِنَ الدَّعْرِ، وَصَاحِبِي هَذَا يَصِيحُ: «إِلَى أَيْنَ يَا صَدِيقِي؟! أَنَا جَهَّزْتُ لَكَ طَعَامًا لَمْ تَأْكُلْ مِثْلَهُ فِي حَيَاتِكَ».

ثُمَّ سَكَتَ الْأَوَّلُ، فَسَأَلَ الْقَاضِي الثَّانِي: «هَلْ مَا قَالَهُ صَاحِبُكَ صَاحِبُكَ صَاحِبُكَ؟». فَرَدَّ الْأَوَّلُ دُونَ تَرَدُّدٍ: «نَعَمْ، صَاحِبُكَ». فَازْدَادَ عَجَبُنَا مِنْهُ، فَسَأَلَهُ الْقَاضِي مِنْ جَدِيدٍ: «فَمَا حَمْلُكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟». فَرَدَّ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ صَدِيقِهِ بِأَسَى: «كُنْتُ أَرِيدُ أَنْ أَكْرِمَهُ!!».

” (٥)

الأطباء الثلاثة

أَطِيبُ الْقُلُوبِ قُلُوبُ الْأَطْبَاءِ، وَأَكْثَرُهَا رِقَّةً وَجِسَاءً، وَإِذَا دُعُوا إِلَى وَاجِبٍ أَجَابُوا، وَإِذَا لَزِبَهُمُ النَّدَاءُ لَبَّوْا، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ مَشَاعِرِهِمْ وَوَقْتِهِمْ، وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ فَضِيلَةٌ لَا يَتِمَّتُ بِهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، إِلَّا أَنَّهَا هِيَ ذَاتُهَا مَتَلَبِّئُهُمْ، وَمَوْقِعُ شَرَكِهِمْ، وَجِبَالَةُ صَيْدِهِمْ. وَلَقَدْ قَضَى فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَطْبَاءَ نَحْبَهُمْ!

كان الأول (خليل)، إذ بعد موت والده بشهرين، زارني ظهر أحد الأيام في بيتي، وقد تغير وجهه، وامتنع لوئه، وغاض بهاء قسّماته، وخملت حركته، ولما سأله عن ذلك، قال: إن موت الأب أفضع ما مررت به في حياتي، فترحمنا عليه معاً، وتذاكرنا عهده، وأبنا إلى رُشدنا؛ فما قضى به الله لا تردّه قوة. ثم إنّه راح يُحدّثني بما رأى من غرائب وعجائب، فقلت له إنني عابنتُ كما عابنتُ، فهل هذا في مصر أو القاهرة وحدها؟ فردّ: «إن البلاد كلّها اليوم تتحوّل إلى متوحّشين، وإن الله إذا لم يُهلك هؤلاء ويأت بخلقٍ جديد، فإنهم سيأكلون ويؤكلون حتّى يتفانوا!!».

ونحنُ إذ ذاك، جاء أحدُ معارفه، وطرق الباب وأذنتُ له فدخل، فسألته (خليل) عنه، فقال إنّه (صدقي) ابنُ عمّي، سمّاه عمّي على اسم أخيه الأكبر، وصارَ وحيداً من أيام الخسف والزلازل، بقي حيّاً لأنّه كان في حاجةٍ أهله في السوق، فلما وقع الرّدم على البيت دفنَ أهله جميعاً تحته ونجا هو. قال لخليل: «إنني أشعرُ بالتعب». اختبر خليل درجة حرارته، فوجد أنّها مُرتفعة، وأنّ الحمّى تستوطن جسده، وكانت عيناها ذابيتين، طلبَ منه أن يقصّي عنه طرف جلابه، ونظر تحت إبطيه، فإذا هي الدّمامل، فشهو، وإن كانت لا تزال في أول ظهورها، وسألني: «هل عاد الطّاعون للظهور من جديد يا سيدي؟». أجبتُه: «ربّما، مع أنّي أعتقد أنّ دمامل ابن عمك هذا مؤشّرٌ على رحيل الطّاعون لا على قدومه، وأنّه من الذين مسّتهم أذيالُه، لكنّ الشّفاء منه الآن ممكِنٌ، وأقترح أن تذهب به إلى البيمارستان، فهناك تجد الأدوات والأدوية المناسبة». هزّ ابن عمّه رأسه بالرّفص، وقال: «يكفي أن تُطّيبني في بيتك أو بيتنا، أنا لسْتُ بحاجةٍ إلى مصحّة». وافقه خليل على الفور، لكنني نصحتُه بالبيمارستان فالظروف هناك أفضل من أيّ بيت، والبيمارستان الآن ليس فيه اكتظاظ الأيّام الأولى للطّاعون، لكنّ ابن العمّ أصرّ على ابن عمّه الطّبيب أن يكون التّداوي في بيته. استأذنتُ خليل: «إنّه ابن عمّي الأصغر، وإكراماً لذكري أبيه وعمّي سأذهبُ معه». وسارا، هتفتُ: «بعد أن تُجرّي له الأمور اللازمة، غُد إليّ لأنني أريدُ أن أكلمك في أمرٍ مهمّ. بالمُناسبة أين سالم؟ هو الآخر لم أعد أراه، هل تشنّت شملنا على هذا النّحو؟ لقد كُنتما أمهر طّلابي وأعرّهم إلى قلبي». سلم عليّ خليل وكاد يُعْطِل يديّ: «اعذر قلة حيلتنا يا سيدي، واغفر لنا عُقوقنا»، وغادر مع ابن عمّه.

انتظرتُ (خليل) حتّى غربت الشّمس ولم يعد، وانتظرته حتّى انتصف اللّيل ولم يعد، فقلقتُ عليه كثيراً، وهممتُ أن أركب الأبلق وأذهب إلى بيته لأطمئنّ عليه، ولكنّ اللّيل كان قد مدّ ظلاله على كل ساكنٍ، والخوف من أكلة البشر قائمٌ، وهم يستشرون في هذه الأوقات أكثر من غيرها، فقلت إن خرجتُ أنا الآن وقعتُ في جبالهم، وللصباح عيون، وإن غداً لناظره قريبٌ.

فلما أشرقت شمسُ اليوم التّالي همزتُ الأبلق، وسيرتُ به إلى بيت خليل، فطرقته الباب فلم يفتح لي أحدٌ، فأعدتُ طرقه اثنتين أو ثلاثاً، فما سمعتُ نامةً، فشككتُ في الأمر، وخفتُ أن يكون قد أصابه مكروه، ثمّ إن ابن عمّه حسب ما دار بينهما أمس من حوارٍ أمامي يُفترض أن يكون هنا في بيته، ولا بُدّ أنّه سمعَ طريقي على الباب، أفيمنعه المرض أن يقوم فيفتح لي؟ كلا؛ لا بُدّ أن في الأمر شيئاً. فشجعتُ نفسي، ودفعتُ الباب، فصرتُ كأنه شخير رجلٍ هَرِمٍ يُدبج، لا أدري لِم صار أمر الدّبج يبرز في خيالي ويدور في خلدي كثيراً هذه الأيّام... لا بُدّ أنّ السبب مجالس القضاء التي أشهدها لصفّهم هم أيّ شيءٍ غير أن يُسموا بشراً...!! المهمّة مضيّت في دخولي، واجهتني في البداية غرفةٌ متوسطةٌ بين العُرف تُفضي إلى أربع على أطرافها، فنظرتُ في الأولى فلم يكن فيها أحدٌ، فهتفتُ بصوتٍ عالٍ: «السّلام عليكم... يا أهل الدّار...» لكنّ صوتي ضاع. كنتُ قد فتحتُ باب الغرفة الثّانية، ونظرتُ فيها فلم أرَ فيها بشراً، ثمّ أغلقتُ الباب، في أثناء ذلك شعرتُ بحركةٍ غريبةٍ خلفي، استدرتُ بسرعةٍ فرايتُ صدقي هاجماً ومعه ساطور يُريدُ أن يهوي به على رأسي، فتراجعتُ إلى الورا، وصرختُ من الرّعب، ووقع السّاطور على الباب فشقه بضربةٍ واحدة! فانقطع نَفسي من الهلع، وركضتُ أبحث عن مخرجٍ فحانتُ منّي التّفاتة إلى الغرفة التي اعتقدتُ أنّه خرج منها، فإذا هو خليلٌ مُقطّعا بذات

السّاطور الذي يهجم به عليّ صدقي، وإذا هو قد رمى أشلاءه في كلّ مكانٍ من الغرفة، فألجأنتني حلاوة الرّوح إلى الرّكض بسرعة، والخروج من الباب، فوجدتُ الأبلق في الخارج يسهل ويفحص الأرض بحوافره، فاعتليته بقفزةٍ واحدة، وطرقتُ به إلى مجلس القضاء، فسمعوا منّي، وبعثوا إلى بيت خليل، فقبضوا على صدقي وأتوا به، فعرفتُ أنّ الدّمامل كانت حيلةً، وأنّه ليس مُصاباً بالطّاعون، وحين سألته القاضي: «لم فعلت ذلك باين عمك؟». ردّ بهدوء: «لقد سمعتُ من

أصدقائي أن لحم الأطباء أطيب لحم بشريّ يُمكن أن يُدّاق!». فتلمّستُ جنوبي خشيةً أن يكون هذا السّقّاح قد اقتطع منه لنفسه شيئاً!!

ومضى (خليل)، دفنّته بيديّ، أعني دفنّت ما تبقى منه ممّا استطعنا إنقاذه من بين يدي ابن عمّه المُجرم، كُنْتُ أوسّده، جذعه المنقوب عن يمينه، ليرتاح في هذا المثوى على جنبه، وأتذكّر أبيات عمرو بن معديكرب الزبيدي، وأبكي إذ يقول:

كم من أخٍ ليّ صالحٍ

بؤأته بيديّ لحدًا

ما إن جزعث ولا هلعث

ولا يزدُ بكاي زندا

ذهب الذين أجبهم

وبويث مثل السيف فردا

وأما الثاني، فإن امرأةً في الشّارع تعلقت بأذياله، وتوسّلت أمامه وبكت، واستحلفتُ أن يأتي معها إلى دارها ليرى ما حلّ بابنها الصّغير، كان يرى دموعها حقيقيّة، ولم يكن يدري أنّ أكذب ما في المرأة دموعها، فصّدّقها وإن ظلّ في نفسه منها شكّ، فدفعته إليه خمسةً دنانير مُقدّمةً بذلك ثمن علاجها لابنها قبل أن يراه، فدخله الطّمع، والطّمع شدّته في خفائه، فقيل، وتبعها، فمشت أمامه في الطّرقات، فتركته ما كان منها كبيرًا يتوسّط الدّور، وأخذته إلى الأزقة الضيّقة التي ينتشر على جانبيها الهدم فاستراب، فنظر إلى الدنانير الخمسة في يده فسار خلفها، وكلّما أبطأ الشكّ قدّمه أسرع الدنانير بها، حتّى وصلت به إلى مكانٍ لم يعد فيه للدنانير قدرةٌ على أن يمشي خلفها مزيدًا من الخطأ، فسألها عن البيت، فقالت: «إته قريب». فردّ: «إنك تقولين إنه قريبٌ منذ أكثر من أربعة فراسخ، ماذا وراءك يا امرأة؟!». ونظرت حولها، فعرفت أنّه وقع في المصيدة، ثمّ سمع أصواتًا كأصوات الوحوش في الفلاة، فعرفت أنّه هالكٌ، فأطلق ساقيه للريح، فوضع أحدهم سهمه في نُشابهه فأطلقه عليه، فأصاب ساقه، فدرجه على الأرض، ثمّ قام يعرج، فكسر النّصل، وركض بأقصى ما فيه من قدرة، فنجا بعد أن كان بينه وبين الموت لحظات. وقصّ الحكاية على زملائه الأطباء، فبعضهم صدّقها، وبعضهم قال

له إنه الجوع والإرهاق، ولكن الصنفين؛ المصدقين والمشككين، كانوا إذا طلبوا إلى مريض في بيت ساروا إليه، يحدوهم نداءً لا يسمعه أحدٌ سواهم!

وأما الطبيب الثالث، فكان إلى رقة قلبه، يتأثر بالموعظة، وتنزل منه منزلة تُجلّ فيها وتُعظّم، وقد عرّض له رجلٌ قال إنّه إمام المسجد الذي في أول سوق القفصات، وأن جارته المريضة ليس معها درهمٌ واحدٌ تستطبّ به، فضلاً عن أن تدعو طبيباً، وإنه جاء إليه لأنه توسّم فيه الخير، فصحبه صاحبنا إلى جارته المزعومة، فما زال في الطريق، يعظه، ويؤمّته، ويقول الله: «اليوم تفوز بالثواب. إن أجرك وأنت تتجشّم كل هذا العناء من أجل امرأةٍ وحيدةٍ مسكينةٍ لهو أجرٌ عظيم». وصاحبنا يطربه القول، ويقع منه في قلبه على أرضٍ مُخضّلة، والشّيخ الإمام يزيدٌ في ترغيبه في الصبر والأجر والثواب، وفي ترهيبه عن التّعاس عن نصرة المحتاج وإغاثة الملهوف وإعانة ذي الكَلِّ، وصاحبنا يتبعه مُسليماً له كلّ التسليم، حتّى إذا أشرفا على أمكنةٍ ليس فيها مُصوّت، قال له الإمام: «لقد وصلنا»، فدخل أمامه إلى الدار، فإذا هي دارٌ خربة، وصعد الإمام درجاً مُفضيلاً إلى الطابق الثاني، فتوقّف صاحبنا الطبيب الطيّب في وسط الدرجات عن أن يُتّم خلفه الصعود، فلما وصل الإمام إلى الطابق الثاني، سمع صاحبنا صوت بابٍ يُفتح، وصوت رجلٍ يقول للإمام: «لقد تأخّرت علينا أيها اللعين، لكن سنغفر لك ذلك إذا كنت جنتنا بصيدٍ ثمين». فردّ: «جنتكم بطبيب، لحمٌ ولا أشهى». فعرف صاحبنا وهو واقفٌ في وسط الدرج أنّه وقع، وأن شفرة الدبّح قد اقتربت، وراح يتلمّس عنقه، ونظر إلى مدخل البيت، فإذا الباب مُوصدٌ، وقد وقف أحدهم عنده، فعرف أنهم يحكمون عليه الخناق، فنظر عن يساره إلى الحائط الذي يسند الدرجات، فرأى فيه نافذةً تُطلّ على الشارع، فخلع خشبها، وقفز منها إلى الأرض، وأطلق صرخةً عاليةً من الألم، لكنّه تحامل على نفسه وقام، ولم يكذّ يمشي بصعٍ خُطواتٍ حتّى تلقاه رجلٌ غريبٌ ربّ الثياب، فسأله وقد رأى ارتياعه وعرجه: «هل تريدُ مساعدةً؟».

فخاف صاحبنا أن يكون هذا الرجل واحداً منهم، فأخفى ما به، وأنكر وجعه، فقال له الرجل: «إنني أعلم أنّ أهل هذا البيت يصيدون الرجال بالجيلية، فهل أنت خارجٌ من عندهم؟ انج بنفسك، فإنهم لن يتركوك حتّى يشموا قُتار لحمك في قُدورهم!!». “

” (٦)

القرى المنكوبة

الميضأة في القرافة لم تتوقّف عن استقبال الموتى، لا في زمن الطّاعون ولا في زمن الجوع، وليس زمن أكلي لحوم البشر استثناءً، وإن كانت معدّ المتوحّشين وأمعاؤهم هي التي صارت قُبور الموتى. وعادت إلى العلن ظاهرة نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحومهم، وليس في مصر اليوم بلدٌ إلّا وقد أكل فيه الناسُ أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والقُيُوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحي.

أما الضواحي والقرى فقد هلك أهلها قاطبةً، وإنّ المُسافرَ ليمرّ بالقرية فلا يسمع في بيوتها صوتاً ألبتة، لا صوتَ بشرٍ ولا صوتَ حيوان، وتجذّ البيوت مفتوحةً وأهلها موتى من الجوع مطروحين في الأرض مُتقابلين، بعضهم قد رمّ، وبعضهم طريٌّ ينتظرُ أكلاً يأكله، ولقد تدخل البيوت ما فيها إلّا الصمت، وقد ترك الأثاث والمَتاع ليس هناك من يأخذه أو يرغب فيه؛ لأنّ القرية ليس فيها حيٌّ واحدٌ، وكانت القرى قد عانت من أكلي لحوم البشر لكن بصورةٍ أخفّ ممّا هي في المدن والمحال الكبرى.

وعنّ ببالي أن أركب الأبلق، ومعى الشُرطيان، وأذهب إلى هذه القرى القصية فأنظر ما فيها، وفعلتُ، وبقيتُ أنا وصاحباي طوال الطريق التي امتدّت أكثر من عشرين فرسخًا لا نرى إنسانًا حيًّا واحدًا، وكانت البيوت صامتة كأنّ لسانها بأناسها قد اقتلَع. والنوافذ مُشرعة على الخواء، وعيون الأحاب مُطفأة.

ودخلنا قريةً في الجنوب فلم نجدُ فيها حيوانًا في الأرض ولا في السماء، وتخلّنا البيوت فوجدنا أهلها موتى مُبعثرين في كلّ مكان، ولربّما تجد البيت الواحد وقد مات الرّجل وزوجته وأولاده لم ينجُ منهم أحدٌ. وأتينا على قرية كانت معروفة بسوق الحياكة، كان فيها أربعمئة دُكانٍ لذلك، وقد قنّي أهلها كلهم، وإذا هي في الخراب كأخواتها من القرى، وكُنّا نجدُ الحائك في موضع حياكته إن كان على التّول وقد مات تحتها، وبيده التّول.

ثمّ دخلتُ قريةً ثالثةً تبعُدُ عن أختيها بضعة فراسخ، فرأيتُ أهلها كلهم موتى، وقد حامت الكلاب والذّناب والضّباع على جثثهم ترتع في لحومهم، فقلتُ: «إنّ أكلة لحوم البشر إمّا إنهم لم يصلوا إلى هنا، أو أنهم فنّوا فيمن فني بعد أن أكلوا ما أكلوا من لحوم إختهم في البشريّة، فلما هلكوا جميعًا، اشتمّت روائح أجسادهم ذوات المخالب والأنياب فجاءت إلى ولائها المذبولة!». و

ثمّ رجعتُ مع صاحبي من القرى المنكوبة، وأنا أشعرُ أنّي رجعتُ من عالم غريب عجيب لا يرى حتّى في الأحلام، ولو قدّر لي أن أعاين أهوال الآخرة، وأشراط السّاعة؛ فهل يكون فيها ما رأيتُ أو دوتّه؟ ولست أدري ما الذي لا زال في صفحة الغيب عند الله لم يُطلع عليه خلقه، فإنّني رأيتُ ما لو كنتُ في الجحيم ما رأيتُ أبشع منه فيما أظنّ!!

فلما وصلتُ إلى القاهرة، وكان الوقتُ ظهرًا، تلقّاني على بابها أحدُ حُجّاب القاضي يدعوني إليه، فعرفت أنّي من أسبوعٍ لم أشهد مجلس القضاء، فسارعتُ قبل أن أرتاح إلى هناك، فرحّب بي الرّئيس، وجلستُ عن يمينه، فجاء بعطار من (إطفيح) ومعه المدعي عليه، فسأل القاضي المدعي: «ما دعواك؟». فقال الرّجل: «إنّني دخلتُ عند هذا العطار فوجدتُ عنده خوابي مملوءة بلحم لأذرع ليست بأذرع حيوان، وسيقان وأفخاذ لا يُمكن أن تكون إلا بشريّة، وعليها الماء والملح لحفظها، فهألني ما رأيتُ، ثمّ قلتُ لنفسِي: ما يصنع عطارًا باللحم؟ إمّا اللحم اختصاصُ الجزار، فتجرأتُ وسألته: «ما هذا الذي أراه؟» فردّ: «لحم». فسألته: «أي لحم؟». فردّ كأنّ عليّ ألا أستغرب الإجابة أو أستنكرها، أو أتها من المعتاد أن تُسمع: «بشرّ ماتوا، وأنا أخلّل أعضاءهم وأمّحها كي لا تفسد». فارتعتُ، وهربتُ من عنده. وسكت، والعطار لا يُفند قول الرّجل، فسأل القاضي العطار: «أصحيحة دعوى هذا الرّجل؟». فردّ: «صحيحة سيدي القاضي». فسأله القاضي وهو يُقطّب جبينه ويضيق عينيه: «فلم فعلت ذلك؟». فأجابته: «لقد خفتُ إذا دام الجذب والقحط، ولم تقض مياه النّيل، وكثُر الجوع أن يهزل النّاس ولا يجدون ما يأكلون، فيكون هذا اللحم جاهزًا مُخللاً يسهل شواؤه. وإنّني سيدي القاضي لم أكن لأبيعه بأكثر ممّا كان يُباع الدجاج في الحيّ، وليس في البال نيّة سوء». فلم يعرف القاضي أن يردّ لعظم ما سمع، وأفجم. وسكت طويلاً، قبل أن يأمر به فيصلّب، وتقطع أطرافه من خلاف، ثمّ يحرق جسده أمام العامّة.

وكانت التّرب موضع المُتصيّدين، وكان عددٌ منهم يعيشون في بيوت الطّين يستترون فيها، يتحيّنون مرور النّاس، وهم يراقبونهم من خلال سيقان القصب، أو التّوافذ الطّينية، أو العلّيات، فإذا وقعت طريدتهم في الفخّ، نشبت فيها الكلاب، التي تكون مُتصلة بسبور متينة من الرّرد، فيسحبون الضّحية وهم في أماكنهم لا يبرحونها ولا يراها أحدٌ، والضّحية تكون حيّة لم تمت بعدُ، فتصرخ مُستغيثة، والرّرد العالق بها يشدّها إليهم، حتّى تقع بين أيديهم، فيأخذونها، ويفصلون الرأس أول

الأمر عن الجسد، ثم يشوون الجسد على السّفود، يُقَلّبونه بمقابض في الأطراف على جانبيه، حتّى يتمّ الشّواء، ثمّ يتلذّدون بأكله، وأمّا الرّأس، فيسلخونه، ويحتفظون بجمجمته، ولا أحد إلى اليوم يدري لماذا يحتفظون بتلك الجمجمة. ثمّ إنّ أمرهم كُثيف، فصُراخ الصّحايا وهم يُسحبون في الشّارع مُستغيثين دلّ أحد المارّة على الأمر، فجاء إلى رئيس الجُند وأبلغ عنهم، فقرّر مُداهمة موقعهم بقوّة كبيرة، وسألني إنّ كنتُ أرغبُ بمُرافقتهم في تلك القوّة، فرغبْتُ لكي أرى كيف هي حياتهم، ولكي أفهم الأسباب التي تدفعهم إلى صيد البشر، غير الجوع، فإنّ الجوع والرّمق يُسدّد بغير اللحم، فإنّ كان لا بُدّ فبالميّنة، أو بأيّ شيءٍ من حشاش الأرض، أمّا هذا الصّيد، فإنّه يُعبّر عن خللٍ مُرعبٍ في العقل.

كانت القوّة قد اتّخذت لها ستارًا من اللّيل بحيثُ يكونون قد أووا إلى بيوتهم الطّينيّة ولم ينصبوا فيخاخهم؛ إذ لا يُتوقّع أن تمرّ طريده في اللّيل من أمام تلك البيوت. عندما اقتحمنا المكان، لم يكن هناك غيرُ عددٍ من الصّعاليك الذين يعيشون خارج الفهم البشريّ للحياة، أناسٌ عُراة، نجيلون، شعثُ الرّؤوس، يفترشون التّراب، لا يخرجون من جُحورهم إلّا نادرًا، ويعيشون على ما يصيدون. كانت بعضُ العظام مُبعثرة في الرّوايا أو الأنحاء هنا أو هناك، ولم يكونوا يرمونها خارج العُرف إلّا إذا تراكت وأعاقت الحركة، لكنني لاحظتُ وجودَ خزائن في عُرفهم مُعلّقة بالحديد، فطلبتُ من الجُند أن يكسروا الحديد ويفتحوها، فلمّا فتحناها هالنا ما رأينا، كانت الخزائن مملّاة بالجمّاجم، في كلّ خزانة كان هناك ستّة أرفف، على كلّ رَفّ في صَفّين مُتتاليين ما يقرب من عشر جمّاجم. قامَ الجُندُ بكسر الخزائن كلّها، وجلبَ الجمّاجم، عددناها يوميذ فوجدناها أكثر من أربعمئة جمجمة!!

كان أكثر ما يُحتال عليه في أمر البيوت الأطبّاء، لكنّ الأطبّاء قَلّوا قَلّة موتٍ، بعد أن قضى كثيرٌ منهم بالطّاعون لمُلازمته المطّاعين، ثمّ كانوا الهدف الأكبر لصيّادي البشر، ثمّ لمّا أعيا الصّيادين هذا الصّنّف، عمّدوا إلى القابلات، ولقد سمعتُ شهادة إحداهنّ وأنا في مجلس القضاء، إذ دخلتُ علينا امرأةٌ سافرةٌ مذعورةٌ تلهت، قد انتثر شعُرها فوق أكتافها وهي تصرخ، فطلب منها القاضي أن تهدأ، وأمر لها بماء وبعض الطّعام، وأجلسها على الأرض حتّى استعادت شيئًا من عافيتها، فلمّا تمّ لها ذلك، سألتها: «ما خبرك؟». فقالت: «إنني قابلةٌ يا سيّدي القاضي، وإنّ رجلاً استدعاني من أجل أن أساعد امرأته على الإنجاب، وكان يبدو صادقًا، وليس لمتلي أن يُكذّب ما يسمع إلّا إذا وجد على الكذب شاهدًا أو دليلاً، ولكنّ العين تنخدع أحيانًا، وخداعها القولُ المعسول، فإنّ الكلام المعسول تتلقّاه العينُ أكثر من الأذن، فخرجتُ معه إلى بيته، فلمّا دخلته أكرمني، وقدم لي صحنًا فيه سكبّاجٌ مُكثّنز، مُحكّم الصّنعة، مُكمل التّوابل، كثير المرقّ، شهّي الطّعم، لكنني لاحظتُ أنّ اللحم غير اللحم، أعني كان ذا شحمٍ غير معهود، وإنني أعرف طعم الشحم وأحبّه، لكنّه كان هذه المرّة شديد الحلاوة، ينهرس تحت الأسنان ولا يذوب على علمي به، ورائحته غريبة، فلمّا مضغتُ منه مضغَةً أو اثنتين أصابني على الفور التقرّر، وشعرتُ بالعثيان، ولا أدري ما الذي جلب ذلك لي، لعلها الرّائحة. فتركته ريثما يعرض عليّ الرّجل امرأته فأساعدها على الإنجاب فأحظي بالأجرة والحلوى. وبينما أنا أنتظر وأنظر من يأذن لي بالدخول على الحامل، جلستُ بجانب بنتٍ صغيرة، فأردتُ أن أعرف حقيقة الطّعام منها، فسألتها عن الطّبخ، فقالت: إنّ جارتنا السّميّنة دخلت لتزورنا فدبّحها أبي، وها هي مُعلّقة في الخزانة إربًا. فقمّت إلى الخزانة وأنا أرتجف غير مُصدّقة، ففتحتها وأنا ورجلة، فوجدتُ أنابير لحمٍ مُعلّقة ومُشرّحة على عمودٍ في الخزانة، فصحتُ حتّى انخلع قلبي، وارتجبتُ يدي حتّى كادت الخزانة تسقط عليّ، وهربتُ.»

” (٧)

إلى أيّ الأوطان أعود؟!!

لقد تعبْتُ. هذا الموت الذي لا ينتهي. هذا الصّنّف من الوحوش. ليس في طاقتي أن أحتمل أكثر من هذا. مصر لها الله. يومًا ما سنتستعيد عافيتها. أنا أيضًا أريدُ أن أستعيد عافيتي. إنّ عافيتي في بلادي، في بغداد. أسمع صوتَ بغداد في اللّيالي الدّامسة يُناديني. أيام أبي وأمّي. رحمتُهما التي حفظت عليّ حياتي وعقلي إلى اليوم. أنا هنا غريب. ليس هنا. أنا غريبٌ فحسب. كلّ بلدٍ ارتحلْتُ إليه زادني غربة. أين يجد المرء نفسه؟ أيّ المواضع هي التي يأنسُ بها ولا يجدُ روحه فيها

غريبة؟ دُلوني عل موطنٍ يُعطيني ذلك؟ لقد بحثتُ، بحثتُ كثيرًا، قضيتُ عُمرِي كلَّه إلى اليوم أبحثُ عن هذا النوع من الأوطان فلم أجده. اعذروني. ربّما، يومًا ما شعرتُ بمثل هذه الرّاحة في الوطن الذي فيّ، أعني في ارتدادي إلى نفسي، حينها ربّما حين أعودُ إليّ أشعر بتلك الرّاحة، بذلك الشّعور بالوطن، لكنني لا أعودُ إلى نفسي دائمًا، بل إنني أهربُ منها وتهربُ منّي، ورحي طائرٌ مهاجر، لا وطن لها غير الكُتُب، أبذل لها الكُتُب كما يُبذل للطائر الحبّ. أجلسُ في المكتبة فأعرفني، وحدها المكتبة يمكن أن تكون هي الوطن.

زارتني ماريّة. كانت قد ازدادت جَمالاً، نضجتُ تمامًا، إنَّها في السّابعة عشرة إذا حسبتُ أعمارها بطريقةً صحيحة، سمراء رقيقة، بسمتها تبين عن صفّ من اللّاليّ الفاتنة. لم تكسرْها الأيام، ولا ما حدث لها، ولا ما كانت تفعله أمها دريّة، ربّما رأيتُ ذلك الخيط من الحزن في عينيها على أخيها كرم الذي أكلته أمه وأُمها. ماريّة تحبّ الحياة. ربّما تريدُ بهذا الحبّ تعويضًا عن الخسارات التي لحقتُ بها فيها؛ الحياة التي ليستُ كأيّ حياة. إنَّها تستحقّ قلبًا كذلك يُشاطرُها هذا الدّرب. كلّ شيءٍ إذا فُسم على اثنين ينفص إلاّ الحبّ فإنّه يزداد. كانت تلبسُ فستانًا وردّيًا فضفاضًا، وشالًا خمريًا يصنع من وجهها الأسمر مع قرمزيّة الشّال لوحةً بديعة. سألتُها: «ما رأيكِ بسالم؟». ردّت كأنها لم تفهم سُوالي: «وما بأله سالم؟». «إنّه يُحبّك». صممتُ. الصمّت صورة الخجل أحيانًا، والغضب كذلك. لا أدري إن كان صممتها خجلًا أم غضبًا. دفعتُ عَجَلَةَ الكلام إلى الأمام قليلاً: «لقد حدّثني في أمرِك غير مرّة. الطّبيب الشاب الوسيم مُغرّم بك أيّتها الصّبيّة الجميلة، أنا أبوكما، وأريدُ لكما الخير». كانت تنظر إلى يديها المَعقودتين في حجرها وهي تفرّكهما بشيءٍ من الاضطراب، رفعتُ نظراتها إليّ، كان فيهما رجاءٌ جارف، هتفتُ: «ولكنني أحبّك». وقعت الكلمة في قلبي موضعًا طروبًا. أن تُحبّك فتاةً فاتنةً في عمرها فأنت ألفُ محظوظ. فركتُ فُمع رأسي، كنتُ أهمسُ في داخلي: «وأنا أحبّك... أفسِمُ بالذي جعل القدرَ يجمعي بك أنتي أحبّك... ولكن...». نظرتُ في عينيها: «ماريّة...». ردّت وهي تُقرّب رأسها إليّ: «سيدي، ومولاي...». «أنا في سنّ أببيك». تراجعْتُ إلى الوراء، ورفعتُ صوتها غاضبةً: «لا تقلّ ذلك... سيئمتُ من تردّد هذه الكلمة على مسامعي... أنا ليس لي أب... أنا جنّت لا أعرف من هو أبي... ولا أدري كم عمره... ولا إن كان حيًّا أو ميتًا. لا تقلّ هذه الكلمة مرّة ثانيةً أمامي...» تنائرتُ غضبها كسفاً صغيرة، سقطتُ حولنا دون أن تؤذي أحدًا منّا، ثمّ صممتُ، وعادتُ إلى هدونها. قلتُ لها: «يا ماريّة، أنا رجلٌ هَرَم، ولو لم يكن في حياتي إلاّ مصائب مصر كفى ذلك أن يُشيب رأسي ويزيدَ هَرَمي... وإنني سأرتحل، ولن أظلّ في مصر...» قاطعتني: «أنا أريدك أنت... أنت لست هَرَمًا كما تقول عن نفسك... إنك في نظري رجلٌ مكتمل الرّجولة، وشهْمٌ كريمٌ لم أحبّ في حياتي سواه...». «في حياتي؟ تقولين في حياتي؟». أطلقتُ ضحكةً عالية، قبل أن أتابع: «وماذا رأيت من الحياة يا ماريّة؟ ما زلت صغيرة». «لستُ صغيرة، أنا كبيرة بما يكفي لأقرّر عن نفسي». وأدارتُ رأسها إلى الجهة الأخرى مُغضبة. «أنا مُرتجل، ولا أبقى في موضع». «أرتحل معك إلى آخر الدّنيا... ماذا أطلبُ منك؟ أنا أطلبُ منك أن أكونَ إلى جانبك، رقيقةً دربِ تُعينك... هل ما أطلبه كثير؟». «إنّ هذا الحبّ غير متكافئ يا ماريّة، وسالم أفضلُ لك منّي». «إنّه مُتكافئ فلا تُسمِعي هراءً عن التّكافؤ مرّة أخرى، ثمّ إنني أعرف من هو الأفضل لي». «أنا أكبرُ منك بحوالي أربعين عامًا». «إنّ حُبّي لك يُلغي السّنوات كلّها. أرجوك لا ترحل عن مصر من دوني». «ربّاه، كيف يُمكن أن تجري الأمور على هذا التّحو؟!».

وجيء إلى مجلس القضاء وأنا فيه بامرأةٍ حامل، وهي زوجة أحد قادة الجُنْد، ومن أهل اليسار، كانت تمكثُ في البيت وحدها شهرين أو ثلاثة؛ إذ إنّ زوجها كان في أحد المهّمات في الثّعور، ذات يومٍ شمّت رائحةً طيبخٍ لحمٍ فاشتتهته، وتوحّمت عليه كأيّ حُبلى، وتمنّت لو أنّ زوجها معها للّبي لها طلبها، وما طلبها

بعسير، إذ ماذا سيكلّف قائدًا في الجيش أن يأتي زوجته بصحفة لحم مطبوخ؟ ولكنّ المُشتهى اليسير يُصبحُ غايةً كُبرى إذا عرّ الثّقيق، ولذا، صارتُ أمنية الأمنيات أن تاكل مُرعةً من ذلك اللحم، فإنّ الرّائحة تجلبُ الويل، وإنّ الشهوة لتوقع في الفخّ. فتحاملتُ على نفسها وسارتُ تطلّع بحمّ لها، وهي تضعُ يَمناها على خاصرتها من الوجع والثقل، حتّى طرقتُ باب جيرانهم، فخرج لها بعض الصّعاليك، فلم تفتن إلى أنّها لم ترهم من قبل، وأنّ جيرانها يُفترض أن يكونوا من ذات الطّبقة

العلية والمرتبة السنوية، فهل يجاور صعلوك قانداً؟ لكنّ الوحم أعمى بصيرتها وأغلق أبواب تساؤلها، ولم يفتح لها نافذة إلا على الطلب، فسألت الصعلوك: «قطعة من اللحم المطبوخ أيها الجار؟». فسألها: «أنت زوجة القائد فلان؟». فأومأت برأسها: «نعم». وهي تظنّ أنّ ذلك سيقرّب مزرعة اللحم من فمها، فهشّ وبشّ لجوابها، ونادى على أحد صعايكه: «أعطيها من أطيب ما عندنا، ومن أنضجه، وأطراه». فقدّم لها صحنًا مُمتلئًا، فرجعت به إلى البيت فالتهمتّه، ولم تُبق فيه حتّى المرق، وألفته أذًا ما أكلت في حياتها، والطعام عن شهوة يُستطاب، فعادت إليهم في اليوم الثاني وقد جرّ رجلها وحمّ الحبالى، فطرقت الباب فخرج الصعلوك إياه، فسألها: «أعجبك طعامنا؟». فهزّت رأسها: «هل لي بالمزيد منه؟». فقال: «إنّه نغد، وإننا لا نملك المال لشراء المزيد منه». فردّت: «المشكلة في المال؟». فهزّت رأسه: «نعم». فقالت: «سأدفع لكم مُقابلته على أن تطبخوا لي مثله، فإنني لم أكل في حياتي أطيب منه ولا أمرًا». فاقترب منها يريد أن يهمس في أذنها، فزكمت رائحته القذرة أنفها، فتراجعت، فلم يُبال، فاقترب أكثر، وهمس: «أتعرفين نوع اللحم الذي أكلته؟». فردّت: «أيا كان فإنني أريد مثله». فاقترب أكثر، وازدادت رائحته القذرة نفاذًا، وهمس بصوتٍ أخفض من سابقه: «إنّه لحم أصحاب هذا البيت». فتراجعت إلى الوراء، وترنحت، فأمسك بها فأسندها، وأردف: «ولكنّه يؤكل، وما في اللحم للبشر أطيب منه، وإن عزمت نأتيك بمثله، ولكن عليك أن تدفعي، ليس من أجلنا، بل من أجل هذا الصغير الذي ينمو في أحشائك». فدعاها القرم إلى اللحم أن تتردد، ثمّ ثمالى، ثمّ توافق، فصاروا يطبخون لها كلّ يومٍ من لحوم البشر، فنقول لهم: «اليوم أطيب من أمس. وهذا أطرى من الذي قبله». فيقولون: «إنّه لحم فطيم». فتردّ: «انتوني بمثله». فيردّون: «ولكنّه يكلفك غاليًا، وإنّ صيده ليس سهلاً، وإنّه لأندِر، وما نقدر على الحصول عليه إلا بعد وقتٍ طويل وتربُّصٍ أطول». فتردّ: «سأدفع ما تريدون، لكنني لن أكل بعد اليوم إلا لحوم الرضع».

ثمّ إنّ شهوتها غلبت على بشريتها فصارَتْ ذنبة، لا تشبع ولا تنتظر، وصارت تضربُ خادماتها، وتقول لها: «لو كنت أصغر من هذا لطبختُك». فوقع في قلبِ خادمتها الدّعر، وفكرت بالهرب، ولما عزمت على ذلك، عاد زوجها من الثَّغور بعد شهرين، فأسرّت له الخادمة بأمر زوجته ورحلت، فلم يُصدّقها، ومن يُريد أن يُصدّق أنّه يعيش مع امرأةٍ يمكن أن تفكر بأكله في أحد الأيام إذا جاعت؟! فراقبها، وراقب طعامها، فخلّص إلى أنّ الجارية أخبرته الحقيقية.

وجيء بها إلى هنا فأقرت بكلّ ذلك، فحبسها القاضي ولم يأمر بحرقها مباشرةً، وأرجأ ذلك إكرامًا لزوجها وحتّى تضع حملها، فلما وضعته كانت أنثى، فأخذت الرضّيعَة إلى دار الأيتام وهي في القمّاط لا تنفك تبكي، وأحرقَت الأمّ من ليلتها!

وجاءني (سالم) يعوذني، فقصصت عليه أمر ماريّة، وقلت له: «إنني كلّمْتُها في شأنك، وإنّها تتمنّع تمنع الصبيّة النّفور، لكنّها تُحبك، وهي تتدلّل تدلّل الأنثى الطروب، وإنّ عليك أن تعرف كيف تُميل قلبها إليك، وإنّ النساء يتمنّعن وهنّ راغبات حتّى يُظهر لهنّ الحبيب شدة تعلقه بهنّ، ويُقدّمن من يسعى خلقهنّ لا يمنعه الصّدّ عن أن يُلحّ في الطلب حتّى يظفر بما يريد، والمرأة تريد من يرغبُ بها أكثر من رغبتها به، فإنّ رغبتها تحدث كلّ حين، تُطلعها الكلمة الطيبة، والعشرة الحسنة، وإنّ رغبة الرّجل لا تحدث إلا مرّة واحدة، فإنّ وُجدت من البداية استمرت، فإنّ كنت يا بُني تُحبّها وترغبُ بها، فقاتل من أجل حُبك، فإنّ سهل الحُب في السهل، والصّعب في الصّعب، وفي كلّ بقاع الأرض لا تُريد المرأة حُبًا سهلاً، بل تريده صعبًا دائمًا مُتشبّهًا قويًا لا فِكَالَ منه... وإنني يا بُني كبرت، وأهرمُتني الحوادث، وأنت وماريّة ما زلتما في ريعان الشبان وميعة الصّبا، يجرّ عليكما الرّمان البيهيج ذبوله، فلا تجعلني أخرج من مصر قبل أن أراك تتأبط ذراعها، وإنّ كانت من وصيّة أخيرة: إنّ فزت بقلبيها

بذكائك وحسن قولك وطيب محدثك، فحافظ على هذا القلب جفاظك على حياتك؛ فإنّ الفوز بقلب المرأة أصعب من الفوز بجوهرة في قيعان المحيطات! “

” (٨)

لا بُدّ من كُنس الموبئين!!

قلّ الخوف عندي ممّا يفعله صيادو البشر، لا أدري، الفعل لم يقلّ بشاعةً، وأفعالهم لا يُمكن أن تُصبح عادية أو يتمّ تسويغها أو تجميلها، ومع ذلك لم يعد أمرُ رؤيتهم مُخيفاً كما كان في السابق! ما الذي يحدث؟ هل هو الاعتياد؟ هل يعتاد الإنسان القبائح؟ إنّ الموت الذي هو مُصيبة، يُمكن أن يعتاده الإنسان فيعيش فيه دون أن يخافه، أو يشغل باله، أو يدوم في تفكيره، الموت هنا هو العنوان الأبرز لهذه السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجري، إنّه في كلّ مكانٍ، يمتدّ أكثر من الهواء، يجري أسرع من الرّيح، ينتشر أكثر من السحاب. في الماء، في الطّعام، في نظرات الجائعين، في خطاطيف الصيادين، في عُرف المرضى، على بوابات البيمارستانات، في مقابر الأكلّة، في دُور القضاء، في الكلمات، في الحرّكات، في السكّنات، في السّعي وراء الحياة، نمشي على طُرُق الحياة حذرين مُتوجّسين لكي لا تقع في حُفر الموت! بالنسبة لي؛ لا أريد أن أموت قبل أن أرى كلّ هذا ينتهي.

سيكون على مثل (سالم) و(ماریة) إذا تزوجا أن يكونا نموذجاً للأمل؛ أمل البشريّة بغدٍ جديد، بحياة خالية من هذه الأمراض، أعني هذه الاضطرابات، ليس الإنسان سيئاً إلى هذا الحدّ، الاضطراب هو السيّئ، الحاجة، الظرف الذي يلجئه إلى ذلك هو الأسوأ.

إننا نعيش عصر القضاء على البشريّة. لن يقضي عليها أيّ عدوّ خارجي، عدوها يعيش فيها. إنّه عصر الرّوال البشريّ، ربّما عندما ينتهي وجود البشر على الأرض، سيكون هذا الكوكب صالحاً لنوع آخر من المخلوقات ولحياةٍ أخرى أكثر نظافةً ونزاهةً من الحياة التي عشناها. لا بُدّ من كُنس الموبئين من أجل الصّالحين القادمين، إنّها سنّة إلهيّة: «إنّ يشأ يُذهبكم ويأت بخلقٍ جديد». ولا أظنّ أنّ عصرنا تحتاج فيه البشريّة إلى خلقٍ جديدٍ أكثر من عصرنا هذا!

واجتزت مع الجنّد الذين أرسلهم القاضي إلى جامع ابن طولون، وكان قد هجر موضعه، وخربت أنحاؤه، وتهدمت بعض شرفاته، وساحته التي كانت معبر أعظم العلماء وأجلهم، وموطئ أقدام المُصلّين الخاشعين صارت مخبأً للصّعاليك ولصيادي النّاس. وكان خلف الجامع تُشرّ من الأرض يُطلّ على ساحته، فكمنّا هناك نرى ونسمع ما يحدث.

رأيتُ كُتُباً اعتدتُ من زمن على شراء الكتب من عنده، وهو رجلٌ بدينٌ ولحيته طويلة، وجاوز السّتين، ولا أدري كيف أقنعه أحد هؤلاء الصّعاليك أن يأتيهم ليشتروا منه الكتب، فلمّا عبر السّاحة وصار عند تلك الأقواس المُفضية إلى عُرف الجامع، خرج له أحدهم، فسأله عن الكتب، وبدا من هنا أنّه يُقلّبها، ويُفاوض في سعرها كما كُنّا نفعل نحن، والكتبيّ يُكلّمه ويُفاوضه، فوجّه إليه الصّعلوك على حين غرّة طعنةً بحربةٍ أخرجها من ثيابه، فتراجع الكُتبيّ إلى الوراء قليلاً وسقط ما في يده من كتب، ومست الضربة مع تراجع بطنه، فتلقاها شحمه الكثير، فلم تنفذ إلى مقتل، فهرب يصيح، وأنجاه شحمه، ولو كان رقيق البدن لسقط ميتاً.

فَهَمَّ الْجُنُودُ الَّذِينَ مَعِيَ أَنْ يَنْزِلُوا فَيُلْقُوا الْقَبْضَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَلْجَأُ إِلَى هُنَاكَ وَيَقُومُ بِهَذِهِ الْجَرَائِمِ الشَّنْعَاءِ، غَيْرَ أَنَّي اسْتَمْتَلْتُهُمْ وَأَنَا أُشِيرُ إِلَى زَاوِيَةٍ أُخْرَى مِنَ الْجَامِعِ، وَقَدْ بَدَأَ أَحَدُ الصَّعَالِيكَ قَدْ وَضَعَ الْوَهْقَ وَهُوَ حَبْلٌ غَلِيظٌ ذُو أَنْشُوطَةٍ فِي عُنُقِ أَحَدِهِمْ، وَهُوَ يَجْرُهُ إِلَيْهِ، وَيَصِيحُ بِالصَّعَالِيكَ أَنْ يُسَاعِدُوهُ عَلَى جَرِّ هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَيَقُولُ: صَيْدٌ... صَيْدٌ... لَكِنَّهُ يَمْشِي رُويِدٌ... فَمَا أَجَابَهُ أَحَدٌ، وَالشَّيْخُ الْمَجْرُورُ كَالدَّابَّةِ مِنْ عُنُقِهِ يَحَاوِلُ التَّفَلُّتَ وَقَدْ اخْتَنَقَ وَبَرَزَتْ عُرُوقُ رَقَبَتِهِ وَاحْمَرَّتْ وَجْهَهُ، وَيُعَالِجُ الْفِكَاكَ مِنَ الْأَنْشُوطَةِ وَاللَّصَّ يَصِيحُ بِصِيحَتِهِ الْمَعْهُودَةِ: صَيْدٌ... صَيْدٌ... لَكِنَّهُ يَمْشِي رُويِدٌ... دُونَ أَنْ يُلَبِّيَ نِدَاءَهُ أَحَدًا. حَتَّى إِذَا أَرَحَى الصَّعْلُوكَ قَبْضَتَهُ عَنِ الْحَبْلِ قَلِيلًا لَكِي يَشُدَّهُ مِنْ جَدِيدٍ، اغْتَنَمَ الشَّيْخُ الْفُرْصَةَ، فَحَلَّ الْحَبْلَ عَنِ عُنُقِهِ، وَهَرَبَ بِجِلْدِهِ.

فَنَزَلْتُ مَعَ الْجُنْدِ مُغِيرِينَ عَلَى الْمَكَانِ، فَفَرَّ عَدَدٌ مِنْهُمْ، وَوَقَعَ فِي أَيْدِينَا عَدَدٌ آخَرَ، فَدَخَلْتُ - بَعْدَ أَنْ انْتَشَرَ الْجُنْدُ فِي الْمَكَانِ - إِلَى الْعُرْفِ، فَرَأَيْتُ أَهْوَالًا لَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا سَبَرَاهَا وَيُحَدِّثُ عَنْهَا مِثْلِي، رَأَيْتُ ثِيَابًا مُلَطَّخَةً بِالدَّمِ مُلْفَأَةً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ، رَأَيْتُ عِظَامًا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَصَنْفٍ، لِلسَّاقِ وَالصَّدْرِ وَالْحَوْضِ وَالتَّرْقُوتِ، وَرَأَيْتُ عِظَامَ دَوَابِّ، بَعْضُهَا كَانَ عَلَى هَيْئَتِهِ، فَهَذِهِ بَقْرَةٌ قَدْ أَكَلَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا هَيْكَلُهَا الْعَظْمِي وَهِيَ مُضْجَعَةٌ عَلَى الْأَرْضِ...!!

وَمَرَرْنَا عَلَى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا مَيِّتٌ قَدْ انْتَفَخَ وَتَفَجَّرَ وَتَفَسَّخَ وَأَنْتَنَتْ رَائِحَتُهُ حَتَّى مَا تُطَاقُ، وَالْمَرْأَةُ تَأْكُلُ مِنْهُ بِطَيِّبِ نَفْسٍ، فَفَزَلْتُ فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهَا ذَلِكَ، فَأَنْكَرْتُ إِنْكَارِي، وَقَالَتْ: «مَا شَأْنُكَ أَنْتِ؟ إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي، وَأَنَا حُرٌّ بِهِ!!». فَحُمِلْتُ فِي عَرَبَاتِ السَّجَنِ مَعَ مَنْ حُمِلَ.

وَمَرَرْنَا عَلَى عَجُوزٍ قَدْ تَغَضَّنَ وَجْهَهَا، وَشَابَ رَأْسُهَا، وَهِيَ حَاسِرَةٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ تَأْكُلُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُهَا: «كَيْفَ طَاوَعْتِ نَفْسُكَ أَنْ تَأْكُلِي مِنْ لَحْمِهِ؟». فَتَكَسَّتْ رَأْسَهَا وَاعْتَذَرَتْ، وَقَالَتْ: «إِنَّمَا هُوَ وَلَدُ ابْنَتِي وَلَيْسَ بِأَجْنَبِيٍّ، وَلَأَنْ أَكُلَهُ أَنَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ غَيْرِي». فَاسْتَشْنَعْتُ ذَلِكَ، فَردَدْتُ: «يَا بِنْتِي مَاذَا رَأَيْتِ مِنَ الدُّنْيَا؟». فَهَمَمْتُ أَنْ أَقْطَعَ رَأْسَهَا بِالسَّيْفِ، مَاذَا رَأَيْتِ مِنَ الدُّنْيَا أَيَّتْهَا الْعَجُوزُ الشَّمْطَاءُ؟ بَلْ قَوْلِي مَاذَا لَمْ تَرِي مِنَ الدُّنْيَا؟ أَكَلِمًا كَبِيرَ الْوَاحِدِ مِنْكُمْ عَامًا قَالَ لِمَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ: مَاذَا رَأَيْتِ مِنَ الدُّنْيَا إِنَّ الدُّنْيَا الَّتِي صَفَعْتُكَ صَفْعَةً وَاحِدَةً صَفَعْتَنِي آلاَفَ الصَّفَعَاتِ، فَلَا يَفْخَرَنَّ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ فِي الْمَصَانِبِ، فَإِنَّهَا تَجْمَعُنَا مَعًا فِي سَلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَتُغْرَقُنَا جَمِيعًا فِي الْجَحِيمِ!

ثُمَّ حَمَلَ الْجُنْدُ الْمَوْتَى، فَأَمَرَ رَئِيسُهُمْ فَخَوَّرَتْ لَهُمْ خُفْرَةً فِي السَّاحَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي أَمَامَ جَامِعِ ابْنِ طُولُونَ، وَأَلْفُوا فِيهَا، ثُمَّ أَخَذَ الْأَحْيَاءَ إِلَى الْقَضَاءِ، فَمَا زَالَتْ الشَّمْسُ حَتَّى كَانَ قَدْ حُمِلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ جَامِعِ ابْنِ طُولُونَ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، ثُمَّ قَضَى فِيهِمُ الْقَاضِي بِأَمْرِهِ فِي اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ الصُّبْحَ، رُفِعَتْ لَهُمْ أَعْوَادُ الْحَدِيدِ فِي سَاحَةِ الْمَشْهَدِ فَخَرَّقُوا جَمِيعًا.

يَا (سَالِمُ)، إِنَّ جَيْلَكَ أَطْلَعْتَهُ الْمَاسِي لَكِنَّهَا أَحْكَمْتَهُ، وَهَلْ فِي التَّجَارِيِبِ مِثْلُهَا؟! أَنْتِ وَمَارِيَّةُ أَمَلُ الْجَيْلِ الْقَادِمِ، الْجَيْلِ الَّذِي سَيَنْبُتُ مِنْ رَمِيمِ السَّابِقِينَ، الْجَيْلِ الَّذِي سَيَطْلَعُ مِنَ الرَّمَادِ، لَا بُدَّ أَنْ رَمَادَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَّقُوا سَيَنْظِفُ هَذِهِ الْبِلَادَ، إِنَّ مِصْرَ تُعَانِي، إِنَّهَا سَجِينَةٌ إِرَادَةٌ هَذِهِ النَّفُوسِ الْمَرِيضَةَ، إِنَّهَا مَحْكُومَةٌ بِالْبَلْطَةِ وَالْخُطَافِ وَالنُّشَابِ وَالْكَالِيبِ... وَمَحْكُومَةٌ عَلَيْهَا بِالْمَوْتِ... إِنَّ هَؤُلَاءِ اللَّصُوصِ الَّذِينَ يَسْرِقُونَهَا رَبَّمَا هُمْ يَتَمَتَّعُونَ الْآنَ، لَكِنَّ زَمَانَ الْمُتَمَتِّعِ قَصِيرٌ، وَزَمَانَ الْأَلَمِ طَوِيلٌ، وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ زَمَانَ الْأَلَمِ حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْهُمْ، فَإِنَّ اقْتَصَّ مِنْهُمْ، فَإِنَّ السَّاحَةَ لَكُمْ، أَنْتُمْ الْوَرْدُ الَّذِي سَيَتَفَتَّحُ فِي جَنَّاتِ مِصْرَ.

من ظَلَّ حَيًّا في القاهرة؟ أكاذ لا أصدّق أنّها تموت بهذا الشكل، لم أعد أرى بشرًا لا في الطرقات ولا في الأسواق ولا في الجوامع، ولا حتى في القبور، نَبَّاشو القبور هم أيضًا ماتوا، لكنهم لم يجدوا من ينبش عليهم قبورهم إن كانت لهم قبور... القاهرة تُصبح مدينة أشباح، لقد أصبحت بالفعل، ليس فيها إلا بضعة جنود، وقضاة، ومجانين، وأحياء لم يجر عليهم القدر، ولم يشربوا من كأس الموت بعد.

أمس كنتُ في ديوان النفوس، الديوان بلا نفوس، رئيس الديوان مات من زمن، اختلَّ تعداد الموتى بعد موته، لكن مع الزمن استعاد الديوان شيئًا من عافيته، بعض من جلس في موقعه أراد أن يُعلن عن عدد الموتى في البلاد، طلبتُ منه أن يعطيني رَق الإعلان، كان الرَق يقول: إن تسعة أعشار البلاد قد هلكوا، لقد مات من كل عشرة تسعة. ولمعتُ في خاطري للحظة كلمات دُرِيَّة، لقد قالت هذا القول من قبل، إنها تصدق للمرّة العاشرة، هذه اللعينة ليست مجرد عرافة ولا ساحرة، إنها أكثر من ذلك بكثير، وهممتُ أن أترحم عليها وعلى أيامها، ثم تذكرتُ ما فعلتُ فترجعتُ... ثم إنني أعدتُ الرَق إلى صاحب الديوان، وقلتُ له: «من الأفضل ألا تُعلن هذا». فسألني: «لماذا؟». فأجبتُه: «لمن ستُعلنه؟ هل يمكن أن تُعلن للميت أنه ميت، إنه لم يبقَ يا سيدي أحدٌ لُعلن على مسامحة هذه الأرقام؟ وما الفائدة؟ هل يُقال للميت يا ميت؟ ثم فكّر فيما يتضمّنه الإعلان، إنه إعلان إبادة، إنه إعلان عدم. هل من المعقول أن يُعلن العدم؟!». وخرجتُ من عنده كأبأس ما يكون.

ثم عرّجتُ على ديوان القضاء، ولم يكن ذلك رغبةً في أن أسمع مزيدًا من الحكايات المريضة، ولكن رغبةً في إزجاء الوقت، والسلام على رئيس القضاء، فإنه أكثر واحدٍ تعذب فينا، فإن سماع قصص العذاب عذابٌ آخر... فأتيتُه فسألته عليه، فلم أجد عنده أحدًا، فاستغربتُ، فقلتُ في نفسي: «لعلها غطلة القضاء». ثم إنني سألتُه: «أين الناس يا سيدي؟». فردّ وهو مطرقٌ يعبثٌ بلحيته: «كان بمصر ناس». فلمعتُ العبارة من جديد في ذهني، وسمعتها تقولها كأنها أمامي: «ولياتين عليكم زمانٌ تقولون فيه: كان بمصر ناس!!».

” (٩)

تساقط التجوم

اسودّ الليل، أظلم كل شيء، ألقى الليل سربالاً كثيفًا على القاهرة، فقا كل عيونها، أطفأ كل قناديلها، محا كل نور فيها، طمس ضياءها، وأحالها إلى غرابٍ أسود كبير ينعق في كل اتجاه، ويجعل من جناحيه العملاقين اللذين يُغطيان ما بين المشرق والمغرب قبةً تُحيم على أهل الأرض جميعًا. إنه يوم الظلام الكبير. لم يعد من تبقى من الأحياء يرى شيئًا. لم يعد يعرف شيئًا. صار كل درب في القاهرة مُنكرًا، وكل سبيل، وكل حارة، وكل حي، وكل سوق؛ لا أحد يعرف أحدًا، لا حي يعرف حيًا. وأنا؟ غرقتُ في الضياع والظلام مثلهم. كان هذا ليلة السبت. لقد سكن كل شيء، فلم يعد يُسمع أي صوت، لا صوت إنسان، ولا كلاب، ولا آية دواب، لقد فرغت القاهرة من الصوت تمامًا، حتى كأنها جُمعتُ داخل كرة نحاسية مُصمتة وألقيت في جوف بحر عميق جدًا. حتى إذا أراد الناس أن يتكلموا لم يسمعوا شيئًا، لقد كانت شفاههم تتحرك بما يقولون لكنهم لا يسمعون ذلك؛ وسكنت الرياح ذلك، فلم يُسمع حفيف الأوراق ألبتة!!

أنزِد في هذا السكون الطّاغي، لَمعت السماء فجأة، ثم أبرقت، ثم سُمعت أصوات آتية من الأفاق البعيدة لا أحد يعرف إن كانت أصوات رعد أم شيء آخر. أصوات مُتفجرة غاضبة، كأن السماء جبارٌ يُريد أن يفتك بأهل الأرض، ثم ارتفع الصوت، وسادت لحظات من السكون مرّة أخرى، كنتُ أنظر وقتها وأنا مرتعبٌ أشد ما يكون الرعب من نافذة غرفتي في الطابق الثاني حيث صفحة السماء جهة الشرق تبدو بكاملها من هنا، في هذا الصمت المرعب أكثر من الصوت، امتلأت

صفحة السماء الخالية بالنجوم، نبتت النجوم في كل شبرٍ منها، ولم تكن قبل سكون الصوت تُرى أبداً، راحت السماء تمتلئ بسرعة، كانت النجوم تتناثر كأنها حب قمح تذرّه ألف يدٍ في حقلٍ فسيح، مرّ وقتٌ قبل أن تترصع هذه القبة السماوية عن بكرة أبيها بالنجوم، ثم توقفت السماء عن إنباتٍ مزيدٍ من النجوم، فيما يبدو أنها كانت تتهياً لحدثٍ جليل، وهنفت في أعماقي: «فما الذي سيحدث الآن؟» لم أكد أتمّ خاطرٍ في نفسي، حتى ماجت السماء بشهبٍ لا تُحصى، وراحت تتساقط كالجراد على الأرض، لا أدري إن كانت ستصيب كل من في الأرض، أم من في مصر، غير أن ما أراه يبدو كونيّاً، يبدو أن الأرض تتغيّر، وتتهياً لعهدٍ جديدٍ، كانت مئات الآلاف من الشهب تتساقط من السماء هوائية في كل اتجاه، وسُمع للناس ضجيج، ويبدو أن صوت الإنسان عاد إليه بعد أن سُحب منه مع تساقط هذه الشهب، وسُمع للدواب نهيح، وسُمع للسماء عجيج... وتابعت الشهب تساقطها علينا، وأصابنا ما أصاب غيرنا، فرأيت من هنا ألسنة النيران تتصاعد في القاهرة، ومن نافذتي، رأيت سوق زويلة تلتهمه النيران، لكن ألسنة هذه النيران لم تكن تلك التي عهدناها، كانت نيراناً ذات شعل زرقاء لا حمراء، وكانت تلحس بلسانها العملاق الشوارع والذكاكين والبيوت كأنها تمسحُ عليها لا تحرقها، ولا تُنتج تساقطاً للبنيان ولا تهاوياً للأخشاب كما تفعل النيران عادةً، ثم لم ينتج عنها رمادٌ بعد أن كفت عند حلول الفجر، بعد ليلةٍ غريبةٍ عجيبةٍ لم يمرّ على البشر قبل اليوم مثلها!

حينَ أشرقَت شمسُ الصّباح، كان يبدو جليّاً أنّ نيران السماء حينَ رحلتُ معها كلّ الجيف، والموتى، وكلّ أخباث الإنسان، وأنها رحلتُ كذلك بالطّاعون وبصيّادي البشر، وبنبّاشي القبور... لقد كان صباحاً مُختلفاً، صباحاً يُعيدُ إلى الحياة لونها الحقيقي، وإلى النظرات نورها الحقيقي، وإلى الضحكات بهجتها الحقيقية. يبدو أنّ الشهب في الليلة الفائتة قد أعادت تشكيل الحياة في القاهرة من جديدٍ، وأنّ نسمات هذا اليوم تبدو صافية نقية مُنعشة، وأنها لم تعد مُنتنة، ولا مليئة بالهواء الفاسد الذي ينقل الطّواعين المُختلفة. إنّه صباح الخلق الجديد.

لقد بدأتُ حياةً جديدةً بالفعل في القاهرة، رَفَع اللهُ عنها كلّ المصائب، وبَدَلَ وجهها، وأعادَ لها رونقها، لكنّ القاهرة التي صَحَّتْ علّها، تشكو الآن من قلة الناس، لقد فقدتهم جميعاً تقريباً، لا أحدَ فيها اليوم لِحُرك الحياة المُتوقّفة التي عادت إليها للتوّ! ومع أنّ الذين بقوا ورثوا كلّ ما تركه الرّاحلون وابتدأ عهدهم بالغنى، إلا أنّ القاهرة من دون ناس لا تُداس!

دعاني رئيس دواوين مصر، وقال: «المَلِكُ يستشيرك في أمر القاهرة والبلاد كلّها، إنّه لم يعد فيها بشرٌ من أجل أن يُودوا فيها حقّ الله في الحياة، فماذا ترى؟». فسألته: «هل اقترح عليه مُستشاروه شيئاً لحلّ هذه المُعضلة؟». فردّ: «بعضهم قال نُزّوج من بقي من الرّجال مع من بقي من النساء من أجل تكثير النسل».

فقلتُ: «هذا اقتراحٌ فيه ثلاثُ مُشكلات، الأولى أنّّه لم يعد هناك نساءً كافياتٌ من أجل أن يُبنى بهنّ. إنّ الرّجل ليجتهد عن المرأة بالمنزل، وإنّ الرّجل ليقبل بالعمّال والشّوّهاء والجرباء لقلّة ما يجد. والثّانية: أنّ الإنجاب لو كانت هناك نساء سيأخذ وقتاً، ولو كان بهذا النوع من الناس فسيُدمر النسل. والثّالثة إنّ تمت الثّانية فإنّ تنامي أعداد النفوس سيكون بطيئاً، وهذا يعني بحسبة بسيطة أنّ القاهرة تحتاج إلى مئة عامٍ كي تعودَ إلى ما كانت عليه قبل أربع سنوات!». ورأيتُ حاجبي رئيس الدواوين ينعقدان فوق جبينه: «إلى هذا الحدّ اندثرنا؟». فقلتُ: «إنّ ما أتلّفه يدُ الطّاعون وحدها وما أحدثته من فراغ في النفوس خلال سبّعة أشهر يحتاج إلى سبّعين سنةً من أجل إصلاحه وملئه». فشهِق، وهنّف: «فماذا ترى؟». فرددتُ وأنا أخكّ ذقني: «على المَلِك أن يشتري شعباً». فَطَبَّ رئيس الدواوين حاجبيه حتّى التقيا، ثمّ أمعن النظر فيّ، ثمّ أطلق ضحكةً عالية وهو يُرجع رأسه إلى الوراء هاتفاً: «يشتري شعباً؟ هل هناك شعبٌ يُشترى؟ أكيد تمزح؟». «كلاّ. إليك ما سنتقله إلى المَلِك: إنّ مصر غنيّة رغم ما أصابها، وإنّ الذين رحلوا تركوا خلفهم ضياعاً وزروعاً ونعمة، ولم يرثها من بعدهم أحدٌ، فليستفد من البلاد القريبة من الشّام والعراق وفارس ومن المغرب من أصابته الفاقة في بلاده، وليطمع في خيرات مصر، وليأتوا إلى هنا وينهضوا بهذه البلاد من جديد. وليسكنهم في أحسن أحوالها، ولينتق نساء فارس الجميلات، ونساء العراق المليحات، ونساء الشّام الطّريقات، ونساء المغرب اللطيفات. فتحسين النسل يتطلّب انتقاء الرّجم. اليوم لا طاعون، ولا أمراض، وحركة السّفن سالحة، والدّروب مفتوحة، والخوف انقضى، فهذه فرصة المَلِك الحقيقية في أن يشتري لمصر شعباً، شعباً عظيماً، يُعيد لمصر عظمتها».

أيُّ البلادِ خيرٌ للفتى؟ تلكَ التي سقطَ فيها رأسُكَ فإنَّكَ من طينتها خُلقت. وأيُّ البلادِ أجمل؟ تلكَ التي خُلَّت فيها تمانمُكَ؛ فإنَّكَ في ربوعها نشأت، وبين حوراها العتيقة ترعرعت، وها هي بغداد؛ قريبةٌ على بعد، حبيبةٌ على هجر:

وأبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً

إذا دنتِ الديارُ مِنَ الديارِ

ظلَّ هذا البيتُ يترددُ في خاطري حتَّى كأنني فهمتُ أنها رسالةٌ إلهيةٌ من أجل أن أسير إلى بغداد، صار أمرُ العودة محتوماً. كأنَّ بعضَ الأشياءِ لا تقبلُ التَّأجيل. لبغداد حبةُ القلب، ونور العين، وقنديل الدروب، كلُّ هذا. هذا الذي يُحسُّ ولا يُقال، هذا الذي يجعلني أتقلبُ على فراشي لا أستطيع النوم، فإذا همزني الشوق صار كالشوك في ضلوعي، فلا يترك لي مُستقراً.

ثمَّ إنَّ هذا الشوق أسكنَ الحمى في جسدي، فقلتُ: «أحمى وأنا سائرٌ من مصر؟» فتحايلتُ عليها بالدواء، وقلتُ أرتاح يومين، حتَّى أبلَّ من المرض، ثمَّ أسير. في اليوم الثالثِ قمتُ إلى المكتبة، لم يبقَ فيها بعدَ هذا الكثير من الكُتب، سأخذُ فقط ديوانَ المتنبي بشرح العكبري، والطبقات الكبرى التي جلبتها في المرة الأخيرة من المنشأة، وسأتركُ بقيةَ الكتب هنا، لعابرٍ سبيلٍ يدخلُ إلى البيت فيقرأ فيترحم عليّ، لناظرٍ في الحروف يُغيرُ الله من حاله بكلمةٍ قرأها، لمُقَلِّبٍ للصفحات يقلبُ الله ليلَه إلى نهار. سأتركُ كلَّ ما في البيت لعابري السبيل، للذين سيأتي بهم الملكُ إلى القاهرة، لشعبِ مصر الجديد في مصر الجديدة.

ركبتُ الأبلق، طلبتُ من (سالم) أن يُوافيني على الدرب السائرة إلى العراق، لم تُغادرني الحمى تمامًا لكنني تحاملتُ عليها، مشيتُ في الشوارع، كانتُ خاليةً، لكنَّها عن قريبٍ ستمتلئ، نظرتُ إلى الأسواقِ كانتُ مُغلقةً، لكنَّها عن قريبٍ ستضجُ برؤادها. الحياة لا تنتهي. إذا لم تأتِ الساعةُ، فالحياة ستسير، وستبقى سائرةً إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. قد تتباطأ لكنَّها لا تتوقَّف، قد تحترق لكنَّها تنهضُ من رمادها، قد تبكي لكنَّها تمسحُ دموعها بمنديلٍ يُسمَّى مُرورَ الأيام.

لم أشأ أن أودعَ أحدًا من أصدقائي العتيقين الذين ظلُّوا أحياءً، كان يكفهم أن يتذكروني ولو بكلمةٍ طيبة، لم أخبرُ كذلك ماريةً، أعرفُ أنها ستلحقُ بي، أتمنى لو كنتُ أصغرَ سنًا، أو كانتُ هي أكبرَ قليلًا، أو لو أن أمها لم تكن بهذه الوحشية،

لكان الأمر مُختلِفًا. لم أحصل في الزّواج ما أريد، ولم أستطع أن أنجح في الشّروع به، أو الاهتداء إلى الطّريق التي تُفضي إليه. أنا وحيدٌ؛ ولذلك أنا حزين.

كان الأبلق يسير ببطءٍ، كان يعرف أنني أرحل، صُحبتني به كانت أوثقَ صُحبة، لم أجد أوفى منه، رافقتني في هذه الأهوال كلّها، وصبرَ عليّ صبرَ الحبيب الوامق الذي يغفر لحبيبه خطايا، وتحمل التعب والخوف، وتعرض مثلي تمامًا للأكل من قِبَل الوحوش الأدمية، ونجا ونجوت، وظلّ شجاعًا وقويًا.

كانت عيوني تطوفُ في الأنحاء، تُرسل نظراتها على الشّوارع والأبينة والطّرق، تُقبل كلّ حجرٍ فيها، تُسلم على كلّ موضعٍ منها، تدعو لكلّ ناحيةٍ فيها. مسحتُ ذاكرتي كلّ الذكريات السيئة التي رأيتها في هذه الشّوارع، وملأتها بالذكريات الأولى الجميلة، وملأتها كذلك بالتخيّلات الأجل في القادم القريب، تخيلت عالمًا من الحبّ والبهجة والسلام والأمان يملأ هذه الطّرق ويُعيد لها وجهها الحقيقيّ.

التقاني سالم عند العصر في الطّريق التي تُفضي إلى الديار العراقية: «انظر يا سيدي، الحياة تعود إلى القاهرة». «أنا مُرتجل يا سالم». قلتُ هذا باختصار ووضوح، العواطف جيّدة لكنّها تذبّح، تُوحّر، وتقتل أحيانًا، أريد أن أتخذ هذا القرار، صحيحٌ أنه يُشبه انتزاع مُضغةٍ من جسدي هي القاهرة التي استوطنت قلبي، لكنّ مُضغةٍ أخرى ستنتزع إن لم أسارع باحتضانها؛ تلكم هي بغداد. قطب سالم حاجبيه: «لماذا يا سيدي؟ أبعد أن انتصرت مصر على المحن تريد أن تغادرها». «لأنّها انتصرت أنا أجادرها. لو كان المرض لا يزال يفتك بجسدها وينتهك أحياءها لبقيتُ أقاتله معها، لو لم يقصّ على أكلي لحومنا لبقيت. الآن وقد اطمأنت عليها، على هذه الحبيبة، وبعد أن أدبني واجبي بقدر ما أستطيع، الآن يمكنني أن أذهب». «ابق هنا؛ إن القاهرة قد أحبتك هي الأخرى. ولن تغفر لك هذا الرّحيل». «لا أضحي بحبٍ من أجل حبٍ يا سالم، ولكنّ بغداد أيضًا تنتظرنني».

كانت الشّمس قد بدأت ترحل، وهذا الوقت المناسب لبدء المسير في الصّحراء، وضعتُ يدي على قلبي، كان الشّوق الذي فيه قد زاد من الحمى.

إنني سأتوجه إلى بغداد، لأقبل حديها، وأجتو تحت قدميها أطلب منها أن تُسامحني، ثمّ أذهب إلى مكّة لأحجّ فأغتسل من كلّ الأدران التي علقت بي كلّ هذه السّنوات، وأعود إلى مُهجة القلب بغداد كيوم ولدتني أمي، وأكتب كلّ ما حصل معي في هذه الأسفار العجيبة طوال هذه السّنوات.

قال لي سالم: «أمعك من الزّاد ما يكفي يا سيدي؟». قلتُ: «معني من الشّوق ما يكفي». ابتسم: «فلتُهنا من شافتك حتى رضىتها وتركتنا». قلتُ: «إنه شوقٌ مُبرح، وهل في الحبّ ما يؤدي؟!». ابتسم: «كم تحتاج لكي تصل إلى بغداد؟». ناكفته: «من الأيام أم من الأشواق؟». ضحك. أردفتُ: «من الأشواق ما لا ينتهي، ومن الأيام القليل».

نزلت عن الأبلق، مسحت على عنقه، قبّلته، وعانقته عناقاً طويلاً، وكان خاشعاً مطرفاً، يعرف أنني سأتركه: «لن أدعك تموت في الصحراء». قلت لسالم: «هو لك، أوصيك به، لن تجد أوفى منه». كان الأبلق يفحص الأرض وهو مُدِنِ عُنَقَه إليها، رفعها إليّ ونظرت في عينيها، فرأيتهما تدمعان: «لا تبك يا صديقي... لا تبك». وعانقته من جديد.

اشتريت جملاً، القافلة ستغادر بعد قليل، حملت على الجمّل متاعي، كان قليلاً، الكتب وبعض الطعام. وماذا يريد المرتجل إلى النهاية. قلت لسالم: «ماريّة... تعرف يا بُني... المرء قد لا يسعفه في مثل هذه المواقف الكثير من الكلمات... ماريّة يا سالم... إن قلبها جوهرة، ولن تجد في نساء الأرض مثلها، وإنك تُحبها، فقاتل من أجل هذا الحب. إذا استطعت ألا تخرج من الدنيا إلا وهي معك، فاعلم أنك ظفرت بالدنيا، وما الدنيا إذا لم تكن امرأة جميلة. يا بُني، أنا لي قلبٌ مثلما لكل العشاق تلك القلوب، لكنني أضعته في الدروب، لم أستطع أن أظفر بالمرأة التي أريد، وقد كبرت، وصار الحصول على رقيقة في هذه الحياة بالنسبة لي مثل عودة اللبن إلى الصرع، فلا تفعل مثلما فعلت. لا تقل أنتظر حتى يُكتب لنا هذا الارتباط المقدس، اكتبه أنت، نحن نكتب أقدارنا! لا تُصدّق أننا لا ننال إلا نصيبنا، لم يكن هذا النصيب إلا نتاج شجاعتنا في النظر إلى عيون من نُحب، واهمس في أذنيها: أحبك، ولن تمنعني قوة في الكون عن هذا الحب».

كانت القافلة تسير في الصحراء، والحمى تسير في الجسد، الدرب طويلة مع الشوق، والصحراء ذابحة مع التوق، والحمى رديفة لهما؛ فأين أفرّ؟

لم يقتلني العطش، عطشي في القلب، الشفاء يُمكن أن تندي من بكاء العيون، ولم يقتلني الظمأ، أنا لا أظمأ ما دامت بغداد غايتي... إنما هذه الحمى اللعينة ألا يُمكن أن تهدأ قليلاً...؟! هل تُصدّق دُرّية للمرّة الألف؟! مضت القافلة، كانت الطريق إلى بغداد تأكل من أخفاف الإبل، وكانت الحمى تأكل من روعي. ولقد وقفنا بثربان كما وقف المتنبّي، وأنشدت كما أنشد:

وقلت لها: أين أرض العراق

فقلت ونحن بثربان: ها

ياااه... ما أجمل العراق، ما أحلى بغداد! غير أن عيني لم يعد فيهما كثير من النور لتبصر كل هذا الجمال، كيف أستعيد قدرتي على أن أرى مثلما كنت أرى في شبابي، كيف يخفت الضياء على هذا النحو المؤلم، لا أريد شيئاً كثيراً، أريد أن أرى بيتي في بغداد؟ هل هذا ممكّن يا الله!!

انتهدت

مات عبد اللطيف أول وصوله إلى بغداد، كأنها لم تقبله، أو عتبت عليه حدّ الموت.. ودُفن إلى جانب أبيه، كأنّ روحه كانت تطوف في البلدان تبحث عن روح أبيه، فلما شارفه في المكان نزلت الروح إلى اللحد، فتعانقتا.

دُفن عبد اللطيف البغدادي في المقبرة الوردية، كأنه روحه تحنّ إلى الورد، إلى الشذا، إلى تلك الرائحة القادمة من شجرة البان في ساحة بيته في مصر، أو من تلك الورد التي كانت تعبق بها ساحات البيمارستانات التي علم أو طبّب فيها، كأنّ الرائحة تقول له: إنّ الموت ليس قبيحاً إلى هذا الحدّ ولا مُخيّفاً، قد يكون جميلاً... وإنّ رائحته ليس شرطاً أن تكون كريهة، فقد تكون طيبةً ووردية... خاصة إذا كانت النهايات تجمعك بأبيك، بذلك القلب الذي آمن بك حين كفر الناس، وشدّ على يدك في أول الطريق حين تركهما الناس، وقال لهمتك لا ترضي بما دون النجوم، فإنّ أصحاب النفوس العلية يعرفون كيف يختارون حياتهم، ويعرفون أكثر كيف يختارون موتهم.

وكانت له وصيةٌ أخيرة؛ أن يُكتب هذان البيتان لأبي العتاهية على قبره:

ما للطبيب يموت بالداء الذي

قد كان يُبرئ منه فيما قد مضى

ذهب المداوي والمداوي والذي

جلب الدواء وباعه ومن اشترى

” قصّة المخطوطات الثلاث

المخطوطة الثانية: مخطوطة (عبد اللطيف بن يوسف البغدادي)

كُتِبَتْ هذه الرواية في أوج انتشار (فيروس الكورونا) الذي طَغى على كلِّ شيءٍ، وعَطَّلَ الحياةَ، وشَلَّ أركانها في العالمِ كلِّه، وانقسمَ النَّاسُ فيه إلى فريقيْن: مَنْ يقولُ إنَّه مرضٌ فَتَاكٌ أَهْلَكَ من النَّاسِ أَكْثَرَ ممَّا أَهْلَكَتِ الحروبُ والقنابلُ الذَّريَّةُ، وفريقٍ ثانٍ يرى أنَّها مُؤامرةٌ، وأنَّ المرضَ لا يعدو رَشْحًا يُمكنُ أنْ ينجو منه أيُّ أحدٍ، وأنَّ الأمرُ اسْتِغْلَالٌ سياسيًّا واقتصاديًّا من دُولٍ عَظْمَى. أنا لا أميلُ إلى أحدٍ بقدر ما أصفُ، والوصفُ هنا بسيطٌ، وليسَ هذا موضعُ التَّفصيلِ. والنَّاسُ منذُ أنْ خَلَقَهُم اللهُ لا يجتمعون على رأيٍ، وهم أجناسُ، ويذهبون مذاهبَ شتَّى، وهذا من الطَّبِيعَةِ الَّتِي طَبَعَهُمُ اللهُ عليها.

المهمُّ أنَّني أنهيتُ الرِّوايةَ في الوقتِ الَّذِي أعلنتُ فيه منظَّمَةُ الصِّحَّةِ العالَمِيَّةِ أنَّ عددَ الإصاباتِ في العالمِ يقربُ من عشرةِ ملايينِ إصابةٍ. توقَّيتُ الرِّوايةَ الَّتِي تتحدَّثُ عن الأوبئةِ وفَتَكها بالنَّاسِ ليسَ له علاقةٌ بانتشارِ الفيروسِ، فالرِّوايةُ كانتُ فكرةً مُختَمِرةً في ذهني من أكثرَ من سنَّتينِ مع أُخْتِها في المخطوطاتِ الثَّلاثِ الَّتِي حصلتُ عليها، وهي تتحدَّثُ عن الطَّواعينِ والأمراضِ الفَتَاكَةِ والجوعِ وآثارها على البشريَّةِ، وفيها ممَّا حصلَ في زمننا مِشَابَهُ ونقاطُ التَّقاءِ، وكأنَّها جاءتِ من تلكِ البلادِ البعيدةِ ونهضتُ من قبرها ليعيدَ القلمُ لها الحياةَ من جديدٍ، ولكي تقولَ إنَّ سُننَ اللهُ الَّتِي تُصيبُ البلادَ والعبادَ هي سُننٌ ثابتةٌ لا تتغيَّرُ بتغيُّرِ الزَّمانِ أو المكانِ، ولا التَّفَقُّمِ العِلْمِيِّ أو التَّقْنِيِّ، وأنَّ أمرَ اللهُ في حُطَّتِهِ نافذٌ رغمَ كلِّ الحذرِ والحرصِ.

ولنعدُّ إلى المخطوطةِ، هي المخطوطةُ الثَّانيةُ في عِدادهنَّ، كانتُ مكتوبةً بخطِّ عبدِ اللطيفِ البغداديِّ نفسه، فقد عُرِفَ عنه في حياته أنَّه كتبَ أكثرَ كُتُبِهِ الَّتِي زادتْ عن الخمسينِ كتابًا بيده، فقد كانَ نَسَاخًا إلى جانبِ كونه طبيبًا ومُهَنْدِسًا ونَحْوِيًّا. المخطوطةُ الَّتِي تشرحُ رحلتهِ إلى مصرَ وخروجهِ منها، وتذكرُ يومياتِهِ في البيمارستاناتِ الَّتِي عملَ فيها، ووصفه الدَّقِيقَ للأهراماتِ، وطبائِعِ الزَّراعةِ والنَّبَاتاتِ والحيواناتِ في مصرَ لم يكنُ فيها ما ليسَ مألوفًا فيما يكتبه الرَّحالةُ في أسفارهمِ الكَثيرةِ، إلا ذلكَ الجزءُ الَّذِي يبدو غيرَ قابلٍ للتَّصديقِ ألبتَّةُ؛ الجزءُ الَّذِي يتحدَّثُ فيه عن المجاعةِ الكُبرىِ بمصرَ الَّتِي لم تُلجئِ النَّاسَ إلى أكلِ الحيواناتِ من الكلابِ والقَطَطِ والصَّبَاعِ وغيرها كما في حدثِ الشَّدَّةِ المُستنصريَّةِ فحسبُ، بل جعلتْهم يصيدون إخوتهم من البشرِ ويطبخونهم ويأكلونهم، والأبُ يذبحُ ابنه والأُمُّ تُساعده في طبخه، والمرأةُ تشوي ابنها أو ابنتها الرِّضيعةَ وتتلذَّذُ بنهشِهِ... في قصصٍ لا يُمكنُ أنْ تدخلَ العقلَ، وتضطدمُ مع الفطرةِ الإنسانيَّةِ السَّليمةِ اصطدامًا شنيعًا... في الحقيقةِ توقَّفتُ عن الأخذِ بهذه الأخبارِ الَّتِي وردتْ في المخطوطةِ حتَّى أجدَ دليلًا عليها، فذهبتُ أبحثُ في كتبِ التَّاريخِ الَّتِي تحدَّثتُ عن هذه الفترةِ الَّتِي تمتدُّ ما يقربُ من أربعِ سنواتٍ من أوَّلِ عامِ ٥٩٧ هجريةً إلى أواخرِ عامِ ٦٠٠ هجريةً، وقابلتُ تلكَ الأخبارَ بأهمِّ ثمانيةِ مصادرٍ تتحدَّثُ عن هذه السَّنواتِ نفسها، وهي: البدايةُ والنَّهايةُ لابنِ كثيرٍ، والكاملُ في التَّاريخِ لابنِ الأثيرِ، وكتابُ المواعظِ والاعتبارِ المعروفُ بالخططِ المقريريَّةِ للمقريريِّ، وشدَّراتُ الدَّهبِ في أخبارِ مَنْ ذهبَ لابنِ العمادِ، والنَّجومُ الزَّاهرةُ في ملوكِ مصرَ والقاهرةِ للأتابكيِّ، وتاريخُ ابنِ الورديِّ، والعبرُ في حَبَرِ مَنْ عَبَّرَ للدَّهبيِّ، وكتابُ الرِّوضتَيْنِ في أخبارِ الدَّولتَيْنِ... أقولُ قابلتُ هذه المصادرَ بالمخطوطةِ الَّتِي سَمَّاهَا عبدُ اللطيفِ البغداديِّ بكتابِ الإفادةِ والاعتبارِ فوجدتُ أنَّها جميعها تُصدِّقُ ما ذَكَرَهُ في المخطوطةِ؛ من أنَّ النَّاسَ صادتِ النَّاسَ من الجوعِ وأكَلتْهم!!

وبعدُ، فأنا نَبَّاشُ تاريخٍ، أذهبُ إلى بطونِ الكتبِ، فأستصفي منها ما كانَ قَصَصًا حَقًّا، وأستخلصُ ما كانَ في هذا القِصصِ من عِبْرَةٍ، وأقدِّمه فيما أكتبُ. وهذا ما حدثَ مع هذه الرِّوايةِ.

أما قِصَّةُ المخطوطةِ الثَّالثةِ الأخيرةِ، الَّتِي تُسرِّدُ حِكَايةَ أحمدِ بنِ الحُسينِ، فسأعرضُ لها في موضعها إن شاء اللهُ.

عمّان

“ ٢٠٢٠-٦-٢٤